الموحدون في الأندلس

المغرب والأندلس ما بين سنتي
(٥٤١/٦٦٧هـ - ١١٤٦/١٢٦٨م)

داود عمر سلامة عبيدات

دار الكتاب الثقافي
الأردن - اربد

الموحدون في الأندلس

المغرب والأندلس ما بين سنتي (٥٤١/٦٦٧هـ - ١١٤٦/١٢٦٨م)

بسم الله الرحمن الرحيم

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٥/٦/١٥٢٢)

٩٥٦,٠٦٥١٥
عبيدات، داود عمر سلامة
الموحدون في الأندلس: المغرب والأندلس ما بين سنتي (٥٤١/٦٦٧هـ-١١٤٦/١٢٦٨)/داود عمر سلامة عبيدات._ اربد: دار الكتاب الثقافي، ٢٠٠٥
(...) ص.
ر.أ (١٥٢٢ / ٦ / ٢٠٠٥)
الواصفات: / الموحدون ١١٣٠-١٢٦٩//الأندلس/المغرب //تاريخ المغرب

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من دائرة المكتبة الوطنية

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر (١٢٦٦/ ٦ /٢٠٠٥)



دار الكتاب الثقافي
للطباعة والنشر والتوزيع
الأردن / إربد
شارع إيدون إشارة الإسكان
تلفون
(٧٢٦١٦١٦-٢-٠٠٩٦٢)
فاكس
(٧٢٥٠٣٤٧-٢-٠٠٩٦٢)
ص.ب (٦٢٠٣٤٧-٢١١)

Dar Al-Ketab
PUBLISHERS
Irbid - Jordan
Tel:
(00962-2-7261616)
Fax:
(00962-2-7250347)
P. O. Box: (211-620347)
E-mail:
Dar_Alkitab1@hotmail.Com



دار المتنبي للنشر والتوزيع
الأردن - إربد - تلفاكس: (٧٢٦١٦١٦)



دار الوضاح للنشر والتوزيع
الأردن - عمان
ت : ٠٠٩٦٢٦٤٦١٣٠٧٦

الموحدون في الأندلس

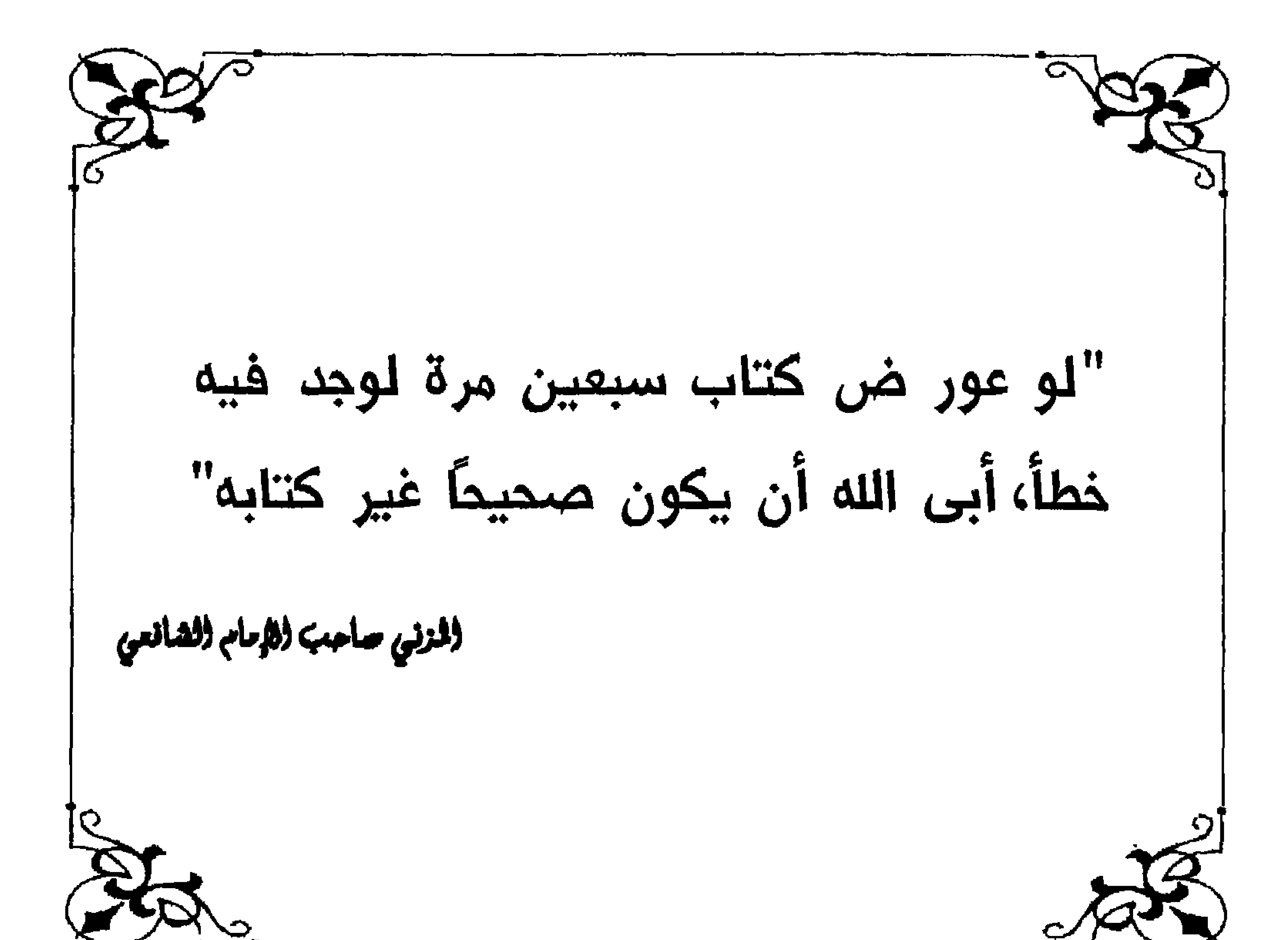
المغرب والأندلس ما بين سنتي (٥٤١/٦٦٧هـ - ١١٤٦/١٢٦٨م)

تأليف

داود عمر سلامة عبيدات

دار الكتاب الثقافي

الأردن - إربد



"لو عورض كتاب سبعين مرة لوجد فيه خطأ، أبى الله أن يكون صحيحاً غير كتابه"

المزني صاحب الإمام الشافعي

"إني رأيت لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل. وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر".

العماد الكاتب



الإهداء

إلى روح والدي الذي كان يحثني دائماً على الدراسة وينتظر صدور هذا الكتاب بفارغ الصبر، ولكن المنية عاجلته رحمه الله.

إلى والدتي الحنونة

إلى زوجتي الوفية

إلى أولادي وبناتي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

كنت في مرحلة الماجستير قد درست فترة حكم المرابطين، وقد مهدت رسالتي لي الطريق لدراسة المرحلة التالية: وهي مرحلة الموحدين، ويعد عصر المرابطين العصر الذي تشكلت فيه أول دولة قوية في المغرب العربي امتدت من الجزائر إلى حدود طليطلة في الأندلس والمحيط الأطلسي غربا، وقد صبغت هذه الدولة المغرب العربي بصبغتها المغربية وأعطته هويته الثقافية والحضارية.

انهارت دولة المرابطين في المغرب وفي الأندلس، ثم قامت على أنقاضها دولة الموحدين رائدة تجربة وحدة المغرب العربي الكبير من غرب مصر إلى حدود طليطلة، في الجناح الغربي العربي، حاملة لواء الجهاد مرة أخرى في تصديها لما يسمى ظلماً بحركة الاسترداد.

وكانت الإرهاصات السابقة على نشوء هذه الدولة تتمثل في دعوة ابن تومرت الذي نجح في استمالة القبائل بأسلوب دعوته التي كانت وعظية في بداياتها، وكان يرى وجوب العودة للإسلام في مراحله الأولى، على أساس دعوة دينية إصلاحية شعارها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن أهدافها البعيدة تحقيق دولة إسلامية شاملة، كما كان عليه المسلمون في عهد الراشدين، فكان ابن تومرت مرشد الحركة على مذهب الأشعرية في تحليليه للآيات القرآنية، وعلى خطة ابن حزم في الفقه، وربما تأثر ابن تومرت بمبدأ الشيعة في العصمة والإمامة، ونهج خطة التدريس لجمع الأتباع والأنصار، فنحا منحى الجدل والمناظرة لإقناع المترددين، ثم حمل السيف وسيلة لتثبيت الدعوة وإعلان الدولة؛ فأفتى بقتال جميع الخصوم الذين يعترضون دعوة التوحيد، إلى أن يؤمنوا بمذهبه ويتفيأوا ظلاله.

ويعد المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين عبد المؤمن بن علي- وكان معاصراً لنور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي صانعي أمجاد الشرق في تصديهما للصليبيين، وشهدت المرحلة التي ظهر فيها عبد المؤمن انقسام المغرب والأندلس إلى دويلات متنازعة، كما أن الروح العسكرية، المغربية الأندلسية قد ضعفت وبالمقابل فإن دول النصارى تزداد قوة واتحاداً بدعم قوي من باباوات روما، وترتب على ذلك تفجر الصراعات التي اجتاحت المغرب والأندلس، ومزقت وحدتها.

غاية البحث: التعـرف علـى مـدى قـدرة الموحديـن في تحقـيق أهدافـهم، ومـدى التزامهم بالمنهجية التي بشر بها إمامهم ابن تومرت، ومدى ملاءمتها للواقع، ثم الوقـوف على دور الموحدين وتصديهم للعنف النصراني الزاحـف إلى الأندلـس، وأخـيراً معرفـة الدور الموحدي في التطوير الحضاري والإبداع الإنسـاني في المغرب والأندلـس. كذلـك كان البحث حريصاً على إيضاح الأحـوال والظـروف وشـرحها، والبحـث في العوامـل والمسوغات التي رافقت الموحدين في نجاحهم وتعثرهم على السواء.

ويثبت البحث بجلاء أن الحقبة التي عاشها الموحدون، كانت نقطة انطلاق الحضارة المغربية المتميزة، وبدء ظهور الثقافة الإقليمية المصطبغة باللون المغربي الأصيل التي لم تعد فيها المغرب مجرد تابع للأندلس والمشرق.

لذلك اخترت هذا الموضوع في فترة كانت فيها المغـرب والأندلـس بـين خصمـين عنيدين، وقوتين ضاغطتين، تتوسط بينهما أشباح لرؤساء محليين يطلبـون المغنـم والجـاه. أولاهما نصارى النورمان الذين أحاطوا بشرق المغرب من المهدية، وأما القوة الأخرى في الشمال، فتتمثل بنصارى أسبانية، إذ يتفجرون حماسة وغيرة على النصرانية، ويشعلون نار الثورة بين المسلمين في الأندلس لتكريس التشظي وتجذير العداوة بين شعبها، ليكون ذلك من الحواجز التي تعرقل نوايا الموحدين وتجميد خططهم.

ويظهر أن هذه الحقبة لم يطرقها أحـد مـن البـاحثين بشـكل متسلسـل جـامع، ولم يتعرض أحد (حسب اطلاعي) للعلاقات المغربية الايبريـة في العصـور الوسـيطة بشـكل متكامل كما هو الآن، وإنما هي لمحات مبثوثة في بعض المصادر والمراجع، ومتناثرة بأشكال مختلفة هنا وهناك.

لذلك حاولت أن أقوم بهذا الجهد المتواضع عن تلك الفترة المأسـاوية مـن تـاريخ العرب في ذلك الجزء القصي، وجهدت أن أبين مدى تصميم الموحدين الجـدي للحفـاظ على البلاد المغربية بأيدٍ مغربية، فعزمت على اختيار موضوع البحث، رغم شح المصـادر الكافية في متناول يدي، غير أن إحساسي بأهمية الموضوع دفعـني بإلحـاح للاسـتفادة مما تحتويه بعض المصادر والوثائق من جامعات الأردن الرسمية الخمس، وجامعاتـها الأربـع الخاصة، ومعاهدها العلمية، ومن مكتبات مصر والعراق والمغرب، ومن المكتبات الخاصة لدى كثيرين من المعارف والأصدقاء، فضلاً عما تحتويه مكتبتي المتواضعة.

وكنت أركض خلف الصفحات مكدوداً، لخلو بعضها من المـادة المطلوبـة، حيـث ملأ الشعر والمقالات التاريخية تلك الصفحات. لذلك واجهتني كثير من الصعوبات، منها

عدم اتقاني اللغة الأسـبانية وإن اعتمـدت علـى ترجمـات لهـا ففـي أغلبـها وجهـة نظـر مترجميها، في ما عدا بعضها، إذ ترجمت لي علـى الخصـوص، وأخـذت منـها في الفصـول الأخيرة.

غير أن انكبابي على المصادر المكتوبة باللغة الإنجليزية عوضـت الجـزء الأهـم مـن ذلك، إذ أخذت مني الجهد الكبير في الترجمة وبالرجوع إلى "قواميس اللغة"، وقد ذلل جزءاً من هذه الصعوبات أستاذي الدكتور عبد المجيد نعنعي، إذ شرّع لي أبواب معرفته وهداني إلى جملة وافرة من المصادر والمراجع المكتوبة باللغة العربية والإنجليزيـة فجـزاه الله خـيراً، وأدامه هادياً للمعرفة وطلاب العلم.

أما خطة البحث فقد احتوت على خمسة فصول، يتفرع كل فصل إلى عناوين فرعية تقتضيها الدراسة. ويتقدم البحث فصل تمهيدي، يتناول أسباب اضطراب دولة المرابطـين وثورة الأندلس عليها والموسوم "الأندلس أواخر حكم المرابطين"، وتضمن الفصـل الأول: "قيام دولة الموحدين"، وتطرق البحث إلى ابن تومرت مؤسس الدولة، ثم رحلته إلى الشرق وعودته وانتفاضته على المرابطين، وسيطرة عبد المؤمن على المغرب، والأندلس والإجهاز على دولة المرابطين.

وعالج الفصل الثاني "التحديات الـتي واجـهت الموحديـن" في المغـرب والأندلـس، الانتفاضات الأولى ضد الموحدين، وثورات شرق الأندلس والحروب الأسبانية وتوافقهم على حرب المسلمين.

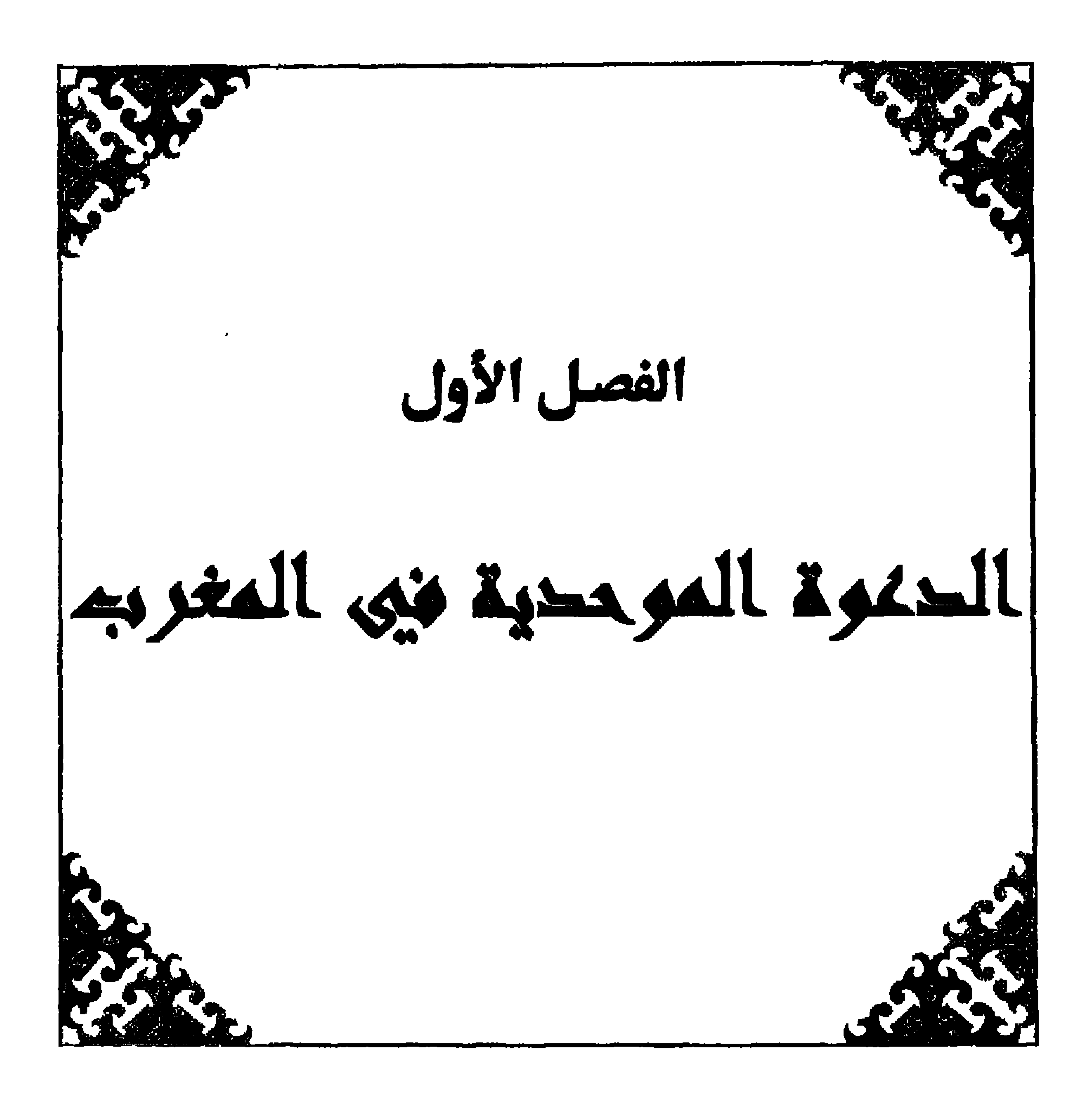
أمـا الفصـل الثـالث فخصـص للحيـاة الاقتصاديـة بدعائمـها الثـلاث، الزراعيـة والصناعية والتجارية وأشارت الدراسة إلى بعض الصعوبات التي كـانت تؤثـر علـى نمـو الزراعة، وتقدم الصناعة، وإعاقة الحركة التجارية.

وتطرق الفصل الرابع إلى الحياة الاجتماعية التي عاشها الموحدون حكامـاً وأفـراداً في جناحي الدولة المغرب والأندلس، وبين التجاوزات في البذخ والـترف الـذي وصلـوا إليه، في اللباس والطعام والشراب والسلوك، وأثـر هـذه الحيـاة علـى المجتمـع الأسباني المجاور، من عادات اجتماعية وسبل عيشهم في السلوك واللباس والأكـل وتبـادل التحيـة وغيرها: من الممارسات التي كان يعيشها المجتمـع الأندلسـي، وأشـار الفصـل إلى اهتمـام الموحدين في العمران من قصور ومستشفيات ومساجد ومتنزهات وغيرها.

وأخيراً الفصل الخامس، فقد أوليته اهتماما خاصـاً، إذ توجـهت الدراسـة فيـه إلى الحياة الثقافية، وإلى النتاج العلمي والفكري، ومستوى الإبداع الذي توصل إليه، وثم إلى المراكز الثقافية التي انتشرت في دولة الموحدين وبخاصة في الإقليم الأندلسي.

المؤلف

داوود عمر سلامة الجروان عبيدات



الفصل الأول

الدعوة الموحدية في المغرب

ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين

١- نسب محمد بن تومرت:

تشير المصادر إلتي بين أيدينا مثل: المعجب، والحلل الموشية، والانيس المطرب بروض القرطاس، والعبر، والاستقصاء، وكتاب اخبار المهدي ابن تومرت، إلى اصله الطالبي مع الحذر والاضطراب في رواية نسبه، وترده إلى دماء بربرية تربية ونسبا وعصبية إلى قبيلة "هرغة" إحدى بطون القبيلة البربرية الكبرى مصموده[1]، التي تعتبر اكثر القبائل البربرية عددا، واشدها مراسا، واكثرها نفوذا في الجاهلية والاسلام، واعرقها ثراء وكانت اسرة ابن تومرت تسكن قرية، "إيجلي أن وارغن"[2]، من قوم يعرفون بإيسرغينن وهم الشرفاء بلسان المصامدة[3]. وينتسب إلى أسرة ذات دين وشرف ونسب، وكان يلقب "أمغار" و "أسافو"، ومعناه باللسان البربري الضياء لكثرة ما كان يسرج القناديل بالمساجد لملازمتها[4].

وقد أسند إليه نسب شريف ينتهي ألى النبي صلى الله عليه وسلم، تناقلته بعض كتب التاريخ في مسالك عديدة، وطرق مختلفة.

يمكن بعد الاطلاع عليها، بغض النظر عن الإختلافات الجزئية التي بينها، أن نوردها ليكون القارئ على إطلاع تام على ما ذكرته المصادر[5].

وفي مقدمة هؤلاء، ابو بكر الصنهاجي المعروف بالبيدق إذ يقول: "ينقل من يوثق بنقله من قرابته وغيرهم أنه "أي إبن تومرت" هو محمد بن عبدالله بن وكلّيد بن بامصل بن حمزة بن عيسى بن عبدالله بن إدريس بن ادريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا نسبه الصحيح."[6]

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٢٩٩-٣٠١؛ تسكن هرغه في الأطلس الصغير جنوب بلاد المغرب في بلاد السوس، وتنسب إلى الحسن بن علي بن طالب.
ابن خلكان: الوفيات،، ج٥، ص:٥٥.

(٢) تقع على جبال الأطلس الصغير في المغرب؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٢٩٩-٣٠١.

(٣) المراكشي: المعجب، ص:٢٦٢.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠١؛
مجهول: الحلل الموشية، ص:١٠٣.

(٥) البيدق: أخبار المهدي، ابن تومرت، ص:٢١.

(٦) المصدر نفسه.

ثم يبين صاحب الحلل الموشية، أنه، محمد بن الله بن عبدالرحمن بن هود ابن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن سفيان بن جابر بن يحيى ابن رباح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب.[1]

ويشير المراكش: أنه محمد بن تومرت نسبة متصلة بالحسن بن علي ابن أبي طالب وجدت بخطه، هو كما نقله ابن خلكان.[2] ويثبت ابن خلكان أنه: محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن بن هود بن خالد ابن تمام بن عدنان بن صفوان بن سفيان بن جابر بن يحيى ابن عطاء بن رباح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن ابن علي بن ابي طالب[3]، ويردف قائلاً: وجدت على ظهر بعض كتب النسب بخط بعض اهل الأدب من عصره، نسب ابن تومرت المذكور فنقلته كما وجدته.

أما ابن ابي ذرع يقول: "محمد بن عبدالله المعروف بتومرت[4] بن عبدالرحمن ابن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوان بن جابر ابن يحيى بن عطاء بن رباح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن ابن علي بن أبي طالب[5]، وقيل هو دعي في هذا النسب، وهو رجل من هرغة[6] من قبائل المصامدة، ويعرف بمحمد بن تومرت الهرغي، وقيل هو من كنفيسه[7] والله أعلم".

ويذكر ابن خلدون: محمد بن عبدالله بن وجلّيد بن بامصال بن حمزة بن عيسى، وذكر نسبا آخر: محمد بن تومرت بن نيطاوس بن ساولا بن سفيون من الكلديس بن خالد، وفي نسخة أخرى: محمد بن تومرت بن تيطاوين بن سافلا بن مسيغون بن

---

(١) مجهول: الحلل الموتية، ص:١٠٣، ويتبين لنا بعد أن اورد البيدق نسب المهدي السابق، انه ساق رواية هذا النسب (أي الذي ساقه الحلل الموشية)، وقال: ان قرابته، اي قرابة المهدي، وأهل العناية بهذا الشأن لا يعرفون هذه الرواية، البيدق: أخبار المهدي، ص:٢١.

(٢) المراكشي: المجب، ص:٢٦٢.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٥، ص:٤٥-٤٦.

(٤) تومرت أو أمغار بلغة البربر، أي الشيخ، ولعله كان شيخ قريته، فورث ابنه محمد، هذه المشيخة أو الرياسة؛ زنيبر: تاريخ العصر الوسيط، ص:٢٠٦.

(٥) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:١٧٢.

(٦) هرغة: قبية كبيرة من المصامدة في جبل السوس في أقصى المغرب، تنسب إلى الحسن بن علي بن ابي طالب، نزلت في ذلك المكان، أيام الفتح الاسلامي، على يد موسى بن نصير. ابن خلكان: الوفيات، ج٥، ص:٤٧.

(٧) كنفيه: فخذ من قبيلة مصمودة؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٢٩٩-٣٠١.

إيكلديس بن خالد، ويكرر ذكر النسب فيقول: "وزعم كثير من المؤرخين أن نسبه في أهل البيت"، وأنه محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوان بن جابر بن عطاء بن رياح بن محمد بن سليمان بن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب أخي ادريس الأكبر[١].

فهذا النسب الذي يورده إبن خلدون. فالاسماء ما قبل الأخيرة فية تدل على أنها بربريه، ويقول ابن خلكان: إصطنع لنفسه (أي ابن تومرت) نسبا ينتهي به إلى علي بن ابي طالب[٢].

من خلال هذه النصوص يتبين لنا أن المؤرخين القدامى عرضوا هذا النسب في صيغة القبول، على الرغم من الخلل والاضطراب في إيراد الاسماء وتسلسلها، وكانوا في تراوح بين التأكيد الجازم في قطعية وحماس، كما هو موقف المنتصرين للموحدين مثل البيدق، وبين مجرد القبول الضمني الذي يفهم من عدم الإعتراض بالطعن، كما هو موقف المعتدلين، مثل المراكش وابن خلدون.

أما المراكشي المعاصر ألف كتابه في المشرق بعيداً عن أعين بني عبدالمؤمن عندما ترك المغرب، على غير رغبة منه، على ما يبدو، إلى المشرق، تائها في بيداء من الهموم والحنين الدائم والقلق المؤرق[٣]، إلا أن بعض النصوص لمؤرخين من متأخري القدامى بخاصة، عرضوا هذا النسب العلوي لابن تومرت بما يوضح عن شكهم فيه. فهذا ابن أبي ذرع يشكك في نسبه كما مر سابقاً.

ولهذا نراهم مختلفين فيما بينهم، فمن مقدم ومن مؤخر،ومن مسقط ومن مقحم، على أنه ليس في ما أثبتناه عنهم، منه ما يضر ولا ينفع.

يظهر من كل ما تقدم أن ابن تومرت كان على الأرجح عربي الأصل طالبيا ينتمي إلى أحد أولاد الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب، أي إلى الادارسه أو ابناء عمومتهم الذين تبددوا بين القبائل البربرية بعد الحسن بن كنون، آخر امرائهم بالمغرب، وانتسبوا اليها دما ومصاهرة ولغة وقبيلة، وإن منهم لم يعرف العربية على الاطلاق، الى ان ظهروا في مدة ملوك الطوائف، باسم "بني حمود" من الأحزاب البربرية[٤]، فانتحلوا

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠١.

(٢) ابن خلكان: الوفيات، ج٥، ٤٥-٥٥؛ ج٣، ص:٢٣٧-٢٤١.

(٣) المراكشي: المعجب، ص: و، من المقدمة.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٢٩٥، ٢٩٦.

أسماء غير عربية، واتخذوا زوجاتهم، وصار لهم أمهات بربريات، وربما كان ابن تومرت من العلويين المغمورين الذين عاشوا ببلاد السوس، ونسوا أصلهم العربي إلى أن خلعوا شارة ذلك النسب واستحالت صبغتهم منه إلى البداوة، حتى كان من أمره ما كان.(١)

فأعاد تشكيل أسماء عربية لتتسق مع أصله ودعوته. ويقول الناصري: "وذلك في جمادى الاولى سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٤م، ركدت ريح العلوية بالمغرب، وتفرق جمعهم وانقرضت دولتهم، وتفرقت الأدارسة في قبائل المغرب، ولاذوا بالاختفاء، إلى أن خلعوا شارة ذلك النسب الشريف، واستحالت صبغتهم منه إلى البداوة(٢) وهذه العبارة الأخيرة منقولة عن ابن خلدون. وبذلك يكون قد تجمع في محمد بن تومرت دماء العلويين، وأخلاق البربر.

ومن العلويين من انتسب الى قبائل غمارة التي تقطن شمال شرق المغرب، وكانوا لحمة جيش عبدالمؤمن في حصاره لمدينة سبتة، "فكانت لغمارة هؤلاء السابقة، التي رعيت لهم سائر أيام الدولة(٣)

ومما سبق تبين ان افراد عائلة ابن تومرت، كان يطلق عليهم الأشراف، مما يوحي بانحدارهم من أصل نبوي، حسب ما هو متعارف عليه بأصقاع المغرب حتى الوقت الحاضر؛ فأصبح لهذا النسب من المبررات والمؤيدات أكثر مما عليه من النواقض؛ ويبقى الاعتراض عليه محتاجا الى الحجج المقنعة، وهذا ما عناه ابن خلدون بقوله: "وأما انكارهم نسبه (أي ابن تومرت)، في أهل البيت، فلا تعضده حجة لهم مع أنه ثبت أنه ادعاه، وانتسب اليه، فلا دليل يقوم على بطلانه، لأن الناس مصدقون في أنسابهم."(٤)

ومن الراجح ان الذين ينكرون نسب ابن تومرت الطالبي الى أهل البيت، سببه يعود إلى الحسد الذي يكمن في نفوسهم، وهم ممن عز عليهم ذهاب دولة لمتونة على يد هذا الدعي، اذ خالفهم في اجتهاداتهم، ولم يقلد أحدا من الفقهاء، بل اجتهد بنفسه، وأسس حركة توحيدية على أنقاضها بين القبائل التي توزعت اشتاتا من حدود مصر الى

---

(١) المصدر نفسه، ص:٢٩٥؛ ج١، ص:٢٧.

(٢) الناصري: الاستقصاء، ج١، ص:٢٠٤؛ ابن خلدون: العبر، ج١، ص:٢٧.

(٣) السراج: الحلل السندسية في الأخبار التونسية، ج١، ق٤، ص:٩٧٦-٩٨٨،تح، محمد الحبيب الهيلة، في ترجمة ضافية لابن تومرت؛

ابن خلدون: العجر، ج٦، ص:٢٩٧.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج١، ص:٢٧.

شاطئ المحيط الاطلسي، الى قلب اسبانيا، حيث أقام دولة أعز واشد شوكة وأكثر انصارا من دولة المرابطين، لا نكاد نعثر في الشرق الاسلامي، على ما يدانيها او يساويها سطوة ونفوذا.

٢- رحلة ابن تومرت إلى الشرق وعودته:

محمد بن عبدالله المعروف بتومرت، طلب العلم في أشهر معاهد المغرب، فاس ومراكش، وفي الوقت نفسه كانت تنافس الأخيرة بغداد وغيرها من حواضر العالم الاسلامي، ثم ارتحل إلى الاندلس ميمماً حواضرها وقواعد العلم فيها، وفي أثناء تجواله في تلك البلاد ساءه ما وصل اليه كتاب الاحياء للغزالي من ازدراء واتلاف.(١)

ومن المرجح أن اقامته بالاندلس لم يطل امدها، كما يذكر ابن خلدون أنه: "مرّ بالاندلس ودخل قرطبة، وهي اذ ذاك دار علم، ثم أجاز الى الاسكندرية"(٢).

وهناك جعل من نفسه "علامة استفهام" دائمة، فلا يسمع أن فلانا يعرف حكمة أو فقها أو علما الا سارع اليه وتعلم عنه، وسرعان ما أخذ طريقه إلى المشرق، وحط رحاله بالشام سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م، واتصل بالامام ابي عبدالله الحضرمي، وتتلمذ على يديه مدة، ومن ثم شد الرحال إلى شخصية مشرقية فذّة، كانت رائدة لثورة فكرية عميقة الجذور، وهي شخصية ابي حامد الغزالي في بغداد(٣).

فهل تكون هذه الثورة الفكرية من المبررات التي اقنعته لانجاز مشروع رحلته،وقوت من همته على تحقيقها ليكون قريبا هناك من منبع هذه الثورة، ويطلع بنفسه على الأسس والوسائل والأسباب التي تضمن له النجاح، اذا ما أراد ان يبدأ خطته في التغيير؟!

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٢٩٩؛
ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:١٧٢.
مجهول: الحلل الموشية، ص:١٠٤؛ المراكشي: المعجب، ص:٢٦٣.

(٢) لم تطل اقامة ابن تومرت بالاندلس، فلعل قرطبة كانت قد ألهبت شوق هذا الشاب إلى المشرق، حيث كانت صاحبة الراية، في معارضة الغزالي، ومنها كان القاضي ابن حمدين يدير الحملة الفكرية ضده بتأييد من الدولة المرابطية؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠١، مجهول: الحلل الموشية، ص:١٠٤.

(٣) كان للغزالي ذكر لامع بالمغرب، منذ صدور تلك الفتوى منه إلى يوسف ابن ناشفين، لينهي الاخير حكم ملوك الطوائف، ويضم الاندلس إلى الدولة المرابطية.
المصدر نفسه، ص: ٢٤٩.

فلربما اجتمع ابن تومرت بالامام الغزالي، وحضر جانبا من محاضراته وندواته وأجرى حديثا معه، وأقام مدة ثلاث سنوات[1].

واتصل أثناء هذه المدة بأبي بكر الشاشي، صادرا عن بغداد، واستمع منه إلى مبادئ الفقه وعلم الكلام[2]. ونهض إلى مكة لتأدية فريضة الحج فيها، واطلع بنفسه على أوضاع الخلافتين، العباسية والفاطمية، وأثر الخلاف والمجادلات بينهما، فاكتسب بذلك علما وسياسة، وهاله مدة اقامته القصيرة بمكة (أقام بمكة مديدة)[3]، ما عليه المسلمون من الضعف والتخاذل، والمطارحات الجدلية، فوقف خطيبا معلنا ثورته في البيت الحرام على الأوضاع الفاسدة في الخلافتين، الفاطمية في مصر، والعباسية في العراق والمشرق الاسلامي، وتقرر السلطة العباسية دفعه إلى السجن، ثم تعفو عنه وتطرده إلى خارج البلاد.[4]

وخرج منها إلى مصر، وألقى عصا تسياره في الاسكندرية في طريق عودته إلى بلاده، وفي الاسكندرية جعل يختلف إلى مجلس ابي الوليد الطرطوشي، الفقيه المتبحر في السياسة الشرعية التي الف فيها كتابه "سراج الملوك"، وكان ثائراً على البدعه.[5] فكأنما وجد ابن تومرت في تلك المجالس من الطعن في الحوادث اليومية، والبدع المنتشرة والمتأصلة، ما يتجاوب مع نفسه التي اشتد فيها التصميم على محاربة ما خالف الشريعة من عادات القوم في أي مكان يحل فيه.[6]

بدا يمعن في الطعن على انحرافات الناس،وسلوكياتهم الذاتية، وتعرض إلى الاشخاص، حتى لقد ضاق به أهل الاسكندرية، حاكمهم ومحكومهم، وقضى متولي المدينة بنفيه عن البلاد،[7] محاولة منه اخفاء صوته في أرض تسكنها الخلافة الفاطمية، ثم

(١) ابن أبي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:١٧٢.
(٢) المراكش: العجب، ص: ٢٦٢.
(٣) ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٥، ص:٤٦-٥٥.
(٤) المصدر نفسه والصفحة نسها.
(٥) مجهول: الحلل الموشية، ص:١٠٤؛ ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٥، ص: ٤٦-٥٥.
(٦) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص: ١٢٥، تح، احمد العبادي، معهد الدراسات الاسلامية، مدريد، ١٣٩١م/ ١٩٧١م.
(٧) المراكشي: المعجب، ص:٢٦٣؛ ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٥، ص:٤٦.

غادرها إلى المغرب على ظهر سفينة في البحر، واتخذ من وجود الناس في المركب فرصة ذهبية للوعظ والارشاد.[1]

شرع في تغيير المنكر على أهل السفينة، ونهى عن شرب الخمر، وكسر دنانها، وألزمهم بإقامة الصلاة، وقراءة أحزاب من القرآن الكريم، وكأنه بهيبته ووقاره وجديته قد حقق بعض النجاح، فالتزم القوم بالصلاة والتلاوة، بعد خلافات حادة بين المسافرين. وتريد بعض الروايات التاريخية أن تصورها تصويرا خرافيا، تحيط ابن تومرت بهالة من التقديس والولاية في سني حياته المبكرة. فإذا هو عند المراكش وقد ألقاه أهل السفينة في البحر، فأقام أكثر من نصف يوم يجري في ماء السفينة، لم يصبه شيء، فلما رأوا ذلك من أمره، أنزلوا اليه من أخذه من البحر، وعظم في صدورهم[2]، وإذا عند غيره يلجأ اليه أهل السفينة متضرعين متوسلين، أن ينقذهم مما هم فيه من هول بحري كاد يغرقهم، وقد حل بهم غضب الله بعدما كانوا قد غدروا به، وألقوه في البحر، فيجيب الله طلبه، وينقذهم مما هم فيه.[3]

ثم تزفه الطريق الى المهدية، وقد بقي على عادته من امر بالمعروف ونهي عن المنكر، فلا يرى شيئاً من آلة الملاهي والغناء، وأواني الخمر الا نزل اليها وحطمها، وقد اجتمع اليه الناس، وكاد يفسد الأمر على الوالي العزيز بن الناصر الذي حاول القبض عليه، فهرب ونجا بجلده الى بجاية[4]، اذ لم يكن مصيره فيها بأفضل من سابقتها، وصحب نفسه هائما على وجهه، حتى اختفى في قرية قريبة يقال لها ملالة.[5]

---

(١) رجع ابن تومرت إلى بلاده، بحرا متفجراً من العلم، وشهابا واريا من الدين كما يقول: ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠٢.
وكان حيثما حل يعظ الناس ويرشدهم ويدعوهم إلى نبذ المحرمات، والتحلي بخلق الاسلام، فكان ذلك يجلب عليه غضب السكان والحكام، فلا ينجو من اذاهم الا بالفرار او التظاهر بالجنون؛ ابن خلكان: الوفيات، ج٥، ص:٤٦.

(٢) المصدر نفسه؛ المرااكشي: المعجب، ص:٢٦٤.

(٣) ابن القطان: نظم الجمان، ٣٩-٤٠.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠٢؛ العزيز: هو ابن المنصور ابن الناصر بن علناس؛ أما مجهول: الحلل، ص:١٠٦، يدعي أن اسم الوالي كان: علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس بن حماد؛ في حين يذكر الراكشي: المعجب، ص:٢٦٤؛ أن ابن تومرت طرد من بجايه دون محاولة القبض عليه؛ أما ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٥، ص:٤٧، يذكر، أن والي بجابه استدعاه مع جماعة من الفقهاء، فلما سمع كلامه أكرمه وأجله، وبعدها لم يلبث بالمهدية الا أيا مايسيره، ثم انتقل إلى بجابه..

(٥) مجهول: الحلل الموشية، ص:١٠٦؛
ابن ابي زرع الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:١٧٣.

أقام في القرية الأخيرة شهرا، ونزل في مسجد مغلق، ينظر إلى الناس ، يتفرس وجوههم، وتشاء الظروف ان يلتقي عبدالمؤمن بن علي الكومي في قرية الاختفاء، اذ كان الأخير يتوق إلى الهدف نفسه، رحلة إلى الشرق، وتلقى العلم، فتوطدت الصداقة بينهما؛ يأخذ عنه العلوم التي كان يمني نفسه بها، فتلقى في حداثته كل خامات رجولته، ومبادئ حياته عن ابن تومرت الذي كان يؤثره، ويزكيه، ويعلمه مذهبه ونهجه[1].

ومن ثم خرجا عنها الى ونشريس، التقيا فيها أبا عبدالله الونشريسي ويسمى (عبدالواحد الشرقي)[2]، الذي قتل في معركة البحيرة، قرب مراكش، ومعه خيرة قادة الموحدين، وهو واحد من ألمع صحابة المهدي المقربين، في الحملة التي شنها الموحدون على المرابطين في عقر دارهم، بقيادة عبدالمؤمن بن علي سنة ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م. ثم توجهوا جميعهم إلى أن وصلوا مراكش[3].

ان مرور ابن تومرت في هذه الأقاليم، لم يكن مرورا عابرا تحت مظلة العلم والتزهد، بقدر ما هو هاجس لتأسيس دولة حققها في ما بعد خليفته عبدالمؤمن ابن علي[4]، ولقد اكسبته رحلته إلى المشرق مفاهيم دينية، فضلا عن معارف سياسية، تكونت لديه كتعبير زمني عنها، وقد اتبع عمله التبشري منحى صاعداً.

أولاً: وضع نفسه مراقبا للاخلاق، آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر.

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦،، ص:٣٠٣؛
مجهول: الحلل، ص: ١٠٦؛
ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٥، ص: ٤٧، ٤٨؛
المراكشي: المعجب، ص:٢٦٦، تقديم ممدوح حقي، تح محمد سعيد العريان، ومحمد العربي، ط٧، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٣٦٩/ ١٩٥٠.

(٢) المراكشي: المعجب، ص:١٦٦، ينعته عبد الواحد الشرقي، اما ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠٣، يذكره باسم البشير، في حين يقول عنه مجهول: صاحب الحلل، ص:١٠٧، هامش ٥٩، عبدالله بن محسن الونشريسي، وربما يعود الاختلاف في ذكر الأسماء إلى بربريتها، ثم تعريبها من قبل المهدي ابن تومرت؛ ويذكر البيدق: أخبار المهدي، ص:٧٣، أن من جملة الذين بايعوا المهدي، عبدالله بن محسن الونشريسمي، المكنى بالبشير، ثم بايعه عبدالواحد الشرقي، ويعني بذلك، أن عبدالواحد الشرقي رجل آخر غير الونشريسي.

(٣) المراكش: المعجب، ص:٢٧٠؛ مجهول: الحلل المشوية، ص:١٠٧؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:١٧٣؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٨٦.

(٤) مجهول: الحلل الموشية، ص:١٣٧ وما بعدها؛
ابن خلكان: الوفيات، ج٥، ص:٤٨.

ثانياً: فرض نفسه عالما وفقيها؛ مجادلات مع فقهاء مراكش.

ثالثاً:اكد نفسه زعيم مدرسة في اغمات، وأخيرا زعيم حزب مرشح للسلطة في تينملّ في قلب الجبال.

وعمد ابن تومرت إلى تحقيق هذا الشمول، بمنهجين متوازيين ومتكاملين، منهج تربوي، ومنهج ثوري، إيمانا منه بأن التغيير الشامل لا يمكن أن يكون إلا بانتهاج هذين النهجين، وأن تطبيق احدهما لا يؤدي إلا إلى نتيجة سلبية لا تتلاءم مع الشمول الذي جعله أساسا لحركته؛ فالنهج التربوي الذي انتهجه في أثناء عودته من عقد حلقات للعلم في مساجد بناها بصفة مؤقتة، أو في مساجد مقامة، يؤكد بما لا يدع للشك مجالاً، أن ابن تومرت يعمد إلى تعميق القناعة العقدية في نفوس الناس، وتجذير المعنى الأصيل للتوحيد، الذي يؤدي إلى الالتزام السلوكي عملا لا قولا فقط، كتحطيمه لدنان الخمر، وتكسيره لأدوات الغناء واللهو، وتفريق الجموع المختلطة بالعصا، وسعف النخيل، مبينا أن التحول الذهني يجب أن يتبعه تحول في السلوك[1]، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ {الرعد: ١١}، وقد ركز في منهجه التربوي على الارشاد النفسي وبخاصة على الجانب العملي السلوكي منه، فأخذ يلزم أتباعه بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والتعامل بالأخوة والتراحم والتحاب في الله[2]؛ فبلغ مبلغ الشطط احياناً، حيث اجتهد اجتهادات جنح بها الحرص المفرط إلى التزام السلوك الشرعي كما يدعي، إلى الوقوع في خطأ شرعي في بعض الاحيان. كالزامهم بحفظ الأعشار والاحزاب والسور في كتابه التوحيد وقراءتها بعد صلاة الصبح، ويبين لهم أن من لم يحفظ هذا التوحيد ليس بمؤمن وإنما هو كافر لا تجوز إمامته ولا تؤكل ذبيحته فصار كالقرآن أو أهم، وكان يبدو أن ليس بعد الأسلوب التومرتي في التربية أسلوب ي قرّ أو يعاج عليه[3].

أما مبادئ منهجه الثوري فقد تشكلت في نفسه منذ عودته واتصاله برؤساء المدن والدول التي مر بها، عندئذ بدأ يتفهم واقع الحياة المغربية، ويدرك مسؤولية السلطة

(١) مجهول: الحلل الموشية، ص:١١٠-١١٧؛
إبن ابي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس.

(٢) المراكشي: العجيب، ص: ٢٨٥، ٢٨٦.

(٣) مجهول: الحلل الموشيه، ١٠٩، ١١٠؛ إبن أبي زرع: الانيس المطرب، ص:١٧٧، كان المذهب يبيح قتل شارب الخمر، وتارك الصلاة، واصبح خلفاء عبد المؤمن يقتلون العمال الجائرين الذين يشكو الشعب منهم.

الحاكمة في الفساد الذي كان سائداً[1]، وقد تطورت هذه المبادئ تطورا كبيرا لما حدث معه في مراكش، وازداد اطلاعا في هذه العاصمة على مدى التقصير الذي وقعت فيه السلطة الحاكمة، اذ وقف الخير عاجزا والصلاح حسيرا عن وضع حد للشر والفساد، وهي سادرة في غيها، قد أصمت أذنيها عن سماع كلمة الخير؛ فالخمرة تباع جهاراً نهاراً في مراكش، والخنازير تمشي بين المسلمين، ناهيك عن اختلاط الرجال بالنساء. وقد تولدت لديه القناعة التامة، بأن دعوته التي تحرص على الالتزام بمبادئ الشرع، وإقامة العدل، وتحقيق المساواة، وإشاعة الأمن، لم تجد أذنا صاغية لدى المسؤولين، بل على العكس، فقد لوحق من أجلها، وطورد للقبض عليه، وتقديمه للمحاكمة، وإيداعه السجن المؤبد.

عندها استقر في نفسه نهائياً هذا النهج الثوري الذي يهدف قبل كل شيء للاطاحة بالسلطة الحاكمة التي رآها جائرة، وإقامة حكم عادل محلها وتحرير المجتمع المغربي من وثنية الضمير، وضياع المصير كما يعتقد[2].

٣- فكر ابن تومرت السياسي ومدى ملاءمته للواقع:

اختار ابن تومرت لاتباعه الاسم الوسطي بين الاشعريه والمعتزلة، (الموحدين)، وبما أنه يعمل في المجتمع المغربي قليل الثقافة نوعاً ما[3]، لم يكن بعيداعن الافكار الشيعيه

---

(١) ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٥، ص:٤٩؛ ابن خلدون: العبر، ج٥، ص:٣٠٣؛ المراكش: المعجب، ص:٢٧٢، ٢٧٣.

(٢) السلطة الحاكمة، يعني بها: سلطة المرابطين أولاً، ومن ثم باقي حكوات المغرب والاندلس ثانياً؛ المراكشي: المعجب، ص:٢٧٢-٢٧٤؛ ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٣، ص:٢٣٨؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠٤، ٣٠٥، ويذكر ابن ابي زرع الحوار الذي دار بين ابن نومرت وأمير المرابطين علي بن يوسف، فقال له (أي علي): "ما هذا الذي بلغنا عنك؟ قال: وما بلغك أيها الأمير؟ إنما أنا رجل فقير طالب الآخرة، ولست بطالب دنيا، ولا حاجة لي بها، غير أني آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأنت أولى من يفعل ذلك، إنك المسؤول عنه، فقد وجب عليك إحياء السنة، وإماتة البدعة، وقد ظهرت بملكك المنكرات وفشت البدع، وقد أمرك الله بتغييرها.. إن لك القدرة على ذلك، وأنت المأخوذ به والمسؤول عنه.." إلى آخر هذه المواعظ المبرمجة.
ابن ابي زرع: الانيس المطرب بروض القرطاس، ص:١٧٤؛ ويذكر المراكش: المعجب، ص:٢٧٢، ٢٧٣، حواراً آخر لابن تومرت مع الأمير علي بن يوسف، وكذلك البيدق: كتاب أخبار المهدي ابن تومرت، ص: ٦٧، ٦٨، يذكر حواراً ثالثاً لابن تومرت مع علي بن يوسف.
ويذكر ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٥، ص:٤٩-٥٠، حواراً مماثلاً.

(٣) ابن ابي ذرع: الانيس المطرب يروض القرطاس، ص:١٨١.

التي وصلت الدعاية لها أوجها في ما بين القرنين الثامن والعاشر الميلاديين، وربما تأثر ابن تومرت نفسه بهذه المفاهيم،[1] وليس ببعيد أن تكون هذه المفاهيم نفسها قد اقنعته ان يألف فكرة المهدي، لذلك لم يتردد أن يدمج هذه الفكرة في مذهبه، ولم تكن تعوزه المقدرة عن ادراج إسمه بين ذريه فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد اصطنع لنفسه شجرة نسب تلحقه إلى على بن أبي طالب عبر الاسرة الادريسية التي وصل شتاتها إلى بلاد السوس، جنوبا، ليكون ذلك متوافقاً مع فكرة المهدي، حتى يتمكن من قيادة مجتمع قبلي يعيشه في تينمال في الجنوب المغربي.[2]

ولقد اختار منه مجالسه الحكومية الاستشارية من بين أبناء القبائل نفسها، فسارعت لتأييده، وكانت الاستجابة عامة وصادقة. لذلك كان لهذه القبائل منزلة سامية لدى صاحب الدعوة، استخدمها لغايات تأسيس سلطة زمنية، وكان اختياره لها انتقاء خاصا ودقيقا من أجل مهمة إعلامية، وكفاح ايديولوجي، ولغاية أخرى اكثر اتساعا، كان مهمتها بشكل رئيسي ترتيب وإعداد مختلف الوحدات للعمل المشترك من أجل استلام السلطة، ونظم من ذلك كله حزبا مقاتلاً، يتكون من تجمعين: احدهما مغلق تماما وكان يمثل نخبة الحركة، وآخر اكثر شمولا، كان هدفه بصفة خاصة اعداد مختلف الوحدات للعمل المشترك لاستلام السلطة[3].

وكانت التشكيلة على هذا النحو 'أهل الدار' الذين كانوا في صحبة المهدي، ويأتي بعدهم 'أهل العشرة' صحابته الأوائل الذين تبعوه في رحلة العودة، اذ كان اخطرهم شأنا وأعظمهم أهمية عبد المؤمن بن علي 'الخليفة في ما بعد'، وقد التقاه لدى خروجه من ملالة 'في تاجرا' بينما كان يسلك طريقه إلى الشرق، وعبدالله الونشريسي المعروف باسم البشير، وهو من المغرب الاوسط، 'الجزائر' قد لعب دورا مهما في تجذير الحركة السياسية، ولم يعش طويلاً، اذ وافته المنية في وقت مبكر جدا اثر معركة البحيرة سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م[4]، وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني الذي كان زعيماً محليا من 'تينمل'،

---

(١) المراكش: المعجب، ص:٢٧٥؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص٣٠٢.

(٢) المصدر نفسه، المعجب؛ عبدالله العروي: تاريخ المغرب، ص١٧٨، تر، ذوقان قرقوط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٧٧م/ ١٣٩٧هـ؛ احمد شلبي الحضارة الاسلامية، ج٤، ص:١٨٤، ط٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٩م/ ١٣٨٩هـ.

(٣) مجهول: الحلل السندسية، ص:١٠٩.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠٣؛ مجهول: الحلل الموشية، ص:١٠١-١٠٧، يقول البيدق ان اهل العشرة يمثلون رجال المكتب السياسي؛
البيدق: اخبار المهدي، ص: ٣٣؛
المراكشي: المعجب، ص:٢٦٦، ٢٦٧، ٢٨٤.

ومنهم عمر بن علي ازناج (أزنـاق)، وإسمـاعيل بـن مخلـوف، وأبـو ابراهيـم اسمـاعيل الهزرجي، واسماعيل بن موسى، وأبو يحيى ابو بكر بن تنجيت (بيجيـت)، وأبـو عبـدالله بن سليمان، وعبدالله بن فلويات، ولقد ظل هؤلاء طيلة الفترة الاولى بأكملها من تـاريخ الموحدين رؤساء الحركة الحقيقيين، والمنظرين أصحاب القضية، إذ لم يكن للشك عليـهم، بعد ايمانهم بنهجه، أي سلطان[1].

الى جانب هذه الهيئة كان يوجد مجلس الرؤساء المحليين "أهل الخمسين" الذيـن كـانوا يتولون مناقشة الخطط العسكرية والشؤون السياسية، ومجلس اوسع مفتوح لجميع الناس، "أهل السبعين"، ونستطيع أن ندرج هذا التنظيم بتعبير العصر، هيئة مجلس الوزراء، واعضاء مجلس الشيوخ، ومجلس النواب على الترتيب. وهذا النظام هو الاساس الذي قامت عليه الدولة كما بينا سـابقاً، وأكمـل التنظيـم بوضـع نقيـب لكـل عشـرة. كالطلبـة والحفـاظ وغيرهم[2]، واهتم ابن تومرت شخصيا بتكوين الطلبة؛ الأيديولوجيين الحقيقيـين للنظـام في حالة الانكماش، والحفاظ الذين كانوا يتلقون في وقت واحـد تربيـة مذهبيـة وتكوينـا عسكريا، ولهذا كتب المهدي مؤلفات في العربية وفي البربريـة؛ (القواعـد)، و (الامامـة). واخيرا أهل القبائل[3].

ولنا من مؤشر كتاب المعجب ما يؤصل الحركة القبلية، فيقـول: "وصنـف اصحابـه طبقات، فجعل منهم العشرة، وهم المهاجرون الأولون الذيـن أسـرعوا إلى اجابتـه وهـم المسمون بالجماعة، وجعل منهم الخمسين، وهم الطبقة الثانية... وقبائل الموحديـن الـذي يجمعهم هذا الاسم ويعمهم، وهم الجند والاعوان والانصـار، ومـن سـواهم مـن سـائر البربر، والمصامدة، رعية لهم، وتحت أمرهـم سبع قبائل: أولهم قبيلة ابن تومـرت.. هرغـة وهي قليلة العدد بالنسبة إلى قبائل الموحدين، ثم قبيلـة عبدالمؤمـن تسـمى كوميـة، وهـي قبيلة كثيرة العدد جمة الشعوب، لم يكن لها في قديم الدهر ولا في حديثه، ذكر ولا رياسة، ولاحظ من نباهة، انما كانوا أصحاب فلاحة، ورعاة غنم، وأصحاب أسواق يبيعون فيـها اللبن والحطب.. فأصبح القوم اليوم وليس فوقهم أحد ببلاد المغرب، ولا تطاول ايديـهم

---

(١) المراكشي: المعجب، ص:٢٨٤؛
ابن ابي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٩٧١؛
مجهول: الحلل الموشية، ص:١١٦.

(٢) مجهول: الحلل الموسيقية، ص:١٠٩؛ المراكشي المعجب، ص:٢٦٠-٢٦٧، ٠٨٢- ٢٨٥.
ابن ابي ذرع: الانيس المطرب، ص:١٧٦؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:٩٥، ٩٦.

(٣) المصادر نفسها والصفحات نفسها.

يد يكون عبدالمؤمن منهم... ثم أهل تينمل، وهم قبائل شتى يجمعها اسم هـذا الموضع، ثم هنتانة، وهي أيضاً قبيلة ضخمة جدا، وفي بعضها رياسة وشرف في الدهر القديم، ثـم جنفيسه، وهي قبيلة عزيزة منيعة.. ثم جدميوة وليست كلـها- بـل بعضـها- رعيـة، ثـم بعض قبائل هسكورة..، ثم يستطرد قائلاً: "فهذه جملـة قبـائل الموحديـن المستحقين لهـذا الاسم عندهم، والذين يأخذون العطاء، وتجمعهم الجيوش، وينفردون في البعوث، وغـير هؤلاء القبائل من المصامدة رعية لهم"[١].

ويظهر من هذا النص أن الشعب طبقتان: الاولى قبائل الموحدين، وهـم اصحـاب السلطان والسيادة، والثانية القبائل العربية الـتي تمثـل جمـهور الشـعب الصـامت-في كـل زمان- وهم الجند من سائر اصناف الناس، كالعرب والغز والأندلسيين والـروم وقبـائل المرابطين وغيرهم، اذ قامت الفتوحات على سواعدهم، وبدمائهم.

أما صاحب الحلل الموشية جعل طبقات الموحدين ثلاث عشرة طبقة، ويقول "ولكل صنف من هذه الاصناف رتبة لا يتعداها إلى غيرها لا في سـفر ولا في حضـر، ولا يـنزل كل صنف الا في موضعه، لا يتعداه"[٢]

هذا النظام الطبقي الذي قام عبدالمؤمن من بعد المهدي بتأصيله شكليا؛ إذ اختـص أبناء هذه القبائل السبع بالوظائف الكبرى، وقصر التعليم على المبرزين من ابنائهم؛ فأنشأ لهم مدرسة للبحرية، وأخرى لتخريج الموظفين، ومن هنـا اسـتأثرت هـذه القبـائل بأكـبر قسط من السلطان والنفوذ، واحتلت في بداية الدولة معظم المناصب الرئيسة.

فأصبحت بقصد أو بغيره- طبقة شعبية ممتازة، خلافا لشـعب الأندلـس والمغـرب الذي كان حضوره محدودا في الادارة والجيش، وبخاصة في المناصب الخطيرة منها، بل كان صوتها- أي القبائل- في بعض المواقف يسكت صوت عبدالمؤمن نفسه، وقد رأينـا ذلـك في موقفين: اولهما: قتل أخ لعبـد المؤمـن علـى يـد ابـن احـد صحابـة المـهدي (بـاحواز تلمسان)، وطالب الخليفة بالقصاص من القاتل، فأجبر رجـال القبـائل عبدالمؤمـن علـى

---

(١) المراكشي: المعجب، ص:٤٨١، ٤٨٢.

(٢) مجهول: الحلل الموشية، ص:١٠٩؛ ويذكر البيـدق وهـو لصيـق ابـن تومـرت وخادمـه "ذكـر تمييز الموحدين اعزهم الله وذلك بدرجاتهم على حسب تواليهم قبلهم أو بعدهـم... "فمـن ذلـك اهـل الجماعة رضي الله عنهم وأهل خمسين اكرمهم الله.... المهاجرون.... القبائل سلمهم الله...
ويقول المهدي بصدد إحدى هذه الطبقات (بأن اهل الجماعة وصبيانهم عبيدهم كل من في الدنيـا؛ البيدق: أخبار المهدي ابن تومرت، ص٣٢-٤٥، ٩٣.

التنازل عن دم أخيه، لأن القاتل كان ابن احد المقربين السابقين إلى المهدي، وثانيهما، عند احتلال مراكش، وأسر السلطان الصغير ابراهيم بن تاشفين، فأظهر عبدالمؤمن شفقته عليه لصغر سنه الذي لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، وأراد استبدال الاعدام بالسجن، وأمر بذلك، فأبى عليه القائد الموحدي أبو الحسن بن واجاج هذه اللفتة الملكية الكريمة، ونفذ حكم الاعدام بالسلطان الصبي متجاهلا أوامر رئيسه.(١)

على ضوء هذه المواقف، أدرك عبد المؤمن تماما تجاوز هذه القبائل حدود المعقول، لكنه الذهنية الأكثر تفتحاً، والأبلغ فعالية التي كان قد اتصف بها الأخير، وأن الأيام ستثبت أنه رجل يتمتع بمنهجية نادرة، وفكر تنظيمي متميز، جعلته بتحالف مع الوقت، ويتحصن بالصبر، وضبط النفس، اذ يعيش بين ذهنيه قبلية-وهو دون قبيلة- وعلى يديها قامت الدعوة، وشادت صروح الدولة، وأطفأت كل الثورات الداخلية التي اشعلت بلهيبها أنحاء المغرب ضد الحكم الموحدي الذي يناهض مذهب مالك، وظلت تلك الحروب سجالا حتى سنة ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م، لذلك ورغم كل ما حدث لم يشأ هدم الجسور بينه وبين هؤلاء(٢).

أخذ عبد المؤمن للأمر أهمية بالغة، وبدأ يتحرك ببطء وحذر شديدين؛ قلّص أولاً ذلك النظام للحد من تدخل زعماء القبائل، فأعاد تقسيمهم الى ثلاث فئات فقط؛ تضم الأولى منها جميع اصحاب ابي عبد الله الذين رأوه وناصروه، أوصلوا خلفه، أما الثانية فهم الموحدون الداخلون الى الدعوة اخلاطاً بعد وفاة صاحبها سنة ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م، والثالثة، هم الذين انضموا الى الأقوى، ودخلوا في التوحيد، واستكانوا لعبد المؤمن بعد انتصاره على تاشفين في موقعة وهران سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٥م(٣).

هذا هو التقويض الأولي لقوة التنظيم الطبقي الذي ابتدعه المهدي، وتمهيد منه ليحل برنامجه السياسي (النظام الملكي الوراثي) محله، فيكون بذلك قد حطم الثيوقراطية التي اعتمدها النظام التومرتي.

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠٩-٣١٠.
مجهول: الحلل الموشية، ص:١٣٩؛ ابن ابي زرع: الانيس المطرب بروض القرطاس، ص:١٨٩.
ابن عذاري : البيان المغرب، ق٣، ص:٢٤؛ وقيل ان السلطان المقتول هو اسحاق بن علي بن يوسف، البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص١٠٣.

(٢) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٣٩؛
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٧، ٣١٨.

(٣) المراكشي: العجب، ص: ٤٨١ - ٤٨٣.

غير أن ابن تومرت كان قد احتاط منذ البداية لما يمكن أن يحصل من تجاوزات أثناء ممارسات الحكم، فقال مخاطباً جماعته، مشيراً الى عبد المؤمن: "فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعاً ومطيعاً لربه، فإن بدل أو نكص على عقبه أو ارتاب في أمره ففي الموحدين (أعزهم الله) بركة وخير كثير"[1].

لقد خلفت هذه الوصية حفراً بليغة في نفسية عبد المؤمن، بأن جعلت من هؤلاء الموحدين فئة معارضة، تسهر على تنفيذ القانون والنظام، وتسعى في الوقت نفسه الى مراقبة الخليفة. فعمد مرة أخرى الى كسر تلك الوصاية، وهو الذي خلف من تلك القوى الهزيلة التي تركها مرشد الثورة مهزومة بعد غزوة البحيرة، فئة جبارة استطاعت أن تسقط الدولة الرابطية، وأن تعيد نفوذ المغاربة الى الأندلس المشرذم، بين الثوار المحليين والنصارى الاسبان. ثم انشأ ربما اعظم امبراطورية مغربية في التاريخ؛ وطاوعته نفسه الى الطموح الأبعد أثراً؛ اذ تسمى بأمير المؤمنين، فيكون بذلك أول بربري يجرؤ على اتخاذ هذا اللقب المحتكر حتى ذلك الحين على فئة القرشيين[2].

إن هذا اللقب يحمل في ذاته برنامجاً سياسياً؛ السيطرة على بلاد الاسلام كلها، وليس على ولاية محدودة، مع الادعاء في الوقت نفسه نظرياً بأمير المؤمنين، فيكون معناه(على أحسن الحالات)، أنه أحد الثوار الخوارج المفرق للجماعة. أما الدولة الموحدية ولئن كانت تأسست بالمغرب، ولم تتجاوز حدودها طرابلس، فأنها ترنو ببصرها الى ما وراء طرابلس من المشرق، وأرض مصر على الخصوص. تجاوباً في ذلك مع ما كان يصرح به المهدي من امتلاك أرض فارس والروم[3].

وقد اصبح ذلك الحلم عزماً لما تولى الحكم أبو يوسف يعقوب المنصور، من سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م الى سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م، فبلغت الدولة قمة أوجها على عهده؛ اذ ذكر المراكشي في معجبه أنه صرح للموحدين بالرحلة الى المشرق، وجعل يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبدع، ويقول: "نحن إن شاء الله مطهروها"، ولم يزل هذا عزمه الي أن مات رحمه الله[4].

---

(١) المصدر نفسه، ص: ٤٨٧.

(٢) ابن أبي زرع: الانيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٨٥؛ المراكشي: المعجب، ص: ٢٨٧.

(٣) المراكشي: المعجب، ص: ٢٧٦، ويعني بأرض فارس والروم، المشرق.

(٤) المصدر نفسه، ص: ٤٠٧.

وذكر ابن جبير في روايته أن الموحدين كان لهم ذكر واسع بمصر، وأن أهـل هـذه البلاد كما رآهم، كانوا يتشوقون الى الدعوة الموحدية، ويترقبون دعاتها، اذ يقول في ذلك "ومن عجيب ما شاهدناه من أمر الدعوة المؤمنية الموحدية انتشار كلمتـها في هـذه البـلاد، واستشعار أهلها لملكها... فهم يستطلعون بها صبحاً جلياً ويقطعون بصحتها، ويرتقبونها ارتقاب الساعة الـتي لا يمـترون في انجـاز وعدهـا، شـاهدناه ذلـك بالاسـكندرية ومصـر وسواهما مشافهة وسماعاً أمرا غريبـاً يـدل علـى أن ذلـك الأمـر العزيـز أمـر الله الحـق ودعوته الصدق، ونمي الينا أن بعض فقهاء هذه البلاد المذكورة وزعمائها، قد جبر خطبـا أعدها للقيام بها بين يدي سيدنا أمير المؤمنين أعلى الله أمـره، وهـو يرتقـب ذلـك اليـوم ارتقاب يوم السعادة، وانتظار الفرح بالصبر الذي هو عبادة"[1].

ثم يذكر ابن جبير أن ذلك الحلم قد كان رمزاً قديماً وجد في نفوس أهل مصر "حلة" في هذا العهد، وتطابقت عندهم الاشارة مع العمل، فقد كانوا "يرمزون بذلك رمزاً خفيـاً حتى يؤدي ذلك بهم الى التصريح، وينسبون ذلك لآثار حد ثانية وقعت بـأيدي بعضـهم أنذرت بأشياء من الكوائن، فعاينوها صحيحة، فمن بعض الآثار المؤذنـة بذلـك عندهـم، أن بين جامع ابن طولون والقاهرة برجين مقترنين عتيقي البناء، على احدهما تمثال نـاظر الى جهة الغرب، وكان على الآخر تمثال ناظر الى المشرق، وكـانوا يـرون أن أحدهمـا اذا سقط أنذر بغلبة أهل الجهة التي كان ناظراً اليـها علـى ديـار مصـر وسـواها، وكـان مـن الاتفاق العجيب أن وقع التمثال الناظر الى المشرق، فتلا وقوعه استيلاء الغز على الدولة العبيدية (أي صلاح الديـن وجيشـه)، وتملكـهم ديـار مصـر وسـائر البـلاد، وهـم الآن يتوقعون سقوط التمثال الغربي، وحدثان ما يؤملونه من ملكة أهله لهم إن شاء الله"[2].

ولا يخفى ما في قول ابن جبير هذا من مبالغة وتهويل، أملاها الحماس للموحدين، اذ يقول: "تلافاها الله عن قريب بتطهير يرفع البدع المجحفة عن المسلمين بسيوف الموحدين انصار الدين، وحزب الله أولى الحق والصدق... والجادين في اعلاء كلمته وإظهار دعوته ونصر ملته... "[3].

(١) ابن جبير: الرحلة، ص: ٧٠، دار الكتاب اللبنـاني، بـيروت، لا. ت. كـانت رحلـة ابـن جبـير الى المشرق من سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م الى سنة ١١٨٥هــ/ ١١٨٥م، أواخـر حكـم يوسـف بـن عبـد المؤمن، وأوائل حكم ابنه يعقوب.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٧٠.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص: ٦٩.

ربما يصور هذا القول شعور أهل مصر بالضيق والمرارة من جراء حكم العبيديين، فكان شوقهم الى الخلاص منهم يدفعهم الى اصطناع مثل هذه التصورات، وهي تصورات تعكس الأثر السياسي لدعوة المهدي بالمشرق.

ولعل عبد المؤمن استند في نظريته للخلافة الى قول المهدي: "وجعلناه - مشيراً الى عبد المؤمن - أميراً عليكم"[1].

ثم عمد للقيام بعدة أمور قصد منها السيطرة على القبائل المغربية وضبط نفوذها، اذ أمد الحمأة بماء، اختياره اكبر ابنائه ليكون ولياً للعهد الذي لم يكن في ما يبدو مؤهلاً للحكم، واستبدله بأخيه يوسف، ثم عين أولاده ولاة للأقاليم، وهذه خطوة أخرى لنقض المباديء التومرتية التي قامت على الشورى[2].

نتيجة لهذه الاجراءات المخالفة "للديمقراطية" المعمول بها حتى ذلك الوقت، تململت قبيلة هرغة - قبيلة المهدي -واحتجت على هذه الاجراءات بشخص رئيسها يصلاتن بن المعز الهرغي؛ اذ تآمر على حياة عبد المؤمن، وحاول الغدربة، فاستدعاه متوشحاً غضبه، ووقف أمامه مهتاجاً، وتمت تصفيته من غير آثارة للزوابع[3]. إلا ما كان من أخوي المهدي، عبد العزيز وعيسى، أن احتجا على هذا العمل غير المبرر، وأعلنا التمرد، وأخذا طريقهما الى مراكش ما دام الخليفة بعيداً عن عاصمته بفاس، لكن عبد المؤمن استطاع أن يخضع التمرد دون رحمة، ويستعيد عاصمته، ويفتك بأخوي المهدي[4].

اهتبلت بعض القبائل فرصة هذا الشقاق الذي استشرى بين قبائل الموحدين، فقامت الثورة في الجنوب من بلاد السوس، مظهرة في باديء الأمر أنها ضد المباديء

---

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٢٨٧.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ٣١، ٣٤، ٣٨، ٣٩، ٥٤، ٥٥؛
ابن ابي ابي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٩٤؛
ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٢٢١؛
رسائل موحدية: الرسالة ١٣، ص: ٥٧؛
المقّري: النفح، ج١، ص: ٤٢٧.

(٣) يصلاتن: يسميه آخرون يصلاسن، وهو من أهل الدار؛
رسائل موحدية: الرسالة الحادية عشرة، ص: ٤٧؛
ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٩٤.

(٤) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروخى القرطاس، ص: ١٩٤ - ١٩٥؛
المراكشي: المعجب، ص: ٣٤٠ - ٣٤١.

التومرتية، مثل قبيلة جزولة، ولمطة، ثم قبيلة "آيت بيغر" أو "آيت ومغار". اهتز عبد المؤمن لدى سماعه بهذه الانتفاضات التي لم يعدم اصحابها المسوّغ لقيامها، وكان على علم بالخلفيات التي كانت سبباً لإثارة هذه العواصف؛ فهي الاجراءات الادارية، والسياسية التي عارضت الديمقراطية الموحدية، وربما كانت هذه المعارضة ستاراً تخفي وراءها هموماً سياسية، استأثر بها عبد المؤمن، وهم لحمة المهدي وأهل بيته، اذ أصبح حضورهم محدوداً، وقطف الثمرة رجل غريب نهد اليهم من أنأى بلاد الجزائر من غير عصابة ولا أنصار، فعليهم أن يتحركوا قبل فوات الأوان، غير أن الخليفة قضى على الفتنة الأولى في مهدها[1]!

ثم كان محور المجابهة الثانية للحد من غطرسة القبائل الموحدية السبع. أنه بعد اطمئنانه الى كفاءة خريجي المدرسة العامة للموظفين، ولقد خصهم بالوظائف الهامة، وعزل بهم شيوخ القبائل المذكورة، قائلاً لهذه الطائفة "العلماء أولى منكم فسلموا لهم"، فتنازل كثير منهم عن مناصبهم للعلماء - عن رغبة أم رهبة - وكان هؤلاء العلماء قد أخذوا بقسط وافر من دراسة حكم الأقاليم، ومزاولة شؤون الدولة المختلفة، اذ قاموا بعملهم خير قيام، وبهذا تخلص الشعب وعبد المؤمن نفسه من طغيان حكام القبائل الذين لم يفهموا الحكم سوى أنه نوع من الغطرسة والاستعلاء[2].

واتخذ عبد المؤمن خطوة وقائية أخرى لحماية نفسه، وتأمين مستقبل ذريته، بعد أن لمس من القبائل الموحدية انها تكيد له، وتنظر لحوه بعيون غادرة، مسوغة ذلك التشنج، ما أحدثه في الدولة. اذ استقبل قبائل العرب الهلاليين، وضمهم الى جيشه المعد لفتوحاته الواسعة، وطموحاته غير المحدودة، وهواجسه المتعثرة التي بيتها خلفاؤه نحو الشرق، واتخذ منهم بطانته وعدته للمستقبل[3].

ثم رغب في سد الفراغ القبلي الذي ينقصه؛ فاستقدم قبيلته كومية "Gumiya" من الجزائر من تاجرا سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦١م[4].

---

(١) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٩٠؛
مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٤٦.

(٢) مجهول: الحلل الموشية، ١٥٠، ١٥١؛ المراكشي المعجب، ص: ٢٩٣.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ١٩، ٢٠؛ الناصري: الاستقصاء. ج٢، ص: ١٤٤.

(٤) اتصل عبد المؤمن سراً بزعماء قبيلته كومية، واتفق معهم على أن يقدموا عليه بمراكش، وأن يمتطي صهوة حصان كل من بلغ الحلم منهم، وأن يحسنوا من هيآتهم وعدتهم حتى يكونوا شامة في أعين الناس، وأمدهم بالأموال الطائلة والاردية الفاخرة. اجتمع منهم اربعون الفاً كلهم شاكي =

فاستقام له أمر المغرب حتى (ضرب الدين بجرانة)[1].

لقد تبين أن الجهاز الحكومي المتمثل بالسادة والشيوخ، والوزراء والقضاة، وجباة الضرائب والعسكريين، ثم طبقة المستفيدين، فضلاً عن الزعامات الارستقراطية وعلى رأسهم الخليفة، على خلاف مع الشعب المتأثر بالضرائب الباهضة، والتابع قسرا الى مذهب ابن تومرت الرسمي الذي لم يكن مرغوباً على ما يظهر عند جمهور الشعب المغربي؛ اذ ينزعون في أكثريتهم الى مذهب الخوارج والمالكية. هذا بالاضافة الى خصوصيات متوارثة وقديمة، كانت العقبة الكأداء في تجسير الوحدة بين المغرب والأندلس، ناهيك عن الخلافات الداخلية في جهاز الدولة الموحدية نفسه.

هكذا لم تنصهر الإحساسات القبلية، ولم تتلاشى الحساسيات والأعراف كذلك، والرغبات الجزئية الموقوتة في السيادة والاستعلاء، ليخضع فيه الجميع لسلطة واحدة ودستور واحد إلا بالقوة.

ويلوح أن الادارة كانت تتمحور حول ثلاثة أنواع من السلطة؛ القبلية منها، والدينية، ثم سطلة الدولة التي تتوق دائماً الى الاستقلال - الذي يحبط في كل مرة - عن كلا التجمعين. فاتضح تفوق سلطة الدولة على حساب القوى الدينية والقبلية، رغم استمرار سلطة الفقهاء مدة أطول؛ فقد وزعت المهام السياسية داخل الاسرة الموحدية التي تعثرت كثيراً في سياستها المتأرجحة بين تأصيل المفهوم المتطور للدولة، ومغازلة القوى الأخرى المتغلغلة بعيداً في جهاز الحكومة العسكري والمالي على الخصوص، فضلاً عن الاداري. فلم تجد تلك الفكرة من ملجأ من القبيلة إلا اليها[2].

=السلاح، ثم أقبلوا على عبد المؤمن بمراكش للخدمة بين يديه وشد أزره. ارتاع أهل المغرب لدخولهم المفاجيء، وقد تجاهل الخليفة بدوره، وأبدى دهشته لمجيئهم، وأخذ يستفسر عن سبب قدومهم، ثم أمر الشيخ أبا حفص عمر الهنتاني أن يخرج اليهم ليتعرف اخبارهم، وعند لقائه اياهم سألهم، أسلم أنتم أم حرب؟ فقالوا: بل نحن سلم، نحن قبيل أمير المؤمن بن علي الكومي، نحن كومية الزناتيون. فأمر الخليفة قبائل الموحدين أن تستقبلهم، وأن تحتفل بهم، اذ كان يوم دخولهم مراكش يوماً مشهوداً، ومن الاعياد القومية. ثم رتبهم في المرتبة الثانية بين القبائل الموحدية.

تاجرا: مسقط رأس عبد المؤمن من ناحية هنين من جهات تلمسان؛ ومن احوازقابس

ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص: ٥؛ الحميري: الروض المعطار، ص:١٢٥.

المراكشي: المعجب، ص: ٣٤٠ - ٣٤٣؛

ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٩٩ - ٢٠٢.

(١) هذه كناية عن ثبات أمره واستقراره.

(٢) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاوي، ص: ٢٠١.

هذه الظاهرة الازدواجية وما رافقها من تناقضات سياسية واجتماعية ودينيـة، مـع استمرار تمزق الوضع الداخلي الذي تتجاذبـه ريـاح الحـروب الأهليـة، وتفـاقم غضـب الفئات السحوقه بالضرائب الكيدية، وبصنوف الاضطهاد والقهر، بقيت بين مـد وجـزر تعيش مع الدولة ملتصقة بأحداثها حتى نهايتها في مدة لا تزيد كثيراً عـد مائـة وعشـرين عاماً[1]!

وهكذا كان مفهوم معنى الشعب أو الرعية، يطلق علـى جـل القبـائل والطوائـف والأفراد تحت ظل دولة الموحدين، الممتدة من حدود مصر الي بطـاح الأندلـس، باسـتثناء القبائل الموحدية السبع صاحبة النفوذ والسلطان، تلك التي الممنا بها سابقاً[2].

حرم هذا الشعب حقوقه عندما قصر عبد المؤمن وظائف الدولة والتعليـم الموجـه الموصل الى هذه المراكز على الذين آمنوا بايد يولوجية الموحديـن المذهبيـة دون سـواهم. وربما اتخذ سياسته التعليمية هذه ليدفع بالشعب المالكي الي اعتناق الدعوة التومرتية[3].

وقد كان الشعب في عمومه شعباً قبلياً لا يعتمد في حياته على الوظائف الحكومية، ولا يعيرها ادنى اهتمام بقدر ما يعتمد في معيشته بعيداً عن منح الدولة التي تحد من هـذه الحرية.

وعلى الرغم من ذلك، فإن امكانيـة التعليـم في متنـاول الجميـع، وكـان للمالكيـة مدارسهم ومناهجهم عبر الكتاتيب، والمساجد والزوايا والرباطـات، اذ كفـل الموحـدون حرية الكلمة ونبذوا الارهاب الفكري[4].

لم تستطع مذهبية ابن تومرت أن تطغى على مباديء المالكيـة، فالشـعب بأجمعـه - مالكيون وموحدون - كان يحتكم الى فقه مالك في حياته العملية، في حـين كـان الخاصـة فقط يدركون مبـاديء المـهدي الكلاميـة، لأن سـواد الشـعب لا يـهتم بـالأمور العقليـة والجدلية بقدر اهتمامه بالشؤون العاطفية والقلبية، وأن سواد الموحدين انفسـهم بهرتـهم فكرة المهدوية أكثر من تعلقهم بالسفسطات الكلامية غير الواضحة في أذهانهم.

---

(١) المصدر نفسه، ص: ٢٣٧- ٢٣٩.

(٢) المراكشي: المعجب، ص: ٤٨٠ - ٤٨٢.

(٣) مجهول الحلل الموشية، ص: ١٥١.

(٤) كان ذلك يدل على حرية الرأي: ان عبد المؤمن كان يأمر العلمـاء والكتـاب الذيـن امتـازوا بقـوة الحجة بكتابة الردود على المؤلفات التي تطعن في حكومة الموحدين وفي المباديء التي تقـوم عليـها، عندما أمر بالرد كتابة ضد الكاتب القرطبي ابي الحسن عبد الملك بن اياس؛ ابن صـاحب الصـلاة: المن بالامامة، ص: ٦١.

وبما أن المالكية-سنيين سلفين-لا يؤمنون بالمهدوية، وهي خرافة تداولها الناس، وليس لها سند من القرآن أو الحديث الصحيح[1].

كان مذهب الموحدين قد عجز بمفهوميه؛ التوحيدي والمهدوي، عن مجاراة مذهب مالك، واصبحت الدعوة الموحدية كمذهب في شبة ركود وتحجر، فتوقف عن النمو، بعد أن وصل الموحدون الى تحقيق الدولة السياسية المطلوبة[2]. هذا مما دعا عبد المؤمن أن يشعر بخطورة الموقف بنضوب القدرة الخلاقة التي تدفعها للأمام. فحاول أن يصب في عروقها دما جديداً - حركة نشيط - اذ قام بخطوة في سبيل اضعاف سيطرة المالكية على نفوس الناس، حيث أصدر قراراته "باصلاح المساجد وبنائها في جميع بلاده، وتغيير المنكر، وتحريق كتب الفروع - كتب مالك - ورد الناس الي قراءة الحديث، وكتب بذلك الي طلبة المغرب والعدوة".

في هذا النص الذي ذكره ابن ابي زرع، وأشار اليه المراكشي في معجبه، ونقله الناصري عنهما[3]. اشارات يمكن أن نتريث لها قليلاً؛ منها أن عبد المؤمن ابتدأ هذا القرار الأكثر خطورة حيث وضع نفسه مجتهداً في الفقه - باصلاح بعض المساجد وبناء أخرى، ثم بتغيير المنكر، ثم طرح الأمر الأكثر أهمية والهاجس الذي يؤرقه كثيراً، وهو تحريق كتب مالك، ورد الناس الى قراءة الحديث في نهاية المطاف، وأخرى حث الطلبة (العلماء) أن يتولوا كبر هذه المسؤولية متجاهلاً الولاة ورجال الجيش من مسؤولية هذه، ليسبر بذلك غور المالكية بطريق الاقناع، حتى يكون في منجاة من عواقب الثورات المسلحة، اذ ربما يثيرها المالكيون ضده في انحاء البلاد.

إن تأخير أمره بتحريق كتب الفروع الى ذيل الرسالة، ما يوحي بأنه فعلاً يخشى عاقبة التنفيذ، وبالتالي انحاء الى العلماء بالكف عن التنفيذ، إن صادفوا تململاً تخشى عواقبه من المالكية. إن هؤلاء الطلبة الموحدين لم يستطيعوا القيام بتنفيذ رغبة عبد المؤمن،

---

(١) أن من اعظم المراجع التي عرضت للأحاديث المردودة في المهدي المنتظر؛ ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ١٩٩ - ٢٠٩.

(٢) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٩٥.

(٣) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٩٥.
المراكشي: المعجب، ص: ٤٠١؛
الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٢٦.

ولم تحرق كتب الفروع في عهد الأخير، ولا في عهد خلفه يوسف[1]. وانما الذي خرج من حيرته وقام بتنفيذ ما لم يستطع الأوائل تنفيذه الخليفة الثالث يعقوب المنصور، حفيد عبد المؤمن الذي كان يرمي الى محو مذهب مالك وازالته مرة واحدة من المغرب، اذ أنزل بكتب هذا الفقيه محنة كبرى، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث[2]، وانجلت هذه المعركة الفقهية أو بتعبير العصر الثورة الثقافية، بتثبيت فقه اساسه القرآن والحديث، ظنا منهم تحجيم مذهب مالك، وازالته من المغرب، غير أن الفقه الجديد لم يكن سوى فقه الأخير، بعد حذف الاسانيد، وآراء الفقهاء، وأنه هيأ لتدعيم هذا المذهب، بعد أن اعلن قرارة التاريخي بعدم اعترافه بعصمة المهدي وإمامته، اذا أحدثت دويا هائلا في انحاء البلاد، وشعر المالكيون بالعافية في استعادة مكانتهم[3].

---

(١) لم يقم يوسف بن عبد المؤمن بأي عمل ضد كتب المالكية، ولكنه أبدى امتعاضه الشديد لكثرة الأقوال وتضاربها في المسألة الواحدة، لأن هذا من شأنه أن يشكك الناس في أمر عبادتهم على حد تعبير المراكشي، اذ يقول: ان الحافظ أبا بكر بن الجد قال: "لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أول دخلة دخلتها عليه، ،وجدت بين يديه كتاب ابن يونس في فقه مالك" فقال لي: يا أبا بكر، أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله. أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة اقوال أو أكثر من هذا، فأي هذه الاقوال هو الحق؟ وايها يجب أن يأخذ به المقلد؟ فافتتحت ابين له ما أشكل عليه من ذلك، فقال لي - وقطع كلامي - يا أبا بكر ليس الا هذا، وأشار الى المصحف، أو هذا، وأشار الى كتاب سنن ابي داود، وكان عن يمينه، أو السيف !!".
المراكشي: المعجب، ص: ٤٠١ - ٤٠٢.

(٢) يذكر المراكشي: "وفي أيامه انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء، وأمر باحراق كتب هذا المذهب "مذهب مالك"، بعد أن جرد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، والقرآن... فأحرق منها جملة في سائر البلاد، كمدونة سحنون، وكتاب ابن يونس، ونوادر ابن ابي زيد، ومختصرة، وكتاب التهذيب للبرادعي، وواضحة ابن حبيب". ويقول عن مشاهداته لهذه المحنة.
"لقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس، يؤتى منها بالاحمال فتوضع ويطلق فيها النار. وأمر المنصور بعدم الاشتغال بعلم الرأي وتوعد على ذلك تحت طائلة القانون. ثم أمر المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة، "الصحيحين والترمذي، والموطأ، وسنن ابي داود وسنن النسائي وسنن البزار، ومسند ابن ابي شيبة، وسنن الدارقطني، وسنن البيهقي، والاحاديث التي جمعها ابن تومرت في الطهارة". وجمعوا ما أمرهم بجمعه، فكان يمليه بنفسه على الناس، ويأخذهم بحفظه، وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب".
المراكشي: المعجب. ص: ٤٠٠ - ٤٠١؛
الناصري: الاستقصاء، ج٢،ص: ١٢٦.

(٣) يذكر المراكشي: المعجب، ص: ٤٠٠، ٤٠١ - ٤١٧، فيقول: "أخبرني الشيخ الصالح احمد بن ابراهيم بن مطرف المري؛ نحن بحجر الكعبة قال: قال لي امير المؤمنين أبو يوسف يعقوب المنصور: يا أبا العباس، اشهد لي بين يدي الله عز وجل، اني لا أقول بالعصمة (يعني عصمة ابن تومرت)، قال: وقال لي يوما وقد استأذنته في فعل شيء يفتقر إلى وجود الامام، قال: يا أبا العباس، اين الامام... ؟ ابن الامام... ؟ وهذا تعريض ضمني بامامة المهدي، وعدم الايمان بها.

وقد شد من ازر هذه المكانة قرارات الخليفة المأمون ابن المنصور، بعد تراخٍ من الزمن مدته ثلاثون عاماً. فصعد المذكور المنبر في مراكش وأعلن بصوت عال، الغاء اسطورة المهدوية، ومحو عبارات الاطراء بالمهدي المنتظر، في جميع الكتب الرسمية، ودواوين الدولة(١). فقضى بذلك على الدعامة الاساسية للموحدين، وهي وحدتهم المذهبية والروحية، وخرج عليه بعض الاشياخ الموحدين مثل ابي زكريا الحفصي(٢).

لا شك في أن فعل المأمون هذا، قد ترك البلاد في فراغ فكري، بعد التدمير الذي حصل للمذهب الموحدي على هذا الشكل، فأخذ بعدها الموحدون يتعاركون على الملك، مما مهد الطريق للمالكية أن تدخل بسلام الى نفوس الناس مرة أخرى، وتسيطر على المجتمع المغربي، ليعيدوا النشاط الى فقههم وعقيدتهم(٣).

---

(١) يقول ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروخى القرطاس، ص: ٢٥١؛
"... ودخل المأمون ادريس بن يعقوب المنصور، الخليفة آنذاك مدينة مراكش، فبايعه الموحدون كافة، فصعد المنبر بجامع المنصور، وخطب الناس، ولعن المهدي، وقال: ايها الناس، لا تدعوه بالمهدي المعصوم، وادعوه بالغوي المذموم، فإنه لا معصوم الا الانبياء، ولا مهدي الا عيسى، وإنا قد نبذنا أمره النحس... وأمرنا باسقاط اسم المهدي من الخطبة، وازالته عن الدنانير والدرهم".
ويقول الحلل الموشيه، ص: ١٦٤ - ١٦٦؛ "وهو الذي - اي المأمون - أمر بزوال اسم المهدي من السكة وغيرها، ومن الخطبة، وازال اسمه - اي المهدي - من جميع رسوم الموحدين، وكتب في ذلك رسالة بخط يده، ومن انشائه، ويعث بها الي الاقطار... ولتعلموا اننا نبذنا الباطل، واظهرنا الحق، وأن لا مهدي الا عيسى بن مريم... وما سمي مهديا الا أنه تكلم في المهد، فتلك بدعة قد ازلناها... وقد كان سيدنا المنصور هم أن يصدع بما به الآن صدعنا، وأن يرفع عن الأمة الحزن الذي دفعنا، فلم يساعده لذلك أمله، ولا أجله... فقدم على ربه بنية صدق... واذا كانت العصمة لم تثبت للصحابة، فما الظن بمن لم يدر بأي يد يأخذ كتابه؛
ويقول ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص٢٦٧ - ٢٦٨ في نحو هذا الكلام.
لعل ما يقوله صاحب "القرطاس" لا يخلو من المبالغة والتهويل، اذ يصعب أن نتصور من سلطان مسلم في بدء حكم صعب ومهزوز وفي وسط قبائل الموحدين، أن يستعمل مثل هذه اللهجة الخشنة، والالفاظ النابية المنافية للمشاعر الدينية عند الجمهور. أما الذي لا شك فيه، وشهد عليه مؤرخو ذلك العصر، أن الخليفة المأمون تحالف مع النصارى. وقام باصلاحاته السياسية الدينية، كما اطرح ايضاً الاصلاح الذي دعا اليه المهدي، وفرضه خلفاؤه.

(٢) ابو زكريا الحفصي هو حفيد ابي حفص. وهو من العشرة الأوائل الذي تبعوا المهدي، فقد خلع طاعة الموحدين سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م، وتلقب بالأمير، واتخذ تونس عاصمة له، وتمسك بمذهب المهدي، ثم بسط نفوذه على المغرب الأوسط الى الجزائر وتلمسان؛
زنيبر: تاريخ العصر الوسيط، ص: ٢٤٨.

(٣) ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٧، ص: ٧١.

يتضح أن عبد المؤمن قد رسخ النظام المالكي الوراثي في ذريته، وأمنهم من كيد الكائدين، والغى منهج الشورى الذي ابدعه صاحب الدعوة.

وأراني اتساءل. هل كان نظام الشورى هذا خيراً للأمة، أم أن هذا النظام الملكي الوراثي، وما فيه من نزوع الى الفردية والاستبداد؟.

يظهر من الاحداث الجارية أن النظام الوراثي، كان أدعى الى استتباب الأمن، والى انهاء مسلسل الصراعات الأهلية الرهيبة التي تنشأ عادة بين القبائل طلباً للسيادة. ولعله يبدو أنه لوقدر لابن تومرت أن يعيش ويحكم المغربين وافريقية وبرقة والاندلس، على نحو ما قدر لعبد المؤمن، لعمد الى كسر النظام الطبقي، الهاجس الأكثر قلقاً للخليفة. وأن اوضح دليل على ذلك، حادثة التمييز، اذ سوغت للمهدي معاقبة القبائل التي تهتز ثقتها به، وتتجاوز حدودها، كما يقول الناصري: ثم قال - أي ابو محمد البشير - للمهدي: اعرض اصحابك علي حتى اميز أهل الجنة من أهل النار، وعمل في ذلك حيلة، قتل بها كل من خالف ابن تومرت، وأبقى من أطاعه..."[1]! لهي مؤشر مهم على تخطي حرفيات القانون اذا اقتضت الضرورة، ولربما كان هذا اتفاقاً مسبقاً، أعد له، بينهما.

غير أن هذا النهج على تألقه وشموخه، قد عاد بالدولة القهقري، وبدا عودها يذبل، اذ أخذ الخلفاء الموحدون، بعد المنصور في اهماله، فضلاً عن السخرية بنظام المهدي نفسه ومحاربته. وكلفهم هذا جهداً كبيرا من قطيعة رحم، وقتل الاقارب، والاعمام والاخوة، وكان مدعاة الى هز النظام القائم من جذوره،واحداث فجوات فيه، اذ اصبح مجلسا الدولة (فئة الخمسين والسبعين) يقرران وراثة العرش، مما حدا بخليفة مثل المأمون ليعمل جاهداً لاسترداد سلطانه المطلق وسط ظروف مأساوية، طالت اعضاء المجلسين تصفية وتشريداً،وشكل آخرين غيرهما، حرم عليهما التدخل في شؤون الدولة. وبقيت الحالة ملتهبة بعد موته، ودون أن يكون ذلك خاتمة للأحزان[2].

فكأن ابن تومرت قد تولى كبره منهم، اذ وضع أول حجر في قبر الدولة التي ابدعها على ذلك النحو، بدعة المهدية والعصمة.

(١) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ٨٨.

(٢) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٥١ - ٢٥٢.

٤- ثورة ابن تومرت:

سار ابن تومرت برفقة عبد المؤمن الى وجدة، ومن ثم الي فاس ومكناسة، ومنها الى سلا[١]. غير أن المراكشي يذكر في معجبه أن ابن تومرت توجه مع تلميذه عبد المؤمن الى تلمسان، ومنها الى فاس، ثم الى مراكش[٢] ويؤيده صاحب الحلل الموشية[٣]. وكان ينشر افكاره الجديدة، حتى وصلت اخباره مسامع امير المسلمين في مراكش، فأمر بإحضاره، فحضر مجلس الأمير عدة مرات في المسجد وخارجه، وفي مقر الامارة، وفي كل مرة يبين مساويء الدولة السياسية والاقتصادية والاخلاقية على مسمع من فقهاء المرابطين ورجال الحكم فيها[٤].

وبهذا حملت ثورته الفكرية صوت الشعب وضمير الفقراء،وتسلح فيها بما جاء في الآية الكريمة: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الحج: ٤١]. وكان وهو يصعد حملته الانتقادية ضد سياسة الاستغلال والترف والتخاذل، الصوت العلني الجريء المعبر عن مواقف مختلف الاتجاهات السياسية في البلاد من قرطبة حتى مراكش، وبخاصة عن احساس الفئات الأكثر تضرراً في سياسة الضعف التي تجسدت في عهد علي. وكون ابن تومرت ينتمي الى قبيلة هرغة المتواضعة، فقد كان يمثل هموم الشعب المغربي في مشاكله اليومية. لذلك كان رجال السلطة يرتابون في تحركاته، ورأوا أنها تجاوزت كونها أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر بطرقها السلمية (اطارها العفوي)، لتصبح دعوة تعبوية لتغيير النظام القائم التي تتزعمه الطبقة الارستقراطية.

كان مالك بن وهيب[٥]، أحد اكبر الفقهاء اللامعين الذين يضمهم بلاط الأمير، أول من اشار على علي بن يوسف بقتل ابن تومرت، أو تقييده بالحديد قبل أن يستفحل

---

(١) البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص: ٦٠ - ٦٦.

(٢) المراكشي: المعجب، ص: ٢٧٠.

(٣) مجهول: صاحب الحلل الموشية، ص: ١٠٧.

(٤) المراكشي: المعجب، ص: ٢٧١ وما بعدها.
البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص: ٦٨ وما بعدها.
ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:١٧٤.

(٥) كان هذا من علماء الاندلس، وقد شارك وابدع في جميع العلوم المعروفة في عصره، وله اطلاع واسع على وقائعها؛ نبغ في الفقه، والأدب، والفلسفة على الخصوص، فضلاً عن العلوم الأخرى؛ المراكشي: المعجب، ص: ٢٧١ - ٢٧٢..

خطره. وحينما لاحظ ابن وهيب، أن الخوف قد بدأ يدب في قلب ابن يوسف، اذ أدرك أنه تجمع في ابن تومرت صفات الزعيم، فضلاً عن العلم والارومة الطيبة التي ينحدر منها، فقال: "أيها الملك – ويعني امير المسلمين علي: إن عندي لنصيحة أن قبلتها حمدت عاقبتها، وإن تركتها لم تأمن غائلتها، فقال الملك: ما هي؟ قال: اني خائف عليك من هذا الرجل، وأرى انك تعتقله واصحابه، وتنفق عليهم كل يوم ديناراً لتكتفي شره، وإن لم تفعل ذلك لتنفقن عليه خزائنك كلها، ثم لا ينفعك ذلك"[1].

كان ابن تومرت في تعاليمه التي يبثها في الدولة المرابطية، يتقن مقولة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويناور بأوراق غير مكشوفة، يحتفظ بها لاستخدامها في الوقت المناسب[2].

فمنع اصحابه من استخدام القوة في باديء الأمر[3] ونراه لا يهمل المرونة والدهاء اللذين اتصف بهما ابن تومرت، ابرز صفات السياسي الناجح[4] فهو يدخل الى قلوب الشعب وبخاصة الى قلوب الفئات الشابة منهم، التي تستجيب بسرعة اكثر من غيرها لطروحات التعبير[5] فينعت المرابطين بأنهم كفرة ومجسمة[6]. يجب قتالهم. ومع ذلك فإن ابن تومرت كان استمرارا طبيعيا لمن سبقه، باعتماده على الارستقراطية القبلية[7].

هرب ابن تومرت من وجه الدولة، واختفى لعدة ايام عند صديق له، هو أحد ابرز قادة المرابطين، ييتان بن عمر الذي لم تعلم الدولة عن توحيده خبراً، حتى انتهت

---

(١) ابن خلكان: الوفيات، ج٥، ص: ٥٠؛ المراكشي: المعجب، هامش ١، ص: ٢٧٣؛
ويذكر ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٤، بخصوص ابن تومرت؛
"اجعل على رجليه كبلا لئلا يسمعك طبلاً".

(٢) المراكشي: المعجب، ص: ٢٧٤.

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤) ابنابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٧٣.

(٥) ابن خلكان: الفويات، ج٥، ص: ٥١.

(٦) المجسمة: ويعني بهم المرابطين، ومعنى التجسيم: جعل الله في جهة ومكان معينين، فإن الله موجود قبل الامكنة، من جسمه جعله مخلوقاً، ومن جعله مخلوقاً، فهو كعابد وثن، ومن مات على هذا فهو مخلد في النار؛
البيدق: اخبار المهدي ابنتومرت، ص: ٥٢٤.

(٧) المراكشي: المعجب، ص: ٢٧٥، ٢٧٦؛
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٤.

المطاردة وبعدئذ توجه الى بلاد السوس مستخفياً بالنهار، وسارياً بالليل الى أن وصل معقله في جبال تينمل"[1].

لقد منحت الاحداث الاخيرة ابن تومرت فرصة التألق والازدهار، وبخاصة بعد الغياب الحضوري لأمير المسلمين علي بن يوسف عن المسرح السياسي في مراكش، وتسليمه الأمور للطبقة الثرية، واصحاب الامتيازات والمستفيدين، ولذوي الهمم الساقطة، وتسلط النساء، وانكبابه على ممارسة الشعائر الدينية، واهماله الرعية حتى افلت الأمر من يديه، حيث كانت هذه من الثغرات الرئيسة التي حالت بينه وبين السلطة قوية متماسكة، اذ طوحت بكيان الدولة وانهائها[2].

لقد قدر لهذا السوسي أن يقهر الصعوبات التي واجهته، والانتصار على عدوه بعد الانتصار على ذاته[3]، واصبح الصراع العسكري ضروريا لتقرير مصير احدى الجبهتين، اما النصرللجبهة الناشئة، وإما اعادة الشباب لدولة الرابطين التي أخذت تهتز وتهرم؛ وقد بدأ من مقره في تينمل يقذف موجات متتابعة من البشر الى مراكش للتدريب والاختبار، وبخاصة تلك المعركة المسماه "البحيرة" في موضع بضواحي مراكش، وهي الغزوة التاسعة التي خسر بها الموحدون زهرة شبابهم ، وقدموا الثمن غالياً حيث سقط القائد البشير كما مر سابقا، وعدد من أصحابه صرعى في ميدان المعركة، ونجا عبد المؤمن بن علي منكفئا عائداً يحمل جروحه الى تينمل وحالما سمع ابن تومرت بالخبر، ونجاة الأخيرقال: لم يفقد أحد[4]. ورغم ذلك اهتز لهول الفاجعة، وامضّه، الهم والحزن عليهم ولزم داره، اذ كانت

---

(١) ابن ابي زرع: الانيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٧٦؛
المراكشي: المعجب، ص: ٢٧٤؛
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٣، ٣٠٤؛
البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص: ٦٩؛
ويذكر ابن فلكان: الوفيات، ج٥، ص: ٥٠؛ أن ابن تومرت "لما خرج من عند الملك - يعين علي بن يوسف امير المرابطين - لم يزل وجهه تلقاء وجهه الى أن فارقه، فقيل له: نراك قد تأدبت مع الملك، اذ لم توله ظهرك، فقال: اردت أن لا يفارق وجهي الباطل حتي اغيره ما استطعت".

(٢) المراكشي: المعجب، ص: ٢٦٠ - ٢٦١.

(٣) كان ابن تومرت حصورا لا يأتي النساء، فلم يتزوج قط ، متقشفا، يلبس الملابس المرقعة، ولم يذكر عنه فلتة في البدعة، اللهم إلا قوله بالإمامة والعصمة، وكان عالما، راويا للحديث، فقيها، مقداما على الامور العظيمة، سفاكا للدماء، ذا سياسة، ودهاء، ومكر؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطربه بروض القرطاس،ص :١٨١؛ ابن خلدون :العبر، ح٦، ص: ٣٠٥.

(٤) المراكشي: المعجب، ٣٨٢؛ مجهول: الحلل الموشية، ص: ١١٦؛ ابن خلدون العبر، ج٦، ص٣٠٥؛ البيدق: أخبار المهدي ابن تومرت، ص : ٢٨٠، يقول: "فلما رأو منا ما لا يطيقون رجعوا الى مراكش، ونحن لتينمل". لذلك لم يعترف بالهزيمة المرحلية الا تلميحاً، وهذا المؤلف كان خادما للمهدي، يحمل زاده، وسائسا لرواحله، اما صاحب الحلل الموشيه فقد ذكر العبارة السابقه بوجه اخر: "فقال لهم- أي ابن تومرت للمنهزمين-أسلم عبد المؤمن؟ قالوا: نعم، قال: منذ عاش عبد المؤمن بقي الأمر"؛ وردد مثله ابن خلكان:الوفيات، ح٥، ص:٣ح.

هي الصدمة الموجعة التي هزت كيانه، واقعدته الفراش حتى لقي حتفه سنة ٥٢٤هـ/ ١١٢٩، وخلفه صاحبه عبد المؤمن. ثم بقيت الحروب تضغط على دولة لمتونة الى أن سقطت عاصمتهم، وانتهت بذلك دولة الملثمين.[١]

٥- سقوط دولة المرابطين:

كانت الأحداث التي تنتظر عبد المؤمن، بعد أن تولى خلافة الموحدين غاية في الصعوبة، وهو الذي تجرع مرارة الهزيمة في معركة البحيرة السالفة الذكر[٢]؛ وكان يرى أن هذه مجرد كبوة سيعمل على النهوض منها في الوقت المناسب، فعمد إلى وضع استراتيجية عسكرية، يقضي بموجبها على دولة المرابطين، ويتطلع إلى السيطرة على الأندلس؛ هاجسه القوي الذي لا يقل في اهميته عن المغرب، ومن ثم يضم المغربين الادنى والاوسط إلى دولته.

فتح البلاد فتحا منظما؛ فغزا الجبال ثم السهول والمدن. وكان لخطته اسباب عسكرية واقتصادية، إنّ تحصن الموحدين في جبال تادلا وغمارة في بداية دولتهم جعلتهم في مأمن من غارات الخيالة النصارى العاملين في جيش المرابطين، ومكنتهم أيضاً من الاستفادة من منعة الجبال وخيزاتها الغذائية الوفيرة، وكذلك السيطرة على أهم المناجم المغربية فيها،[٣] وبهذا يستطيعون مراقبة أهم الطرق التجارية المتوجهة من الصحراء نحو البحر، فيقوى بذلك مركزهم، ولم تكن هذه الخطة غائبة. عن عيون المرابطين، فقد انتهزوا غياب ابن تومرت عن مسرح الاحداث، وأرسلوا سنة ٥٢٥هـ/ ١١٣١م، جيشا بقيادة الأمير ابراهيم الشهير بابن تاغيشت، للقضاء على الموحدين قبل ان يستفحل خطرهم، فحلت الهزيمة بهذا الجيش، واستولى الموحدون على أمواله واسلحته. وكان من نتيجة هذه المعركة أن فرضت وبشكل مفاجئ قوة جديدة في المنطقة، استطاعت مقارعة المرابطين، كما أنها كانت مقدمة لصراع طويل، انتهى إلى تفوق الموحدين، وزوال دولة لمتونة. انتشر خبر هذا النصر في بلاد المصامدة، فأخذ الناس يتزاحمون على أبوابهم وينضمون إلى لوائهم، وبخاصة سكان الجبال المترددين منهم[٤]، وتوالت الحروب بين الموحدين، والسلطة المرابطية المتراجعة، فكان الظفر لعبد المؤمن الذي سار على رأس

---

(١) البيدق: أخبار المهدي ابن تومرت،ص١٠٢.

(٢) ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٥، ص:٥٣؛ إبن الاثير: الكامل، ج٨، ص:٢٩٨.

(٣) مجهول: الحلل الموشية، ص:١٣١.

(٤) إبن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص:٥٨.

جيش سنة ٥٢٦هـ/ ١١٣١م، بلغ عدده نحو ثلاثين ألف مقاتل، وكانت مراكش محور المهمة الصعبة التي ضرب عليها الحصار في ذلك الحين، ثم أرتد عنها نظراً لمناعة اسوارها، وتوجه إلى تادلا جنوبا، فاكتسحها، وتابع سيره إلى درعة، وسيطر على حصنها، وعلى الاماكن المحصنه في هزرجة وبلاد غمارة، ولم يعد ثمة ما يعيق تقدمه نحو الشمال، انفتحت امامه ابواب المدن، دخل سلا، وهاجم قلعة ناز جوزت وافتتحها[1]، وقتل قائدها المرابطي ابا بكر بن مازوا، فوقعت زوجته بنت بيتان بن عمر أسيرة بين يديه.

كان أثر تلك المعركة وبيلا على المرابطين، اذ انقلب سكان المغرب على الدولة، وأعلن موقفه العدائي منها[2]. وانكفأ عبدالمؤمن يحمل النصر إلى بلاد السوس. وهاجم في طريقه مدينة تارودانت، واستولى عليها، بعد أن هزم قائدها المرابطي "علي بن يوسف"، الذي فر هاربا أمامه إلى مدينة تيونوين، واخضع بلاد السوس جميعها ثم عاد إلى تينمل[3].

قام عبدالمؤمن بعرض للقوى العسكرية بتينملّ، إذ عقد فيها مجلسا حربيا، تقرر في أثنائه استئناف الحروب، تصدى له الأمير ناشفين قائد جيش المرابطين، واشتبك معه في معارك وغزوات استمرت أكثر من شهر سنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٨م، كان فيها الظفر للموحدين، وهزيمة المرابطين، ثم انسحابهم إلى بلدة إيمي تانورت[4]، واستنجادهم بقبيلة جزولة، التي شنت هجوما عنيفا ويائسا على مؤخرة جيش الموحدين، فاستدار الاخيرون وفتكوا بمعظم رجالها، واستولوا على أسلحتها ووسائط ركوبها[5].

عاد تاشفين إلى مراكش مهزوما[6]، وبعد فترة راحة عاود المسير بجيشه في العام التالي لقتال الموحدين، اذ ظلت الحرب سجالاً بين الطرفين مدة شهرين، واستمرت إلى عام ٥٣٥هـ/ ١١٤٠هـ. فانتهز تاشفين الفرصة، وسار بقوات كبيرة من المرابطين

---

(١) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:١٠٢، ١٠٣؛ تازجورت، يسميها إبن خلدون، تاسعون أو تاسيغموت، ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠٦؛ وكذلك، البيدق: أخبار المهدي بن كومرت، ص:١٢٨.

(٢) ابن ابي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:١٨٧٧؛ ابن القطان: نظم الجمان، ص:١٩٥-١٩٦؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠٦.

(٣) إبن عذاري: البيان المغرب، ج، ص:١٨٧؛ ابن القطان: نظم الجمان، ص:١٩٥-١٩٦؛ ابن خلدون : العبر، ج٦، ص:٣٠٦.

(٤) إينمي ثانورت: بلدة في جنوب المغرب.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠٦.

والحشم،[1]، والنصارى ليصطدم بالموحدين عند جبل جذميره[2]. فتراجع منهزما، وطارده الموحدون إلى سفوح الجبل المذكور، وعاد تاشفين يحمل همومه، يرافقه الربرتير[3] جريحا إلى مراكش.

استمرت الحروب ناشبة بين الفريقين دون أن يترتب عليها أي نتائج حاسمة، رأى عبدالمؤمن ان ينقل مسرح المعارك إلى قلب الدولة المرابطية؛ فأعلن التعبئة العامة، ثم حبذ كل من يقدر على حمل السلاح، وسار بهم سنه ٥٣٥ هـ/ ١١٤٠م، وقيل عام ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م، في غزوته الكبرى جهة الشرق والشمال، بعد أن عين على تينمل مجلسا رباعيا يحكم المدينة.[4]

خرج من المدينة، متخذاً من الجبال بيوتا وحصونا، فإذا ما انتهت المؤونه أرسل إلى القبائل بعض فرق جيشه، داعية الى مذهب التوحيد، فإذا استجابت استعان الموحدون بأرزاقها ومحاربتها، وإن رفضت اغتصب الموحدون معاشها ومواشيها واقتادوا رجالها[5]، كان المرابطون على علم بخطة الموحدين الجديدة، تعقبهم تاشفين والتزم السهل طريقاً، من بلدة الى أخرى، دون أن تحصل معارك ذات بال، إنما كانت القبائل تدخل افواجا في مذهب التوحيد.[6]

---

(١) الحشم: تسمية المهدي بن تومرت للمرابطين، لاستخدامهم اللثام كما تفعل النساء، مجهول: الحلل الموشية، هامش ٧٤ ص:١١١
الحشم: حشم الرجل، أي خاصته الذين يغضبون لغضبه ولما يصيبه من مكروه، من عبيد أو أهل او جيره، ج احسام.
احمد حسن الريان: المعجمالوسيط، ج١، دار احياء التراث العربي، بيروت، لا.ت؛ مجد الدين آبادي: ج٤، ص:٩٨، دار الجيل الحشم: خاصة الامير من عبيد أو أهل أوجيره، الخدم، أو عياله وافراد بيته.
أبو الفضل جمال الدين: ابن منظور، ج١٢، ص:١٣٦، دار صادر، بيروت، لا.ت

(٢) جبل جذيره: في جنوب المغرب، قرب ثارودنت.
ابن عفراري: البيان والمغرب، ج٤، ص:٩٨.

(٣) الربرتير "Reverter" هو قائد الفرقة النصرانية في جيش المرابطين؛ ابن عذارى: والبيان المغرب، ج٤، ص:٩٨؛ البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص:٩٠.

(٤) يتألف هذا المجلس من ابي يعقوب يوسف بن سليمان، وسناربن عبدالله، وأبي عمران موسى بن الحسن، ومحمد بن يومور.
البيدق: اخبار المهدي، بن تومرت، ص:٨٩-٩٠.

(٥) المصدر نفسه، ص:٨٨، وما بعدها.

(٦) الناصري: الاستقصاء، ج١، ص:١٠٣، ١٠٤؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص:٩٩.

استأنف الموحدون مسيرهم إلى شرق مدينة فاس، وعسكروا بقربها على جبل عفرا؛ استعدادا لغزو المدينة الأخيرة. حاول تاشفين اللحاق بعبد المؤمن، لكنه نكص، وتحصن في مدينة فاس ليقضي فيها شتاء عام ٥٣٦هـ/ ١١٤١م[١]. كان الموحدون- حسب الخطة الموضوعة- يمشون في الجبال المانعة، حيث الارزاق الواسعة، وأما تاشفين يحاذيه بعساكره على البسائط والسهول.[٢]

بدأت الامطار تهطل بغزارة على كليهما. بقي الموحدون في معسكرهم، بجبل عفرا، بينما رحل تاشفين بقواته من ظاهر فاس إلى ناحية نازا، فغرق في مياه الامطار والاوحال، وغرقت الدواب وكثرت الوفيات، وغلت الاسعار، وكانت هذه انكى عليه من الحروب[٣]، ولم يزل عبدالمؤمن يتنقل من مكان إلى آخر، وتاشفين في أثره يناوشه القتال يشد عضده الربرتير دون أن يحرزا نصراً يذكر[٤]. حتى دخل أمير المؤمنين المزمّه[٥]، فحاصرتهم الطبيعة ثمانية أيام؛ اذ عصفت بهم الريح الشديدة والأمطار الغزيرة؛ فأهلكت الكثير من الدواب والانعام؛ فنفقت المؤن، وبلغت الحاجة بهم شدتها[٦]، ثم أقلع منها إلى جبل تمس أمان[٧].

من هناك بدأ يشن الغارات على مختلف الاطراف والنواحي، ويعود منها محملاً بالسبي والغنائم، فيأمر بتوزيعها على الجند كما توزع غنائم الحروب[٨].

---

(١) البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص:٩٤؛١
ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص:٩٩.

(٢) الموحدون جلهم من رجال القبائل الجبلية؛ لذلك كانوا أقدر من المرابطين في حرب الجبال وهي موطنهم، أما المرابطون فصحراويون ويجيدون حرب الأراضي السهلية، تتناسب مع مسكنهم الأصلي، البيدق: أخبار المهدي ابن تومرت، ص: ٩١.

(٣) البيدق: أخبار المهدي ابن تومرت، ص:٩١،
مجهول: الحلل الموشية، ص:١٣٠؛
ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص:١٠٠، ق٣، ص:٢١.

(٤) البيدق: أخبار المهدي أبن تومرت، ص:٩١.

(٥) الحسيمة الحالية في شمال المغرب.

(٦) البيدق: أخبار المهدي ابن تومرت، ص: ٩١.

(٧) تمسامان، جبل يقع قرب مدينة مليلية شمال المغرب، ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص:١٠٠.
أوتمي أمان كما يسميه البيدق: أخبار المهدي ابن تومرت، ص:٩٣.

(٨) المصدر نفسه، ص:٦٤.

ورحل عبد المؤمن بعد ذلك الى "ندورمة" من بلاد كومية في الجزائر، ومنها واصل سيره إلى تاجرا، مسقط رأسه والقى فيها عصا الترحال وهنا انضمت حشو كبيرة إلى صف عبد المؤمن[1].

أمّا أخبار الموحدين سرعان ماانتشرت بين قبائل الجزائر، ولا سيما بين بطون كومية[2] وزناته.

فوفد إبراهيم بن علي الكومي، والتقى أخاه الخليفة، الذي رحب به وأكرم وفادته، اذ اعتنق التوحيد، منخرطا في سلك الموحدين، متآخياً مع محمد بن أبي يجيت "ييكيت". وبعد فترة اشتد الخلاف بينهما، وكثر الشجار، وتعمقت القطيعة، وفي أحد المواقف خرج أبو بكر عن إتزانه، وضرب ابراهيم؛ فأرداه قتيلا، فتأثر الخليفة تأثرا بالغاً على الغدر بأخيه، وطالب بتطبيق القصاص العادل. لكن أبا حفص وأبا الحسن بن واجاج تقدما إليه وذكراه بقول المهدي: إن أهل الجماعة وصبيانهم، عبيدهم كل من في الدنيا[3] مع العلم أن القاتل ابن احد أهل الجماعة، عندها صمت الخليفة، كاظماً غيظه متنازلاً عن دم أخيه.

يذكرنا هذا الحادث بمدى قداسة أقوال المهدي ابن تومرت عند الموحدين؛ أنهم كانوا يسيرون وفق نظام طبقي وامتيازات خاصة لكل طبقة. ودل هذا على بعد نظر عبدالمؤمن وقدرته على كظم الغيظ، وضبط النفس، واحتواء الحوادث المفاجئة، وهي حقا صفات ضرورية للقائد الناجح.

ومن مستقره بتاجرا بعث ثلاث حملات: الاولى بقياة عبدالرحمن بن زجو "زكو" لغزو وهران، فاجتاح ضواحيها، وعاد بالغنائم والأسلاب. والثانية بقيادة الشيخ ابي ابراهيم اسماعيل ، فأخضع قبائل بني وانفرن وانون، والثالثة بزعامة يوسف بن وانودين، لاخضاع بلاد مديونه من ضواحي تلمسان، فالتقى جيشين من المرابطين، انتصر عليهما وقتل قائديهما[4]، وترادفت الفتوحات في كل مكان، ووفد على الموحدين عدد من

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص: ١٠٠.
(٢) كومية، قبيلة من الجزائر ينتمي اليها عبد المؤمن،
ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٥، ص:٤٧؛
ابن أبي ذرع: الانيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٠١.
البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص:٥٥، ٦٥.
(٣) البيدق: أخبار المهدي ابن تومرت، ص:٩٣.
(٤) المصدر نفسه.

زعماء القبائل المجاورة، تعلن الطاعة وتدين بالتوحيد. رحل الموحدون بعد ذلك الى قرب تلمسان، في حين ارتد المرابطون بقيادة تاشفين والربرتير[1]. الى مدينة فاس، كمحاولة أخيرة لقطع طريق العودة على الموحدين، وانقاذ المغرب الاقصى، ومن ثم يستكمل تطهير المغرب الأوسط منهم[2].

وساعدت الظروف أمير الموحدين، في تفوقه الظاهر على المرابطين علي مواصلة انتصاراته؛ اثر تعرض دولة لمتونة لبعض الاضطرابات والاهتزازات، منها، أن علي بن يوسف قد اهتزت ثقته بابنه تاشفين، لأنه لم يستطع التغلب على الموحدين، أو يوقف من تقدمهم، ويخفف من عنفوان انتصاراتهم. فعزم أبوه على خلعه من ولاية العهد، وتقليدها الى ابنه الأصغر اسحاق[3].

لكن الظروف كانت معاكسة لعزيمة الأب الذي عاجلته المنية، لدى سماعه انباء أورثته هماً وغماً، فأصيب بسكتة قلبية، ودفن مشروعه الى الأبد. كذلك لم يكن الوفاق، يجمع اسرة الأمير علي بن يوسف. فقد خشي هذا الأخير أن يثور ابنه أبو بكر بعد وفاته[4]. فلما شعر بدنو أجله أمر باخراج ابنه أبي بكر من مراكش وحمله الى الجزيرة الخضراء، فحمل الى هناك، وهو يقاسي مرارة المرض والحرمان، وأودع السجن، ولم تطل مدته في محبسه حتى مات[5].

---

(١) الربرتير Reverter وهو قائد فرقة النصارى الملحقة في جيش المرابطين، في زمن الأمير علي بن يوسف. وقد كان لهذا السلطان فرقة جمعها من مرتزقة النصارى، واطلق عليها مؤرخو العرب 'فرقة الروم'.
ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص: ٩٤٨
ويقول بصدده البيدق: اخبار المهدي، وقد غزا عبد المؤمن غزوته الأولى وتقاتل مع تاشفين والشنيور (الربرتير). ويسميه كذلك الابرتير؛ وينعته ابن خلدون: في كتابه العبر، الزبرتير.

(٢) البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص: ٨٤، ٦٨، ٨٧، ٩٥.
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٧، ٣٠٨.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص: ٩٩.

(٤) كان أبو بكر هذا اكبر ابناء علي بن يوسف. وقد حول ابوه العهد عنه، اولا الى سير، فسخط لذلك وتذمر، ثم الى تاشفين، فاستاء ايضاً. ومن أجل هذا أوقع عليه ابوه العقاب بحبسه في الجزيرة الخضراء. وكان أبو بكر والياً علي اشبيلية من سنة ٥١٨هـ/ ٥٢٢/ ١١٢٤م/ ١١٢٨م؛
ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص: ١٠١.

(٥) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

ثم ظهر التنافس بين قبيلتي مسوفة ولمتونة حين تولى الأمير تاشفين الحكم، فخرج عليه بعض زعماء مسوفة، وانضووا الى راية الموحدين؛ أمثال: يحيى بن تاكسفت، وبراز بن محمد، وحاكم تلمسان يحيى بن اسحاق المعروف بانكمار أنكار. كما تنكر له زعماء بني ومانو من قبيلة زناتة، واعلنوا توحيدهم وطاعتهم. فاستعملهم عبد المؤمن قادة لبعض السرايا لاخضاع ابناء عمومتهم من زناتة بني عبد الواد وبني يلومي[١].

ان هذه الحوادث اصابت - بدون شك - تاشفين بطعنة كبيرة، واضرت كثيراً بمشاريعه المغربية، وجعلته يرنو ببصره، على الأقل الى الاندلس، إذا وافقته الاقدار. بهذه النفسية المنقبضة خرج تاشفين، حاملاً فشله، لمحاربة الموحدين. وعلى الرغم من ذلك ما يزال يناور ببعض الاوراق، اخرج الربرتير على رأس جيش لمتونه للتصدي لعبد المؤمن، وصدمه بقوات المرابطين، التي احدثت هزة عنيفة بين صفوف الموحدين[٢]. لكن براعة عبد المؤمن ومؤهلاته العسكرية، استطاعت اقتطاف كل الفرص التي ساعدته على تحقيق النصر، فضغط بقواته، وتوجه الى تلمسان، ثم الى سيرات، وشن حروباً خاطفة على القوات اللمتونية والزناتية[٣]، أوقعت بينهم كثيراً من القتلى والأسرى، وانكفأ الموحدون راجعين يجرون أسراهم، ويحملون غنائمهم وأسلابهم[٤]. غير أن الامير تاشفين صمم على اعتراضهم بجيش ضخم يقوده الربرتير، الذي استطاع بحنكته وخبرته العسكرية أن يستعيد منهم تلك الغنائم والاسلاب، ويعود مدلا بقوته، ودون تحوط منه، فيقع بغتة بين كمائن الموحدين التي خاضت معه حربا ضروسا، تمكنت أن تتجاوز الهزيمة التي منيت فيها أول الأمر وأن تحقق في نهايتها النصر وتبدد جيشه، ولم يسلم منه الا ستة نفر على حد قول البيدق وهو أحد شهود المعركة، فضلاً على سقوط القائد نفسه صريعاً في ارض المعمعة[٥].

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٧.

(٢) البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص: ٩٤؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٧.

(٣) المصدر نفسه، ص: ٣٠٨.

(٤) البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص: ٦٩.

(٥) البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص: ٩٦؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص: ١٠٣؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٨.

يعد البيدق الاشخاص الستة الذين سلموا: ثلاثة من النصارى؛ شوين وغشتون، وبطريات؛ وثلاثة من المرابطين، علي بن الخنوس، ويخلف الاشنطير، ويخلف المكرطر.

هذه المعركة ادت الى نقص حاد في الجيش، مما دفع تاشفين أن يعلن التعبئة العامة في جميع انحاء الامارة. فإنهالت عليه الحشود من كل مكان، من سجلماسة، وبجاية، والاندلس بقيادة ابنه الامير ابي اسحاق ابراهيم بن تاشفين، بالاضافة الى اربعة آلاف جندي من نصارى اسبانية، احتفل بهم تاشفين وقام بعرض عسكري حاشد - بمثابة حرب نفسية - قرب تلمسان، وكانت آخر جيوش عرضها المرابطون[1].

ان هذه المظاهرة العسكرية لم تفعل فعلها في نفسية الموحدين، الذين طاردوا تاشفين، واوقعوا به وبجيشه عدة هزائم، فقد من جرائها خيرة قادته، منهم من قتل، وآخر هرب الى الصحراء بجماعته، وغيرهم عاد الى المغرب، ولم يبق مع تاشفين سوى شراذم عسكرية ضاق بهم ذرعا، في سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م[2]. وقد قرر التوجه الى وهران، وأمر ابنه وولي عهده ابراهيم مع مستشاريه وكتابه، وعلى رأسهم ابن عطية التوجه الى مراكش، وغذ السير هو الى مأواه الأخير، بعد أن طلب من قائد اساطيله محمد بن ميمون من مرساه في المرية، أن ينحدر الى وهران كما مر سابقاً[3].

تتبع عبد المؤمن اثر تاشفين الى وهران، وأخضع في طريقه جميع القبائل التي بقيت حتى هذا التاريخ على ولائها للمرابطين. في حين اعتصم تاشفين في القلعة على ربوة عالية بالقرب من شاطيء البحر ليكون على مقربة من الاسطول[4]. لم يكن هذا الأمر غائباً عن عيون عبد المؤمن، الذي اسرع، وحاصر الحصن، واشعل فيه النيران. وكانت هذه هي المجابهة الأخيرة، المرابطية - الموحدية، وانتهت الحشرجة بخروج تاشفين ليلاً، يريد النجاة أو الهجوم، فانقلب به جواده من حافة بعيدة المهوى فسقط قتيلاً في ٢٧ رمضان ٥٣٩هـ/ موافق ٤/ تموز/ ١١٤٤م[5].

---

(١) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٣١.
(٢) البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص: ٩٤؛٧
ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص: ١٠٤؛
مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٣٢؛
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠٨.
(٣) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٨؛
مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٣٣.
(٤) الاسطول: معناها سفينة، ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٨.
(٥) المصدر نفسه؛ مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٣٣؛
ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص: ١٠٤.
خير الدين الزركلي: الاعلام، ص: ٨٣، ج٢، ط٢، دار العلم للملايين بيروت، ١٩٨٩م.

اقتحم عبد المؤمن وهران في أول يوم من عيد الفطر من العام نفسه، واستأصل المرابطين قتلا وسبيا[1]. ويذكر البيدق في كتابه، اخبار المهدي ابن تومرت، أن اللمتونيين في وهران قتلوا عن آخرهم، ولم يبق منهم خلا واحد هو، سيد الملوك بن يزدعسنيت السدراتي، الذي بادلوه بفنذة بنت علي وابنتها اسيرتين لهم عند الصحراوي حاكم فاس[2].

كان أول ما سجلته معركة وهران من نتائج، هو تنامي القوة الموحدية رغم التحديات الجسام، حتى وصلت الى مكانة تحسد عليها، ومعها طاقاتها الجديدة، لتحقق النوعية الخطرة، من مرحلة التأسيس المضطربة الى مرحلة استقرار الدولة، وانتشارها المذهل، وبخاصة نحو الشمال والشرق.

وقد تمكن الموحدون آنذاك من بناء دولتهم التي تجاوزت في سياستها الحدود الإقليمية والقومية، صوب العالم المحيط، حيث تقبع الدول النصرانية في اسبانيا، وحلفاؤهم من الأندلسيين المتخاذلين، وهم في معظمهم محسوبون على المعسكر الاسباني، منتمون إليه جداً وإخلاصاً، أو هزلاً واكتساباً، والأمر سواء، لذلك كان الامتداد الجغرافي للدولة الموحدية آنذاك قد بلغ الحد الذي تستفز به الدول الاسبانية والأندلسية المشرذمة من ورائها، رغم بقاء مراكش المهزوزة خارج دائرة النفوذ الموحدي، إذ لم يرَ عبد المؤمن خطراً من تركها إلى بعض الوقت، ورأى التعجيل بإرسال جيش إلى الأندلس بعد افتتاح تلمسان[3]

تحرك عبد المؤمن جهة تلمسان واقتحمها عنوة سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م، وعين عليها واليا من قبله هو سليمان بن محمد[4]، ثم غادرها متوجهاً الى فاس، وضرب عليها الحصار، والح في حصاره، فاستعصت عليه مدة، بفضل حماس اميرها ابي بكر يحيى بن

---

(١) المصادر نفسها ، الصفحات نفسها.

(٢) البدق: اخبار المهدي ابن كومرت، ص: ٩٤٨؛
ابن عذاري: البيان المعرب، ج٤، ص: ١٢٦.

(٣) ابن خلكان: وفيات الإعيان، ج٣، ص٢٣٩.

(٤) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٨٨؛
مجهول: الحلل الموشية، ص: ٥٣١؛ ابن خلكان: الوفيات، ج٣، ص: ٢٣٩؛
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٩؛ وفي رواية أخرى لابن أبي زرع، أن تلمسان فتحت سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م بعد فتح وهران، حيث أبقى عب المؤمن جيشاً محاصراً تلمسان لما توجه إلى وهران متعقبا اثر تاشفين من العام نفسه.

الصحراوي المرابطي الذي احسن الدفاع عن المدينة؛ إذ كان يخرج منها بسراياه بين الحين والأخر، يقوم بهجوم خاطف على الموحدين، ويعود ليتحصن فيها. رأى عبد المؤمن، توفيرا للجهد والوقت، أن يترك بعض قواته على حصارها، ويسير هو مع قوة أخرى، لكي لا يعطي فرصة للمرابطين لالتقاط الانفاس، والتفكير في ثورة مضادة، للإستيلاء على باقي المدن المغربية، وفي طريقه حاصر مكناسة، حيث دام مدة طويلة الى سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨[١]. وفي أثناء ذلك، وردته انباء مفادها أن فاسا استسلمت بعد حصار مدته تسعة شهور[٢]، ودخلها الموحدون بعد أن ضمنوا مشرف المدينة خيار بن الجياني الى صفهم، إثر خلاف حاد حصل بينه وبين الحاكم المرابطي ابن الصحراوي الذي طالبه بمال كثير لم يكن في وسعه تأمينه له، فاتصل سراً بالقائد الموحدي ابي بكر بن الجير أن يستعد لاستلام مفاتيح المدينة[٣]. ويذكر صاحب الحلة السيراء، أن ابن الجياني شغل الوالي يحيى بن الصحراوي في ليلة عرسه بكثرة ما أهدى اليه، ليشغله عما يجري، واتصل بالموحدين سراً وادخلهم المدينة[٤]. وفي الصباح ذهل ابن الصحراوي عندما رأى الموحدين يسيطرون على سور المدينة وعلى ابوابها، فطلب من أحد اعوانه أن يحطم قفل أحد الأبواب (باب الفتوح)، اذ فر ناجياً بجلده مع ثلة من اصحابه الذين تركهم يلوذون باحدى المدن يتحصنون بها، وتمادى هو في هروبه يقطع الفيافي والدروب، حتي وصل طنجة التي كما يبدو لم تكن له دار قرار، حيث عبر البحر منها الى الأندلس لائذا بابن غانية سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م[٥].

اتجه بعد ذلك عبد المؤمن الى مدينة سلا التي لم يجد فيها مقاومة ذات بال، واستولى في طريقه على قصبة الرباط، وعين عليها الوالي عبد الواحد الشرقي[٦].

(١) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٣٦؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٩.

(٢) ابن خلكان: الوفيات، ج٣، ص١٣٦؛ ابن خلدون: العبر، ج٣، ص: ٢٣٩؛ يذكر ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٩، ان الحصار دام سبعة شهور.

(٣) البيدق: اخبار المهدي بن تومرت، ص: ١٠١؛
في حين يذكر، ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٩، أن القائد الذي بقي على فاس عند غياب عبد المؤمن، الشيخ ابو حفص ومعه ابو ابراهيم، وبقية صحابة المهد ي العشرة.

(٤) ابن الابار: الحلة السيراء، ج٢، ص: ٢٣٦؛ ان عذاري: البيان المغرب، ق٤، ص: ٩١-٢٠.

(٥) البيدق: اخبار المهدي بن تومرت، ص: ١٠١، ١٠٢؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٩.

(٦) ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٣، ص: ٢٣٩؛ مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٣٧.

يظهر أن اخبار مراكش القلقة هي الـتي ساعدته علـى سـرعة هـذه الانتصـارات وسهولتها[1]. وقبل أن يستكمل الأمـير الموحـدي المنتصـر مهمتـه في ترسـيخ أقدامـه في الأماكن التي كان يحتلها، عليه أن يتـم فصـلا آخـر منـها ينتظـره في مراكـش، اذ لم يكـن الوصول اليها نزهة عسكرية بقدر ما هي حواجز بشرية مقاتلة، يتحتم ان يتخطاهـا دون أبطاء. علما أنه يسير وفق خطة موضوعة؛ يفاجىء قوى الاعداء، ويعتمـد علـى السـرية التامة قبل ان تتنبه. لذلك غذ السير الى مراكش مسرعاً، وقبل الوصول اليها وصلته طاعة أهـل سـبتة، ودخـول الموحديـن الى طنجـة[2] واكتسـح بطريقـه جمـوح لمطـة وبرغواطـة العنيدتين، وقام بجمع الضرائب من القبائل الاخري التي دانت له بالتوحيد، وقد مت لـه الطاعة[3]. ومن ثـم انتهى الى العاصمة أول شهر محـرم ٥٤١هـ/ ١٣ حزيـران ١١٤٦م؛ وعسكر في جبل ايجليز (جليز) الواقع غرب المدينة[4]، ونصب عبد المؤمن قبتـه الحمـراء، وبدأ بانشاء مدينة، وأمر ببناء مسجد وصومعة، ثم أخذ يشرف بنفسه على الحصار وعلى المعارك الحربية الدائرة[5]. تولى مهمة الدفـاع عـن المدينـة بعـض قـادة المرابطـين؛ منـهم: اسحاق بن ينيان، وسير ابن الحاج، ومحمد بن حواء، ومحمد بن بانكالا[6].

واستمرات الحرب اربعة ايام سجالا بين الطرفين، وفي اليوم الخامس، رتـب عبـد المؤمن الكمائن التي اوقعت الهزائم بالمرابطين، وطاردتهم حتى ابواب سور المدينة[7].

---

(١) نشب خلاف بين المرابطين انفسهم علي اثر وفاة تاشفين، فتولى ابنه ابراهيم الامارة من بعده، فثـار عليه عمه اسحاق بن علي، واحتدم الصراع بينهما، وتشرذمت قوات المرابطين بين مؤيد ونـاكث. لذلك كان فقـدان التلاحـم البشـري في مجتمـع مراكـش، هـو الـذي اسـهم الى حـد كـبر بانـهيار الشخصية المركزية للحكم الرابطي، على الرغم من أن موت تاشـفين، كـان وحـده مؤشـرا علـى نهاية الدولة؛ ابن عذار: البيان المغرب، ج٤، ص: ١٠٥.

(٢) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص ٣٠٩؛ ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بـروض القرطـاس، ص ١٨٩؛ وقد بعث عبدالمؤمن يوسف بن مخلوف التينملي واليا على ثغر سبتة وتوابعها، مثل المرية وغيرهـا؛ وكان فتح مدينة مالقة من السـنة نفهسـا، ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م؛ ابـن عـذاري: البيـان المغـرب، ق٣، ص:٢٠.

(٣) البيذق: اخبار المهدي، ص: ١٠٢.

(٤) يطل هذا الجبل الآن علي مراكش من الجهة الشمالية، وبه سميت احياء المدينة العصرية.

(٥) مجهول: الحلل، ص: ١٣٧؛ البيذق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص: ١٠٢؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٠٩.

(٦) ابن عذاري: البيان المغـرب، ج٤، ص: ١٢٦؛ البيـذق: اخبـار المـهدي ابـن تومـرت، ص: ١٠٣، ويذكر الاخير، أن هؤلاء هم السلاطين الظاهرين لصغر سن السلطان الشرعي، اسحاق بن علي.

(٧) المجهول: الحلل الموشية، ص: ١٣٧.

لقد عانى المرابطون ألم الحصار الذي دام تسعة شهور[1]، وذكر آخرون أن مدة الحصار كانت أحد عشر شهراً[2]، انقطعت خلالها المواد الغذائية، وتساقط الناس صرعى، وتفشت فيهم المجاعة، وانتشرت بينهم الأوبئة، ونفقت الدواب فضعفت المقاومة[3].

انتهز عبد المؤمن هذه الظروف الصعبة التي تمر بها مراكش، وربما كانت من تخطيطه، فأمر بالهجوم العام، واقتحام المدينة بواسطة السلالم، وعين لكل قبيلة جهة تقتحم مراكش منها؛ الموحدون وهنتانة وأهل تينمل من باب دكالة، وصنهاجة وعبيد الحكومة من باب الدباغين، وهسكورة مع القبائل المتبقية من باب ييتان (ينتان). فسقطت العاصمة في ١٨ شوال سنة ٥٤١هـ/ ٢٤ آذار ١١٤٦م بيد الموحدين[4]. ولم ينتصف نهار ذلك اليوم حتى استولوا عليها، والقوا القبض على الأمير اسحاق بن علي، وعلى كبار دولته، واستاقوهم الى جبل ايجليز، وتم اعدامهم عن آخرهم، وعبد المؤمن ينظر اليهم مشفقا على من لم يبلغ الحلم منهم، وحاول الخليفة التدخل لمصلحة الأمير اسحاق لصغر سنه، فاستنكر اشياخ الموحدين هذه اللفتة الملكية، بزعامة ابي الحسن بن واكاك، وقالوا: أرتد علينا عبد المؤمن، يريد أن يربي علينا فراج السبوعة، فقام الخليفة غضبان وتبعه الموحدون الا أبا الحسن والشيخ أبا حفص[5].

لقد اختلفت المصادر التي بين ايدينا حول الطريقة التي فتحت بموجبها مراكش، وكذلك على اسم الأمير القائم آنذاك وينفرد صاحب الحلل الموشية من بين جميع المصادر، ويدعي أن الأمير المنصب كان أبو اسحاق ابراهيم بن تاشفين[6].

---

(١) المصدر نفسه، ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٠؛ ابن عذاري: البيان، ق٣، ص: ٢٢.

(٢) المراكشي: المعجب، ص: ٢٩٧؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص: ١٢٦.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٠؛ ابن عذاري: البيان، ج٤، ص: ١٢٦؛ ق٣، ص: ٢٢.

(٤) البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص: ١٠٢؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٠؛ ابن ابي زرع: الانيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٨٩؛ غير أن المراكشي وابن خلكان انفردا من المصادر أن مراكش فتحت بتاريخ ٥٤٢هـ/ ١١٤٧؛ وانها حوصرت مدة أحد عشر شهراً؛ وقال بحصارها مثله، ابن عذاري، القسم الثالث الخاص بالموحدين، وابن خلكان، ج٣، ص: ٢٢٩.

(٥) البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص: ١٠٤؛
مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٣٩؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص: ١٢٦؛
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٠.

(٦) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٣٩.

غير أن كلا من، كتاب المعجب[1]، والأنيس المطرب بروض القرطاس[2]، والبيان المغرب[3]، والعبر[4]، واخبار المهدي ابن تومرت[5]، تذكر أن أمير مراكش المقتول، كان، اسحاق بن علي ابن يوسف.

فلربما كان مرد هذا الخلاف بين المصادر حول منصب الامارة في مراكش، ويعود الي ايام تاشفين، اثناء توجهه الى وهران، وكان قد قلد ابنه ابا اسحاق ابراهيم ولاية العهد، وأمره بالعودة الى مراكش، وبعد وفاة تاشفين نقض اسحاق بيعة ابن أخيه، وألب رجال الدولة عليه، فالتفوا حوله، وانتزع الامارة منه[6].

أما التعجيل في فتح مراكش، فلعل سببه كان راجعاً الى وجود جيش من مرتزقة النصارى الاسبان في العاصمة، اذ كانت له اليد الطولى في التآمر مع الموحدين، وفتح الطريق لهم من جهته، مما سهل لهم مهمة دخول المدينة من (باب أغمات) الذي كان موكلاً بحراسته، بعد أن اشترطوا على عبد المؤمن أن يعطيهم الأمان،فوافق على شروطهم، ودخلها عندئذ[7].

يلوح ان هذا الرأي على جانب من الحقيقة، لأن المؤرخ البيدق المرافق للحملة، لم يذكر في كتابه، اخبار المهدي ابن تومرت، أن الموحدين اقتحموا باب أغمات بحد السيف مع باقي الأبواب، بل تغافل عن ذكر اسمه تماماً[8].

٦- دخول الموحدين إلى الأندلس:

إذا كان اقتحام وهران واحتلال عاصمة المرابطين قد فتحا أبواب الأمل أمام عبدالمؤن ليتربع على عرش مراكش، فإن الطريق إلى ذلك كان طويلاً وشاقاً بالغ

---

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٢٩٧.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٨٩.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٠، ٢٥٢؛ يذكر هذا: أن المرابطين امروا عليهم ابراهم بن تاشفين، بعد مقتل والده تاشفين في وهران، لكن اشياخ لمتونة وجدوه عاجزاً ضعيفاً، فخلعوه، واستبدلوه بعمه اسحاق ابن علي بن يوسف.

(٥) البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص: ١٠٣- ١٠٤.

(٦) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص: ١٠٥.

(٧) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٣٨.

(٨) البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص: ١٠٣.

الوعورة، وخاصة في الجبهة الافريقية. أما الأندلس فلم يقدم الموحدون جهداً كبيراً في فتحها، ما عدا مناطق البر الشرقي والجزائر الشرقية، لذلك لم يجد صعوبة تذكر في السيطرة على هذه الجهات؛ فقد تم ضم معظم الأندلس بسهولة إلى حد ما وبسرعة مذهلة في بعض الأحيان، إذ لم يحصل صدام يذكر وتصدٍ طويل يلفت الإنتباه[1].

والسؤال الآن يطرح نفسه: لماذا شدت الأندلس اهتمامات الموحدين؟ ربما لأنهم اعتبروا السيطرة على الأندلس خطوة أولى نحو تحقيق هدفهم الخاص بإقامة خلافة اسلامية تحت رايتهم؛ فبلاد الأندلس تعتبر المجال الأرحب لتوسيع دولتهم شمالاً، ولنشر مذهب التوحيد ثانية، إذ كفروا كل من لم يعتنق مذهبهم ويحمل رايتهم. واعتقد الموحدون أن احتلال الأندلس يهدف إلى حمايته من السقوط بأيدي الدول النصرانية؛ مما يثير فيهم روح الحماس للجهاد، ليبقى المسلمون في أمن وسلام، ويبدد مخاوفهم من احتمال عبور جيوش لمتونية من الأندلس إلى المغرب، فيثيرون المتاعب في وجوههم، ثم لينفرد الموحدون في قيادة الأندلس وحدهم[2].

أخذ بنو عبد المؤمن يدفعون بجيوشهم عبر المضيق قبل احتلال مراكش وتثبيت انتصاراتهم في المغرب، وكانت الأندلس المضطربة احدى الخيارات التي دفعت بهم إلى العبور، بالإضافة إلى أن بعض الثوار قد اعلنوا طاعتهم وولاءهم لهم قبل أن تعبر جيوشهم إلى هناك؛ إذ قامت ثورة في مارتله Mertola من غرب الأندلس أعلن ثوارها الدعوة للموحدين سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م[3].

فانطلقت أولى الجيوش بأمر من عبد المؤمن بقيادة موسى بن سعيد، الذي عبر المضيق وعسكر في الجزيرة الخضراء، فتلقاهم حاكم شريش أبو الغمر القائد المرابطي السابق على رأس ثلاثة آلاف فارس، وبايع لعبد المؤمن، وقدم ولاءه وخضوعه، واعتنق مذهب التوحيد وسلمهم مدينة شريش. فكانت تلك أول مدينة فتحوها من الأندلس

---

(١) ابن عذاري: البيان، ق ٣، ص ٢٢؛ ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص ٢٩٩-٣٠٠.

(٢) المراكشي: المعجب، ص ٢٨٥؛ ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ٢٧٧.

(٣) يلاحظ أن الجيش الموحدي دخل الأندلس بعد فتح تلمسان سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م، وهناك روايتان لابن أبي زرع بهذا الخصوص تبدوان متضادتين، فواحدة تقول: بعد الفتح والأخرى تدعي أن جيش الموحدين دخل الأندلس اثناء حصار تلمسان، والواضح أن كلا الخبرين صحيح. فمدينة تلمسان تتألف من ضاحيتين، تاكرارت واكدير، بينهما مسافة (شوط فرس). كان عبور الجيش إلى الأندلس بعد فتح الأولي وأثناء حصار الثانية؛ ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ١٨٨؛ الضبي: بغية الملتمس، ص ٤٥؛ ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص ٢٩٩-٣٠٠.

صلحاً في ١ ذي الحجة سنة ٥٣٩ هـ/ من يوم الجمعة ٢٥ أيار ١١٤٥م. وكانت من المدن التي تتميز بمكانة خاصة لدى امراء الموحدين؛ فهم السابقون الذين يتقدمون قبل غيرهم للسلام على الخليفة، وقد حفظ لهم عبد المؤمن هذه السابقة؛ إذ أعفاهم من دفع الضرائب ومن المغارم المفروضة عليهم. ومن ثم نزل الموحدون بجزيرة طريف ودخلوها صلحاً، وفي يوم النحر من العام نفسه رحب أهل الجزيرة الخضراء بالجيش الفاتح وطردوا عنها المرابطين[١].

ولنا من مؤشر ابن عذاري في بيانه ما يفيد: أن ابا الغمر بن عزون الثائر على المرابطين في مدينة شريش، عبر البحر إلى المغرب وقابل عبد المؤمن وهو على حصار مراكش، وقدم له الطاعة والولاء، ثم عاد إلى بلاده سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م[٢]. وهذا قائد سلاح البحرية اللمتوني وحاكم قادس علي بن عيسى بن ميمون يقطع تردده ويعبر البحر ويتصل بعبد المؤمن وهو على حصار فاس، ويؤدي رسوم الطاعة والولاء ثم يعود إلى بلده، ويقيم أول خطبة في الأندلس باسم الخليفة على منبر مسجد قادس سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م[٣].

ولم يعد من مجال للاستهانة بقوةِ الموحدين؛ فهذا أحمد بن قسي أحد أخطر ثوار الأندلس يفد على عبد المؤمن وهو لا يزال متعلقاً بأمل الثورة والاستقلال، على رأس وفد من أعيان البلاد، يحملون كتاباً يتضمن بيعة شعبهم للخليفة، فقبلهم وطمأنهم وطلب منهم التعاون والتناصر ضد العدو النصراني[٤]. وبعث في أثرهم ثلاثة جيوش؛ الأول بقيادة براز بن محمد المسوفي، والثاني أمره موسى بن سعيد، والثالث يقوده عمر بن صالح الصنهاجي؛ فاجتاز ثلاثتهم المضيق على طريق شريش، وتوجهوا إلى لبلة التي تم خضوعها دون عناء.[٥]

---

(١) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ١٨٨؛ مجهول: الحلل الموشية، ص ١٣٥؛ ابن خلكان: الوفيات، ج٣، ص٢٣٩ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص ٣٠٩ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص١١٦.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب في اختصار ملوك الأندلس والمغرب، ق ٣، ص ٢٢، من تاريخ الموحدين ، نشر، امبروس هويس مراندة، دار كريماديس للطباعة، تطوان، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص ٣١٢.

(٤) ابن الأثير: الكامل، مج ٩، ص ١٤.

(٥) تقع اشبيلية على نهر الوادي الكبير Guadal Quivir ، شأن قرطبة وتوصف بأنها مدينة عريقة، وأنها أمنع وأكبر مدن الأندلس؛ المراكشي : المعجب، ص ٥٢٢-٥٢٣؛ ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص ١٩٥.

فأخذت العساكر قسطها من الراحة في مدينة مارتلة المجاورة والقريبة من القواعد الثائرة، وبدأت عملية الانتشار السريع إلى كل من شلب وباجة وبطليوس، فاعلنت جميعها خضوعها التام واعترفت بالموحدين. ثم توجهت هذه العساكر إلى اشبيليةSevilla الهدف الرئيسي في الخطة[1]. والتقت جميعها وسارت مع حلفائها الأندلسيين صوب هدفها؛ وشقت طريقها عبر طلياطة وحصن القصر من ضواحي اشبيلية، وضربت عليها الحصار البري والنهري؛ فقاومت بقيادة عيسى بن ميمون القوات الموحدية وتصدت ببسالة لكل الهجمات الخاطفة التي كانت تدور، ولم تستلم إلا بعد أن فر القادة المرابطون شرقاً إلى قرمونة Carmona القاعدة العسكرية المنيعة، وذلك في شهر شعبان سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م، وجال السيف في من تبقى من لمتونة[2]. واظهاراً لحسن النية غادر وفد من اشبيلية برياسة القاضي أبي بكر بن العربي المعافري، ومعه القادة والزعماء إلى مراكش، وحظي بمقابلة الخليفة وقدم أعضاء الوفد بيعة أهل اشبيلية، فتقبلها عبد المومن وأنصت مسروراً للخطب التي القيت بين يديه، وقدم لهم شكره وشملهم بعطفه ورعايته وأجزل لهم العطاء والجوائز[3].

---

(١) ابن الأثير: الكامل،، ج٩، ص ١٤؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص ٣١٣؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص ١١٧؛ بن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ١٨٠؛ ويذكر هذا أن فتح اشبيلية كان سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م وينفرد هو بذلك؛ ابن الابار: الحلة السيراء، ج٢، ص ٣٢٩؛
J. F. O'Calaghan, A history of medival, Spain, p. 229; S. P. Scott, Moorish Empire, V, 11, p. 287.

(٢) الحلل الموشية، ص ١٤٧-١٤٨؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق ٣، ص ٢؛ ابن خلدون العبر، ج٦، ص ٣١٣.

(٣) ابن عذاري: البيان، ق ٣، ص ٢٢؛ ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص ٢٩٩-٣٠٠.



الفصل الثاني

التحديات التي واجهت الموحدين

التحديات التي واجهت الموحدين

١- الانتقاضات الاولى ضد الموحدين:

دانت المغرب لعبد المؤمن مع بعض مقاطعات أندلسية بعد فتح مراكش، وعندها أخذ يعد العدة لفتح افريقية وبقية المناطق الأندلسية، وفجأة اندلعت الثورات، واشتد وطيسها في كل مكان، واضطربت عليه فتن وبيلة هزت سائر الأنحاء، وجابه تحديات أوجعته ولم تربكه، فخرجت جميع الأقطار التي أخضعها عن طاعته ما عدا مراكش وفاس[1]؛ وهذا يعني أن كل الانجازات العظيمة التي حققها عبد المؤمن منذ عشرين سنة، أصبحت كالريشة تذروها الرياح، فالخطر يأتي من مأمنه.

فهذا محمد بن هود الماسي رفيق السلاح، وأحد الذين دخلوا مراكش مع الخليفة، يعلن عليه الثورة في جنوب البلاد، وهو أحد أخطر من تحدى السلطة عسكرياً وفكرياً، فتسمى بالهادي، واستنفذ بعض طاقات عبد المؤمن، اذ تحرك لمجابهته، أعز قادته وأنشطهم، الشيخ أبو حفص الهنتاني، في أعظم جيش وأخطره، صفوة الموحدين، وفرقة الرماة، وطائفة مختارة من النصارى وغيرهم[2].

هذا الى جانب تململ سبته بزعامة القاضي عياض[3] الذي وضع يده بيد برغواطة، وشجعها على الثورة سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م[4]، بعد ان بايع عبد المؤمن، وكان من اتباعه. وعلى ما يبدو كانت الشدة طابع شخصية هذا الرجل القوية، فهو اذا اقتنع بأمر نهض

---

(١) مجهول: الحلل، ١٤٦، ابن أبي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٩٠.

(٢) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٤٦، ابن خلدون: العبر، ج٦: ٣١١.

(٣) القاضي عياض بن موسى اليحصبي أصله من مدينة بسطة، انتقل أجداده منها الى مدينة فاس ثم الى اشبيلية، ثم الى سبته وبها ولد سنة ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م، تولى القضاء بغرناطة، وفي بلده بايع عبد المؤمن، ثم انتقض عليه، وحرض أهل بلده على الثورة بفتوى وقال لهم: بايعتم مكرهين وليس على مكره بيعة ووضع يده بيد برغواطة (كان مسكنهم من جهات سلا الى ريف البحر شمالا)، وتعاهدوا عل الثورة ضد الموحدين، وأخيراً هزمهم عد المؤمن، وحمل القاضي عياض منفياً الى مراكش ومات هناك سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م؛
أبو الحسن النباهي الأندلسي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٠١، المكتبة التجارية، بيروت، لا. ت؛
ابن قنفذ: الوفيات، ص٢٨٠، رقم ٥٤٤؛
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص ٢٧٦، ٣١٠.

(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ١٩١؛ البيدق: أخبار المهدي ابن تومرت، ص: ١٠٦.

لاعلانه في صراحة لا تعرف المداراة والمسايرة، وهذه الشـدة، أو قـل هـذا التطـرف هـو الذي دفع الزعيم السبتي الى مواقف كانت عليه أكثر مما كانت لـه، وانتشـرت الثـورة الى جبـال درن، وأهـل نفيـس[١]، وهيلانـه[٢]، وأعلنـت كـل مـن هسـكورة وسجلماسـة عصيانها[٣].

وقد استعد عبد المؤمن لاحتواء جميع هذه التيارات، وهـو الرجـل الـذي لم ينحـن لعاصفة، ولا زال يحتفظ بكامل طاقاته وحيويته، فلم يعطِ فرصة لأي من هـذه الثـورات كي تقوى، بل سير اليها جيوشاً، تارة بقياديته، وأخرى بزعامة رجاله البـارزين، وسحق هذا التمرد دون رحمة، وبدد ثواره واستأصل شـأفتهم، وأتـوه طـائعين، يعلنـون الـولاء والتوبة سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م[٤].

أما في الاندلس فقد أدرك الموحدون، بعد استيلائهم على اشـبيلية، أن يسـتكملوا عملياتهم الحربية، لغرض السيطرة، على بقية المناطق التي لم تكن قـد أدركتـها جيوشـهم بعد، وكانوا قد تركوا في اشبيلية حامية عسكرية تحت زعامة عيسى وعبد العزيـز أخـوي المهدي ابن تومرت، وعينوا يوسف بن أحمد البطروجـي، أحـد زعمـاء الثـورة في غـرب الأندلس، وحاكم لبلة Nievla سابقاً، مستشاراً لهمـا، وكـان قـد انضـم الى الموحديـن في البداية. ولقد أساء أخوا المهدي معاملة أهل اشـبيلية؛ فـأخذا الرشـوة، ومارسـا الفسـاد، وصبّا عليهم سوط العذاب[٥]، وذهبت نصائح البطروجي عبثاً، واستمر الاصـرار علـى التعسف، وتجاوز المعقول، وهرب البطروجي عندما اكتشف مؤامرة، دبرها أخوا المـهدي تستهدف شخصه، وأضمر في نفسه الشر، والتجأ الى لبلة، وأعلـن فيـها الثـورة، ولم يجـد

---

(١) أهل نفيس: من سكان جبال دَرَن، وهم بطن من قبائل المصاعدة؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٢٩٩.

(٢) هيلانة: هم بطن من بطون الصامدة من سكان جبال درن كذلك؛ المصدر نفسه.

(٣) البيدق: أخبـار المـهدي ابـن تومـرت، ص: ١٠٦؛ ابـن أبـي زرع: الأنيـس المطـرب، ص: ١٩٠؛ هسكورة: من أكبر قبائل المصامدة عـددا ونجـدة، وهـم بـدو يمتنعـون بجبـل درن الى جنـوب بـلاد السوس؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٥٤ وما بعدها، سجلماسة: مدينـة في صحـراء المغـرب، تقع على نهر زيز، تزرع الدخن والذرة والنخيل، يسكنها قوم من مسّوفة؛ الحميري: الروض، ص: ٣٠٥-٣٠٧.

(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص:١٩٠، ١٩١؛ مجهول: الحلل، ص: ١٤٦؛ ابن خلـدون: العـبر، ج٦، ص: ٣١٠، ٣١١؛ البيدق: أخبار المهدي ابن تومرت، ص: ١٠٦-١٠٨.

(٥) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٤٦؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٣.

صعوبة في انجاح مهمته، فاتصل بالمرابطين بالاندلس، وعقد معهم حلفاً، لإنزال ضربه جديدة بالموحدين[1].

كان يحيى بن غانية من أول الملبين للدعوة للثورة، فاستولى على الجزيرة الخضراء ي بادىء الامر كي يمنع وصول الامدادات الى الموحدين[2].

وكان لهذه الحوادث صداها المؤلم في الاندلس، فقد الهبت المشاعر، وأججب الأحقاد في نفوس الناس، وبخاصة في غرب البلاد، ومن أكثر الناس انفعالا للثورة، كان أحمد بن قسي الذي خلع طاعة بني عبد المؤمن في مدينة شلبSilves، ليكون له دوره التاريخي الذي يطمح اليه. ثم أعلن علي بن ميمون التمرد، ودعا لنفسه بثغر قادس Cadiz، وقلده محمد بن حجام بمدينة بطليوسBadajoz ، بينما بقي الغمر بن عزون حاكم شريش، على طاعته وولائه للموحدين[3].

لم يستطع عيسى وعبد العزيز كلاهما البقاء في اشبيلية؛ فقد هاجمها أهل طلياطة[4]، وحصن القصر، من ضواحي المدينة، تضامنا مع ثورة الغرب، فهربا واعتصما في الجبال، والتقيا بابن عمهما يصليتن، واتفقوا جميعاً مع الغمر، وانحدروا جنوباً، وحاصروا الجزيرة الخضراءAlegecirase ، واستولوا عليها[5].

وفي هذا الوقت بالذات، كانت الظروف ملائمة لعبد المؤمن؛ فانتفاضات المغرب قد اخمدت، وتم خضوع جميع الثائرين. لذا جاء وقت التصدي لثورات الاندلس، فجهز جيشاً لجبا بعثه الى الاندلس، لإعادة الامن والهدوء الى ربوع تلك البلاد، واسند رياسته الى قائد من ألمع قادة الموحدين، هو يوسف بن سليمان، مستشاره العسكري الذي عبر البحر، وتوجه الى اشبيلية الهدف الرئيس في خطته، وتم اخضاعها، وتابع طريقه متوجها الى شلب، مكمن الخطر المتراكم، ومعقل أحد أكبر الثوار المتقلبين في ولائهم، ابن قسي الذي بقي يتحين الفرص ليقوم بدوره المتراجع كما سنرى[6].

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٣-٣١٧.

(٢) المصدر نفسها والصفحات نفسها.

(٣) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٤٦؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٣.

(٤) طلياطة: ناحية بالاندلس قريبة من قرطبة، وكذلك حصن القصر، ياقوت: المعجم، ج٤، ص: ٣٩.

(٥) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٣.

(٦) المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٩؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٧.

وتراجع البطروجي عن عناده مرة ثانية وأعلن التوبة، وقدمت لبله طاعتها، وأخذ يوسف يخضع النواحي المتبقية؛ فاحتل طلياطة، واخضع طبيرة[1] Tavira ، واتجه بعد ذلك ناحية قادز Cadiz، وشنتمرية الغربSanta Maria Algarve ، فبادر حاكمها علي بن عيسى باعلان ولائه، واستسلم حاكم بطليوسBadajos ، محمد بن علي بن الحاج، للقوات الموحدية، وبعث مع كتاب الاستسلام بعض الهدايا دلالة على حسن توحيده[2].

بعد هذه الانتصارات الرائعة التي أحرزها يوسف بن سليمان، انكفأ عائداً الى اشبيلية، ليأخذ قسطا من الراحة، ويرقب حالة المعاناة التي تعيشها قرطبة، وما تثار حولها من زوابع على يدملك قشتالة، الحليف المرحلي- الذي لا يؤمن جانبه- ليحيى بن غانية حاكم المدينة، وانتهز هذا الملك الظروف الراهنة، ونقض عهداً بينه وبين ابن غانية، وأن من أهم بنوده[3]؛

أن يتخلى ملك قشتالة عن مطالبته بقرطبة، ويأخذ مقابلها اشبونه[4] Lisboa ، وطرطوشة[5] Tortosa ، والمرية[6] Almeria ، وماردة[7] Merida ، وافراغه[8] Fraga ،

---

(١) طبيرة، تقع على شاطىء البحر المتوسط، الى الجنوب الشرقي من شلب وهي غير طلبيرة (Talavera)التي تقع في الشمال الغربي لطليطلة وكانت طبيرة مأوى للقراصنة حتى طهرها منهم الموحدون سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٧؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٣٦٧.
ويذكر ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٥، أن حاكمها يدعى عامل بن مهيب، قدم ولاءه لعبد المؤمن مع بقية الثوار سنة ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م.

(٢) ابن الابار: الحلة السيراء، ج٢، ص: ٢٥٣؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٤؛ المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٤؛ ابن الاثير؛ الكامل، ج٩، ص: ٢٣؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١١٨.

(٣) ابن الابار: الحلة السيراء، ج٢، ص: ٢٥٣؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٤؛ المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٤؛ ابن الاثير؛ الكامل، ج٩، ص: ٢٣؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١١٨.

(٤) الاشبونه: هي عاصمة البرتغال اليوم، وكانت تسمى قبل الاسلامUlissipo ، افتتحها المسلمون سنة ٩٣هـ/ ٧١١م، وبقي نفوذهم بها الى سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م.
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٤.

(٥) طرطوشة، مدينة على شاطىء البحر المتوسط، كانت مركزاً تجارياً هاماً أيام العرب، ومدينة علم وأدب، احتلها الاسبان سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م. وهي الى الجنوب من برشلونة؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٤.

(٦) المرية: ثغر تقع على البحر المتوسط، جنوب شرق الاندلس، بناها عبد الرحمن الناصر الاموي سنة ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٧؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٦، ص: ١١٩؛ الحميري: الروض المعطار، ص: ١٨٣.

(٧) ماردة، مقاطعة واسعة شمال الاندلس؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص: ٣٨، ٣٩.

(٨) أفراغة، مدينة بالاندلس، قرب ماردة، احتلها الاسبان سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م؛ ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص: ٢٢٧، المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٤.

وشنترين[١] Santarem ،وشنتمرية[٢] Santa Maria، او شنتري Santaverورندة[٣] Randa بالاضافة الى اغتصابه بياسة[٤] Baeza ، وابدة[٥] Ubeda ، وغيرها مـن حصـون الاندلـس التي انتزعها من المسلمين.

رأى ابن غانية الجد من ملك قشتالة الذي ألح عليه بالمزيد من الحصون، والقلاع، أو التخلي عن قرطبة Cordoba نفسها. عندها غـادر سرا الى مدينـة استجّه (أسيجه) Ecija[٦]، والتقى براز بن محمد قائد الموحدين، وأبرم معه اتفاقاً، تنازل بموجبه عن قرطبة وقرمونة، كما مر سابقاً واستعاض عنهما بمدينة جيـان الحـاجز بينـهم وبـين القشـتاليين Castilla، اذ حصل على أمان الخليفة وعفوه[٧].

عاد ابن غانية اثر الاجتماع الى مدينـة قرطبـة، وألقـى القبـض علـى رسـل ملـك قشتالة، واعتقلهم في قلعة بني سعيد قرب قرطبة، دلالة علـى نقـض الاتفـاق[٨]، فذهـل الملك النصراني لهول النبأ، والمفاجأة غير المتوقعة من أمير مسلم يحـترم العـهود والمواثيـق أولاً، ويخضع للملك ثانياً، وعلى الفور تحرك الأخير وهـاجم جيـان مفتـاح الطريـق الى قرطبة، وطلب الافراج عن الرسل؛ وقد وصلته التهديدات بقتلهم ان لم يفك الحصار عن جيان؛ فغادرها الى عاصمة بني غانية، وضرب عليها سـوراً مـن الجنـد وألح في هجومـه، وقاومت المدينة المنيعة هجمات القشتاليين، وتصدت لهم ببسالة، منتظرة وصول النجدات المغربية، التي عبرت المضيق متوجهة اليها[٩].

---

(١) شنترين، تقع على جبل كثير العلو، الى الشمال الغربي من باجة على نهر التاجـة؛ مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٥٨؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص: ٣٦٧؛ المراكشي: المعجب، ص: ٣٧٢.

(٢) شنتمرية: حصن تابع الى شنترين، يقـع في غـرب الأندلـس، يـاقوت: معجـم البلـدان، ج٣، ص: ٣٦٧.

(٣) رندة، معقل حصين بالاندلس، تقع على نهر قادس، بين اشبيلية ومالقة؛ ياقوت: معجـم البلـدان، ج٣، ص: ٧٣.

(٤) بياسة، اسمها اللاتيني vivabla ، وكان لها شأن أيـام العـرب فخربـها الاسـبان بعـد احتلالهـا سـنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م، تقع شرق قرطبة؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٤.

(٥) ابدة، مدينة بالاندلس، من مقاطعة جيان، شيدها عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبـد الرحـمن الداخل؛ ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص: ٦٤.

(٦) استجه: واسمها الروماني القديم: Astiggi وهي تتبع الآن ولاية اشـبيلية؛ ابـن الخطيـب: نفاضـة الجراب، ص: ٣٠٢، هامش ٧؛ مأخوذ عن: Ency; of Islam art: نشـر وتعليـق د. أحمـد مختـار العبادي. Istiggaby sybold.

(٧) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٤.

(٨) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٩) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض الفرطاس، ص: ١٩١.

عندما سمع ملك قشتالة الأنباء المزعجة تهب عليه من الجنوب (وهو ما كان متوقعاً) والغرب؛ جيوش المغرب، وقوات اشبيلية التي سارعت لانقاذ عاصمة بني أمية. لذا فك الملك الحصار المضروب عليها الذي دام ثلاثة أشهر، وانقلب بقواته الى بلاده[١].

ثم وصلت الجيوش المغربية باجنحتها الثلاثة؛ الأول بقيادة أبي الغمر بن عزون، والثاني برياسة يوسف البطروجي، والثالث على رأسه يحيى بن يغمور؛ ودخل الحلفاء قرطبة سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م[٢]، وانتهى المسلسل قبل الأخير من سلسلة الاحداث في الأندلس.

شاء الموحدون أن يعززوا قبضتهم على ما في أيديهم من بلاد الأندلس قبل الشروع في ضم بعض المدن، والجيوب المتبقية. فعين عبد المؤمن ولاة موحدين يثق بهم، فأسند ولاية اشبيلية الى ابنه أبي يعقوب يوسف، وعين ابنه أبا سعيد عثمان واليا على الجزيرة الخضراء مضافاً اليها سبتة وطنجة[٣].

كان عبد المؤمن قليل الثقة بزعماء الثورات في غرب الاندلس، رغم طاعتهم، وإيمانهم بمذهب التوحيد؛ لكنه كان يشك في ولائهم، اذ تحرك من مراكش الى سلا، وقام باستدعائهم لمقابلته سنة٥٤٦هـ/ ١١٥١م، فساروا اليه على شكل وفود، يتقدمهم وفد باجة[٤] Baja ، ويابرة[٥] vora بزعامة سدراي بن وزير، ثم وفد شريش[٦] Jerez ، ورندة Rondaبقيادة أبي الغمر بن عزون. ووفد لبلة[٧] Niebla على رأسه يوسف البطروجي،

---

(١) ابن الاثير: الكامل، ج٩، ص: ٢٨؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٤، ٣١٥.

(٢) المصادر نفسها والصفحات نفسها.

(٣) ابن أبي زرع: الانيس بروض القرطاس، ص: ١٩٨؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٤؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١١٨؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٢٧، ص: ١٣٨.

(٤) باجة، موقعها غرب الاندلس؛ ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص: ٣١٢-٣١٦.

(٥) يابرة، تقع الى ىالشمال من باجة؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص: ٤٢٤.

(٦) شريش، مدينة تاريخية، مهمة بقربها وقعت المعركة الحاسمة بين طارق بن زياد وآخر ملوك القوط سنة ٩٣هـ/ ٧١١م، وبعدها تم فتح المسلمين للاندلس؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٣؛ ياقوت: معجم البلدان.

(٧) لبلة، كان اسمها القديمLlipla ، تقع في غرب اشبيلية على بعد ٦٥ كم، احتلها الفونس العاشر سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م، وهي موطن العائلة الفاسية، ومنها نزحوا الى مالقة ثم الى اشبيلية، ثم الى فاس، وكانوا يحملون بالاندلس اسم بني الجد؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٥.

ووفد بطليوس[1] Badejoz برياسة محمد بن الحجاج، ثم وفد طبيرة Tavira يقوده ابن وهيب، ولم يتخلف سوى وفد شلب[2] Sileves وصاحبها أحمد بن قسي الذي كان قد أضمر العداوة للموحدين، وادعى الهداية، وانتحل الحيل، وتعاطى الشعبذة (الشعوذة)[3]؛ فساءت سيرته بين رعيته وتحصن بحصن ميرتلة[4] (مارتلة)mertola ، فحاصره الموحدون وأدخلوا إليه أحد المقربين منه واحتال عليه، وأخرجه من مخبئه، وقبض عليه دون اراقة دماء، ونفي للمغرب؛ إذ ألقى نفسه بين يدي عبد المؤمن في مراكش، بعد أن أضناه طول اللّغوب، فقال له: بلغني أنك ادعيت الهداية، فكان من جوابه أن قال: أليس الفجر فجرين: كاذباً وصادقاً؟ فأنا كنت الفجر الكاذب، فضحك عبد المؤمن وعفا عنه[5]. وبقي في مراكش حتى قتل بيد أحد المقربين منه[6].

وهناك رأي آخر ذكره المؤرخون حول نهاية ابن قسي، مفاده، أن حكومة مراكش لما رأت ان تضع حداً لمغامرات ابن قسي أدرك هذا الأخير سوء العاقبة، وأنه لن يفلت هذه المرة من العقاب، فوجد ملجأ له لدى ملك البرتغال ابن الريق[7] (ابن الرتك) Enriquezالذي كان على استعداد لتبني هذه الحركة الانفصالية في غرب الأندلس؛ فهي قريبة من ممتلكاته، وفي وسط بلاده مستقبلاً، فأمده بالمساعدة العاجلة، وبعث له هدية لطمأنته، وتشتمل على فرس وترس ورمح[8]، وربما يدل هذا الفعل على أن ابن قسي كان متورطاً في حرب استنزاف يخطط لها من الخارج، وإلا كيف يمكن باستطاعة إمارة

---

(١) بطليوس، وهي مدينة على الحدود البرتغالية، وبالقرب منها كانت موقعة الزلاقة.
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٤؛ ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص: ٤٤٧.

(٢) شلب، وتقع على مقربة من شاطىء المحيط الاطلسي جنوب غرب باجة؛ الحميري: الروض، ص: ١٠٦.
ياقوت: المعجم، ج٣، ص: ٣٥٨.

(٣) أحمد حسن الزيات: المعجم الوسيط، ج١، ص: ٤٨٦.

(٤) ميرتلة: أحمى حصون الأندلس وأمنعها، وتقع على نهر آنا في شرق شلب؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص: ٢٤٢؛ الحميري: الروض، ص: ٥٢١.

(٥) المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٩، انظر التعليق ص: ٣٢، هامش، ٣.

(٦) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٧) هو الفونسو هنركيزALFonos Enriquez ، وقد تسميه بعض المصادر ابن الريق، أو صاحب قلمرية عاصمة البرتغال آنذاك؛ المراكشي: المعجب، ص: ٣٧٢؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٥٢ هامش ١.

(٨) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص: ٢٠٧-٢٢٠؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص: ٢٥١.

صغيرة مثل شلب أن تقف في وجه دولة عظمى كدولة الموحدين؟ ما فتئت أن امتدت حدودها الى برقة غرب مصر؛ لذلك لم يغفر له أتباعه هذا التواطؤ، واتصاله بالعدو، واحتماءه وراء حصون من صنعه، فتآمروا على الخلاص منه مع محمد بن عمر بن المنذر أحد مساعديه، واقتحموا عليه قصر الشراجب فجأة، ووقع في قبضتهم، واقتادوه مقيداً الى مصرعه، وعلقوا رأسه على سنان الرمح الذي جاءه هدية؛ ليعتبر من يعتبر، وتولى ابن المنذر امارة المنطقة، وأعلن ولاءه وطاعته للموحدين سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥١م[١].

أما بخصوص الزعماء والوفود الاندلسية الآنفة الذكر، فقد أكرم عبد المؤمن هؤلاء الزعماء والوفود المرافقة لها، وفتح لهم ذراعيه، وأراد أن يهيء لهم جواً من الإخلاص والمحبة، فسمح لهم بالعودة الى بلادهم، واتخذ طريقه الى مراكش، ومعه القادة ليكونوا بالقرب منه مدة لتطويعهم، ونيل ثقتهم إن أمكنه ذلك[٢].

رأى الموحدون ان يستكملوا سيطرتهم على بقية بلاد الاندلس، فجهزوا لذلك جيشاً واسندوا قيادته الى فارس الموحدين وصاحب أعنة الخيل فيها، أبي جعفر بن يحيى الهنتاني، اذ مشى للاستيلاء على وادي آش[٣] Guadix ، وبسطة[٤] Baza ، فالتقى خلال الطريق حاكمها أحمد بن ملحان، وكان هارباً من مطاردة ابن مردنيش أمير شرق الاندلس، فأعلن أحمد الولاء والطاعة للموحدين، وتنازل له عن البلاد التي اكره على اخلائها لصالح ابن مردنيش واصل قائد الموحدين زحفه على طريق طويل آمن سيقطعه البطل دون عناء، وجعل على مقدمة جيشه عيوناً تأتيه بالاخبار خوفاً من المفاجأة؛ فوصلته الانباء أن نجدات نصرانية تتقدم نحو الجنوب الغربي، على شكل تعزيزات لقوات محمد بن سعد، فلم يشأ ان يتصدى لها، ويستعجل الامور، وهو القائد الذي لم يهزم في معركة كما عرفناه؛ فالارض يجهلها، والوقت ليس في صالحه، وليس من طبعه أن يفرض عليه زمان ومكان المعركة، فتنحى عن الطرق المألوفة، واتخذ سبيله في البرسربا يوصله الى اشبيلية سالماً سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥١م[٥].

---

(١) ابن الآبار: الحلة السيراء، ج٦، ص: ٢٠٠-٢٤٦؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص: ٣١.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٥؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٢٠.

(٣) آش، مدينة الاشات بالاندلش قرب البيرة تعرف بوادي آش، وتقع بين غرناطة وبجانة، تنحدر اليها أنهار من جبال الثلج؛ ياقوت: المعجم، ج٥، ص: ٤٣.

(٤) مدينة اندلسية قرب جيان؛ ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص: ٤٢٢.

(٥) ابن الاثير: الكامل، ج٩، ص: ٣٠.

أما مالقةMalaga ، فقد ثارت بتأييد من الموحدين ضد صاحبها الحسين بن الحسين بن حسون الذي انتحر قبل ان يقبض عليه الثوار ويسلموه الى السلطة فوجدوه يجود بنفسه الأخير، فصلبت جثته، وحمل رأسه على رمح الى مراكش كما المعنا آنفاً[1].

ولما ضم بنو عبد المؤمن معظم بلاد الأندلس الى بلادهم، رأى عبد المؤمن أن يستكمل الفصل قبل الأخير في ضم ما تبقى من البلاد، لذلك كان افتتاح غرناطة ضرورة حتمية فرضتها سياسة التوسع التي كانت طابع دولة الموحدين، وبخاصة في زمن الخليفة الأول. إذ اصبحت غرناطة محاطة بالموحدين من الشمال والغرب والجنوب، وبما أن المرية وميرتله شارفتا على السقوط[2]. كل ذلك أعطى ثماره في تسهيل عملية الفتح، التي اختمرت آنذاك لدى قائد الموحدين عبد المؤمن وبخاصة بعد السيطرة على المغرب والاستقرار في مراكش، ولا ريب أن والي غرناطة ميمون بن بدر (يدر) كان حريصاً على انقاذ رأسه، بعد أن اصبح الموحدون اسياد المنطقة، فأراد التودد إليهم واكتساب ثقتهم بدل استعدائهم[3].

هكذا جرى الاتصال، بين الملثمين بزعامة ميمون، وعبد المؤمن بمراكش راغبين في الصلح والعفو، فرحب القائد الطموح والعسكري المحترف بالفكرة، وراسل عبدالله بن سليمان قائد أساطيله بسبتة، وابنه أبا سعيد حاكمها في ذلك الحين بخصوص غرناطة، فعبر عبدالله البحر وتسلم المدينة، وصحب الملثمين الى حاضرة الدولة. وجعلها عبد المؤمن -أي غرناطة- تابعة الى ولاية أبي سعيد في سبتة سنة ٥٥١هـ/ ١١٥٦م[4]

٢- ثورات شرق الاندلس:

لما اختلت أحوال الاندلس، اثر تخاذل المرابطين أوآخر دولتهم، وظهور حركة الموحدين، وعندما بدأت طلائع النصارى بالزحف واكتساح الارض، وأخذت قواعد الأندلس تسقط تباعاً بايديهم[5] جاءت صدمة أهل البلاد فنبهتهم من رقدتهم، وأرتهم

---

(١) ابن الآباد: الحلة السيراد، ج٢، ص: ٢٤٢.

(٢) لقد طرد تاشفين اللمتوني عن مرتله وضمت للموحدين سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص٣١٧.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص٢٨-٣٠.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص٣٢-٣٣.

(٥) احتل برنجه الرابع ملك آراجون، طرطوشة سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م وسيطر علي جميع قلاعها، وعلى حصون لاردة وأفراغه، وكانت سرقطة قد خضعت للاسبان سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨ في عهد الفونسو الأول ملك آراجون؛ المراكشي: المعجب، ص:٣٠٤-٣٠٥؛ الكامل: ابن الأثير، مج٩، ص:٢٣

عاقبة بقائهم هكذا دون دولة قوية، فصرخت الشعوب الأندلسية تنبه إلى الخطر، وتدعو إلى أخراج من كان عندهم من ولاة المرابطين، وعلى هذا الوجه تمت ارادة أهل شرق الأندلس، العضو الأكثر مرضاً، في جسم دولة المرابطين، ثم في سلطة الموحدين من بعدهم، وإليهم انتشرت الافكار الثورية من الغرب الاندلسي، وعلى أرضه نمت خلايا العنف، والثورة تتوسل لها أي فرص للتحرك، وقد افتقرت إلى التأييد الكافي فلقيت الفشل السريع ثمناً غالياً من القتلى على أيدي الموحدين[1].

واتخذت ثورة الشرق بعدا اقليميا، أكثر منه الدفاع عن الحرمات والحريات العامة؛ إذ كانت أخطر حركة تشهدها الأندلس في ذلك الحين، فثوارها وضعوا خطواتهم الأولى في الدرب صوب الانفصال، ورأى هؤلاء أن يتحركوا بوجه السرعة لتوجيه ضربة قاصمة للدولة المرابطية، رغم جهادها ونكايتها بالعدو الاسباني، ونادوا للتخلص من حكم الغرباء عموماً، حتى ولو كانوا الموحدين أنفسهم، وقبل أن يشتد عودهم؛ فانتفضت بلنسية ومرسية؛ مركز الثقل الأكثر خطورة، ومحط أطماع النصارى الاراجونيين منهم بخاصة، وطرد أهل بلنسية المرابطين، ونصبوا القاضي أبا عبدالملك مروان بن عبدالله بن مروان بن عبدالعزيز قائدا للثورة، فقبلها رغم تردده سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٥م لكنهم خلعوه لثلاثة أشهر من ملكه[2].

وكان الشعب كثير الاضطراب، حتى أنه ما يكاد يرفع إلى الحكم أحداً تاق إلى امارته، حتى يسأمه ويبغضه، ويرى فيه خللا لا تطاق، وهرب ابن عبدالعزيز على وجهه معتسفا طريقا يجهلها ودون دليل، إلى أن وقع في حبائل ابن غانية في المرية، الذي وجهه مقيداً إلى والده في ميورقه[3].

ثم استلم عبدالله بن سعد بن مردنيش الامارة في اجواء غاية في الخطورة والتشنج الذي طوق بلاد الاندلس في ذلك الوقت، لكنه قتل في موقعة مع النصارى سنة ٥٤٠ هـ/ ١١٤٦م[4].

---

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٢٥٩-٢٦١؛ ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:١٩٦؛ البيدق: أخبار المهدي، ص: ١٢٥-١٢٦.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج٤، ص: ٢١٢، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص ٣٠٠.

(٣) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص:٢٢١، ٢٢٢، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص: ٣٠١.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج٤، ص: ٢١٣؛ ابن الأبار الحلة السيرا، ج٢، ص: ٢٢٩-٢٣٠.

وقام أهل مرسية بمغامرتهم؛ إذ نصبوا أبا محمد بن الحاج اللورقي، تابعاً إلى ابن حمدين سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٥م، لم يلبث أن طرده الشعب لضعفه وتخاذله أمام ابن هود، وقدموا عليهم القاضي محمد بن عبدالله بن ابي جعفر الخشني، فقبلها مكرها، وشاطته رماح القوم قرب غرناطة[١].

وعندها أجمع ثوار مرسية على تأمير أبي عبدالرحمن بن طاهر باسم ابن هود مدة خمسين يوما، واكره على التنازل واختفى عن الأنظار. وقد اصطلح شعب مرسية وبلنسية سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م، بعد فجيعتهم برؤسائهم أو فجيعة رؤسائهم بهم، على رجل عظيم يقودهم، ويخصص نفسه لدفع العدو المغير على الأرض والحرمات، ولم شتات الأمة، فكان عبدالرحمن بن عياض أحد القادة العسكريين الناجحين، بالاضافة إلى مزاياه الاخرى في القيادة، وكان هذا الرجل حريصا على توجيه قوته وتوحيد جهوده في الذب عن البلاد، وقد قادته عبقريته ومعرفته بفنون القتال إلى أن عدّه النصارى بمائة فارس، وهو رجل تلك المرحلة (مرحلة الفراغ السياسي والعسكري فترة سقوط المرابطين ودخول الموحدين إلى الأندلس)، شجاعة ومصداقية، وهو مناضل من النخبة الأولى، قادر على اتباع خط متوازن يرضي الاطراف المختلفة ولا يثير الخصوم وما أكثرهم في فترة، اهتز بها حكم المرابطين في العدوتين وكان الناس في دور الانتظار لما تسفر عنه نتائج الحروب بين المرابطين والموحدين[٢] وبقي يذود عن شرق الاندلس إلى أن توفي من جراح أصابته سنة ٥٤١/ ١١٤٦م[٣].

وكان قد أشار قبل موته إثر الحاح اعيان البلاد وقادتهم أن يسند القيادة إلى رجل كفء يسد الفراغ؛ إلى تعيين مساعده وصهره محمد بن سعد بن مردنيش، إذ كان تابعاً إليه يحمل له السلاح ويتصرف بين يديه في حوائجه[٤].

---

(١) المصادر نفسها والصفحات نفسها.

(٢) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص:٣٠١؛ المراكشي: المعجب، ص:٣٠٥.

(٣) المراكشي: المعجب، ص:٣٠٥ هامش ٢.

(٤) المقري: نفح الطيب، ج١، ص:٤٢٤؛ ابن خلدون؛ العبر، ج٤، ص:٢١٣؛ ابن الابار:الحلة السيراء، ج٢، ص:٢٣٢، حاشية رقم ١؛ الضبي: بغية الملتمس، ص:٤٤؛ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص:٣٠١ ك؛ المراكشي: المعجب، ص:٣٠٦؛ وذكر المراكشي، أن اعيان البلاد أشاروا على ابن عياض أن يولي ابنه عليهم، فقال انه لا يصلح لاني سمعت أنه يشرب الخمر، ويغفل عن الصلاة، فان كان ولا بد فقدموا عليكم هذا وأشار إلى ابن سعد، وقال: اني اظن به خيرا لعل الله ان ينفع به المسلمين.

وكان أحد الثائرين الذين تسلموا قيادة شرق الأندلس اثناء تواجد الموحدين في غربها سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م، وهو ممن لم يتردد في طلب العون من النصارى ضد المغاربة الموحدين، إذ تسميه المراجع النصرانية "بالملك لوبو اي الذئب" ELReyLobo ، وقد منحه البابا لقب صاحب الذكر الحميد، توفي سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م[١]، بينما تجعله الرواية العربية ينتمي الى جذام من قبائل اليمن[٢]، ويغلب على الباحثين أن يوصلوا نسبه إلى أصل اسباني، وأن جده كان مولى لبعض الجذاميين، فانتسب اليه، وهذا ما تسوغه رواية ابن الابار[٣].

يتبين أن مردنيش أو مردانش محرف عن مرتينيس Martinez أي ابن مارتين، ويقال ان والد جدّه "أحمد بن مردنيش" هو أول من أسلم، لذلك إن أصله لا يحمل اسما عربياً مما يقطع بأن نسبته الجذامية ليست صحيحة، والواقع أن أصله من شبه الجزيرة، وقد يكون جده الأعلى هذا قد دخل في ولاء بعض الجذاميين، وانتسب إليهم، وهو فرض مقبول، لأن دار بطون جذام بن عدي ابن الحارث بن مرة بالأندلس كانت شذونه والجزيرة وتدمير واشبيلية[٤].

شغلت دولته المساحة الواسعة في شرق الأندلس من بلنسية شمالا حتى المرية جنوباً، وتحيط بها مملكة أراجون في الشمال، ومملكة قشتالة في الشمال الغربي، ونصارى المرية في الجنوب[٥]. ان هذه الدولة ورثها عن صهره عبد الرحمن بن عياض، السالف الذكر[٦].

ان ما تسوغه الرواية العربية ربما يقوي من انتماء الملك لوبو الى المولدين، ويتجلى ذلك في سماته وسلوكه، وكأنه كان شغوفاً بالتشبه بالنصارى، في الهيئة والملابس، والروح

---

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١١٥، حاشية رقم ١؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢١١؛ ابن خلكان: الوفيات ج٧، ص١٣١؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص٣٢٢؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:٩٥ وفي نفح الطيب لابن عذاري ان وفاته كانت سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠ م، جـ٦، ص:١٦٠.

(٢) المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٦، حاشية رقم ١.

(٣) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص: ٢٣٢، حاشية رقم ١.

(٤) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص: ٢٣٢، حاشية رقم ١.

(٥) المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٦.

(٦) المصدر نفسه، الضبي: بغية الملتمس، ص: ٤٤؛ ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص: ٣٠١؛ ويذكر هذا أن ابن عياض كان ملك مرسية.

وحمل السلاح، كغيره من الثوار الأندلسيين الذين كثيراً ما يتنزيّا سلاطينهم وأجنادهم بزي النصارى المجاورين لهم[1]. ولعله كان مولعاً بالتحدث باللغة القشتالية، قراءة وكتابة، مما زاد صلته بملوك النصارى؛ إذ كان يعتمد عليهم في تعزيز قواته المسلحة؛ يمنحهم المعسكرات والضياع، ويغدق عليهم الهدايا والاقطاعات. كما حصل أن اهداهم مقاطعة شنتمرية ابن رزين وما حواليها من الحصون والقلاع[2].

وكان لصاحب الذكر الحميد، كما يحلو للبابوية أن تنعته، صديق مرحلي، جمعه به اتصاله بالأمير ابن عياض، هو، ابراهيم بن محمد ابن مفرّج بن همشك[3]، إذ كان قوي الشكيمة، خبيراً بأرض المنطقة، فارساً نجداً، سيفاً مصلتاً أمامه، وصوليا مرحليا في سلوكه؛ يحارب في صف المسلمين تارة- فاحتل حصن شقورة Segura وقلاعها من القشتاليين[4]- وفي صف النصارى تارة أخرى، متعاوناً مع صهره ابن مردنيش، حينما احتل الجميع غرناطة[5]، وأخرجهم منها المسلمون، اثر معارك طاحنة جرت بين الفريقين[6].

خصّص ابن مردنيش في بداية أمره وقتاً للشؤون الداخلية؛ فنظم المؤسسات المالية والعسكرية لدولته الناشئة، ذاباً عنها أي اعتداء خارجي، مانعاً أي ثورة داخلية محتملة.

وعندما كان يغذ السير مسرعاً الى مدينة بلنسية كي يتسلم مقاليد الحكم فيها، طرق مسامعه أن النصارى اخترقوا أراضيه، وهاجموا حصن حلال[7]، وسقط في أيديهم، فانقلب كاراً لاسترداد الحصن، واسترجع بالسرعة التي سقط بها ثم أخذ في تشديد قبضته على المناطق المجاورة؛ اذ بعث صهره ابن همشتك للاستيلاء على الاراضي الواقعة تحت

---

(١) المقّري: نفح الطيب، ج١، ص: ٢١٠.

(٢) ابن الخطيب: الاحاطة، ج٧، ص: ١٢٤.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٨٦-١٩٦؛ ويسميه المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٨، عبداللة بن هم شك.

(٤) المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٨، هامش ٢؛ حصن شقورة: مدينة أندلسية شمالي مرسيه، وبها كانت دار إمارة هَم شك؛ ياقوت: المعجم، ج٣، ص: ٣٥٥.

(٥) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٩٦؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٩٥- ١٩٩؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٩.

(٦) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٩٨.

(٧) حصن حلال، لم نعثر على حصن بهذا الاسم في المعاجم، وإنما ذكر حصن محسّن، يقع في الجزيرة الخضراء، من المحتمل أنه نفس الحصن؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص: ٢٦٥.

سيطرة ابن سوار[1]، فنجح في مهمته ليكون حقيقاً به أن يصبح حاكماً على مرسيه، وفي الوقت نفسه عين ابن مردنيش أخاه أبا الحجاج يوسف والياً على بلنسية[2].

هكذا قدر لابن مردنيش أن يتسلم القيادة، وهو في عنفوان شبابه[3]، متسلقاً مع طموحه الكبير درجات السلطة، ثم ارتقى الملك الراسخ والسلطان الشامخ، بباهر شجاعته وشهامته، فسما قدره، وعظم أمره، وفشى في كل امة ذكره[4]، وكانت أمامه الحواجز والعقبات قبل أن يرتقي أعلاها، ويخلد فوقها آمناً مطمئناً؛ وقد لاحقته المؤامرات أكثر من سبعه وعشرين عاماً، وهو يحتدم في معارك التحدي التي تصدى لها، سواء من حلفائه النصارى أو من أعدائه الموحدين، دون أن تنال من ارادته الفولاذية شيئاً[5].

لذا فلن نبالغ اذا قلنا أن ابن مردنيش- على الرغم من تضحيته ربما بكامل قيمه الاندلسية- لم يغنه هذا شيئاً أمام حلفائه المرحليين من النصارى الذين تخلوا عنه وقت الشدة، بل وقاتلوه ليحتفظوا بالروح القتالية قوية متنامية لدى قواتهم المسلحة[6].

بدأ ابن مردنيش فور تثبيت أسس دولته الجديدة في مرسية وجميع شرق الاندلس، صراعا مرحليا ضد حلفائه النصارى بزعامة قشتالة وليون، وقبل أن يتحول إلى هدف الملاحقة، بادر إلى التحالف العسكري مع جمهورية بيزا وجنوا البحريتيين، سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م. وضمن حيادهما، بعدم التعرض لرعاياه في المدن الساحلية، مقابل امتيازات حصل عليها كل منهما؛ منها جزية سنوية تقدر بعشرات الآلاف من الدنانير لمدة سنتين، فضلا عن امتلاك العقارات والاراضي، لتكون نقطة ارتكاز لهم وقت الحاجة. وقد وصلت الهدايا التي كان يغدقها الملك لوبو، الأمير نصف المسلم (كما قيل) الى ملوك وحكام اوروبا، ليدفع خطرهم وأذاهم[7].

---

(١) ابن سوار من اهل مرسية؛ ابن الابار: الحلة السيراء، ج٢، ص: ٢٣٠.

(٢) ابن الخطيب: الاحاطة، ج٧، ص: ١٢١؛ المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٥.

(٣) ابن الخطيب: الاحاطة، ج٧، ص: ١٢٢؛ المراكشي: المعجب، ص: ٣٥٢، ٣٥٣، وكان سن ابن مردنيش آنذاك لا يتجاوز عشرين عاماً.

(٤) ابن الخطيب: الاحاطة، ج٧، ص: ١٢٢.

(٥) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٥٠.

(٦) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤٠٣.

(٧) ابن الابار: الحلة السيراء، ج٢، ص: ٢٣٢، ٢٣٣؛ ويذكر هذا أن هدايا ابن سعد ورسائله وصلت ملك انجلترا، ويذكر المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٦، خبراً بهذا المعنى.

وعلى أثر هذه التحالفات، نشأ محور قوي بين ملك قشتالة، وملـك أراجـون سـنة ٥٤٥هـ/ ١١٥١م، لاقتسام أراضـي ابـن مردنيـش بينـهما، فخصصـت مرسيه وبلنسـية للاراجونيين، وغرناطة مـن نصيـب ملـك قشـتالة، ليجـرب حظـه فيـها في الحـاضر وفي المستقبل[١].

وعندما سمع ابن سعد بخطة الاتفاق من حليفـين سـابقين، بـادر لدفـع خطرهمـا بالمال، تحت اسم معاهدات مع قشتالة واراجون، وفرض أنواعاً من الضرائب على شعبه، "فعظمت في بلاده المغارم، وثقلت... وجعل على الاغنام والبقر مؤناً غريبة، وأمـا رسـوم الاعراس والملاهي، فكانت قبالاتها غريبة"[٢].

ان تراجع القيم عند ابن مردنيش، والحياة المبتذلة التي عاشها، وابرامـه الاتفاقـات والمعاهدات التي عقدها مع النصارى، وخضوعه الى حد التذلـل لهـم، وعـدم التفاتـه الى بلاده يحميها من التفكك والاضمحلال، كان سبباً في ضياع بعـض المـدن السـاحلية الـتي سقطت تباعاً بأيدي ملوك أراجون، اذ استولى العدو في مدته على مدينة طرطوشـة سـنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م، وعلى حصن اقليج، وحصن شرانية، ثم ظهور حركة تمرديـة يقودهـا القضاة والأعيان في كل من بلنسية ولورقة، ضده، وهؤلاء عموماً يمثلـون اتجاهـاً عريضـاً بين الشعب[٣].

غير أن ابن سعد ذا الشخصية التي تنزع دائماً الى الغارة والانتهازية، لم يهمل رجال الانتفاضة يجنون ثمرة جهودهم، بل كر عليهم بسرعة فائقة، وحطم هذا التململ في مهده قبل أن يستفحل خطره سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥٢م[٤]، ويشير صاحب الحلة السيراء بمـا يثبـت تدخل الموحدين غير المباشر، في الرسالة الغاضبة التي بعثها عبد المؤمن الى ابـن مردنيـش عقب فشل الانتفاضة، تتضمن التهديد والترغيب، حيث يقول فيها: "فقـد كـان منكـم في أمر أهل بلنسية حين اعلانهم بكلمة التوحيد، وتعلقهم بهذا الامر السعيد ما كان. ثم مـا كان منكم في عقب ما اعتمدتموه في أهل لورقة–وفقهم الله–حين ظهر اختصاصهم، وبان اخلاصهم، وليس لذلك وأمثاله عاقبة تحمد، فالخير خير ما يقصد والنجاة في ما ي نـزح

(١) J. F. Ocallaghan: AHso. of, Medieval, Spain, p. 232;
ابن صاحب الصلة: المن بالامامة، ص: ٤٠٣–٤٠٥؛ المراكش: المعجب، ص: ٣٠٤.

(٢) ابن الخطيب: الاحاطة، ج٧، ص: ١٢٣، ١٢٤.

(٣) ابن الخطيب: لاحاطة، ج٧، ص: ١٢٣–١٢٦؛ المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٤.

(٤) ابن الابار: الحلة السيراء، ج٢، ص: ٢٣٢–٢٣٣.

عن الشر ويبعد، وإنا لنرجو أن يكفكم عن ذلك وأشباهه ان شاء الله تعالى، نظر موفق ومتاع محقق، ويجذبكم الى موالاة هذه الطائفة المباركة جاذب يسعد، وسائق يرشد، والله يمن عليكم بما ينجيكم ويمكن لكم في طاعته أسباب تأميلكم بمنّه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[١].

قد يكون ما زعمه الموحدون على جانب من الحقيقة، فلربما كانت لهم صلات ببعض الثوار في شرق الأندلس، فهذا أبو عبدالرحمن ابن طاهر هو أحد سليل أمراء مرسية في عهد ملوك الطوائف (جدّه أحمد أبو عبدالرحمن)، كان ميالاً الى صف الموحدين، وأميرا على مرسية، غير أنه لم يكن مؤهلا للمضي الى زمن أبعد لممارسة الحكم فيها وفي الشرق كله، حتى لو قدر له ذلك في وسط هذا المناخ الذي تسوده المجابهات العسكرية، وكثرة الدسائس التي اجتاحته[٢].

لذلك استجاب أبو عبدالرحمن لرغبة ثوار بلده، وتنازل عن الحكم لخلفه ابن عياض، اثر انقلاب أبيض، ودون اراقة دماء، اذ كان هذا أمهر من سابقه يلعبه الحكم وسط الزعازع والأنواء، واستطاع مجابهة تلك الخدع بالمرونة الدبلوماسية؛ فلعب بورقة ابن هود واستظل بظله وحكم باسمه[٣].

أما ابن طاهر السابق فقد غاب عن المسرح السياسي، وعاش في الظل، يتطلع الى الموحدين، ويؤيد دعوتهم سرا طوال بعدهم الجغرافي، ويعيش في خوف وقلق دائمين على مصيره، اذ كان مرتهناً بيد ابن مردنيش حتى نهاية الأخير، ومن ثم اعتنق مذهب التوحيد، وارتحل الى مراكش، وتوفي فيها سنة ٥٧٤هـ/ ١١٧٨م[٤].

ورغم ذلك كان ابن سعد يشدد من قبضته على الشرق الأندلسي؛ الاقليم الأكثر تشنجاً، ويتحرك وفق خطة مدروسة، بناء على تعليمات تلقاها من استخباراته الراصدة لتحركات الموحدين في افريقية، إذ كان عبدالمؤمن ومعه صفوة قواته؛ سبعون الف فارس، وخمسمائة الف من المشاة يتحركون بعيداً عن مراكش نحو المهدية لاسترجاعها من الصليبيين[٥].

---

(١) في قول آخر: "في ما ينزع"؛ المصدر نفسه، كتاب الدولة الموحدية: رسائل موحدية، الرسالة العاشرة، ص: ٣٧ ان نص الرسالة يوحي باعتقاد الموحدين بابن مردنيس خيراً، ولعل بعد نظرة يفيء به الى جماعة التوحيد، ويبتعد به عن التمرد والعمالة للأجنبي.

(٢) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص: ١٢٠.

(٣) المصدر نفسه، ص: ١٢٠، وما بعدها، ص: ٢٣٢؛ المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٥.

(٤) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص: ١٢٠، ٢٣٢، ٢٣٣.

(٥) مجهول: الحلل الموشية: ص: ١٥٢؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٥؛ ابن الاثير: الكامل، ج٩، ص: ٦٣.

مشى ابن سعد من قاعدته مرسية سنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م، برفقة قواته ومعه تشكيل من النصارى صوب جيان[١]، ودخلها دون مقاومة، وكان الوالي الموحدي قد تواطأ معه (محمد بن علي الكومي). إذ صادف عنده من النكوث بالبيعة ما كان مقبولا لديه[٢]. وانسحب الكومي متسللا، وتركها طعمة سهلة للغازي اثر قرار ارتجالي، مدللا بذلك على ضعف انتمائه الوطني والحضاري، وتردده وعجزه عن ملء الفراغ، الذي ينتظر الموحدين، مما أطمع رجلا مغامراً مثل ابن سعد، في فجر دولة الموحدين، أن يسير مغامراً في عرض للقوة، إلى منطقة أخرى يحاول احتلالها، وكانت مدينة قرطبة-احدى أخطر المواقع وأكثرها شهرة واستراتيجية-موضع اختياره الثاني، فضرب عليها الحصار، وألح في اقتحامها دون جدوى، وقد تحطمت آماله خارج أسوارها، غير أنه استطاع تدمير اقتصادها وإضعاف نقاطها الدفاعية؛ إذ خرّب حصونها وقلاعها حتى لاصق أسوارها[٣] وبدا هذا واضحاً لأميرها أبي زيد عبد الرحمن بن تيجيت، فاجتمع مع مستشاره القاضي أخيل بن ادريس[٤]، وباقي اركان القيادة لوضع الخطط لحماية المدينة وفك الحصار عنها، واتصلوا سرا بالسيد رأي بن وزير، وهو أحد دهاة الاندلس، ومن الرواة الذين اعتمد عليهم ابن صاحب الصلاة في تاريخه، وأصبحت له حظوة سامية لدى السلطة الموحدية، وهو من سكان اشبيلية، وكان ممن كتم توحيده. بعث الوالي رسالة على لسانه إلى ابن مردنيش المحاصر لقرطبة، كي يفك الحصار عنها، ويطمعه في احتلال اشبيلية، وهي الأقل مدافعة وتحوطا من الأولى، ويكون عونا له على ذلك، كما يعرف عنه من صبر على القتال وعناد في المساومة، فانطلت الحيلة على ابن سعد، وفك الحصار، وانكفأ منحدراً غرباً إلى اشبيلية، ولجسامة الموقف أخطر الوالي أبا يعقوب يوسف[٥]، المتحصن باشبيلية، بكل تفاصيل الخطة، فاستعد للحصار والمقاومة، تحرك ابن مردنيش عجلا حتى وصل الى

---

(١) جيان Jaen مدينة تقع شرقي قرطبة على بعد ١٠٨ كم منها ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١١٦ هامش رقم ١.

(٢) المصدر نفسه، ص: ١١٦؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٨؛
ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٩١، وتردد المصادر على أن محمد بن علي الكومي كان واليا على جيان، ولكنها لم تشر إلى تاريخ توليته هذا المنصب، ويذكر ابن أبي زرع، أن عبد المؤمن ملك جيان سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١١٥-١١٦؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٨.

(٤) عين كاتبا للموحدين ومن قبلهم للمرابطين، ولمع اسمه في زمن بني عبد المؤمن.
ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١١٧.

(٥) أبو يعقوب هو السيد ابن عبد المؤمن والخليفة من بعده.

باب قرمونة[1] تمهيداً لاحكام الحصار، وفي الجانب الآخر قابلـه الأمـير باسـتنفار عـام في داخل المدينـة "وضبطـها السـيد الاعلـى أبـو يعقـوب"، ودافعـت بشراسـة لصـد الهجـوم المردنيشي، لكنه أرهقها في الحصار مدة ثلاثـة أيـام[2]، ثـم جـاءت الصدمـة الـتي قلبـت حساباته بكاملها، إذ تبين له أن الكتاب خدعة، لذا لم ير إلا المقاومة العنيدة من الداخـل. فلوى عنانه راجعاً عنها إلى سنة قادمة، محيلا أمر احتلال المدينتين إلى أحد أبرز قادته، هو ابراهيم بن هَم شْك[3].

بادر ابن همشك بناء على أوامر سيده نحو قرطبة، ودمـر نقاطـها الدفاعيـة، وبنـى الكمائن خارجها، فخرج حاكمها ينظر الخراب الذي أصابها، ودون تحوط منـه، فأجأتـه الكمائن المحيطة قرب أطابة Ataba القريبة منها، وأحاطت به ولم يسـتطع الصمـود حتـى ولا الافلات، ولحقت به الهزيمة وسقط طريعاً، أما باقي الجيش فقد لاذ بالفرار، وتحصـن داخل المدينة[4].

وقنع ابن همشك بهذا النصر الجزئي ثم عاد إلى قرمونة، حصن اشـبيلية القريـب، وفتحـه، واسـتولى عليـه بمسـاعدة أحـد أعيانـها عبداللـة بـن شـراحيل سـنة ٥٥٥هـ/ ١٦٦٠م[5].

ثم انفلت صنيع ابن مردنيش، محاولا مرة أخرى الاستيلاء علـى اشـبيلية، فضيـق على أهلها، حتى كاد يوردهم الهلاك، بعد أن عفى على مقوماتها الاقتصادية والعسكرية، وأوشكت على الاستسلام، فاضطر الوالي ابو يعقوب يوسف أن يكتـب إلى أبيـه الخليفـة يستنجده، ويستحثه على القدوم، ويقول: "العدو ي لج بالفتنة والضرر، ويستعين باخوانه النصارى، وبالمنـافقين أصحابـه الاحـز، واشـبيلية في مثـل الحلقـة مـن الفـتن، قـد نـهل بالغصص ساكنها، وذهل خوفاً من القنص متحركها وساكنها"[6].

(١) يذكر كتاب المن بالامامة أن باب قرمونة تقع في الجنوب الشرقي من اشبيلية تجاه قرمونـة، في حين تقع قرمونة في الجهة الشمالية الشرقية من اشبيلية.
ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١١٨ هامش رقم ٢.

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣) هو ابراهيم بن محمد بن مفرح، نصراني اسلم على يد بني هود بسرقطة، وقـد اتصـل بالأمـير ابـن عياض، وغلظ امره حتى ساوى ابن مردنيش، وزوجه ابنته، ثم فسد ما بينهما فتعاديـا؛ المراكشـي: المعجب، ص: ٣٠٨ هامش رقم ٢.

(٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٢٦-١٢٧.

(٥) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٨-٣١٩؛
ابن الخطيب: اعلام الاعلام، ص: ٢٦١.

(٦) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٢٩.

بعث الخليفة يجوا بين على كتاب ابنه، يبشره في الأول بانتصاره على أعـراب بني سليم في افريقية، وإذعانهم للطاعة، والمح فيه نيته على العبور الى الأندلس للقضاء علـى زعماء الفتنة قائلاً:

"فاستبشروا-وفقكم الله-لما تستقبلونه من المواهب الجسيمة والفتـوح العمميمـة"[1] أما الرسالة الثانية، وقد بعث بها عبد المؤمن طالباً من أبنائه وولاته بالأندلس بنـاء مدينـة حصينة لتكون قاعدة حربية بجبل طارق، وأرضية صلبة يستند عليها لانـزال الجيـوش في المستقبل[2].

اجتاز الخليفة المضيق ونزل على جبل طارق سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م وسـط حشـود ضخمة من المستقبلين، يتوسطهم السادة والأشياخ والأعيان والقضاة، والطلبـة والحفـاظ والقادة العسكريون والشعراء، وأقام مدة شـهرين يستطلع أحـوال الأندلـس العسـكرية والاجتماعية منها والجغرافية عن قرب[3] وخلال هذه المدة برزت سرية استطلاع للعدو، فاعترضها الموحدون، وانقضوا عليها كالصواعق، وألحوا في مطاردتها حتـى أتـوا عليـهم قتلا وسبياً[4].

وعلى وهج هذه الظروف من الحروب والغارات نظم هناك الادارة، وحثهم علـى الحذر واليقظة، ومواصلة قتال ابن مردنيش، حتى يعود السلام والأمن الى شرق الأندلس وتصفية الثائر واستسلامه. وعاد الخليفة الى مراكش سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦١م[5].

بعد رحلة العودة التي اتخذها عاهل المغرب الى مراكش، أخذت السـرايا تتجـه الى قرمونة بقيادة أبي محمد عبدالله بن أبي حفص بن علي، أحـد أبـرز القـادة الموحديـن، اذ نزل بقلعة جابر على بعد أميال منها، محاولاً ارهاقها واجبارها على التسـليم. لكـن أهـل المدينة المحاصرة حاولوا الاتصال بابن همشك القابع بجيان، لانجادهم، لكنـه تلقـى الخـبر بكثير من التأثر وكثير من الصمت ازاء ما يجري هناك. وربمـا قـد خالجـه الخـوف، أمـام

---

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٣٤، ١٣٥.

(٢) المصدر نفسه، ص: ١٣٦-١٣٩.

(٣) المراكشي: المعجب، ص: ٣١٠؛ مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٥٥.

(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بـروض القرطـاس، ص: ٢٠٠؛ النـاصري: الاسـتقصاء، ج٢، ص: ١٤١.

(٥) المراكشي: المعجب، ص: ٣٢٧، ٣١٠.
ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٧٢.

الاصرار لاسترداد قرمونة، فلم يجرؤ على انجادها، وتركها لمصيرها تعاني مـرارة الحصـار والسقوط[1]، فاجتمع أعيان المدينة دون علم الحاكم القائد الشرقي ابن أبي جعفر، وبعثوا وفدا من قبلهم يسهل مهمة تسليم المدينـة للموحدين ضمـن شـروط مسبقة[2]، وافـق الموحدون على الشروط، وهيأوا فرسانهم لدخول قرمونة من برج قرن المعـزة[3]، المكـان نفسه الذي دخل منه ابن همشك سابقاً عندما احتلها، وفتحت المدينـة أبوابـها، ودخلـها الموحدون، ووفوا الأهلها بوعدهم وذلك سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦١م[4].

لقد كان الموحدون يعتقدون بأن جميع خصومهم من الجسـمة الكـافرين. لـذا قـام الشيخ أبو محمد بن أبي حفص بن علي ونظف جامعها بالماء، ويقول ابن صاحب الصلاة "ولقد مشيت اليه- يعني الشيخ- وهنيته على الفتح، وهو في الجامع يغسله، وهـو جـالس مستنداً الى الحائط الشرقي من جامع قرمونة، والرجال يغسلون الجامع بمرأى منه، وأقـام بها حتى أصلحها، وأمنها... وأعلم في خبر فتحها الخليفة...."[5].

وبعدا الانتهاء من ضم قرمونه، عزز الموحدون جبهتهم في كل من قرطبة واشبيلية بالجنود، على اثر غارات ابـن همشـك، الـتي كـادت تطيـح بـالاولى، وترهـق الثانيـة.[6] فتحسن بذلك مركزهم في هاتين المدينتين، وكان يبدو مـن العسـير الاسـتيلاء عليـهما في الوقت الحاضر على الأقل، وقرر ابـن همشـك -الـذي كـان يعيـش حالـة مـن التشـنج والغليان تحت هاجس الانتقام من قبل الموحدين في أعقاب احتلالهم قرمونة -أن يسير إلى غرناطة للاستيلاء عليها، واتصل سراً مع يـهود المدينـة- وهـم الذيـن أعلنـوا اسـلامهم ظاهراً وطغت فيها مصالحهم المتجذرة على سطحية التجربة في الاسلام -ومـع حليفـهم

---

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٨٣.

(٢) ومن هذه الشروط: طلب الأمام لاعيان المدينة وجميـع سـكانها، وإكرامـهم، المصـدر نفسـه، ص: ١٨٤.

(٣) قرن المعزة: برج بقرمونة، المصدر نفسه.

(٤) البيدق: أخبار المهدي بن تومرت، ص: ١٢٥.

(٥) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٨٥.
ولأول مرة يظهر ابن صاحب الصلاة بالأندلس بقرمونة، ولعله كان في ركب المجاهدين.

(٦) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:١٨٦؛ ابن خلدون: العبر، ج٤، ص:٢١٣.

ابن دهري.[1] ولقد تم البحث معهم حول الطريقة التي يتم بها الاستيلاء على غرناطة؛ وفتحوا له باب ربض المدينة، فاقتحمها ابن همشك ليلا، وفوجئ الموحدون بداخلها بالاقتحام، وهرعوا إلى القصبة يتحصنون بها، وعدوهم يشدد الحصار عليهم، ويلح عليها، ولكنها استعصت عليه، فبعث يستنجد بابن مردنيش يستعجله، ويطمعه في اكمال فتح المدينة.[2]

قام ابن همشك في خلال هذه الفترة باحتلال القصبة الحمراء الواقعة في جبل السبيكة الموازية لقصبة غرناطة.[3] ويبدأ من موقعه يشدد الحصار على الموحدين، ويقذفهم بالقذائف الحجرية، ويعذب الأسرى على مرأى منهم، وربما قذف بعضهم بالمنجنيق[4]، واستطاع الأخيرون من جانبهم الصمود والمناورة، ريثما تصلهم النجدات التي طلبوها؛ وقاموا بهدم الجسر الذي يربط بين القصبتين، وكانت قد ارسلت معونة عسكرية فوريه من اشبيلية تحت قيادة ابي محمد عبدالله بن أبي حفص، واحداً من أشهر القادة العسكريين التي تفتخر بهم الدولة، وعندما حملت الأخبار النبأ إلى أمير المؤمنين

(١) كان ابن دهري صهراً لابن زيد مشرف غرناطة (ربما كان بمثابة رئيس ديوان المحاسبة)، وقد استطاع ان يجمع حوله طائفة من اليهود المتظاهرين بالاسلام، والنصارى المعاهدين وعليه اعتمد ابن همشك في التآمر على غرناطة؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة،ص:٥٠؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣١٩. ولما تيقن الملمثون في غرناطة استقرار الموحدين في اشبيلية وقرطبة، وباقي الغرب الاندلسي، جفل عنهم الناس فشعروا بوحدتهم وانعزالهم، وأنه لاطاقة لهم بالتصدي للموحدين عندها اتصل زعيمهم ميمون بن يدر الوالي المرابطي بعبد المؤن في مراكش وطلب منه الصلح، والعفو، ودخلوا جميعاً في دعوة التوحيد، فضمها الخليفة من يومئذ إلى سبتة، وجعل عليهما ابنه ابا سعيد واليا سنة (٥٥١هـ/ ١١٥٦م)؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:٢٢، ٢٣؛ ابن أبي زرع: الانيس المطرب بروض القرطاس، ص١٩٦؛ غير أن اهل غرناطة نكثوا البيعة اثر غياب ابي سعيد بعيداً إلى مراكش وغدروا بالموحدين؛ إذ اتصل ابن دهري وصهرة ابن زيد مشرف غرناطة، واستطاع الاثنان ان يجمعا حولهما طائفة من اليهود المتظاهرين بالاسلام والنصارى المعاهدين وبعض المتمردين من اهل المدينة وعليهم اعتمد ابن همشك في التآمر على غرناطة سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦٠م؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:١٨٦-١٨٨؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:٤٩-٥٠؛ الكامل: ابن الاثير، مج٩، ص٧٨، ٧٩.

(٢) المصادر نفسها والصفحات نفسها.

(٣) قصبة غرناطة يعني بها القصبة القديمة التي احتلها الموحدون واعتصموا بها ، وتقع في العدوة الغربية من غرناطة؛
ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:١٨٩.

(٤) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

بمراكش، اهتز لفداحة الخطب، وعلى عجل كلف ابنه أبا سعيد على رأس جيش لانجاد غرناطة، لتعزيز المعونة السابقة، وعبر البحر، واجتمع اثر وصوله مالقة بجيوش اشبيلية، حيث سارت مجتمعة نحو غرناطة، حتى وصلوا إلى مكان يعرف بمرج الرقاد.[1] وكانت تعسكر في الجانب المقابل قوات ابن مردنيش وابن همشك، وحلفاؤهم من النصارى بقيادة الأقرع (الفار رودريكيت)Al var Rodriguez ، ويرافقانه ايرمانكوا السابع Ermengaud V!!ويسمى القمط، وأخوه كوسيران دوصالCucerand de sales .[2]

اقتربت الجيوش الموحدية من غرناطة، ودون تحوط اصطدمت بقوات ابن مردنيش وحلفائه؛ فانهزم المسلمون، وسقط القائد الشيخ أبو محمد عبدالله بن ابي حفصة قتيلا على أرض المعركة، وهرب أبو سعيد ناجيا بجلده إلى مالقة، بعد أن فر زهرة جنده غرقا وقتلا وأسرا، والموحدون في القصبة ممتنعون ينظرون إلى بني جلدتهم،ولم يثبط ذلك من عزائمهم، بل كان شاحذا لهم على الصبر والصمود.[3]

وقع هذا الخبر على مسامع عبدالمؤمن وهو يتسقط الانباء بمدينة سلا)، وقع الصاعقة، ولكن لم يخرجه عن حد التماسك إلى حيز الجزع، لذا لم يلتفت كثيرا بحزن إلى عمق المأساة، بل بقي رابط الجأش، وبرّر ذلك شهرته كفاتح لا يغلب. فحجم المصيبة، وجند جيشاً على جناح السرعة، يضم كثيراً من عرب بني سليم، ونخبة ممتازة من كل قبيلة، يقوده ولده أبو يعقوب يوسف، ويصحبته القائد أبو يعقوب يوسف بن سليمان داهية الحروب في عصره، ومستشار الخليفة العسكري. فاجتازوا المضيق الى الجزيرة الخضراء، واجتمعوا بالسيد ابي سعيد بمالقه وسار الجميع نحو غرناطة بحذر ويقظه تامتين حتى انتهيا إلى مكان يفصل بين الجيشين المتعاديين (وادي حدارّه)[4]Darro .

---

(١) مرح الرقاد: مكان قرب غرناطة على بعد ستة كيلومترات من قريه الطرف (Atarfa) في سفح جبل البيرة. (Sierra de Elvird) على مقربة من نهر شنيل، ومقابلها الحديث هو (Majorrocal أو Merrojal)

ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:١٩٢،

ابن عذاري: البيان المغرب ق٣، ص:٣٣

(٢) المصدر نفسه؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣١٩.

(٣) ابن الاثير: الكامل، مج٩، ص:٧٨.

(٤) هو اسم النهر الذي يخترق غرناطة، او جدول يتفرع من النهر شنيل، وكان في القديم يحمل اسم بحر القلزم؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص:١٩٥.

ثم تقدم الموحدون إلى نهر شنيل قريبا من غرناطة، وابن مردنيش وحلفاؤه يرقبون تحركاتهم غير آبهين بهم، وقد ملكهم الغرور، فلم يأخذوا للموقف اهبته، فباغتهم المسلمون في فجر يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر رجب سنة ٥٥٧هـ/ الثاني عشر من تموز ١١٦١م، وانقض المغاربة بهجوم عام جريء على معسكر ابن سعد وحلفائه قبل وضح النهار؛ فساد الارتباك والخور قوات ابن مردنيش، ولم تستطع الصمود والمقاومة، وانكفأوا يهربون بغير نظام ودون وعي، وحاولوا عبثا الاتصال بسيدهم الذي كان على الجانب الآخر للوادي (كقوة احتياطية)، فتردى أغلبهم إلى حافة الوادي ولقي مصرعه، على مرأى من ابن سعد، وهو ينظر إليهم وهم يقتلون، دون أدنى حركة لانجادهم، مسوّغا ذلك بوجود منحدر سحيق بينه وبينهم، وكانت المعركة حاسمة خسر فيها الحلفاء كثيرا من قادتهم؛ فسقط الأقرع النصراني[1] Alvar Rodriguez صريعا في ميدان المعركة ومعه ابن عبيد صهر ابن مردنيش[2].

ودخل الموحدون غرناطة في وسط النهار من اليوم نفسه، واستولوا عليها، واجتمعوا بالمحصورين بالقصبة، وتراجع ابن مردنيش فارا بجلده تاركاً وراءه كل شيء يقع اسلاباً وغنيمة بيد الموحدين، فأذعنت المناطق المحيطة بغرناطة وقدمت الطاعة[3].

وبعد تصفية الجيوب الثائرة في غرناطة وما حولها. استأنف الموحدون زحفهم جهة مرسية معقل الثائر الاخير، وهو الأكثر تحصنا والأقدر على الصمود، فحشد ابن سعد أكثر ما يستطيع من الجنود والمرتزقة النصارى، واعترض طريق الموحدين في سيرهم نحوه، لكن الموحدين انحرفوا في مسيرهم إلى الجهة الشرقية من لورقةLorca ، ثم نزلوا الفحص

---

(١) كان القادة النصارى الذين اسهموا في هذه المعركة ثلاثة، الأول: الفاررودْ ريكيث الذي عرف في المصادر الاسلامية تحت لقب الأقرع، والثاني ايرمانكو السابع Ermengaud V11 وسماه ابن صاحب الصلاة القمط أرجالUrgel ، والثالث هو أخ ايرمانكو السابع المسمى كوسيران دوصال Caucernad de salesولم تسعفنا الروايات الا بمصرع الأقرع في هذه المعركة، أما هذان الاخوان فقد توفيا معاً في سنة ٥٧٩هـ/ ١٠٨٣م.

ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:١٨٨، ويذكر البيذق: كتاب المهدي ابن تومرت، ص: ١٢٦، أنه قتل في هذه المعركة سبعة من شيوخ العرب وزعمائهم.

(٢) المصدر نفسه، ص:١٩٨-١٩٩.

(٣) المصدر نفسه، ص:٢٠١؛ ابن الاثير: الكامل، مج٩، ص:٧٩؛ المقّري: نفح الطيب، ج٦، ص:٢٥٤؛ ابن عذاري البيان المغرب، ق٣، ص:٥٣؛ غير ان ابن ابي زرع: يجعل استرجاعها سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م، ولعله يعني استرجاع المرية، ابن أبي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:١٩٦؛ لكني أميل إلى الرأي المثبت في المتن.

المسمى بالفندوق[1] Alfundun ، متجنبين الصدام معه. فارتد ابن مردنيش بقواته نحو مرسية لظنه ان الموحدين يقصدونها، وأستأنف الاخيرون السير حتى مشارف مرسية، وكان ابن سعد بقواته في انتظارهم على بعد عشرة أميال منها، ظهر يوم الجمعة، ٧ ذي الحجة سنة ٥٦٠هـ/١٥ اكتوبر ١١٦٤م[2].

نظم الموحدون صفوفهم من القبائل المغربية، والعرب من بني هلال ورياح، وكان العدد التقريبي للجيشين متساويا؛ ويقدر جيش المغاربة باثنى عشر ألفاً، بينما جيش ابن سعد بثلاثة عشر الف مقاتل، ونشبت موقعة بين الطرفين، فتمزق فيها جيش مرسية وجنحت فلوله إلى داخل المدينة، وتابعت قوات الموحدين سيرها نحوها، وضربت حولها الحصار حتى نهاية عيد الاضحى، والحوا عما حولها عيثاً وتخريبا لاجبارها على التسليم دون جدوى.[3]

إن ابن مردنيش لا يزال غير مأخوذ بحجم الخطر الذي بدأ يقتحم جذور سلطته الممتدة لعشرين سنة خلت، ولم يشأ أن يتخلى عن ثقته بنفسه، إذ اصبحت مظهرا من المكابرة كلما شعر بالظروف لم تعد كما في الماضي. فقد بدأت تتخلى عنه احلافه من النصارى ومن أعز اقربائه، "وظهر التقصير به وعدم المعونة لمذهبه... وهو مكبود مفؤود، قد أسلمه القريب والبعيد، وتحقق الانحراف، والميل إلى الموحدين والانعطاف"[4] وهكذا هبت عليه رياح الخطر المقلقه من الداخل ومن الخارج.

لم يهدأ ابن سعد على الرغم من الهزائم والملاحقة التي ألمت به، فأرسل بعض قواته من النصارى للإغارة على مدينة رندة[5] Randa ، حيث اكتسحت ضواحيها اسرا وسبيا، ولما علم والي غرناطة بذلك، وجه جيشي الأندلسيين والموحدين، وطاردوا النصارى الى الأوعار، وقد تسنموا احد الجبال في وادي آشي هروبا من الموحدين، وتسلق الآخيرون الجبل في أثرهم، ودارت هناك رحى معركة حاسمة، انتصر فيها الموحدون، وهربت فلول

---

(١) الفندوق: يقع جنوب قرطاجنة شرقي مدينة لورقة؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٢٧٤:٢٦٩-٢٨٦.

(٢) المصدر نفسه، ص:٢٧٣؛ ابن ابي ذرع: الانيس المطرب، ص:٢١٠.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٢١-٣٢٢؛
ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٢٧٤، ٤٠٦- ٤٠٧.

(٤) المصدر نفسه، ابن صاحب الصلاة، ص:٤٠٦.

(٥) رندة: تقع بين اشبيلية ومالقة؛ ياقوت: المعجم، ج٣، ص:٧٣؛ وكانت القوات النصرانية بقيادة جراندة(Giraldo) .

ابن مردنيش، وتردت من الحافات الشاهقة "وتكسّرت أعضاؤهم"، واصبحت مزقا مبعثرة، وأتى على الباقي القتل والأسر والسبي، واستاقوا منهم ثلاثة وخمسين أسيرا، ضربت اعناقهم في مدينة غرناطة سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م[١]. لذلك ساءت علاقة ابن سعد بكبار رجال دولته، وأعوانه، فصب عليهم جام غضبه، وعذبهم مما اضطرهم إلى الثورة عليه.[٢] واستعمل مع اولئك الذين اتهمهم بالتمرد أنواعا بشعه وغريبة من القتل؛ منهم من بنى عليه حائطاً وتركه حتى مات جوعا وعطشا، كما حصل لا بني الجذع وزيريه[٣]. وآخرين اقتلع عيونهم[٤]، وقتله لابن صاحب الصلاة الغرناطي بصورة بشعة[٥]، وأخرج كثيرا من أهل مرسيه، وأسكن النصارى دورهم وجلب جموعا منهم اتخذهم بطانة له وأنصارا.[٦] وفي ذلك يقول ابن الخطيب: "فقد ابتنى ابن مردنيش لجيشه من النصارى منازل معلومات، وحانات للخمور، وأجحف برعيته..."[٧].

كانت دولة ابن مردنيش تمر آنذاك في مرحلة انعطاف حتمي، لم يكن من السهل التصدي لها أو التنبؤ بمستقبلها، مهما اتصف ابن سعد بالمقدرة والكفاءة؛ اذ كان عظيم القوة في نفسه شديد الأسر[٨]، في تركيب بنيته، أصيل الشهامة والفروسية، ينادم كبار الأبطال، ومشاهير الفرسان، ومساعير الحروب، فيعاقرهم الخمر ويعاطهم الكأس"... وكان ظاهر النجدة كثير الغناء..."[٩].

---

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٣٠٦-٣٥٧.

(٢) المصدر نفسه، ص:٢٨٨-٢٩٠.

(٣) لم تهتد بعد الاطلاع على المصادر المعاصرة للاحداث، لاسم هذين الوزيرين اللذين تعرضا لهذا المصير الرهيب، وكل ما عرفناه ان ابن مردنيش خرج عن طوره، فأخرج اهل بلنسية منها، وأسكنهم بظاهرها، ثم عمرها بالنصارى، واتباعهم واعتزم ان يقوم بنفس العمل في غير بلنسية؛ ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص:٢٦٨؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٢١؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٣٨٨.

(٤) ابن الخطيب: أعمال الاعلام، ج٢، ص:١٢٤.

(٥) الغرناطي: هو أبو عبدالله، من العلماء المبرزين، ومن شيوخ ابن الأبار؛ المن بالامامة، ص:٣٨٨؛ ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص:٢٦٨؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٢١.

(٦) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٣٨٨؛
المراكش: المعجب، ص:٢٦٢.

(٧) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج٢، ص:١٢٤.

(٨) الأسر: شدة الخلق؛ المعجم الوسيط، ج١، ص:١٧، المكتبة العلمية، طهران، لا.ت.

(٩) المراكشي: المعجب، ص:٣٠٦.

فهذا ابن همشك احد أبرز قادته، وذراعه الأمني، وبعد أن ازدادت سـخونة الجو حوله، يتخلى عنه وقت المحنة ويعلن الحرب عليه.[1]

الا أن السبب الأوضح والأشد خطورة على ابن سعد، هو الارتجـاج العسكري، وخلافه مع صهره ابن همشك الذي خافه، وانقطع عن زيارته، وزاده خوفـا منـه وفزعـا تصفيته السابقه لأتباعه، وكانت بمـرأى منـه، وطلاقـه ابنتـه، وبـدا يشـن عليـه الغـارات المتواصلة[2].

وتأكد ابن مردنيش من غدر صهره، وانحيازه إلى الموحدين واستعدائهم عليه، وكان هذا بمثابة الانكفاء الأخير اليه، فأعلن التعبئة العامة في طول البلاد وعرضها، وكان يعول في حروبه بصورة اساسية على النصارى الذين نالوا الحظوة عنده، فاستنجد بهم، لكنـهم هذه المرة تقاعسوا عن نجدته، اذ رأوا موقفه في ضمور، والنقمة المتعاظمة عليه من اتباعـه تشتد يوما فيوما، بيد أنهم أمدوه بنحو أربعمائه فارس، وقد وجههم تحت قيادة واحد من اخلص رجاله؛ أبي عثمان بن عيسى إلى مدينة لورقة Loca لحمايتها وضبطها.[3]

ثم رأى ابن سعد من تقاعس حلفائه النصارى ما أقلقه وأهمه، فوهبـهم حصنين مهمين كي يواصلوا منهما غزوبلاد ابن همشك، وهما حصنا بلج والكرس، حيث يقعان شمالي غرب مرسية.[4]

وتصدى ابن همشك بعناد وبصعوبة بالغتين للهجمـة الهائلـة الـتي ارسـلها ضـده صهره وحليفه الأول، وعلـى أثرهـا طلـب النجـدة مـن الموحديـن، وتوالـت استغاثاته والحاحاته.[5]

لكن الموحدين لم ينجـدوه في الحـال، بـل تريثـوا بعـض الوقـت، ربمـا لشـكهم في اخلاصه، واختبار مدى صبره وصدق توحيده. ولما ثبت لديهم صدق نيته كُتـب الشـيخ المرحوم أبو حفص من قرطبة إلى حضرة الخلافة معينا لابن همشك بكتابه، ومصدقـا لـه في ما استغاث به من عدوه[6].

---

(1) المقّري: نفح الطيب، ج٤، ص:٣٧٨.
(2) يحكي أن ابنة همشك وزوج ابن سعد، انها سئلت عند طلاقها عن ولدهـا، وإمكـان صبرهـا عنه فقالت: ُجرو كلب ابن كلب لاحاجة لي به؛ ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، هامش ١ ص:٣٨٩.
(3) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٣٠٤.
(4) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٤٨٩، ٤٩٠.
(5) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٢١.
(6) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٣٩٩.

استجاب عاهل المغرب للصراخ محاولاً التخفيف ما أمكنه عن حليفه الجديد، فأرسل صفوة المقاتلين المغاربة، وعلى رأسهم أخواه أبو حفص، وأبو سعيد، ومن الأندلسيين المحترفين الشجعان القاطنين بمراكش، بقيادة الفارس الذائع الصيت ابي محمد سيد راي بن وزير، وأخيه أبي الحسن علي، وعبر الجميع البحر إلى الاندلس، ووصلوا اشبيلية سنة٥٦٦هـ/ ١١٧٠م.(١)

نهض ابن همشك في ثلة من أصحابه المخلصين، والتقى الشيخ ابا حفص، واجتمع معه في اشبيلية لبحث خطة الحرب واختيار الزمان والمكان.(٢)

وقرر الجميع الزحف نحو مرسية، مقر الثائر ابن سعد، وضربوا عليها الحصار، وفي اثناء ذلك اعلنت كثير من المواقع والمدن والحصون ولاءها للموحدين(٣) فثار أهل لورقة، وثارت مدينة المرية بزعامة أبي عبدالله محمد بن مردنيش المعروف بابن صاحب البسيط وهو ابن عم محمد بن سعد حاكم شرق الأندلس، وزوج اخته، إذ أعلن طاعته للموحدين، وانضم اليه ابو ايوب محمد بن هلال الشرقي حاكم جزيرة شقر، وألقيا القبض على القائد العسكري ابن مقدام، وتمت تصفيته بأمر من أبي حفص نزولاً عند رغبتهما، وقد أمدهما بجيش مغربي اكمل احتلال المرية.(٤)

ولما علم ابن سعد بانحراف احد أهم المقربين اليه ابن عمه السالف الذكر، أصابه الذهول والتشنج، وفقد توازنه والسيطرة على أعصابه، وتصرف بانفعال بعيد عن الكياسة والتعقل، وجمع أخته واولادها "فأخذهم ابن الراعي الموكل بالعذاب منه بالناس، وحملهم إلى البحيرة بمرسيه المتصلة بالبحر بالقرب من بلنسية، وأدخلهم قاربا.. فلما توسط بهم البحيرة المذكورة، أغرقهم في البحر على أبشع حال، واشنع مقال، واختل ذهن ابن مردنيس في أثر ذلك... وعاد صبحه كالليل الحالك، وفزع من إذايته أهله وقرابته وشيعته، واختلت جبايته وحالته."(٥)

---

(١) المصدر نفسه والصفحة نفسها؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٢١.
(٢) المصدر نفسه: ابن صاحب الصلاة، ص:٤٠٣.
(٣) من هذه المواقع حصن الج، يقع إلى الغرب من مرسية، ومدينة بسطة: تقع إلى الجنوب من الورقة، وجزيرة شقر، تقع إلى الجنوب من يلنسيه، وأقر على الأخيره أبو أيوب حاكمها السابق، من قبل الموحدين؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:١٤٩، ابن الأبار: الحلة السراء، ح٢، ص:٢٦٨.
(٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٤٠٧.
(٥) ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، ص:٢٥١؛
ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٤٠٧.
البيدق: أخبار المهدي ابن تومرت، ص:١٢٦.

استغل ملك أراجون الحالة النفسية التي عليها ابـن مردنيـش، وامتـلاك الموحديـن أكثر بلاده، فخرج بجيش واحتل عدة مواقع متاخمـة، وألح في أراضـي بلنسـبة براوبحـرا، وكان رد ابن مردنينش على ذلك عنيفا، حيث سير حملة برية واخرى بحرية، بقيـادة أخيـه الرئيس أبي الحجاج، وابن القاسم قائد الاسطول، هاجما طرطوشـه وطـرّ كونـة، وهزمـا النصارى، وأجلوهم عن مواقعهم في بلنسية وخارجها، لكن رياح النصر هذه هبت ريحـا صرصرا عاتية، اذ سقطت بلنسية، بيد الموحدين، واستولوا على الجزء الاكبر من اراضـي ابن مردنيش، وحاصروا مرسيه، المرحلة الأخيرة في مشوارهم،[١]

وقرر الامير أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن تعزيز مركز جيشه في الاندلس بقيادة السيد أبي حفص، فأعلن التعبئة العامة، واستجاب لدعوته جموع العرب من افريقية،[٢] ، وكل قادر على حمل السلاح من الموحدين ، فساروا جميعاً مائة الف او يزيدون وعبر بهم البحر إلى الاندلس بـ ٢٧ رمضان سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠، ووصل اشـبيلية ١٢ شـوال مـن العام نفسه، وكان باستقباله اخوه أبو حفص، كما سأذكره لاحقاً، وقد عاد مـن الحصـار لملاقاته بجموع الاندلسيين، وفي مقدمتهم الاعيان والقادة من شـرق الاندلـس، إذ أعلنـوا الطاعة والولاء "فأنعم عليهم أمير المؤمنين.. ببركة عظيمـة العـدد وكسـوة كاملـة للـرأس والجسد... وأحسن الأمـر لكـل مـن وصـل معـه مـن الأجنـاد الأندلسـيين... وسـلموا وبايعوا[٣] .

وانتهز ابن مردنيش فرصة غياب القائد الموحـدي، اذ خـرج مـن محتجـزه مرسـية، وتوجه بقواته قاصداً جزيرة شقر لاستردادها من القائد الشـرقي ابـن هـلال، واسـتنصر اخاه يوسف لمساعدته، غير ان الأخير اظهر تقاعسه، وعدم اكتراثه بطلـب أخيـه، فتيقـن ابن مردنيش من انحراف اخيه عنه وميله نحو الموحدين.[٤]

لم يعد ابن سعد ذلك القائد الذي تستهويه المغامرة، وركوب المخاطر، على الرغـم من الحياة السياسية التي عاشها في أجـواء الحـرب؛ لزومـه لابـن عيـاض، وتقريبـه لابـن همشك، وتقديره للنصارى، لذلك رسم لأولاده وخلفائه من بعده، خطة العيش مرحليا مع الموحدين، طالما اصبحوا هم القوة الوحيدة في شبه الجزيرة والمغرب.[٥]

---

(١) ابن الابار: الحلة السيراء، ج٢، ص:٢٦٦-٢٦٧

(٢) ابن صاحب الصلامة: المن بالامامة، ص: ٤١٤- ٤١٧.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤٠٧-٤٠٩؛ اب خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٢٢.

(٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤٠٦.

(٥) ابن الخطيب: الاحاطة، ج٧، ص:١٢٧؛ المقّري: النفح، ج٦، ص:١٦٠.

وبعدها انكفأ مكلوم القلب يجتر مغايظه وهمومه إلى مرسيه راضيا بالحصار مستسلما للأقدار، واستمرت الحالة في هذه المدينة المنكودة، مضطربة مشوشة عدة شهور، الى أن اشتدت عليه علته، وحضرته منيته، فتوفي في العاشر من رجب الفرد سنة ٥٦٧هـ. ١١٧١م، وله من العمر ثمانية وأربعون سنة.(١)

أما السلاوي الناصري فينقل لنا خبر موته فيقول: 'ولما نزل أمير المؤمنين يوسف باشبيليه خافه محمد بن مردنيش، وحمل على قلبه، فمرض ومات، وقيل ان امه سقته السم لأنه قد أساء الى خواصه وكبرائه، فنصحته فتهددها، وخافت بطشه فسمته.(٢)

يتضح مما سبق ان ابن مردنيش عانى في تلك الفترة العصبية من أخريات أيامه كثيراً من المحن والكوارث؛ اذ انصرف عنه أكثر قادته وأعوانه، وخرجت معظم أراضيه من قبضته، ودخلت سياسة الوفاق قلوب الناس من رعيته، وقد أدمتها مسلسلات الحروب الطويلة، فأصيب بالذهول وأصبح عاجزاً عن اتخاذ القرارات السليمة، وافتقد السيطرة على أعصابه، وربما مات غما وأسى وهو يعاني مرارة الحصار، بعد سنوات نافت على الخمس والعشرين، قضاها ابن مردينش في صراع مع أعدائه من المغاربة الموحدين ومعهم الأندلسيون، بالاضافة الى النصارى حلفائه المرحليين. وقد ادركته الشيخوخة قبل أن يصل اليها ويحين الأوان؛ فلم يكن قد تجاوز الثامنة والأربعين من العمر عندما غاب عن المسرح السياسي لابنه أبي القمر هلال، اذ وقف الاخير عاجزاً أمام خط المواجهة الذي سار فيه والده متعثراً، والتصدي لدولة لا زالت في عنفوان شبابها، لذلك استجاب لنصائح أبيه ومستشاريه(٣).

تفاوض أبو القمر مع الموحدين، ودخل في طاعتهم، فرحب بنو عبد المؤمن بالعرض؛ اذ كانت ظروفهم العسكرية مواتية آنذاك، وخف الشيخ أبو حفص بعسكر ضخم، وتسلم بلاد شرق الأندلس، وأصدر بناء على أوامر الخليفة عفواً عاما للمدنيين والعسكريين على السواء، وعاد ومعه أبو القمر هلال وأهل بيته ورجال دولته الى اشبيلية. وسير الخليفة الذي كان ينتظر هناك، أخوية أبا زكريا يحيى، وأبا ابراهيم

(١) المقّري: النفح، ج٦، ص:١٦٠، ٢٦٩؛ ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص:٢٦٨؛ اما المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٦، يذكر وفاة ابن سعد سنة ٥٦٨هـ/ ١٢٦٢م.

(٢) السلاوي الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:١٥٠؛ ويتفق معه على ذلك، ابن خلكان: الوفيات، ج٧، ص:١٣١.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص: ١١٤.

اسماعيل، على رأس وفد يليق بمقامهم، لاستقبال أبي القمر وحاشيته خارج المدينة، وقد وصلوها مساء.[1]

وقد تقدم أبو القمر للتسليم على الخليفة ومبايعته بحضور كبار رجال الدولة، أولهم أبو عثمان سعيد بن عيسى قائد السلطة العسكرية وزعيم الثغر. ثم نزل ابن مردنيش بقصر دار الضيافة، قصر ابن عباد[2]، وأنزل أصحابه في الدور المتصلة به، وقد أعدت لهم الفرش والبسط والمطاعم والمكارم والمشارب... ورحبت بهم المملكة الخلافية والدولة الامامية...".[3]

لقد نال بنو مردنيش من الحظوة والاعتزاز عند الخليفة أبي يعقوب وخليفته، ما لم ينلها ثائر أو مخالف للملك قبله أو بعده؛ فعين الأمير أبا الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش، والياً على بلنسيه وجهاتها، وقدم غانم بن محمد بن سعد، قائداً لاساطيل المغرب ومقره سبتة، وجعل هلالا مستشاره الأول والأثير عنده، وهو الذي يقول فيه، "هذا المحب الصادق"، وقد تزوج الخليفة صفية بنت محمد بن سعد، وتغلبت على قلبه، حتى كانوا يضربون المثل بحب الخليفة للزرقاء المردنيشية، وتزوج الأخرى ابنه أبو يوسف يعقوب.[4]

ويتضح أن ابن مردنيش ذلك الثائر الذي قضى خمسة وعشرين عاماً في عداوة موصولة للمغاربة عموماً، كان يحلم بتأسيس دولة مستقلة على غرار الدولة المروانية السابقة. ولكن الدولة التي تبنى شهرتها على غرار اسماء قادتها، وعلى الدس والوقيعة بين رجالاتها، وتبتعد عن مفهوم الحكم الديمقراطي في شكل المؤسسة الدائمة المنفصلة

---

(١) المصدر نفسه؛ المراكش: المعجب، ص: ٣٦٢، ٣٦٣؛ المقّري: النفح، ج٦، ص ١٦٠.

(٢) أنشأ المعتمد بن عباد في اشبيلية عدة قصور رفيعة منها؛ القصر المبارك، والقصر المكرم، وقصر الثريا، والقصر الزاهي، وقصر الزاهر، وقصر سعد السعود، ولعل القصر الذي استقبل فيه أبو القمر هلال هو: قصر المكرم؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤٦٤ - ٤٦٥؛ المراكشي: المعجب، ص: ١٩٠؛ ابن بسام: الذخيرة: ج٣، ص: ٧٥، ٤٣٠؛ ج٦، ص: ٧٥٩، المقّري: نفح الطيب، ج٦، ص: ٤٨، ٥٤، ٥٥، ٥٦.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤٧٢؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٢٢.

(٤) المراكشي: المعجب، ص: ٣٦٢، ٣٦٣؛
ابن الخطيب: اعلام الاعلام، ج٢ الى : ٢٧١؛
ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢١٢؛
المقري: نصح الطيب، ج١، ص: ٣٣٢.

كلية عن الاشخاص الذين يطبعون مجتمعهم بطابعـهم، تعـاني مـن سـلبياتهم وتضعـف بضعفهم، ثم تغيب مع غيابهم. ويلوح أن ابن مردنيش خير مثـل علـى هـذا النـوع مـن الحكام، رغم أن الشعب التف حواليه مدة طويلة؛ ربما لتجذر الكراهية الموغلـة في القـدم بين الشعبين بعضهم بعضاً[1]، ورفضه مذهـب الموحديـن القـائل بعصمـة ابـن تومـرت، وبتأويل الآيات القرآنية، ومحاربة فقه مالك، ولعل هذا السبب الأخـير هـو نفسـه الـذي جعل ابن غانية يجد التفاقا وتفانيا من أهل افريقية في محاربة الموحدين طوال خمسين عامـاً متواصلة.

٣- صراع الموحدين مع نصارى اسبانية:

كانت مدينة المرية إحدى اخطر التجمعات البحرية المسلحة والمناوئة للنصـارى، اذ يؤلف سكانها امارة مستقلة بأسم رواد الجهاد البحري. لذا لم يخف الجنويون قلقـهم مـن نشاط سكان هذا الثغر؛ حيث كان يخرج منها المحاربون ويقومون بسلسـلة مـن الهجمـات المدمرة ضـد النصـارى في عـدة منـاطق؛ جليقيـة، واشـتويريش، وبرشـلونة، والبرتغـال، وشواطيء فرنسا، وايطاليا الجنوبية، وتتسرب غاراتهم احياناً في عمق الأرض الكبيرة الى شواطيء بيزنطة[2]. وقد توغلت غزواتهم داخل هذه المناطق، حيث حققت قـدراً كبـيراً مـن النجـاح؛ بفـرض السـيادة العربيـة علـى جـزء منـها، والزامـهم بدفـع الضرائـب المفروضة[3].

لم يكن النشاط الاسباني، والنصراني على العموم قد توصل بعد الى حد التصـدي للقوى البحرية الاسلامية المتمثلة بأساطيل المريـةAlmeria [4]. إذ كـانت هنـاك بدايـات تتعثر، ثم تعيد المرة تلو الأخرى دون كلل أو نصب، رغم الدور النـاجح الـذي قـام بـه المرابطون ثم الموحدون من بعدهم، غير أنهم استطاعوا رسم طريق التحرر، وحمل ناقوس الاسترداد كلما خبت جذوة في بلدة عربية عبر تلك السنين الطويلة[5].

---

(١) المقّري: نفح الطيب، ج١، ص: ٢٣٣،
ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٥، ص: ٣٢٤، "فلا تجـد اندلسـياً الا مبغضـاً بربريـا ولا بربريـاً الا مبغضاً اندلسيا...".

(٢) الأرض الكبيرة: هي فرنسا؛ المراكشي" المعجب، ص: ١٣ هامش ١؛ ابن خلـدون: العـبر، ج، ص: ٢٥٣-٢٥٥.

(٣) المصادر نفسها والصفحات نفسها.

(٤) المرية: مدينة بحرية تقع في شرق الأندلس؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص: ١١٩.

(٥) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٢٥٣ - ٢٥٥.

قام أهل المرية بانتقاضتهم، وخلعوا طاعة عبد المؤمن، وقتلوا نائبه يوسف بن مخلوف، وأقرو عليهم أبا يحيى بن الرميمي[١]، سنة ٥٤١/ ١١٤٦ منتهزين ثورة المغرب ضد الموحدين بقيادة محمد بن هود الماسي بناحية السوس، وذلك لاسترجاع استقلال الامارة[٢].

فانتهزت قشتالة بصفتها زعيمة حرب الاسترداد انتفاضة المرية، وتحالفت مع الجنويين والأراجونيين والبرتغال، واتجهت كل هذه الحشود جهة المرية سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م، وحاصرتها مدة ثلاثة شهور، ومنعت عنها كل مساعدة برية كانت أم بحرية، فلم تقوَ المدنية على الصمود رغم استبسالها، إذ فقدت كل مساعدة، وبخاصة من سيد شرقي الاندلس ابن مردنيش الذي كان يصارع بيأس قوات الموحدين المتقدمة؛ فاستسلمت المرية في العام نفسه سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م، ودخلها النصارى؛ فقتلوا رجالها، وسبوا نساءها، ونهبوا أموالها، واقتسمها الغزاة في ما بينهم[٣].

هذا النجاح المرحلي الذي حالف النصارى في الاستيلاء على أعظم ثغور بلاد المسلمين في الجزء الجنوبي الشرقي من اسبانية، أغرى الحلف الصليبي كي يتوجه لمساعدة ريمند Raimundo حاكم برشلونة Barcelona في حصاره لطرطوشة Tortosa المدينة الثغرية العنيدة الأخرى، اذ بقيت مستعصية فترة طويلة ترد هجمات الاعداء ببسالة، وقد كانت شوكة في حلوق نصارى برشلونة وأراجون وشواطيء فرنسا على الخصوص. فسقطت سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م، وقام ريمند باحتلال بقية القواعد؛ فاستولى في العام

---

(١) اصل بني الرميمي من بني أمية ملوك الأندلس، ونسبوا الى رميمة؛ وهي قرية من مقاطعة قرطبة؛ ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص: ١٩٨؛ ويذكر ابن خلدون أن بيعة أهل سبتة وصلت عبد المؤمن وهو راحل من فاس فولى عليهم يوسف بن مخلوف هذا، ومن هناك تولى أمر المرية سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٩؛ غير أن ابن أبي زرع يذكر ان عبد المؤمن صدر عن فاس سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م، ويوافقه صاحب الحلل وابن عذاري؛
ابن ابي زرع: الأنيس المطرب، ص: ١٨٩؛ مجهول: الحلل، ص: ١٤٤؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ١٩.

(٢) كانت المرية تابعة الي سبتة؛ ابن عذاري: البيان، ق٣، ص: ٢١؛
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١١؛ وقيل ان سبب قتل الوالي، هو تربصه بقاضي سبتة عياض لممالأته لابن غانية عدو الموحدين، فاشيع ان ابن مخلوف عازم على قتل القاضي، فقام أهل سبتة بتصفية الوالي؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١١.

(٣) المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٧، ٣٠٨؛ ويذكر أن عدد من سبي من إبكار المرية أربع عشرة الف امرأة؛ ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص: ١٧؛ المقري: نفح الطيب، ج٦، ص:٢٥٢.

التالي، على مكناسة (مكنسة)[1] Meguineza، ولاردة[2] Lerida ، وأفراغه[3] Fraga ، وإقليش[4] Ucles وغيرها. وبذلك سيطر على جميع مدن وأراضي نهر ايبرو من منابعه الى مصبه[5].

أثارت هذه الانتصارات الظاهرة الأمل في نفوس النصارى لتفريغ الأندلس كلية من المسلمين، وترتب عليها أن اتفقوا على احياء المعاهدات السابقة بخصوص غزو الأندلس واقتسام اراضيها.

وحين رأى النصارى أن القوة الثالثة للمسلمين قد دخلت الأندلس، وأصبح مصيرهم في خطر أمام صلابة الموحدين؛ ونتيجة لصدمتهم بابن مردنيش وتحالفاته الالتفافية؛ دعا الامبراطور الفونسو السابع ملك قشتالة الى الاجتماع بملك أراجون في مدينة تطيلة[6] Tudela سنة ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م لعقد اتفاقية تفاهم وحسن جوار بينهما كما مر سابقاً[7].

كانت هذه المعاهدة باكورة التكتلات السياسية بين النصارى مع بعضهم بعضاً عند ظهور الموحدين، وتغطية للصراعات الداخلية داخل قشتالة وغيرها - اذ كانت الأسر القوية في قشتالة وليون تضطرم بالحسد والبغض - ومحاولة لتطويق طموحات الممالك النصرانية الأخرى[8].

استنجد نصارى المرية بملك قشتالة، فاندفع جاداً الى نصرتهم، وانضم اليه في طريقه شريكه ابن مردنيش، الحليف المرحلي، وكان ذلك في سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م. لقد

(١) مكناسة الاسبانية: تقع على التقاء نهر سيجري بنهر ايبرو، وهي قاعدة حصينة، ولكن الدفاع عنها غير ميسور، لوقوعها بسهل مكشوف؛ ابن الخطيب: الاحاطة، ج٤، ص: ١٢١؛ ويقول ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص: ١٨١، انها حصن بالأندلس قرب لاردة.

(٢) لاردة، مدينة مشهورة بالأندلس في الجهة الشمالية الشرقية، قرب طركونةTarragona ؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص: ٣٠.

(٣) افراغه، مدينة بالأندلس قرب لاردة، ياقوت: المعجم، ج١، ص: ٢٢٧.

(٤) اقليس (اقليج)، مدينة قرب طليطلة وشنت برية؛ ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص: ٢٣٧.

(٥) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص: ٢٣.

(٦) طليطة: مدينة بالأندلس تقع في شرقي قرطبة، بناها الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص: ٣٣.

(٧) J. F. Ocallaghan, Ahistory of medievel Spain, P, 232 - 233.

(٨) المقّري: نفح الطيب، ج٦، ص: ٢٠٧؛
Baker & Clark, the eutopean in heritance, 3 vels, Exford,1950, p, 399.

عجزت قوات الحلفاء، البالغة ثمانية عشر ألف مقاتل عن التصدي لقوى الموحدين الذين صمموا على فتح المدينة[1]. هكذا فشل الفونسو في تحقيق دعم معنوي لنصارى المرية، وانكفأ يحمل همومه الى بلاده، ولم يقوَ على تحمل الهزمية، فمات غما في طريقه الي بياسةBaeza ، على حدود الأندلس مع طليطلة[2]Toledo ، وقسمت بلاده حسب وصيته بين بنيه، على أن يحكم الأكبر سانشو الثالث مملكة قشتالة، أما الولد الأصغر فرديناد الثاني، فمنح ليون وجليقية واشتويرش. واقتفى سانشو أثر أبيه؛ اذ قام بتجديد معاهدة طيلة سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م[3].

ونتيجة لاعتداءات نصارى اسبانيا المتلاحقة، وبخاصة أهل قشتالة على أرض المسلمين ونشوء التكتلات السياسية ضد الموحدين، وتمرد العصابات الدينية المنفلتة من كل الضوابط العسكرية والاخلاقية، وبعد ان انتهى عبدالمؤمن من تطويع افريقيا، صمم على فتح باقي الاندلس؛ البلاد التي تنبه فيها النصارى الى نبذ الخلاف في ما بينهم، واتحادهم أمام خطر الموحدين الداهم. فأمر الخليفة ولديه، وولاته على الأندلس ببناء مدينة عسكرية بحرية في سفع جبل طارق، فيها من القصور والدور والمنازل، فضلاً عن الجوامع لإقامة الصلاة كما سنشير لاحقاً. وتم البناء في بضعة شهور، وسميت مدينة الفتح لتكون قاعدة عسكرية كبرى لتجمعات جيوشه القادمة من المغرب[4].

عبر الخليفة المضيق الى الجبل في ذي الحجة سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، وأقام في هذه المدينة نحو شهرين. استقبل خلالهما وفود أهل الأندلس، واختبر قوة النصارى بسرايا استطلاعية سريعة وخفيفة الحركة، ثم درس جغرافية الأرض مع مستشاريه العسكريين، فلربما تكون مسرحا لعملياته الحربية الموسعة في الوقت القريب. وعاد الى مراكش في أول عام ٥٥٦هـ/ ١١٦١[5].

---

(١) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٩٦؛ المقّري: نفح الطيب، ج٦، ص٢٥٤.

(٢) Baker & Clark, the european, in heritance, 3 vels, p, 399

بياسة: مدينة اندلسية قرب جيان، وقريبة من ابّدة، ياقوت: المعجم، ج١، ص: ٥١٨؛ طليطلة: تقع جنوب مجريط، علي نهر تاجه سقطت بيد النصارى سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص: ٣٩ - ٤٠.

(٣) J. F. O'Callaghan: Ahistory of medieval Spain, p, 235.

(٤) راشيل أري: تاريخ اسبانية الاسلامية، ص: ٣٣ - ٣٤.

مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٥٥؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٣٧.

(٥) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٣٨، ١٤٧ - ١٧٢؛

ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٩٩.

ثم أخذ عبد المؤمن بعد عودته الى عاصمته يستعد لغزوة كبرى، وبدأ يحشد قوى الدولة وطاقاتها الجهادية للانتقال صوب الخطوة التالية في التحرك إلى عدو الشمال؛ فأمر بإنشاء الأساطيل، وتوزيعها على جميع السواحل المغربية، فرابطت بها أربعمائة قطعة بحرية، منتظرة إشارة الانطلاق، هذا بالاضافة الى إهبات عسكرية برية ضخمة من مختلف القبائل المغربية والعربية والمتطوعة، مع كامل تجهيزاتهم من التموين والاسلحة المتنوعة، واحتشدت له جموع عظيمة في سلا ما يقارب نصف مليون جندي[١]. وكانت معظم قواته وطاقاته لاسترجاع ما احتل من الأندلس[٢].

عقد الخليفة، قبل أن يستأنف مسيره الى الأندلس مجلساً حربياً مع كبار قادته ومستشاريه العسكريين، فوضعت خطة حربية لمقاتلة النصارى، ووزعت أدوارها، اذ أشار عليه القائد الأندلسي محمد سيد رأي بن وزير القيسي، بتقسيم الجيش الى اربع فرق؛ أولاها تكون وجهتها الى غرب الأندلس لمواجهة ابن الرنك أو ابن الريق، وهو الفونسو[٣] Alfonso Enriquez ،وتتحرك الأخرى الى السبطاط[٤] (ليون)Ciudad Rodrigo de Leonلمقابلة الببوج[٥] El Baboso هو نفسهFernand II de Leon ، وفرقة الى طليطلة Toledo لمقابلة الفونسو الصغير[٦]...Alfonso VIII de Castilla ، والأخيرة نحو برشلونة[٧]Barcelona ، فاستحسن الخليفة هذه الخطة، وصادق عليها مع أركان حربه[٨].

---

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٤٣؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ٢١٥- ٢٢٠ ؛ ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٠١ - ٢٠٢؛
الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٤٣ - ١٤٤؛
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٩.

(٢) راشيل أري: تاريخ اسبانية الاسلامية، ص: ٣٥.

(٣) تسمية الرواية: الفونسو هنركيز صاحب قلمرية؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٢١؛
المراكشي: المعجب، ص: ٣٧٢؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٢١٩.

(٤) المصدر نفسه، ابن صاحب الصلاة، ص: ٢١٧؛ تقع السبطاط شرق قلمرية وغربي ابله.

(٥) الببوج: من الذين حضروا معركة الأرك، وربما كان من الأسرى الذين اطلقهم المنصور، وممن غدر بالخليفة الناصر في معركة العقاب، ابن خلدون: العبر، ج٤، ص: ٢٣٣؛
ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٢٢٠.

(٦) المصدر نفسه؛ وهذا الفونسو الذي رأس معركة الأرك مع الببوج، وابن الرنك، وهزموا ثلاثتهم، وثأروا لهزيمتهم في موقعة العقاب سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م؛ ابن خلدون: العبر، ج٤، ص: ٢٣٣؛
ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٢٨.

(٧) برشلونة: تقع على شاطيء البحر المتوسط في شرقي الأندلس؛ الحميري: الروض، ص: ٨٦، ٨٧.

(٨) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٢٢٠.

يتبين أن عبد المؤمن ما كان يرى من حقه أن ينفرد بالأمر، بل يفضل الاستماع الى آراء قادته، والانتفاع بتجاربهم، وبخاصة القادة أصحاب الخبرات العسكرية. وقد قيل، "قتلت أرض" جاهلها، وقتل أرضاً خابرها".

لم تتم هذه الغزوة، إذ بنيما كان الخليفة يتوقل الرابعة والستين من عمره، دعي الى رحلة الأبد، فلبى النداء، وتوفي في العاشر من جمادي الأخرة سنة ٥٥٨هـ/ الخامس عشر من أيار ١١٦٣م، وحمل جثمانه الى تبنمل، ودفن بجوار قبر المهدي[١]. ومن ثم اعطى خليفته أبو يعقوب يوسف أوامره الى الجيش بالانصراف، وتأجيل الغزوة، فلم يتمكن ابو يعقوب من الاستمرار للتأهب للغزو لاختلاف الموحدين في أمر بيعته، اذ توقف عن بيعته نفر من اشياخ الموحدين وبعض اخوته؛ السيد عبد الله صاحب بجاية، والسيد محمد صاحب قرطبة، وخوفا من اتساع الفتنة سرح الجيش الى أن تسوى الأمور السياسية[٢].

كانت وفاة عبد المؤمن فرصة ذهبية لاسبانية النصرانية المتشظية وكانت يومذاك خمس ممالك؛ قشتالة وليون وقلمرية ونا ار وأراجون، وقد مزقتها الحروب الداخلية، فانقذت مرة أخرى من هلاك محقق بسيف طالما جلا به صاحبه الكرب عن المسلمين في افريقية والأندلس[٣].

وفي ظل الفراغ العسكري الذي أحدثه موت عبد المؤمن، ارسل الفونسو السابع، حفيده "نونه" على رأس قوة عسكرية اكتسحت في طريقها رندة، والحت في غاراتها على الجزيرة الخضراء، حتى أطلت على المضيق، دون أن تجد مقاومة تذكر. وانكفأ عائداً الى بلاده، وقد ملأ يديه بالغنائم والاسلاب، فضلاً عما أحدثه من قتل وإرهاب وتخريب[٤].

عندها أدرك الموحدون خطورة الموقف، فبعث الخليفة يوسف جيشاً يتألف من عشرين ألف مقاتل، غالبيتهم من المتطوعة، بقيادة أخيه ابي حفص عمر الى الأندلس، قام بالإغارة على طليطلة، وما جاورها، مقدمة لما يتبعها من نشاطات حربية بقيادة الخليفة

---

(١) المصدر نفسه، ص: ٢٢١، ٢٢٢؛ ابن ابي زرع: الانيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٠٢، ويذكر صاحب الأنيس المطرب، أن عمره ثلاث وستون، بينما المراكشي: المعجب، ٢٨٨، يذكر أن عبد المؤمن مات عن عمر سبعين عاما؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ٥٥.

(٢) ابن عذاري: البيان، ق٣، ص: ٥٨، ٥٩؛ ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٠٨، ٢٠٩.

(٣) R. Altamira, A history of, Spain, p, 163; J. F. Callaghan, A history of Medieval of Spain, p, 235 - 236.

(٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٣٩٧.

نفسه، كون المغرب خط الدفاع الأول لمسلمي الأندلس وهو المستهدف للهجمات النصرانية جميعاً، سواء الاسبانية منها والغربية على الخصوص عبر البحر المتوسط[1].

وكان للجيش الموحدي أصل مزدوج. الجند النظاميون، تقدمهم القبائل المغربية الى الخدمة العسكرية، حسب ترتيب يبين مدى التطور الذي طرأ على الجيش، وهم الجند الموحدون، والهلاليون، وزناته، والمرتزقة والمتطوعون القبليون، اذ يتقدمون المعارك ضد النصاري الاسبان وغيرهم، والحرس الرقيق، والوافدون من مسلمين وأتراك في أغلب الأحيان، وكذلك من اوروبيين نصارى يشكلون جزءاً مهماً من الحرس الخاص للأمراء وعلية القوم، والشرطة[2].

أما القادة فيعينون في أغلب الحالات من خارج التنظيم القبلي، من أعضاء السلالة المالكة، بينما رؤساء الفرق اللامعون كانوا من الجلباء النصارى الذين اعتنقوا الاسلام في الغالب، ما عدا قادة الاساطيل البحرية، التي يتولاها عادة المحترفون المختصون بالبحار[3].

إن البقاء على هذا التنظيم القبلي أكد التخصص الحربي لبعض القبائل، كالهلاليين، اذ اتيح للسلطة بأن تهيء منهم الجند في حالة استنفار قصوى، دون أن تذيبهم في فرقها العسكرية، كونهم ينزعون دائماً الى استقلالهم داخل هذه المؤسسة.

كما كان تنظيم الجند في اثناء المعارك عملا بديعا. يشكل مربعاً عظيماً. ففي الصفوف الأولى يتقدم أشجع العسكريين من حملة الرماح الطوال، ومن ورائهم يقف رماة السهام، وفي الوسط تتهيأ قوة من الفرسان التي اتيحت لها حرية الحركة الى جميع الاتجاهات. ويبدأ الهجوم أولئك المتطوعون الذين نذروا أنفسهم للموت في الجهاد، تحت ظلال قوات خفيفة وخاطفة (الكماندوز)، فإذا اخترق الخصم هذه الحشود صوب الوحدات النظامية المحيطة بالخليفة وهي شارعة اسلحتها متوثبة للقتال، عليه أن يواجه أولاً: حربا بالسلاح الأبيض، ويتقي سيولا منهمرة من السهام تتساقط بكثافة، بالاضافة الى فتك مدفعية الميدان التي تحطم مؤخرة المهاجمين، وتقطع خطوط مواصلاتهم، وثانياً: سرايا من الفرسان مستعدة لكل احتمال تشاغله بمقاومة طويلة النفس. وأخيراً تتقدم

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢١١؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٤٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٩، ص: ١٣٢.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٢٥٥؛ مجهول: الحلل، ص: ١٥٤؛ جغلول: تاريخ المغرب العربي، ص: ٧٥ – ٧٦.

الفرق الاحتياطية وهي صفوة الجيش بقيادة أمير المؤمنين نفسه، ومعه حرسه الخاص، اذ كثيراً ما تتوقف نتائج المعركة عليهم[1].

واستعمل الموحدون آلات حربية متطورة وعنيفة لحصار المدن وتحطيم جدرانها، قلما استعصت على نارهم مدينة أو حصن في أصعب المنحدرات والمفاوز الجبلية[2]. وأهتم عبد المؤمن، وهو الاستاذ المهندس في الفن الحربي[3]، بوسائل الدفاع البحري للتصدي للنصارى، أثناء محاولة نزولهم المياه الاقليمية المغربية، ولضرورة الحركة الدائمة بين افريقية والأندلس، ولنقل مئات الآلاف من المحاربين الى شبه الجزيرة، كل هذا حتم عليه الاحتفاظ بأساطيل نقل قوية فضلاً عن الحربية، افتتحوا بها المهدية، والجزائر الشرقية، وكثيرا من الثغور المطلة على البحار، وبلغت الترسانة البحرية قوة ضاربة في مياه المتوسط خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي[4]. مما دفع بصلاح الدين الايوبي أن يستنجد بها (كما سيأتي ذكره)، طالما عجز عن مواصلة القتال البحري؛ لتفوق المراكب الصليبية، بعد أن هزم جحافلهم البرية، وبقيت سفنهم، وبخاصة أساطيل جنوة وبيزة والبندقية ومرسيليا، تمارس ضغطها على السواحل العربية بغاراتها وقرصنتها الى ما بعد وفاة صلاح الدين[5]. وثمة أذكر الحاح ملوك اسبانية النصرانية للحصول على مساعدات بحرية مغربية، فضلاً عن الاقتصادية[6].

الى جانب هذه المصانع المادية التي تنتج السفن الحربية وما يلزمها من آلات ومعدات، أهتم عبد المؤن برجال البحرية؛ إذ تولى تربية جيل مهيأ للحرب والجهاد، وقيادة الفرق العسكرية، البرية منها والبحرية. فأنشئت المدارس الحربية (الأكاديميات) ابتداء، لكي تحفظ الروح العسكرية بين الموحدين نامية متطورة، وتعين على تزويد القادة الأكفاء بالمحاربين الأشداء. وكان يحشد الطلبة بالألوف، وعلى الخصوص من قبيلة المصامدة، يراعي بينهم وحدة السن، على أحدث الطرق وأقومها، ليكمل التناسق

---

(١) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٢٣٨؛ المجهول: الحلل، ص: ١٥٢.

(٢) مجهول: الحلل، ص: ١٥٢.

(٣) إن عبد المؤمن ركب سفينة حربية وطاف بالمهدية، تفقد حصانتها بنفسه، وقام كذلك وتفقد مدينة الفتح بجبل طارق؛ ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص: ٦٤.

(٤) ابن خلدون: ج١،ص: ١٦٦؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:٢١٧.

(٥) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٨٢؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٣١؛ ابو شامة: الروضتين، ج٢، ص: ١٧ - ١٧٤، دار الجيل، بيروت، لا. ت.

(٦) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

والتجانس بين أصناف الجند. يدرسون سنن المهدي وتعاليمه (الايديولوجية الموحدية)، ويحفظونها عن ظهر قلب[1].

ثم يتدربون على جميع أصناف الأسلحة وفنون القيادة والسباحة، ويدرسون كل ما يتعلق بأسلحة الحصار البرية والآلة البحرية الهجومية منها والدفاعية والأعتدة الفردية بطرقه النظرية والعملية، فأنشأ بحيرة في مراكش تعلوها سفن للتدريب، وكان يعرض هؤلاء الفتيان براعتهم وتفوقهم أمام أمير المؤمنين من وقت لآخر ويخص أولئك الذين برزوا منهم بالبراعة والجرأة، وصفاء بالذهن، بجوائز يخصصها اليهم، فضلاً عن الهدايا الرمزية (الأوسمة)، وعبارات الثناء والمديح المشجعة، يذكي بها هممهم، للحظوة برضى الأمر وعطفه. وكانت مجانية التعليم ميزة اتصف بها نظام الموحدين، وبالأخص في المدارس الحربية التي كانت على نفقة حكومية[2].

وكان أبو عبد الله بن ميمون أحد القادة الناجحين مدة بني عبد المؤمن، أمير البحرية الأندلسية والمغربية[3]، واستمرت هذه القوة المتنامية في تفوقها زمن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٥٨-٥٨٠هـ/ ١١٦٣-١١٨٤م، الذي اهتم بتقوية الأساطيل البحرية، ولنامن مؤشر ابن خلدون، اذ يقول "ولما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة، وملكوا العدوتين، أقاموا خطة هذا الاسطول على أتم ما عرف، وأعظم ما عهد، وكان قائد اسطولهم أحمد الصقلي"[4]. وكان ملك صقلية قد طلب و د أمير المؤمنين، واستعد أن يقدم إليه جزية سنوية دلالة على خضوعه بعد أن خافه خوفاً شديداً، ووصله بهدايا جزيلة؛ منها حجر ياقوت لا يقدر بثمن رصع به المصحف العثماني[5]. ويلاحظ أن مهمة هذا الاسطول، منذ عصر عبد المؤمن لم تقتصر على جهاد

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٧٧.

(٢) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٥٠.

(٣) المصدر نفسه، ص: ١٥٤.

(٤) أحمد الصقلي: أصله من (صدغيان الموطنين). بجزيرة سرويكش. أسره النصارى من سواحلها وربي عندهم، واصطفاه أمير صقلية، وجعله مستشاره. وعندما توفى الأمير وولى ابنه من بعده، تغير على مستشار أبيه، فخافه الأخير على نفسه، وهرب الى تونس، فتلقاه الوالي الموحدي، وأرسله الى العاصمة، فاستقبله الأمير يوسف بالتكريم والترحاب، وولاه قيادة الأساطيل البحرية، فوجه جهاده جهة النصارى، ودوخهم، ووصل الاسطول في زمنه الى أعلى درجات القوة كثرة وتدريبا؛ ابن خلدون، ج١، ص: ٢٥٥.

(٥) المراكشي: المعجب، ص: ٣٦٥ - ٣٦٦.

الأعداء فقط، بل التفت الى قمع حركات التمرد والقرصنة التي كانت منتشرة في عرض البحار، سواء كانوا مسلمين أم نصارى، لضمان احترام التجارة الدولية، وإشاعة الأمن والطمأنينة عبر البحار[١].

ولهذا أدرك ملك أراجون المشغول بالتطورات الداخلية المفاجئة صعوبة تنفيذ خطة الاتفاقات السابقة لاقتسام أرض المسلمين في الوقت الراهن على الأقل، لانشغاله بالصراعات مع بعض الأمراء المحليين في ما وراء البرتات Pyreneec وبرفانسPrevence وقرقشونة وبيزة[٢].

إذ كان يحرضهم امبراطور المانيا لإحداث البلبلة في الامارة. غير أن موت الكونت ريمند المفاجيء سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦٢م، وما أعقبه من تنازل زوجته عن حقوقها السياسية لابنها الفونسو الثانيAlfonso II ، قد جذر اتحاد برشلونة، وأراجون رغم الاختلاف الحضاري بينهما، وهذا شجع الملك الجديد في استهلال حكمه بمحاصرة بلنسيه[٣] Valencia، فأصيب بنكسة أمام أسوارها، حطمت آماله، وهزمت جيشه البري، وأفشلت حملته البحرية سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧٢م، على يد قوات ابن مردنيش الذي استولى الموحدون على بلاده أواخر العام نفسه[٤]. وبذلك أصبح الأخيرون وجها لوجه مع أراجون، فاستولوا على بعض القلاع والحصون الاسبانية، وعادوا أدراجهم محملين بالغنائم والسبي الى اشبيلية. وكانت كل هذه الجهات الساخنة وما تبعهامن معارك مقدمة لصراع طويل بينهما.[٥]

لم يحاول الموحدون والحالة هذه استثمار الخلافات، وانتهاز الحرب الأهلية، وبالأخص في قشتالة، تلك الدولة التي تجردت لحرب المسلمين بشخص رئيسها الامبراطور الفونسو السابع، ومن قبله الفونسو السادس هزيم الزلاقة، اذ كان ابن مردنيش يستحوذ جل اهتمامهم ويبدد كامل جهودهم[٦].

---

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٣٦٧ - ٣٦٨؛ ابن الآبار، الحلة السيراء، ج٢، ص: ٢١٨.

(٢) بيزة: جيل من الفرنج. وهي بلادهم يعرفون بها في ايطاليا؛ ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص: ٢٥٩. قرقشونة: حصن بالأندلس فيه كنيسة شنت. ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص: ٣٢٨.

(٣) بلنسية: مدينة مشهورة بالأندلس تقع شرقي تدمير، وهي برية وبحرية، بينها وبين البحر ثلاثة أميال؛ ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص: ٤٩٠.

(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب القرطاس، ص: ٢١٢ وما بعدها.

(٥) المصدر نفسه؛ عنان: دولة الاسلام، ج٣، ق٣، ص: ٥١ - ٥٢.

(٦) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٣٦٨، ٣٦٩ - ٣٧٢.

ثم أخذ الموحدون من جانبهم يتقدمون في غزواتهم داخل قشتالة، وكان هدفهم قلعة رباح. اذ استولى عليها السليطين[1]، خلال اضطرابات الأندلس على المرابطين أواخر دولتهم، وكانت قد سلمت الى فرسان الداوية للدفاع عنها[2]. لكنهم شعروا بالعجز والخور، ازاء تفوق الموحدين العسكري. ولما أيقنوا بالهزيمة غادروها، وسلموها بدورهم الى سانشو الثالث، ليتولى هو بنفسه حالة الدفاع، فأظهر الآخر جزعه وعجزه، لما يتوقعه وشيكاً من سقوط القلعة بيد المسلمين. فتقدم الراهب ريموند رئيس دير فنتيرة، ورفيق له في السلاح يدعى دياجو فلاسكيز بمشروع، ينطوي على الجدية والتصميم الى الملك، وانضم اليهما مطران طليطلة، وعرض الجميع أن يتولوا مهمة الدفاع عن القلعة، وسرعان ما استجاب الملك، وأبدى موافقته على الخطة، وأنضم اليهم عشرون ألف مقاتل بكامل اسلحتهم، وتجهيزاتهم العسكرية؛ ممن دفعتهم الحماسة الدينية والمصالح الشخصية، ومضوا يعمرون القلعة، وينافحون عنها، بأسم فرسان قلعة رباح Calatrava التي نالت مصادقة البابا اسكندر الثالث على قيامها سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م[3].

ولعبت هذه الجماعات العسكرية التابعة للقواعد الدينية دوراً هاماً في تاريخ الأندلس، إذ كانوا يعيشون فيها من أجل الحرب والدعوة الى سيادة الصليب، أكثر مما يعيشون للعزلة والعبادة. فقد كانت تحارب المسلمين بنشاط متواصل، وبحماس شديد، فتشجع جيوش اسبانية على مواصلة القتال، إذ أن معظم هؤلاء ينحدرون من طبقة الفرسان غير المنضبطين الذين يفتشون عن مغنم وربح. ففي سنة ٥٥١هـ/ ١١٥٦م نشأت جنود "فرسان القنطرة"؛ فقد اتفق فارسان يدعى أحدهما "سويرو" والآخر "جومز"،

---

(١) السليطين (تصغير كلمة سلطان Emperador)، هو ابن أراكه Urraca بنت الفونسو السادس هزيم الزلاقة، فهو إذن الفونسو السابع، وكان قد مات من أثر جراح أصابته في اشتباكه مع الموحدين سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص: ٨٦؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٣٦٩.

(٢) فرسان الداوية (فرسان المعبد)، انشئت هذه الجماعة سنة ٥١٣هـ/ ١١١٩م، في بيت المقدس عقب سقوطه بين الصليبين، وعندما عادت القدس بيد المسلمين، هربت هذه الفئة الى اسبانية لتمارس الدور نفسه في حربها ضد المسلمين سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م؛ ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص: ١٨٤.

(٣) Barker & G. Clark, opcit, p, 411.

قلعة رباح: تقع الى الشمالي الشرقي من قرطبة، غربي طليطلة؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص: ٢٣.

نذرا حياتهما لقتال الأعداء، ثم تعاونا مع ناسك من أهل شلمنقه يدعى 'سانت أماندوس' على البحث عن مكان يصلح لاقامة حصن يلجأ إليه الفرسان الذين وهبوا أنفسهم لقتال المسلمين[1]، فكان حول 'ديرسنت جوليانوس' بتأييد من اسقف الدير المذكور أولا، ولما انتشر خبر هؤلاء، انضم اليهم كثير من رجال الدين والفرسان والزهاد المتعصبين، برئاسة الفارس سويرو المذكور، ودعم البابا اسكندر الثالث ثانيا، اذ أيد هذا النشاط، وباركه سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٦م، بعد أن أثبت جدارته، ورسخت أنظمته على نهج جماعة 'السسترسيان'[2] التي تتصف بالخشونة، وتفضيل العمل الشاق في الأراضي واستصلاح الجبال، وإنشاء الحقول على الاغراق في الصلاة والعبادة[3].

أما الفرقة الأخرى فهي جماعة القديس يعقوب 'S. Jacob'، اذ اسسها عدة فرسان من قطاع الطرق، كانوا يعيشون حياة همجية مبتذلة، مع ما يوافقها من الآثام والجرائم، من قتل للمارة واخافة للدروب، الي أن نظمهم جماعة من رجال الدين، قاموا بتوجيه نشاطهم التخريبي، وشحن عواطفهم، وتوتيرهم ضد المسلمين لحماية طريق الحجاج الى قبر القديس يعقوب في 'كومبوتسل' وعرفوا 'بجماعة القديس يعقوب'، بزعامة الفارس 'بيدرو فرنانديز'، وقد عين رئيساً بأمر من الملك فرديناند الليوني الذي كان يرعاهم ويمدهم بما يحتاجون اليه سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦١م[4].

وتأسست فرق أخرى كثيرة في انحاء اسبانية مثل جماعة[5] 'ترجالة' فرسان 'الداوية'، و'القديس يوحنا'، وجماعة 'أفيس' وغيرها[6].

---

(١) Prestage. E: Chivarly, p, 124.
سعيد عاشور: اوروبا العصور الوسطى: ج٢، ص: ٥٤٨، ٥٤٩.

(٢) J. F. O'Callaghan: A history of Medieval, Spain, p, 238 - 239.
السسترسيان: هي احدى فرق البندكتيين، اسست على يد راهب بندكتي هو سان روبير بالقرب من مدينة ديجون بفرنسا.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) J. F. O'Callaghan: A history of Medieval, Spain, p, 95 - 96.

(٥) كنت قد أوردت كلمة عصابة بدل كلمة جماعة هنا. وقد اعتمدت بذلك على مجامع اللغة العربية. ومعني عصابة: جماعة من الناس أو الخيل أو الطير؛ المعجم الوسيط، ج٢، ص: ٦١٠، اشرف على طبعه عبد السلام هرون، المكتبة العلمية، طهران، أخرجه أحمد حسن الزيات.
عصابة: جماعة من الرجال والخيل والطير ما بين العشرة الى الأربعين، محي الدين بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ج١، ص: ١٠٩، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، لا. ت.

(٦) Prestage. E: Chivarly, p, 126.

إن هذه التنظيمات لها قوانينها الدينية الخاصة بها، ولا تخضع للضوابط، والأوامر العسكرية للدول التي تقبع قواعدهم في اراضيها، يتلقون تعليماتهم مباشرة من البابا، أو من ممثليه المنتشرين في اسبانية، لذا كان عملهم ارضاء لشهواتهم في الغزو والسلب والتخريب في أوقات السلم والحرب[1]. وفي الوقت نفسه كان المسلمون يستأصلون جذور القرصنة البرية والبحرية من جميع اراضيهم بغض النظر عن ديانتهم أو جنسياتهم[2].

وبعد أن اطمأن الخليفة أبو يعقوب إلى قوة جيش الموحدين، الذي تمهدت به الأمور واستقرت قواعد ملكه بالمغرب[3]، ووفد اليه اهل الاندلس يهنئونه ويقدمون اليه الطاعة والولاء، ويطلبون منه وضع حد لاعتداءات نصارى اسبانيا، فلم يجد بداً للتهيؤ للقتال. فشرع في استرجاع بلاد الاندلس.[4]

وعلى ضوء ذلك التجأ كثيرمن الأمراء النصارى الى الموحدين معلنين اذعانهم وتأييدهم للدولة الموحدية، فهذا فرنانده رايس النصرانيFernando Rodriquez صاحب ترجالة[5].Tragillo ، صهر الامبراطور الفونسو السابع ملك قشتالة - الذي اشرنا اليه- يصل الى مراكش ومعه اخوته، محاولة منه كسب ود أمير المؤمنين ووضع سيفه في خدمة السلطة المغربية، والذب معهم عن حياض الدولة، فاستقبلهم الخليفة بالترحاب والعطاء الجزيل (حتى كاد أن يسلم) سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م[6] ولحق به أيضاً

---

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٣٦٧، ٣٦٨.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٣٦٠.

(٣) ابن خلكان: الوفيات، ج٧، ص:١٣١.

(٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٣٥٦-٣٧٤؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢١٠؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:٧٨؛ وكانت الامة المغربية قد اجتمعت على طاعة أبي يعقوب، وتسمى بأمير المؤمنين سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م.

(٥) ترجالة: مدينة بالأندلس غرب طليطلة في المشال الشرقي من بطليوس، عادت للمسلمين، واحتلها النصارى سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م؛ الحميري: الروض، ص: ١٣٣؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٣٦٨.

(٦) المصدر نفسه، ابن صاحب الصلاة، ص: ٣٦٨-٣٧٢، وقد كان وصول فرنانده الى مراكش عن طريق اشبيلية، ربما كان يخفي هموما سياسية، سببه الصراع الدامي بين الأمراء النصارى؛ اثر موت الفونسو السابع، للسيطرة على قشتالة من ملكها الطفل. لذلك وفد عدد من أمراء النصارى الطامعين منهم في عرش قشتالة، الى ديار الموحدين يستنجدون بهم؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:٧٨.

البيوج بن اذفونش صاحب السبطاط، ورغب هو الآخر في عقد معاهدة صداقة وتعاون مع الموحدين[١].

وأخذ أبو يعقوب يستعد لغزو اسبانية، ووضع حد لاعتداءات جليقية وليون المتكررة منذ سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م[٢] فبعث جيشاً بقيادة أخيه عمر إلى شبه الجزيرة عبر طريف فوصلت ضواحي طليطلة[٣].

ثم استنجد بعرب افريقية والجزائر والقيروان، وأمتدحهم بقصيدة حماسية من نظم ابن طفيل[٤]. وكانت الاستجابة عامة وسريعة، واتخذوا طريقهم الى مراكش، بأهلهم وخيلهم، حيث كانت استقبالاتهم حافلة على طول الدروب التي سلكوها حتى حطوا بالحاضرة. اذ أحسن أمير المؤمنين وفادتهم في احتفال مراسيمي مهيب، لا يكون الا لرؤساء الدول وقادتهم، وقد عين مديراً للمراسم، مبالغة في التكريم، الوزير أبا العلاء ادريس بن جامع، ومن ثم وزع علهيم وعلى الجند الموحدين الخلع الملوكية والسلاح[٥]. غير أن المرض قد عاقه عن السير فوراً الى الأندلس، إذ تأخر عبوره حتي شهر رمضان سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م[٦].

وحالما سمع أهل الأندلس بمخرج الخليفة أبي يعقوب من المغرب متخطية قصر مصموده في أول شهر رمضان من السنة نفسها، تلقاه أشياخ اشبيلية وأهل الأندلس بجزيرة طريف بعد أيام الانتظار القلقة التي سبقت وصوله، حيث جرى له استقبال حافل من قبل اولئك الذين توكفوا قدوم خليفتهم طويلاً، وانتهى إلى مدينة اشبيلية إذ خرج أهلها جميعاً لاستقباله بأسلحتهم ينضمون إلى اخوانهم المغاربة في خطوات حاسمة وسريعة في طريق النصر، لكنه في الوقت نفسه، بدأ حركة حاسمة أخرى من أجل تعزيز قوة الدولة وبقائها؛ إذ شرع في التنظيمات الإدارية الجديدة فعزل ابن المعلم مشرف

---

(١) المصادر نفسها والصفحات نفسها.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٣٥٦-٣٧٤.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢١١.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٢٢؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤١١؛ وكانت قصيدة طويلة مطلعها:

اقيموا صدور الخيل نحو المغارب ... لغزوا الأعادي واقتناء الرغائب

(٥) ابن صاحب الصلاة، ص: ٤٣٠ - ٤٣٢.

(٦) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢١١؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤٠٨ - ٤٨٧.

الاشغال باشبيلية لاتهامات وجهت إليه، وأمر بمحاسبته من مصادرة لأمواله وإيداعه السجن ثم اعدامه، وعين ابن جلداسن مكانه.[1]

وعقد للسيد أخيه ابي سعيد على غرناطة، واسندت ولاية قرطبة لأخيه الحسن، وعلى اشبيلية لأخيه علي، وعين ابن اخيه إبي حفص أبا محمد على مالقة[2].

وبقي مدة عام كامل يتنقل بالجيش بين عاصمته الأندلسية ومدينة قرطبة، وقام خلال ذلك بالاشراف على أعمال البناء في اشبيلية، وتلقى ولاء أهل شرق الأندلس من القادة والأعيان، إذ أشاروا عليه بغزو مدينة وبذة، وبدون أن يطلع على آراء مستشاريه العسكريين، أخذ برأيهم.[3]

وهكذا سار الجيش الموحدي في شهر شوال سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، بجناحيه العربي والمغربي، فضلاً عن الأندلسي لفتح تلك المدينة، دون أن تغيب الحساسيات بين الجند، حتى في أقسى الظروف، فأصبح معها متعثراً فاقد التنظيم، رغم كثافة عدده. واستولى الجيش في طريقه على حصن بلج، إذ سمح لسكانه النصارى بالعودة الى بلادهم ثم عين أحد قادته عليه (أبا اسحاق بن همشك)، واستأنف مسيره شمالاً، واقتحم في طريقه حصن الكرسAlcaraz ، واستسلم أهله دون قتال، وأخلوه، فعين عليه من يصلحه ويضبطه، ثم واصل زحفه نحو الشمال الشرقي[4]. وساق الخليفة أمامه قوة استطلاع من جيشه تتألف من اثني عشر الف فارس من الموحدين والعرب بقيادة أخيه أبي سعيد، وبعض القادة الأندلسيين الذين استولوا في طريقهم علي حصن يقع على مشارف المدينة، وتم أسر جميع سكانه، ثم هدمه، حتى اضحى قفرا يبابا، واقترب في اليوم التالي من المدينة، اذ حصل صدام مسلح بينه وبين حاميتها التي خرجت لصده، غير أنها اضطرت الى التقهقر للتحصن داخل المدينة، على الرغم من ظهور تعثر في صفوف المسلمين أثناء القتال من بعض الكتائب العربية، عندها نزل السيد بقواته على الجبل المطل فوق المدينة، ينتظر وصول بقية الجيش بقيادة أمير المؤمنين، وعلى ساقته أخيه أبي حفص[5].

---

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ٢٠٧، ٤٥٣.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٢٢؛ ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٠١؛ المقري: نفح الطيب، ج١، ص:٤٢٧.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ٩٥-٩٨.

(٤) المصدر نفسه: المن بالامامة، ص: ٤٧٣ - ٤٩٠؛
ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ٩٦.

(٥) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤٩٢.

وصل الخليفة على رأس الجيش في اليوم الذي يليه، فاستعرضه وقسمه الى فرق جعل كلاً منها تحت امره قائد، ثم رتب القبائل، لتقوم كل منها بحصار جهة من المدينة. وفي فجر اليوم الثاني، ارتأى أن الظروف مواتية للهجوم، فأمر بضرب الطبول ايذانا بذلك. عندها خرج النصارى من داخل الأسوار لاعاقة تقدم الموحدين الذين استولوا على ضواحي المدينة[1]. لكنهم عندما لم يتمكنوا من الاستيلاء على الأسوار، قاموا بقطع المياه عنها، وانتشروا على مساحات كبيرة من الأرض والمزارع خارجها، مشددين من الحصار الاقتصادي، حيث راح نفر من الجيش بحصد الزرع وخزنه، ثم بناء السلالم والأبراج استعداداً لاقامة طويلة، تحت نظر أهل وبذة الذين كانوا يراقبون تلك التطورات بقلوب واجفة، حيث أسقط في أيديهم، وظنوا أنهم أحيط بهم، فأرسلوا سفيراً من قبلهم ليومين متتاليين يعرض تسليم المدينة صلحاً على الموحدين، لكنه لم يلق في الزيارتين كلتيهما إلا الاعراض والرفض، ظناً أنهم سيستسلمون دون قيد أو شرط، من شدة الجوع والعطش، وطال أمد الحصار مدة اسبوعين، من غير أن تظهر أية بادرة للاستسلام[2].

ثم هبت رياح عاصفة تحمل البرد والأمطار الغزيرة، تزأر وتصطخب كأنما تريد أن تقتلع الجبال الراسيات من مكانها، وألحقت خسائر باهظة بمعسكر الموحدين؛ إذ لم تطمئن لهم قدر، ولم تقم لهم نار، ولم يستمسك لهم بناء، في حين استفاد منها النصاري داخل مدينتهم، فشربوا وارتووا، وصمموا على الصمود والمرواغة، وصدموا كتيبة هسكورة؛ إحدى الكتائب التي كانت تحاصر ناحية منها، وهزموها، مما أظهر الخلل في صفوف الجيش الذي لم يحقق أية نتائج رغم اختراقه خطوط دفاعاتهم إلى داخل الأسوار إلى القصبة التي عجزوا عن اقتحامها، وقد هدموا كنائسهم، ونهبوا نواقيسهم[3].

لعل هذا هو السبب الذي جعل الموحدين يبعثون رسولا من قبلهم، هو عبد الرحمن بن أبي مروان بن سعيد الغرناطي الى أمير المدينة العلج ولد مريق التابع إلى الفونسو الصغير (El REY Chico) هو الفونسو الثامن(AL Fonson VIII) وهذا هو ملك قشتالة (Al Fonso VIII de Castilla)وإليه تتبع وبذة، الذي كان له صديقاً،

(١) المصدر نفسه، ص: ٤٩٦، ٤٩٧؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٥٠.
(٢) المراكشي: المعجب، ص: ٣٦٣، ٣٦٤.
(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ٩٦ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤٩٨؛ ابن خلكان: الوفيات، ج٧، ص:١٣٥.

وتكررت السفارة بينهما. لكن اللقاء لم يكن في كلتا المقابلتين وديا، كما توقعه ابن سعيد نفسه، بل كان جافا الى أبعد الحدود، وكان جوابه فيه السخرية والشماته "ليس عندي ثياب تصلح للباس فألقي بها ملككم، وإني غير محول بالتفاض معكم، وأن الأمير الفونسو الصغير نفسه قادم لمقابلتكم، هذا رغم الوعد والوعيد الذي مارسه السفير المسلم على امير المدينة، أنما جئتك لصحبة كانت بيني وبين أبيك، فأنا الذي أخرجته من سجن يحيى بن غانية، وأريد الآن أن أخرجك مما أنت فيه"[1].

عقد الخليفة على الأثر مجلساً للتشاور، حضره السادة والاشياخ من الموحدين والعرب وزعماء الاندلس. فتقرر من غرفة العمليات رفع الحصار عن المدينة، والعودة الى اشبيلية، وأحرقت آلات الحصار في مساء اليوم نفسه، وليس عند أحد من الناس خبر، وبات الناس يدوكون ليلتهم أي يتساءلون ويختلفون". وبدأ الرحيل بالعودة في صباح اليوم التالي بدون نظام، كان مؤداه انتشار الهرج والخلل بين صفوف الجند، اذ شجع أهل المدينة على الخروج من مخبئهم ومهاجمة ساقة العسكر أثناء الانسحاب. فأسند أبو يعقوب مسؤولية حماية مؤخرة جيشه الى فيلق بقيادة أخيه أبي حفص وبعض العرب ونفر من القادة الأندلسيين، مما أدى الي إنجاز عملية الانسحاب بسلام عن طريق مدينة قونقة Cuencaمنقلبين الى اشبيلية[2].

يظهر أن قرار فك الحصار عن المدينة لم يكن يرضى عنه الخليفة، ربما يؤكد أن انشقاقاً حاداً حصل في الاجتماع بين القادة العسكريين المغاربة والاندلسيين. وإلا لماذا لم يعلم أحد من الناس بما حدث، من تدمير لآلات الحصار وحرق لمنصات القتال بأمر من الخليفة؟. وتأكد هذا الخلاف في أثناء الحصار؛ فظهر اضطراب في الجيش وانعدام في التعاون؛ اذ أن محمد بن تيفوت قائد إحدى أهم الفرق الموحدية، فرقة الرماة، "يمنعهم من رمي النصارى بالسهام، فلم تقع الآلات ولا الرماح ولا الدروع السابغات ولا البيضات"[3]. وثمة قائد اندلسي آخر، كان موكلاً بقصف حصن المدينة المتخندقين فيه، وقد أشرف هذا الحصن على الاستسلام والسقوط، وقال: "وأشرفت على الفتح والغلبة، ولم أر أحدا من أهل الاجناد والأنجاد، ولا من الشيوخ والقواد من يعينني، فمشيت بنفسي الى أمير المؤمنين، وهو جالس مع أخيه أبي حفص، ومع طلبة الحضر، يتكلم

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٥١٢ - ٥٠٢.

(٢) المصدر نفسه، ص: 205 -405 ؛ قونقة، مدينة اندلسية تقع الى الشمال الغربي من بلنيه.

(٣) المصدر نفسه، ص: ٤٩٧.

معهم في المسائل، فقلت يا سيدنا أميرالمؤمنين، عسى عون، فقد أشرفت على الفتح.. فلم يجاوبني هو ولا غيره"[1].

هكذا قدر لغزوة ويذة أن تفشل، ولم تحقق ما خطط لها، رغم كثافة الجيش الغازي، فهو يربو على مائة الف مقاتل[2].

ربما يعود هذا الاخفاق الى افتقار القيادة الموحدية لخطة محكمة، ورغبتها في اتخاذ القرارات الارتجالية، فضلاً عن أن الغزوة تمت بناء على اقتراح اعيان وقادة شرق الاندلس وحدهم، ودون دراسة من القيادة المشتركة، وكذلك اضاعة الخليفة وقتاً وجهداً في استيلائه على حصني بلج[3] Velez Rubio ، والكرس[4] Alcaraz المنيعين في طريقه الى ويذة[5] Opta .

وهناك سؤال يفرض نفسه، ويبعث على الحيرة والقلق، وهورفض أبي يعقوب عروض أهل ويذة، مبادلة الارض بالسلام، رغم كونه مشغولاً بمناقشة مسائل فكرية، ومطارحات فلسفية مع الطلبة الفقهاء[6]،وتعرض الجيش اثناء الحصار الى نقص حاد في التموين والجهد. بالاضافة الى نجدات قشتالية بقيادة الفونسو الثامن الطفل مع الوصي على عرش قشتالة نونو[7]، إذ كانت متوجهة لنجدة المدينة المحاصرة، وكان الموحدون قد

---

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤٩٧.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٥٠٣ - ٥٠٦.

(٣) بلج، يذكردوزي في كتابه، تاريخ المسلمين في اسبانيا، أن هذا الحصن، يقع بين بسطة ولورقة، ولكن ميلتشور، يعتقد أنه الحصن الذي يحمل اليوم اسمVilches ، من أعمال جيان، فهو الذي كان ينسب الى بلج القشيري أحد القادة الشاميين الذي دخل الأندلس، وأصبح والياً عليها سنة ١٢٤هـ/ ٧٤٢م؛ نقلا عن ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤٨٨.

(٤) الكرس، حصن اندلسي يقع الي الجنوب الغربي من البسيطAlbaceke ، نقلا من المصدر نفسه، ص: ٤٨٨.

(٥) ويذة، حصن قديم يوجد في مقاطعة قونقة، وقد استولى عليه النصارى سنة ٤٧٢هـ/ ١٠٨٠م، على عهد الفونو السادس، إذ فتحه قهرا؛ أما اسمه الحاليHuete ، المصدر نفسه، هامش، ٢، ص: ٤٨٧.

(٦) من الطلبة الفقهاء الذين كانوا حاضرين المعركة: الفقيه ابو محمد المالفي، والقاضي أبو موسى عيسى بن عمران، والقاضي ابو محمد بن الصفار، والقاضي أبو الوليد بن رشد الحفيد الطبيب الفقيه الفيلسوفAverroes'
ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤٩٥.

(٧) المصدر نفسه، ص:٥٠٦.

قرروا أن لا يقتربوا منها جبهياً، وقد اشتبكت مع مؤخرتهم المنحسبين بانتظام[١] فلربما لوجود الخلافات المستحكمة والمشادات الكلامية الحاصلة بين الخليفة وقادته، وبين القادة أنفسهم من جهة ثانية، وعجز استخباراته عن التوصل الى الحالة التي كان عليها المحاصرون؛ لعله راجع لشدة تيقظ قادة وبذة، وإخفائهم الحقائق عن مخابرات العدو، كل هذه جعلت الخليفة يصر على تسليم المدينة دون قيد أو شرط[٢]. وسنرى في المستقبل أن الأمير نفسه سيقوم وحده بتسديد الثمن لمثل هذه المجادلات الكلامية والآراء الأنفرادية.

لم يلبث أبو يعقوب بعد انصرافه من غزوة وبذة الخاسرة، أن قام بمناورة عسكرية ناجحة، استهدفت أهدافاً عدة منها؛ اقناع العدو انهم لم يخسروا الحرب بل خسروا المعركة؛ واشعارهم كذلك ان الموحدين لا زالوا على قوتهم ومقدرتهم القتالية، وان هزيمة وبذة لم توهنهم عن مواصلة جهادهم، ومنها رفع معنويات الجيش وازالة الآثار النفسية المؤلمة التي خلفتها هذه الغزوة، والتي كان بامكانها أن تحفر في نفوسهم خنادق لا تمحوها الأيام، وأن تعمق الاقليمية بين الشعبين المغربي والأندلسي؛ فدفع بأربعة آلاف فارس بقيادة يوسف بن تيجيت، وعبدالله ابن جامع، حملة تأديبية، إلى أعماق قشتالة، فوصلت طلبيرةTalvera ، وهي بوابة قشتالة الرئيسة، ولم تبتعد عن عاصمتها أكثر من سبعين ميلاً[٣]. ودمرت ضواحيها، وأتلفت زروعها، وعادت تأخذ بنواصي أسراها، وتحمل اسلابها الى اشبيلية. وألح جيش آخر في أراضي طليطلة قتلا وسبيا[٤].

من الواضح أن مملكة قشتالة قد ضاقت بهذه الغزوات المدمرة، ومن الغزوات المحتملة مستقبلا؛ فبعث كل من ملك قشتالة، وملك البرتغال ابن الرنك سفراءه الى اشبيلية لمقابلة الخليفة، وعرض معاهدة عدم اعتداء معه. وانتظر السفراء مدة شهرين في العاصمة الاندلسية ريثما استجاب أبو يعقوب الى الحاحهم في طلب السلم والأمان،

---

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالامامه، ص:٥٠٨.

(٢) يقول صاحب المعجب في ذالك إن أهل هذه المدينة - وبذة - لما برح بهم العطش، أرسلوا الى أمير المؤمنين يطلبون الامان على أنفسهم، على أن يخرجوا له عن المدينة، فأبى عليهم وأطمعه فيهم ما نقل اليه من شدة عطشهم، وكثرة من يموت منهم.
المراكشي: المعجب، ص: ٣٦٣ - ٣٦٤.

(٣) طليرة، تقع إلى الشمال الغربي لطليطلة، على نهر تاجه؛
ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٥١٦؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٢٤؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص: ٣٧؛ الحميري؛ الروض المعطاء، ص:٣٩٥.

(٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٥١٦، ٥٢٥، ٥٢٦؛ المقري: النفح، ج٦، صك١٦٠.

وكان الصلح يقضي بعقد هدنة أمدهـا سبع سنوات[1] رغبة منه في التفرغ لاصلاح الثغور. وتعمير الأماكن الخالية، وشحنها بالمقاتلين سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م[2].

بقي ابو يعقوب في الأندلس زهاء خمس سنوات، سطعت فيها اشبيلية عاصمة للموحدين بالأندلس، لكثرة المنشآت والمرافق التي أقامها بها. ثم غادرها مستهل شعبان سنة ٥٧١هـ/ شباط ١١٧٦م. وعبر البحر بقواته مطمئناً عائداً الى مراكش، بعد أن رتب الإدارة في كل من قرطبة واشبيلية[3].

أن التشنج والغليان السائد في مملكتي قشتالة وأراجـون، قد فرض عليهما عقد معاهدة صلح مع نا ار. اذ كانت بلادهمـا متورطة في حرب دموية مع هذه الامـارة، وبخاصة على مناطق الحدود التي كانت مذبذبة في انتماءاتها، حتى توسط ملك انجلترا بين الطرفين سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٦م، فقبل الطرفـان المتحاربـان الوساطة على كره منهما، واستجابا لعقد معاهدة صلح مرحلية بينهما فرضتها الظروف[4].

حرص ملك قشتالة على أن يستفيد قدر المستطاع من عقد هذه المعاهدة، منتهزا عودة الخليفة أبي يعقوب بالجيش الى مراكش، فنقض الصلـح، ورفض السلم، وأسرع بقواته يحملها للاستيلاء على مدينة قونقة؛ ذات الموقع العسكري المهم، كان قد تركها الخليفة الى مصيرها في طريق عودته أثناء اخفاقه في معركة وبـذة؛ اذ شن عليها هجوماً صاعقاً ومروعاً، وضرب عليها الحصار مدة تسعة أشهر[5].

حاول الموحدون انقاذ المدينة، بأن وجهوا حملاتهم نحو قشتالة لارغام المحاصرين على التقهقر وفك الحصار عنها، غير أن القشتاليين، وحلفاءهم، من اراجـون وغيرهم ألحوا في تضييق الخناق عليها، رغم كثرة الخسائر التي لحقت بأراضيهم جراء غارات

---

(١) المراكشي: المعجب، ص:٣٦٤.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٢٢٦ – ٢٢٧؛ يذكر اشباخ: تاريخ الأندلس، ج٢، ص: ٣٩، أن المسلمين هزموا اثر حملتهم السابقة على طليطلة. ولو كان ما يدعيه اشباخ صحيحاً، لماذا بعث ملك قشتالة (القمط نونية بيريز دولارا)Nuno Perez delara ، رسله لعقد معاهدة صلح مع الخليفة بعد هذه المعركة مباشرة، ثم بعث في اثره، الفونسو هزكيز، ملك البرتقال، أوابن الريق Alfonso Enriquez، رسالة مماثلة للخليفة يرجوه المهادنة والصلح سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ١٥٢، ٣٧٠، ٥٢٦؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:١٠٥.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٢٢؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:١٠٥.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣. ص:١١٠٠؛ اشباخ : تاريخ الأندلس، ج٢، ص: ٣٩.

(٥) اشباخ: تاريخ الأندلس، ج٢، ص: ٣٩.

الجيوش الموحدية، على طلبيرة من جهة، وعلى طليطلة من جهة ثانية، وأحدثت هذه الغارات كوارث جسيمة بتلك النواحي، وعادت محملة بالأسلاب والأسرى الذين حشروا بالآلاف الى اشبيلية. وثمة جيشاً ثالثاً أرسله الموحدون نحو الشرق لانجاد قونقة. غير أن كمائن العدو المنثورة على طول الطريق الي المدينة، حالت دون وصول هذه النجدات، وفضلت الانسحاب والعودة، وتركت المدينة المنكوبة الى رحمة دعوات الضعفاء والعجزة، واضطرت أخيراً تحت ضغط الجوع والعطش والمرض الى التسليم. فدخلها النصارى ظافرين، وحولوا مسجدها الجامع الى اسقفية سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٧م[١].

على وهج هذه المواقف انساحت حدود قشتالة الى الشرق، وانفتح الجنوب الاندلسي أمام الغارات الأراجونية، وظهرت بوادر اتفاقات جديدة بين دولتي قشتالة وأراجون على تقسيم النفوذ بينهما[٢].

إن الغليان الملتهب في الممالك النصرانية الثلاث؛ قشتالة، وليون، والبرتغال، جعل ملك ليون يدعي السيادة على الأخيرة، مع حق وراثة عرش طليطلة من ابن أخيه الطفل التي تتحكم بمصيره عائلات ارستقراطية (آل لارا وآل كاسترو)[٣]. لذلك كان متلهفا ليفتح ملفاً من التعاون والصداقة مع الخليفة أبي يعقوب يوسف، يتمكن خلالها من توسيع حدود مملكته جنوباً (الى البرتغال)، وهذه هي احدى الأولويات التي تتصدر مشاريع الخليفة للقضاء على دولة البرتغال الناشئة، لذلك أمده بجيش من الموحدين تحت قيادة ثلاثية؛ أبي العلاء بن عزون، والحافظ أبي علي بن تمصيلت، ثم الحافظ ابي عمران موسى بن حمو. واصل الجيش تحركه داخل ليون ليخضع أعداءها في قشتالة والمتمردين في الداخل، ومن ثم انقلب منحدراً الى بلاده بعد أن امضى هنالك خمسة اشهر[٤].

---

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٥٢٦ - ٥٢٧؛
ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ١١٠ - ١١١.

(٢) اتفقت مملكة قشتالة وأراجون بموجب معاهدة كازولا في شهو شوال سنة ٥٧٤هـ/ ١١٧٩م، على أن تكون الأراضي بين بلنسيه شمالا وابدة جنوباً، خاضعة لنفوذ آراجون العسكري. أما البلاد الواقعة وراء هذه غربا فتقع في منطقة الفتح الخاصة بقشتالة؛
R. Altamira: ahistory of spain, P, 167.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٣٧٠ - ٣٧١.

(٤) المصدر نفسه والصفحات نفسها؛ كان يهدف الخليفة من مساعدة ملك ليون، اضعاف مملكة قشتالة، اكبر الممالك النصرانية، وأكثرها عداء للمسلمين، وإرهاب مملكة البرتغال. لذلك انتهز عداء ملك ليون لهما، فأمده بهذه الجيوش، لتأخذ خبرة في أرض النصاري وطريقة حربهم، ومن ثم يتصدر لهزيمة ملك ليون وتبديد أطماعه، وهذه سياسة الموحدين اللولبية التي درجوا عليها منذ قيام دولتهم؛ المصدر نفسه، ص: ٣٧٠ - ٣٧٢.

يظهر أن مرافقة الجيش لقادة ثلاثة، كان معناه أن يطلعوا بأنفسهم على مدى صدق الحليف الجديد الذي يوصف بكثرة تقلبه وغدره. فعادوا يحملون مواثيق ملك ليون، أنه يسالم من يسالمهم ويحارب من يعاديهم، ولقد أوفى الأخير بوعده، ففي سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م، حينما استولى البرتغال على بطليوس ما عدا قلعتها، خف بقواته مسرعاً مقتحماً المدينة يصارع البرتغاليين، حتى تمكن من أسر ملكهم الجريح، أثناء محاولته الهرب، وقام بتسليمها الى قائد الموحدين، معتذرا لدخولها بأدب ظاهر جم، لأن أمير المؤمنين لم يأمره بذلك[1]. وتم هذا وسط عملية درامية بارعة؛ اذ اطلق سراح الملك البرتغالي، بعد أن قدم له العلاج اللازم دون فداء وقد أظهر بعد هذه المعركة أنه يحطب في حبل الموحدين[2].

إن هذا الوفاء بالعهد، وصنع الجميل للطرفين كليهما، لم يكن هو الدافع الحقيقي أو الوحيد وراء المساعدة الليونية، على استخلاص بطليوس، ربما كان يرى أن هذه المدينة الأخيرة من نصيبه وحده، فهي واقعة في منطقة نفوذه، عند تقسيم المملكة بينه وبين أخيه. لذلك كان يحول دائماً استيلاء البرتغال عليها، منتظراً الظروف الأكثر ملاءمة، ومظهرا تجميد طموحاته في الوقت الراهن على الأقل.

هذه المناورات المكشوفة لم تكن غائبة عن أعين الموحدين، ففي سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م، عزم السيد أبو سعيد على إصلاح مدينة بطليوس وتحصينها. فنهد اليها بقوات من اشبيلية، ونازل بها إحدى القلاع الحدودية في الطريق اليها، واكتشف فجأة قوات ليونية بقيادة فرديناند هدفها مدينة بطليوس. فبعث السيد بعض قادته مستوضحاً الملك عن سبب مجيئه دون استدعاء أو ضرورة. فأخفى الملك نيته، وأظهر أنما جاء مشواره الثاني لحماية المدينة من البرتغاليين، وإمعاناً منه بالتمويه والمخادعة، قابل السيد أبا سعيد، وأكد التزامه بالصلح، ولوى عنانه عائداً يجتر خيبة أمله بصحبة قواته الى بلاده[3]. ومن هنا كان النصر العظيم حليف فرديناند مرة أخرى في النجاة بجنده.

وعندما يئس ملك ليون من الاستيلاء على المدينة المذكورة، بعث الى الموحدين يسألهم المال الذي انفقه في حمايتها من الأعداء. وكان رد الخليفة أبي يعقوب ايجابياً، إذ أمده بهدايا ثمينة من الجواهر المنظومة لاقت اعجابه واستحسانه، طاويا مشروع الأندلس الى ظروف مستقبلية[4].

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ٨٠ - ٨١.
(٢) المصدر نفسه والصفحات نفسها.
(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤٠٠، ٤٠١.
(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ١٠٣، ١٠٤.

وبدا يتضح لابن الرنك صاحب البرتغال؛ المصدر الاساسي للخطر الذي تشكله الدولة الموحدية بزعامة الخليفة يوسف بن عبدالمؤمن، ومما زاد الأمر توترا فتور العلاقة بينهم وبين حليفهم الببوج، وليس ببعيد أن يكون ذلك الخلاف، وهذا التوتر من تدبير ملك البرتغال نفسه الذي أعطى أوامره إلى قائد جيوشه جرانده بالاغارة على مدن المسلمين ومنها باجه، حيث تسلل قائد العدو وصحبه إلى داخلها من أحد الأبواب غير المحروسة، والمسلمون في داخلها سادرون في خلافاتهم مع واليهم عمر بن سحنون، إذ فر منها هارباً على قدميه إلى مرتله القديمة، وسقطت المدينة بيد العدو في ١ محرم سنة ٥٦٨ هـ/ ١١٧٢، وقد عجز عن حمايتها لاتساعها، فاخلاها وأحرقها وهدم أسوارها، وأسر معظم أهلها، وتفرق الباقون في مدن المغرب، ثم عادووعمروها مرة أخرى(١)؛

وفي خلال سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٣، قام زعيم عصابة مدينة أبله Avila (في الجهة الشمالية من طليطلة)، "مينوس" بشن الغارات المخربة على الأندلس، (وربما كان من تدبير الملك اليائس)، متجاهلاً معاهدات الصلح بين ليون والموحدين، ومخترقا الحواجز البشرية عبر قرطبة واشبيلية، غير مبال بالعواقب، الي أن وصل طريف والجزيرة الخضراء في جنوب الأندلس. ومن ثم حاول العودة الى بلاده في الطريق نفسه عبر الوادي الكبير مدلا بقوته، وهو ينوء بالأسلاب والأسرى(٢).

كان على الموحدين أن يبذلوا جهوداً مضنية لايقاف مثل هذه الهجومات الشرسة على الناس العزل، وعدم تكرارها، وفي الحال خرج جيش من المسلمين بقيادة أخوي الخليفة؛ أبي زكريا يحيى، وأبي ابراهيم اسماعيل، لاعتراض الجيش النصراني بقيادة مينوس. فطاردا هذا الجيش الى ما وراء قلعة رباحCalatrava ، واشتبكا معاً في معركة موفقة، استطاعا أن ينزلا به هزيمة ساحقة، سقط على أثرها مينوس صريعاً، وعادا ورأس الأخير على رمح يتقدم الأسرى والغنائم المستردة الى اشبيلية(٣).

إن فشل هذه الغزوة جعلت ملك ليون يقطع تردده، ولا يطيل انتظاره؛ فنقض الصلح مع المسلمين، لأن معاهدات السلام مع الاسبان، لم تكتسب عادة صبغة التنفيذ، فهي أوهن من بيوت العنكبوت، وقرر المجاهرة بموقفه هذه المرة دون إبطاء، وتقدم لغزو

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ص:١٠٣-١٠٥؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٣٧٣، ويذهب هذا أن يجعل احتلالها سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦١م، وهذا فرض غير مقبول.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٥١٨، ٥١٩.

(٣) المصدر نفسه، ص: ٥٢١ - ٥٢٢.

الأندلس بنفسه سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م. عندئذ رأى الخليفة، الذي لم يكن يثيره مثل هذا العمل المشين وكان متوقعاً، أن يجهز جيشا، ويسند قيادته الى أخيه أبي حفص عمر، فتحرك الجيش سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م. من اشبيلية ميمما مدينة السبطاط[١] (المدينة الملوكية) Cuidad Real شمالاً، وضرب عليها الحصار الشديد، والتضييق الاقتصادي، وحرمها من وسائل العيش حتى أرهقها دون أن يتمكن من اقتحامها. لذلك تركها توفيراً للجهد والوقت والمال، وشن سلسلة من الغارات الناجحة، اذ استرد باحداها حصن ناضوش[٢] Toponimo desconocido وقنطرة السيف[٣]Alcantra ، ثم عاد ليحتفل بالنصر في عاصمة الاندلس، وأذن لمن حضر من المهنئين بالدخول علي مراتبهم من الادباء والشعراء[٤].

ولّد سقوط قاعدة النصرانية القنطرة بعد ثماني سنوات من الاحتلال رد فعل عنيفاً لدى الامم النصرانية في اسبانية واوزوبا باجمعها وعلى رأسها ليون؛ فرأت ان تتحرك لتوجيه ضربة قاصمة للقوات الاسلامية قبل ان يستفحل الخطر، وثارت عواطف البابا اسكندر الثالث لهذا الانتصار، وبلغ منه التشنج مداه، فاستحث يهيج النصاري الاسبان على مواصلة القتال، وعدم التسليم بالأمر الواقع، ووعد كل من يستجيب أن يحيطه بالبركة والغفران ويمنحه الامتيازات البابوية[٥].

ولقد استغل ملك ليون هذا القلق والتحريض، وهو الذي تاق للعظمة كثيراً، لتحقيق الهيمنة على اسبانية، فكان من أول الملبين، إذ سار على رأس قواته سنة ٥٧٢هـ/

---

(١) السبطاط: مدينة تقع جنوب طليطلة؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص٥٢٠.

(٢) حصن ناضوش: لم نعثر له على أثر في معاجم البلدان، ولم تهتد لموقع هذا الحصن.

(٣) قنطرة السيف: مدينة مهمة بالاندلس تقع الي الغرب من طليطلة؛
ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص: ٤٠٦.

(٤) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٥١؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ١٠٤؛ ومن الشعراء الذين حضروا بباب أبي حفص وقالوا شعراً واطنبوا في هذه المناسبة، الشاعر أبو العباس الجراوي قال من قصيدة طويلة أولها:

عن أمركم يتصرف الثقلان	وبنصركم يتعاقب الملوان (الليل والنهار)
وبما يسوء عدوكم ويسركم	تتحرك الافلاك في الدوران
جاهدتم في الله حق جهاده	ونهضتم بحماية الايمان
من يعرف الرحمن حقا يعترف	بحقوق لخليفة الرحمن

ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ١٠٤.

(٥) Altamira: Ahistory of medieval spain, p, 167.

١١٧٧م، شاناً سلسلة من الغارات الخاطفة حتى بلغ أعماق الأندلس، الى ضواحي اركش Arcos وشريسJerez ، ثم انقلب يجمح ملتجئاً الى بلاده، خوفاً من تعقب الموحدين له[١].

فخرج جيش من الموحدين حاول اللحاق بالملك دون جدوى، فالتفت الى أرض النصارى تخريباً وعيثا، وفتك بقوات طلبيرة Talvera انتقاماً منها، وقد كانت تمارس الغزو في ارض المسلمين، واسترد ما كان معها من الغنائم والأسرى، ورجع يحمل معه عدداً من جنود الاعداء ليحتفل بضرب اعناقهم في اشبيلية[٢].

ونشبت عدة مواقع بحرية بين الموحدين والقطلانيين في الشمال الشرقي الاسباني، وأظهر الاسطول الموحدي كثيراً من ضروب البراعة والتفوق، غير أن معظم العمليات الحربية، قد تركزت في غرب البلاد ومملكة البرتغال على الخصوص، واستغرقت فترة طويلة، اضطر الخليفة خلالهما أن يعمل على تحصين المناطق الغربية الأندلسية، إذ كانت عرضة لغارات الأعداء برا وبحرا، وأقرب وأشد الممالك وطأة على المسلمين، واهتم بمدينة اشبيلية على الخصوص، اذ زودها بالفرق العسكرية البرية منها والبحرية تحت قيادة أمراء بحريين ناجحين؛ فهذا أمير البحر غانم بن مردنيش، استطاع الانتصار على البرتغاليين في معركة بحرية قرب لشبونة، وأسر بعض قطع الاسطول، وعاد بها الى ثغر سبتة سنة ٥٧٥/ ١١٧٩م واستمرت سجالات الحرب بين المتصارعين الرئيسيين في شبة جزيرة ايبرية، الموحدين والبرتغاليين، الى أن أسر أمير البحر غانم وأخوه أبو العلاء في احداها. ومكثا في الأسر مدة غير قليلة، حتى أفرج عن الأخوين الأميرين لقاء مبلغ كبير من المال. ورأى الخليفة أن يثأر لهذه الانتكاسات البحرية، فأعد لذلك الأساطيل الضخمة؛ إذ خرج اسطول سبتة بقيادة عبد الله بن جامع، واندفع أبو العباس الصقلي قائد أساطيل اشبيلية جنوباً، والتقيا في ثغر قادس، واتجها كلاهما الى ناحية شلب، حيث دارت معركة بحرية أبلى فيها القائد الصقلي والبحارة المغاربة صنوفاً من البراعة ورباطة الجأش، حتى انتزعا النصر في المكان الذي أسر فيه القائد غانم، وارتد الجيش يجر وراءه أعدادا ضخمة من الأسرى 'الف وثمانمائة أسير' والغنائم، بعد أن خلف كثيرا من قتلى العدو في أرض المعركة سنة ٥٧٧/ ١١٨١م.[٣]

---

(١) J. F. O'callaghan, ahistory of nedieral spain, P, 239.
اركش وشريش: مدينتان شمالي شذونه في وسط الاندلس الجنوبي؛
ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص: ٣٤.
(٢) ابن الاثير: الكامل، ج٩، ص: ١٢٠.
(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، (الخاص بالموحدين)، ق٣، ص: ١١٣، ١١٧، ١١٨.

وثمة مثلاً آخر أسوقه على تفوق البحرية الموحدية في ذلك الوقت، وهو الكتـاب الذي بعثه ملك قشتالة الفونسو الثامن، الى الخليفة المنصور، يطالبه (على طريقة التحدي) فيه بأرسال أساطيل من المراكب والشواني والطرائد والمسطحات، كي يعبر بها البحر إليه بجيوشه ويقاتله في بلده(١).

وآخر يوميء الى قوة الأساطيل المغربية وطول ذراعها في مدة أبي يوسف يعقـوب المنصور. فقد ذهب بعـض المؤرخـين إلى أن المنصـور أمـد صـلاح الديـن الأيوبـي بمائـة وثمانين سفينة حربية، وسد مضيق جبل طارق في وجه الموجات الصليبية، ومنعـهـم مـن الوصول الى سواحل بلاد الشام. وهذا يدل على تفوق ملوك المغرب يومئـذ بالأسـاطيل الحربية(٢).

وقد واصل ملك ليون غزواته التخريبية للاندلس. عند ذلـك صمـم الخليفـة أبـو يعقوب، وفي نيته التصدي لكل المشاكل، واستئصالها من الجذور. فعبر البحر بنفسه سـنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤ لوضع حد لهذه الموجات الاستنزافية، وتوجه نحوالمراكز الأكثر إثارة، الى مملكة البرتغال، إحدى اخطر اعدائه في تلك الجهات؛ منها تنطلـق اشـد الجيـوش عـداوة للمسلمين، وعزف في طريقه عن المدن الثانويـة، وتوجـه الى مدينـة شـنترينSantarem مركز النزاع بين ملوك النصارى المجاورين، وخاصة ملك ليون الذي كـان ينتـهز الفـرص لاحتلالها(٣).

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٢١؛
المسطحات: من أكبر السفن الاسلامية الحربية، وربما سميت كذلك لأن لها سطحاً واسعاً.

(٢) السلاوي الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٨٣؛ وقد أورد بعض المؤرخين غـير ذلـك؛ وإنـني اذ أميل الى هذا الـرأي الأخير لكـثرة مضايقـة المصريـين، في عـهد صـلاح الديـن الأيوبـي بخاصـة، للحجاج والمسافرين المغاربة الذين يأمون الشرق عبر الديار المصرية؛
ابن جبير: الرحلة، ص: ٥٩ – ٦٠؛
المقري: النفح، ج١، ص: ٤٢٦ – ٤٢٧، ج٣، ص: ١١٠ – ١١١.

(٣) المصدر نفسه، ص: ١٦٥؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٢٥؛
مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٥٨؛ ابن ابي زرع: الانيس المطرب، ص: ٢١٤.
المراكشي: المعجب، ص: ٣٧٢؛ ويذكر المعجب: أن شنترين مدينة كبيرة بالاندلس، على الشاطيء الأيمن من نهر تاجو، وهي مفتاح الوادي تقع الى الشمالي الشرقي من اشبونهLisboa . وقد ظلـت هذه المدينة بيد العـرب منـذ الفتـح الى أن احتلـها الفونسـو هنركـيز ملـك البرتغالسـنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م، ويسميه المعجب خطأ الفونسو السادس ملك قشتالة، وهذا الأخير هزيـم الزلاقـة الـذي مات أثر معركة اقليج سنة ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م، ثم كانت هذه المحاولة لاستردادها. وقد قـام بعـبء الدفاع عنها في هذه الغزوة الدون شانجوAL Donsancho .

ولما سمع الملك بالخبر، وكان يمارس ضغطه على أحد الحصون الاسلامية، ترك جيشه للهزيمة، وأطلق رجليه للريح بعيداً في المواقع الخلفية يشاهد الصراع، ويخطط على ضوء نتائجه المتوقعة، حتى إذا ما وجد ثغرة تسلل منها لاشباع طموحة[1]. وسقطت المدينة بين المسلمين ما عدا قلعتها التي قاومت الحصار طويلاً، عندها قرر القادة، وبخاصة الأندلسيين منهم فك الحصار عنها الى فرصة أخرى، والعودة الى اشبيلية. غير أن الخليفة أبا يعقوب اختلف مع أركان حربه، رافضا أنهاء القتال، متولياً القيادة بنفسه، فحصل انشقاق في الجيش ترأسه ابن الخليفة أبو اسحاق ، إذ مضى بعيداً عن أرض المعركة، يرافقه الأندلسيون الى ما وراء نهر التاجة، بحجة تطويق اشبونة من الجهة الأخرى لتفادي النجدات المفاجئة[2].

لم يكن غائباً عن أعين المحاصرين ما كان يجري في معسكر المسلمين، وعزموا على الخروج دون ابطاء، تعززهم قوات اتتهم للتو، فانقضوا بها على معسكر الخليفة الذي اصبح في مأزق، من غير حماية، وتشتت المسلمون تحت وقع المباغتة الداهمة التي فاجأهم بها جيش الاعداء، فوقع الأمير ضحية قراراته الارتجالية التي اتصفت بالفوضى والانقسامات، ثم تقهقهر الى الوراء صوب المغرب عبر اشبيلية، يحمل جراحات خطيرة، بقيت تنزف غير ممهلة، حتى اسلم الروح اثناء الطريق في الجزيرة الخضراء – على اصح الأقوال – دون أن تحقق هذه الغزوة ما كان مخططاً لها، سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م[3].

عندها استدار الملك الهارب، يشارك في نتيجة المعركة، ليحقق ما يجول بخاطره من سمو نحو الهيمنة والعظمة[4].

ويتبين أن نتيجة معركة شنترين نصر تعبوي للنصاري على الموحدين، ولكنه فشل سوقي لهم، ولا يعد النصر التعبوي شيئاً ذا بال الى جانب الفشل السوقي[5].

---

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٣٧٣.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ١٣٤.

(٣) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢١٤ – ٢١٥؛
في حين يذكر ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص: ١٦٥، أن الخليفة مات من مرض اصابه؛
المقّري: النفح، ج٦ ص: ١٦٠.

(٤) J.E. Ocallaghan, Ahistory of Medievd, spain, P, 167.

(٥) السوق: هو الاستفادة من المعارك للحصول على الغرض من الحرب. ومن ذلك يتضح أن السوق يعني نتائج الحرب، بينما تعني التعبئة نتائج معركة محلية واحدة.

تجدد الصراع بعد موت يوسف بن عبدالمؤمن، بين المسلمين والبرتغاليين؛ إذ تحرك ابن الريق (الرنك) ملك البرتغال، صوب مدينة شلب، وضرب عليها الحصار البري والبحري، واخذ بمخنقها حتى استسلمت، وغادرها السكان مخلفين وراءهم كل شيء ثمناً لأرواحهم، ودخلها العدو سنة ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م، وبلغت الانباء مسامع ابي يوسف يعقوب المنصور، فانطلق في أعقاب ذلك نحو الأندلس، وركب البحر، ووصل قرطبة عبر طريف، ميمماً اشبيلية، ثم تلوم بها وقصد حصن طرّش غرب الاندلس وافتتحه وسمح لسكانه بالرحيل مخفورين إلى بلادهم وأناخ على قصر أبي دانس، فاحتله، ونفى أهله إلى مراكش، ثم توجه إلى حصن بلماله (Palmella) واحاط به حتى اجلى أهله إلى بلادهم وهدمه، ثم قصد حصن المعدن، فسيطر عليه، وهدمه، ومنه نهد إلى شلب الهدف الأول للصدام، وحاصرها، ونصب حولها المجانيق، وآلات الحرب، فاستسلم أهلها، وطلبوا منه الأمان على أنفسهم مقابل الأرض، فحقن دماءهم، وغادروا المدينة إلى بلادهم سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م. وبعد سنة ونصف قضاها المنصور وقواته في الأندلس، قفل عائداً إلى حاضرته، بعد أن حقق بحركته الصعبة تلك انتصارا على الجبهة النصرانية الاسبانية، لا يقل خطرا عن انتصاراته الحاسمة على الجبهات الأخرى، وعقد هدنة مع ملك طليطلة أمدها خمس سنوات.[(١)]

٤- موقعة الأرك:

بعد معركة شنترين لم تمدنا المصادر بأي تحرك حربي نشب بين الموحدين ومملكة قشتالة، خلال السنوات الخمس التالية. فالموحدون بقيادة يعقوب المنصور مشغولون بجبهة افريقية، وهذه الجهة لم تكن محسومة لمصلحتهم تجاه ابن غانية[(٢)].

بينما أخذ ملك قشتالة يمارس سلطانه على مملكتي ليون والبرتغال، اذ حملت الأنباء وفاة ملك الأخيرة الفونسو هزكيزAlfonso Enriquez ، وخلفه ابنه الشاب سانشو الأول. وقد مات فرناند الثاني (الببوج)[(٣)] Fernando lldeleon ملك ليون، وخلفه على عرش بلاده ولي عهده الحدث الفونسو التاسع Alfonso 1 ، سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م.

---

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٤٠٢؛ الحلل الموشية، ص: ١٥٩؛ بن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص١٧٥-١٨٦؛ المقّري: نفح اطيب، ج٦، ص:١٦٠-١٦١؛ الحميري: الروض المعطار، ص: ٣٤٣.

(٢) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٦٠، ١٦١، ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص: ٢٣٣، ٢٣٤.

(٣) البيوج: كثير اللعاب، أي الأحمق؛ المراكشي: المعجب، ص: ٤٥٥.

أدرك عاهل طليطلة أنه أصبح أعظم ملوك النصرانية، وأن الطريق أصبحت امامه ممهدة، لفرض سلطانه عليهم، دون أن يأخذ في الحسبان مقاومة الملكين الشابين أطماعه بالقوة المسلحة[1].

لهذا نقض ملك طليطلة بنود الهدنة التي عقدها مع المنصور قبل انتهائها، وعادت بلاد الأندلس إلى غليانها العسكري ترتمي في خضم هجمات التحدي؛ أذ شق الفونسو بلاد المسلمين؛ ووطئ أرض الجزيرة الخضراء، وتطاول ببصره إلى أمير المؤمنين إلى بر العدوة يطلبه للنزال متحديا، وكتب كتابا له بذلك، وأرسل رسله حطت على أرض العدوة إلى حاضرة المنصور، بكيفية تدعو إلى الاستغراب والاستهجان يطلب من المسلمين تجديد معاهدة كان هو ورفاقه قد قتلوها، ويضع شروطاً قاسية لابرامها، فرفضها أبو يوسف بإباء سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م. وكانت هذه الارهاصات تسوق المنصور إلى الاسراع بتوجيه ضربة حاسمة للقشتاليين انتقاماً لما لحق المسلمين من عيث الفونسو الثامن، وتهديده وخيلائه؛ إذ اتخذ موقفاً حاسماً من رسله وأجابهم اجابة مقتضبة على رسالتهم (الجواب ما تراه لا ما تسمع)، واستعد من فوره لمقابلته على طريقته نفسها (التحدي يقابله التحدي)[2].

وجهز جيشاً كبيراً -نسبياً- لكنه لم يصل إلى جيش الفونسو البالغ ثلاثمئة ألف محارب ما بين فارس وراجل[3].

وفي الوقت نفسه ساءت العلاقة بين قشتالة وآراجون أولاً، وبينها وبين نا ار ثانياً. غير أن تفوق قشتالة الحربي داخل نا ار نفسها، جعل ملك أراجون يبحث مع الأخيرة في عقد معاهدة مفتوحة ضد القشتاليين. فانضمت الى هذه المعاهدة كل من ليون والبرتغال في العام التالي.[4]

---

(١) J. F. Ocallaghan: Ahistory of, Medieval, spain, P. 241 - 243.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ١٩١-١٩٥؛
ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٢٠-٢٢١؛
المقري: نفح الطيب، ج٦، ص: ١٦٢.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٢٧.

(٤) المصدر نفسه، ص: ٢٤٣.

هكذا يبدو، على رأي كلاهان، أن ملك قشتالة بقي في الميدان وحيداً يواجه تفوق المسلمين، يخوض معهم في جنون معركة اليأس والضياع، وربما تلقى وحده هزيمة الأرك القاسية سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٥م.[١]

حيث خاض الموحدون المعركة الكبرى ضد الفونسو الثامن (النبيل) قرب حصن الأرك، اذ مني الأخير بهزيمة مذلة، وقتل من رجاله عشرات الألوف، وأسر الآلاف من أعز قادته. وتلك موقعة تناهت في الضراوة والعنف والمخاطرة، ومن أشد معارك التاريخ فدائية وعنفا، وكانت أخت الزلاقة في خضد شوكة الاسبان، والتمكين للمسلمين في أرضهم الى أمد بعيد[٢].

وارتد ملك قشتالة يلعق دماءه النازفة، ويمضغ أحقاده في مرارة قاتلة، بعد هذه الغزوة، وقيل أنه أعلن حداداً مفتوحاً، فحلق لحيته ورأسه، ونكس صليبه، وأقسم ألا يركب فواره الدواب حتى تنتصر النصرانية، وحشد جميع قواه العسكرية المتبقية، واصطدم مع المسلمين سنة ٥٩٢هـ/ ١١٩٥م، ولكنه مني بهزيمة أخرى ساحقة، وغنم المسلمون ما معهم من الأموال والسلاح والدواب وغيرها، وعادت فلول قشتالة الى طليطلة تتعثر في هزيمتها وخيبتها، ثم بالغ المنصور في غزواته الى بلاد النصارى، إذ عبر الحدود يخرب ويدمر سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٦[٣].

فأقبل ساعتئذ سفراء ملك قشتالة يعرضون على مسامعه عقد معاهدة صلح وسلام، لكن الخليفة رفض مقابلة السفراء، وأنه لا سلم بينهم إلا الحرب والطعان، وواصل زحفه في بلاد العدو، ينتسف الزروع ويبيد الضياع[٤].

---

(١) المصدر نفسه؛ بينما يذكر ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٢٩، أن البرتغاليين وليون اشتركتا في القتال، وكذلك ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص: ٢٣٣، يقول: أن الفرنج جميعهم اشتركوا في القتال؛ ووافقهما المقري: نفح الطيب، ج٦، ص: ١٦٢، على ذلك ولعل هذا الرأي الأخير كان هو الأرجح،
راشيل أري: تاريخ اسبانية الاسلامية، ص: ٣٤.
Rechel Arie: Espana Musulmana (Siglos VIII - XV)
ابن الخطيب: رقمالحلل، ص:٥٢؛ مخطوط، رقم ٨/١٦٦، مكتبة المسجد النبوي المدينة المنورة، ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٦م.

(٢) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٢٠ - ٢٣١؛
المراكشي: المعجب، ص: ٣٧٣ - ٣٧٥؛ مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٥٩؛
الضبي: بغية الملتمس، ص: ٤٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص: ١٣٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص: ٢٢٣؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٧١ - ١٧٢.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ٢٠٢ - ٢٠٣؛
المقري: نفح الطيب، ج١، ص: ٤٢٥ - ٤٢٦.

ساعدت هذه الظروف وما أعقبها من هزائم للأمراء النصارى أن أقاموا علاقات صداقة في ما بينهم، أثر المتغيرات الجديدة بعد موقعة الأرك على الأخص، فراحت جيوش النصارى تعد عدتها، وتحشد بأسها ويأسها، لتثأر لنفسها ولشرفها ولقتلاها؛ اذ انضم سيد أراجون بقواته ولحق بفلول قشتالة المنهزمة للقيام بهجوم آخر مضاد ضد الموحدين، واحتشد الجميع في قلعة مجريط[1] Madrid ، فسار المنصور بجيشه نحوهما، ولما علما بذلك هربا يحملان فشلهما الى طليطلة، لعلهما يجدان مدخلا خلف اسوارها، ومن وراء الأسوار قاوما الحملة بشراسة اليائس، جعلت الخليفة يفك عنها الحصار، ويلتفت الى باقي المدن الأخرى، يحرق نواحيها، ويهدم اسوارها، ويتلف اقتصادها، فيجعلها حصيداً كأن لم تغن بالأمس، ثم يقتل رجالها ويسبي نساءها، ويجمع الأسرى منها الى حاضرة الاندلس سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٦م[٢].

استجاب الخليفة المنصور بعد غزوته الثالثة هذه لملك قشتالة وحلفائه، فعقد معهم معاهدة سلم مدتها خمس سنوات[٣].

يتبين أن الطرفين كليهما قد قدم للآخر فرصة ذهبية ثمينة، اذ كانت الاخطار آنذاك تحيط بملك قشتالة، خطر ملك ليون من جانب، ومضايقة ملك نبرة من ناحية أخرى[٤]. وأن الأخبار قد حملت انباء تمرد علي بن اسحاق بن غانية في افريقية[٥].

---

(١) مدريد: عاصمة اسبانية الحالية؛ ياقوت: المعجم، ج٥، ص: ٥٨؛
R. Altamira, Ahistory of spain, P. 155.

(٢) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٢٩؛
المراكشي: المعجب، ص: ١٤٧؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ١٩٩، ٢٠٤؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٣٠؛ المقّري: نفح الطيب، ج٦، ص: ١٦٣. وقيل ان المنصور قد شدد الحصار على طليطلة وأرهقها، وضربها بالمجانيق حتى اشرفت على السقوط والاستسلام، فخرجت اليه والدة الفونسو، وبناته ونساؤه، وبكين بين يديه - لعلها دموع التماسيح - وسألنه أن يبقي عليهن وعلى مدينتهن، فرق لهن، ومن عليهن بها، وردهن مكرمات، وعاد الى حاضرته بالأندلس؛ المقري: نفح الطيب، ج١، ص: ٤٢٥ - ٤٢٦.
أراني اشك بصحة الرواية التي ساقها المقّري، لأن المنصور الذي قتل بعض اخوته، واعمامه، وهم لحمة بيته، في سبيل المحافظة على الدولة قوية متماسكة. فهل من المقبول أن يضحي بمستقبل أمة أمام قطرات من دموع نساء اعدائه، بعد أن أوشكت عاصمة بني ذي النون المغتصبة على الرجوع الى حضيرة المسلمين؟.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٣٠؛ ابن عذاري: البيان، ق٣، ص: ٢٠٤؛ المقّري: النفح، ج٦، ص: ١٦٣.

(٤) J.F. Ocallaghan, Ahistory of medieval, Spain, P. 244.

(٥) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص: ٢٢٣؛
المقري: النفح، ج٦، ص: ١٦٣.

ولربما كان يعتبر الموحدون أن افريقية أكثر هموما وجراحات من الأندلس، وأن ابن غانية، لعله كان أبلغ ضرراً بهم من نصاري اسبانية.

ولما انتهت مدة معاهدة الصلح المعقودة بين ملك قشتالة والموحدين، رأى الملك أنه لا زال بحاجة الي بعض الوقت لتصفية حساباته مع أمير نبرة، فبعث سنة ٥٩٩هـ/ ١٢٠٣م في زمن الخليفة الناصر، وزيره الخاص ابراهيم بن الفخار اليهودي الى مراكش يحمل 'رسالة في ربوط المهادنة والمصالحة' مدتها خمس سنوات أخرى[١].

بعد هذه المعاهدة رأى الناصر أن يتخذ موقفاً صلباً إزاء بني غانية حكام جزيرة ميورقة، ويستأصل جذورهم، بعد المواقف الاستنزافية التي وقفوها حيال الموحدين طوال اربعين عاما مضت سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م، ونظراً لاحتمال مجابهة قوية جهز الاساطيل، واعد الجيوش، وشحنها بالرجال، ووضع على قيادة القوى البحرية عمه أبا العلاء ادريس بن يوسف، وعلى الجيش البري أبا سعيد عثمان بن أبي حفص أحد أشياخ الموحدين، وأمرهما بالانطلاق نحو الجزائر الشرقية، لاعادتها إلى حضيرة الدولة، فقصدا الجزيرة وفتحاها عنوة وقتلا اميرها عبدالله بن اسحاق، وسقطت الجزائر المذكورة بيد الموحدين[٢]

وبعد انقضاء مدة الصلح الأخيرة، لم يسع صاحب طليطلة ثانية لتجديدها عند انتهاء أجلها، ووجدت قشتالة فرصتها للانتقام من الموحدين بخاصة ومَن المسلمين بعامة في أعقاب هزيمتها في الأرك، وراحت توجه إليهم الضربات الغادرة كلما تمكنت منها، متجاوزة في ذلك أعراف الجوار وقيم المعاهدات التي درجت عليها[٣]. فنهض ملك قشتالة بقواته وبفرسان قلعة رباح لغزوا الاندلس، فدمر الحقول، ونهب القرى، وضرب الضياع، وأهلك جموعاً كثيرة من المسلمين، وعاد بأعداد أخرى من السبي يحملهم الى بلاده، واستمرت هذه الغزوات الارهابية، بالتعاون مع ملكي نبرة (البرشلوني) وليون، وفرق العصابات الدينية، الى سنة ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م[٤].

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ٢١٨.

(٢) الحميري: الروض المعطار، ص: ٥٦٧؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٣٢؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ٢١٦.

(٣) J. F. Ocallagghan, Ahistory of Medieval, spain, P, 245

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ٢٣٥ – ٢٧٦.

٥- موقعة العقاب:

حملت الأنباء الى مسامع الناصر أخبار الاجتياحات التخريبية التي مارسها القشتاليون في أرض الأندلس، أثر موت يعقوب المنصور، فاهتز لفداحة الخطب، وصمم على الانتقام. ومن فوره بدأ بدعوة الجنود الاحتياطيين والمتطوعة، وطلب من جميع القبائل المغربية الانخراط في معركة اسبانية المرتقبة، وعبر البحر بجيش ضخم، واتخذ طريقه عبر طريف الى اشبيلية سنة ٦٠٧هـ/ ١٢١١م(١).

ولما استقر في العاصمة الأندلسية راسله اكثر أمراء اسبانية النصرانية يطلبون وده وعفوه، وممن جاءه بنفسه مستجيراً ملك ببونة "ينبلونة" يقدم قومه مستسلماً خاضعاً مستصغراً يطلب صلحة، ويسأل منه عفوه وصفحه(٢).

لم يشأ الناصر انتظار خصومه، فغادر اشبيلية فوراً لاقتحام حصن "شلبطرة" المنيع(٣) Selvatierra، في عملية تطويق مضنية قاربت العام تقريبا، نقصت فيها المؤن، واشتد البرد، وضعفت معنويات الجند، بعد أن أخذ منها اليأس كل مأخذ.(٤)

نشأ عن سقوط شلبطرّة رد فعل عنيف، لدى الامم النصرانية في الشمال، وعلى رأسها قشتالة، ورأت أن تتحرك لتوجيه ضربة ثأرية للقوات الاسلامية قبل أن يستفحل الخطر، وتجد هذه نفسها محاطة من كل مكان، اذ أن السكوت ازاء ما يحققه المسلمون من انتصارات، يعني فتح الطريق أمامهم لتغطية شبه الجزيرة كلها بدينهم، واكتساح مواقع الاسبان واحدة واحدة، سيما وأن بعض أمرائهم القوا السالح يجمحون اليهم مستجيرين لدى سماعهم بمغادرة الناصر المغرب، على رأس قواته صوب اسبانية، وكأني بزعماء النصرانية يقولون: "قد فرغ الناصر لنا، فلا نهاية له دوننا(٥)

عند ذلك أرسل ملك قشتالة استنفاره لكل قوى النصرانية داخل شبه الجزيرة وخارجها، ووصل صدى صوته الى البابا أنوسان الثالث الذي لبى النداء ودعا جميع

---

(١) ابن ابي زرع: الانيس المطرب برضو القرطاس، ص: ٢٣٤، ٢٣٥؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ٢٢٠ - ٢٣٥.

(٢) المصادر نفسها؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٣٥.

(٣) شلبطرة: قلعة عظيمة في غاية المناعة، ومعناها الأرض البيضاء، تقع بالقرب من قلعة رباح، وعلى مقربة منها جرت معركة الأرك؛ المراكشي: المعجب، ص:٤٥٣.

(٤) أبن أبي ذرغ: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٣٧، المقّري: النفح، ق٣، ص:٢٣٨.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب، ق٣، ص:٢٤٠؛ الحميري: الروض، ص:٤١٦.

رعاياه من كافة البلدان الاوروبيه، بين جبـال البـرانيس، وشـواطئ البحـر الأسـود لهذا الصريخ، وبخاصة أرسل صيحة إلى اولئك الذين فشلوا في حروبهم الصليبية في الشـرق، وإلى الجموع التي كانت مولية وجهها جهة المشـرق كذلـك، ولم يكتـف صـاحب قشتالة بذلك، فأرسل مطران طليطلة عدداً كبيرا من رجال الديـن إلى فرنسـا وألمانيـا "حتـى بلـغ نفيره إلى القسطنطينية" يبثون دعاية لحرب صليبية جديدة في اسبانية، مسـوغا تجميـع هـذه الحشود من الامم الاوروبية لمـا راعـه تقـدم الموحديـن صـوب بـلاده، فخشـي ان تنـال الاسبانيين هزيمة على يد الناصر محمد، مثل هزيمة الأرك منذ بضع عشرة سنة على يد أبيه المنصور يعقوب.(١)

فانثالوا على اسبانيه من كـل حـدب وصـوب، حتـى مـن بريطانيـا وبـلاد السام (الألمـان)، تحدوهـم عوامـل التعصـب والثـأر، بالاضافـة إلى جـذب خـيرات الأندلـس وأموالها، فلهما اكبر الأثر في ذلك التجمـع الضخـم، وقـد غصـت بـهم قشـتالة، فكـان اجتماعهم تمهيدا لوقعة العقاب، فتحركت هذه الجموع نحو قلعة رباح المنيعـةCalarava بفرسانها السبعين.(٢)

وقد حرمت هذه من المساعدة، رغم صيحات جنودها المتكررة إلى أمـير المؤمنـين، فسلمها قائدها الشجاع أبو الحجاج بن قـادس، مضحيـا بالخسـائر الماديـة لتوفـير القـوى البشرية الموجودة فيها إلى مهمة اكبر تنتظرهم، ويظهر لنا بجلاء مدى الواقعية الـتي يتمتـع بها ابن قادس والحرص على الطاقة الانسانية الا تتبدد في غير مواضعها، وكان عند ظـن اصحابه التمعت عبقريته القتالية في لحظة الامتحان الخطر هذه، فجعل هدفه أن ينسـحب بالفئة القليلة من المسلمين وأن يجنبهم عملية إبادة شاملة هي الآن قاب قوسـين أو أدنـى منهم. فوجدناه يتحرك صوب الخروج من القلعة الى مكان جديد، الى مقر قيـادة الخليفـة وتجمع الجيوش الاسلامية لصياغة الطاقات في اطار امكانات اعظم من امكانات سـبعين فرداً تنتابهم المخاوف في الداخل، وتضغط عليهم قوى النصرانية المستجاشه من الخـارج، ويستنزف طاقاتهم البناءة احكام الطـوق عليـهم بـدلاً مـن ان تمضـى هـذه الطاقـات في

(١) المصدر نفسه؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:٢٢٠؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٣٦؛ المراكشي: المعجب، ص:٤٥٤، وهامش رقم ١.

(٢) قلعة رباح: حصن منيع احدثه الأمويون وسط الطريق بين قرطبة وطليطلة جنوبا؛ مجهول: الحلل الموشية، ص:١٦١؛

ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٣٥؛ المراكشي: المعجب، ص:٤٥٤؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص:٢٣.

طريقها الصحيح، ومد الرجال السبعون، ابصارهم بوم خروجهم من الحصن، إلى جيوش النصرانية وكثافتها، فعرفوا آنذاك ان مقاومتهم وخروجهم سالمين قد أتت ثمارها، وأنهم قد صمدوا لأخطر محنة جابهوها طيلة حياة الكدح والمطاردة والحرب والكفاح، وليس هذا فحسب بل ان الفونس نفسه تعهد بحمايتهم حتى يصلوا إلى اخوانهم، ويتبين ان هؤلاء كانوا ممن تلقوا تدريبات خاصة. فلعب القائد الاندلسي بهذه الورقه الرابحة، وهو العارف اكثر من غيره بنفوس الصليبيين، ليفرق جموعهم، وبالفعل حصل ما كان متوقعاً، حيث غادر كثير منهم الميدان، لما رأوا المسلمين يخرجون من القلعة آمنين تحت حماية ملك قشتالة، وقالوا لألفونسو:

"إنما جئت بنا لتفتح بنا البلاد، وتمنعنا من الغزو وقتل المسلمين، مالنا في صحبتك من حاجة"[1] ولعل الفونسو، كان يرمي من وراء عمله الوقيعة بين المسلمين، توجه ابن قادس لمقابلة الخليفة لشرح الحال التي كما يبدو كان يخفيها عنه باستمرار مستشاره العسكري ابو سعيد بن جامع، حيث احتل هذا عند الناصر ثقلا سياسيا آنذاك، فإذا به كان نقطة الضعف في جيش الموحدين.[2]

التقى الجيش الاسلامي جموع الصليبيين قرب حصن العقاب في سهل تولوزا Las Navas de Tolosa قرب أبّده[3]، وكانت نهاية المعركة مأساوية، انتصاراً حاسماً لجيوش النصرانية على المسلمين، وهروب الناصر من أرض المعركة، يحمل تأوهاته وهمومه إلى

---

(١) المراكش: المعجب، ص:٤٥٦.

(٢) يذكر ابن أبي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٣٨، أنه لما وصل ابن قادس وصحبه إلى معسكر الناصر، فرحب به الأندلسيون أجمل ترحيب، وفسروا عمله نصرا للأمة بانسحابه الوقائي، واعتبروه متحيزاً إلى فئة، وليس توليا، بينما الوزير ابن جامع عده خيانة للمسلمين، فقبض على ابن قادس وجماعته وقيدوهم بالحديد، وزين للناصر سوء فعلهم، ومنعهم من مقابلة الخليفة، وحكم عليهم بالاعدام قتلا على مرأى من الناس "فجمد الناس عند قتلهم، وحقدوا على محمد الناصر" وهكذا تمرد جيث الاندلس، ولم يستل سيفا ولا رمحا في المعركة، وأسلم الناصر والمغاربة عموما إلى جلاديهم، وكانوا قد طردوا من ساحة المعركة على يد الناصر قبل بدئها؛ وذكر مثل ذلك، المقّري: النفح، ج٦، ص:١٦٤؛ ابن الخطيب: رقم الحلل، ص:٥٢.

(٣) العقاب: موضع بين جيان وقلعة رباح، وهو ليس علما على بلدة أو مدينة، وإنما هو اسم لهذه المعركة، نظرا لأنهاوقعت فعلا في عقاب (ج. عقبة)، وأوعار بجبال الشارات؛ الحميري: الروض المعطار، ص:٤١٦؛ مجهول: الحلل الموشية، ص:١٦١؛ المراكشي: المعجب، ص:٤٥٦، ٤٥٧؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٣٦؛ ابن عذاريك البيان المغرب، ق٣، ص:٢٤٠؛ ابن ابي زرع: الانيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٣٨-٢٤١.

مراكش، ليخترمه الأجل المحتوم، ويلاقي مصيره في مؤامره دبرهـا لاغتيالـه كبار رجال دولته سنة ٦١٠هـ/ ١٢١٢م.[١]

كانت هذه المعركة مؤشر النهاية للمغرب السياسي والعسكري والاقتصادي، وقد فرغ أوكاد أن يفرغ من القوى البشرية الشبابية المنتجة في كل المجالات، ولعمق هذه المأساة وبعد أثرها، حقيق بنا أن نتساءل، لماذا هزم المسلمون؟ مع أن الناصر كـان يتمتـع بخلال تدل على عزم، وتصميم أبيه، كيف لا وهو من ولد في النعمة، وغذي بها، وشـب تحت خمائلها، وقد جاءته ملوك اسبانيه طائعة ذليلة، وأن الناصر كان واثقاً مـن النصـر؛ يملـك جيشاً يتفوق عددا وعدة، ويزيد على خمسمائة الف مقاتل، حتى ضاق بهم المتسع والنجد والغور[٢]. واستطاع أن يجند كل هذه الحشود على الرغم من هموم افريقيه، اذ استغرقت منه وقتا طويلا، وربما كان فشل المواجهة راجعاً لقـرارات النـاصر المزاجيـة المرتجلـة غـير القادرة على اختيار قادة ووزراء أكفاء، كالوزير أبي سعيد الذي كان يتعالى على أشـراف الموحدين والأندلسيين، ويهين كبراءهم وقاداتهم، ويقرب أناسا ليسوا مـن ذوي الكفايـة والخبرة، فهذا رجل يدعى ابن منشا (منسا)، كان مغموراً وغير ثقة، استحوذ على مجلـس الناصر[٣] واستبعد منه المخلصين، وذوي السمعة الطيبة، فالقائد أبو الحجاج ابن قـادس، قد نالته التصفية في ظروف غامضة مما أغضب جميع الجيوش الأندلسية، كما ذكر سابقا.

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص:٢٠٧.
يذكر ابن أبي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٤١، أن الناصر مات مسـموما، بـأمر من وزرائه، دسوا اليه من سمه من جواريه في كأس من خمرة فمات من حينـه، الحـادي عشـر مـن شعبان سنة ٦١٠هـ/ الثاني والعشرون من كانون الاول ١٢١٢م؛ ومثله قال ابن عـذاري: البيـان المغرب، ق٣، ص: ٢٤٣، أما المعجب، ص:٤٥٩، يذكر أنه مات بسرطان الدماغ، (أصابتـه سـكتة من ورم الدماغ)؛ بينما الحلل الموشية، ص:١٦١، يذكر أنه مات غما بمراكش؛ ويروي ابن خلكـان عن بعض المغاربة، أن الناصر أوصى عبيده المشتغلين بحراسة بستانه بمراكش، أن كل من ظـهر لهـم بالليل فهو مباح الدم لهم، ثم أراد أن يختبر قدر أمره لهـم، فتنكـر وجعـل يمشـي في البسـتان ليـلا، فعندما رأوه جعلوه غرضا لرماحهم، فجعل يقول: أنا الخليفة، أنا الخليفة، فما تحققوه حتى هلـك؛ ابن خلكان: وفيـات الأعيـان، ج٧، ص:١٥، ويذكـر الحمـيري: الـروض، ص:٤١٦؛ أن النـاصر مات بعضة كلب، أي اصابه داء الكلب ومات؛ ورغم كل الخلافات في سبب موت الناصر، فلربما كانت على الأرجح مؤامرة دبرت لاغتياله.

(٢) المقّري: نفح الطيب، ج١، ص:٤٢٧ذكر أن جيش الناصر بلغ ستمائة ألف في هذه الموقعة.

(٣) مجهول: الحلل الموشية، ص:١٦٠-١٦١، ابن عذاري: البيان، ق٣، ص:٢٤٠، ٢٤١.

خاض أبو عبدالله مثل هذه المعركة، ولم يرضَ عنها كبار مستشاريه العسكريين؛ وكتب إلى الشيخ ابي محمد بن أبي حفص يستثيره في الغزو فأبى عليه فخالفه[١]، بالاضافة إلى حصار حصن شلبتره الشاهق، وقد استنفذ كثيراً من الجهد والوقت، وكان المنصور قد حاصر هذا الحصن قبله، فاستعصى عليه، ثم تركه شفقة على الجند، وخوفا عليهم من الهلاك.[٢]

كذلك لم يستطع الناصر استثمار انشقاق الجيش النصراني، اثر سقوط قلعة رباح، حيث انسحب حوالي خمسين الفا من خيرة الجند النصارى الوافدين، عائدين إلى بلادهم، بسبب حقدهم على الفونسو، لظنهم أنه حرمهم من غنائم القلعة، ومنعهم من البطش بالحامية الاسلامية التي غادرتها وقد بينا كيف اغضب الناصر الأندلسيين في الوقت الحرج، فجعلوا ينظرون إلى فرقة المتطوعة، وهي من أضخم الفرق العسكرية التي حضرت المعركة، مائة وستون الفا، دون أدنى حركة لمساعدتهم، مما يؤكد على مؤشر مهم، أن المسلمين دخلوا المعركة بنفوس منقبضة، ودون تحوط منهم، وعلى غير أهبة، وكانت تنقصهم الوحدة والتنظيم، فضلا عن افتقارهم للثقة بين مختلف قطاعات الجيش، وبعثرة اهدافه، ناهيك عن القرارات الاقتصادية التي انتهجها المستشار ابن جامع، وحرم منها الجند، ومنع عنهم الرواتب أكثر من أربعة أشهر على غير العادة، فغلت الاسعار، وقلت الأقوات.[٣] في الوقت نفسه كانت تسود الجانب النصراني الوحدة في القيادة، والتنظيم وحب الانتماء، وحسن الإدارة؛ وقد اختار ملك قشتالة زمان ومكان المعركة في أرض العدو[٤]

ولا يغيب عن البال أن اطلاق العدد الضخم من أسرى الأرك أربعة وعشرين الف فارس من زعماء اسبانية النصرانية على يد المنصور، وقد ندم على اطلاقهم، ولكن بعد فوات الاوان، ربما كان له أثر سلبي على حياة الناصر العسكرية[٥]، بالاضافة إلى أن انهزام الصليبيين في الشرق، كان كما يبدو على حساب الجبهة الأندلسية.

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٣٥؛ الناصري: الاستقصاء ج٢، ص:٢٢٠؛ المراكشي: المعجب، ص:٤٤٣.

(٢) المراكشي: المعجب، ص:٤٥٣؛ ابن عذاري: البيان المغرب الخاص بالموحدين، ص: ٢٣٩-٢٤٠.

(٣) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٣٧-٢٣٩؛ الحميري: الروض المعطار، ص:٤١٦.

(٤) J.f. O Call aghan, Ahistory of medieval, spain, p, 245-24

(٥) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٨٨؛ المقّري: انفح، ج١، ص: ٤٢٥، وقيل أن عدد الاسرى بلغ ثلاثون الفاً.

ولقد أظهرت المواقف أن الناصر ليس محاوراً سياسياً ضليعاً كما ويفتقر إلى صياغة التكييف الدبلوماسي الناجح، اذ عقد مع ملكي ليون ونا ار معاهدة حسن جوار، وتعاون عسكري، رغم أن العلاقات العسكرية الاسبانية طاغية آنذاك على ماسواها من مظاهر الود والتعاون، اذ (كان ابن اذفونش قد ناظر ابن عمه الببوج صاحب ليون في أن يوالي الناصر ويجر الهزيمة على المسلمين ففعل ذلك)[1]، وكان في المعركة ملك نا ار يقود الجناح الأيمن، بينما جنود ليون يؤلفون معظم القوى الاحتياطية المعدة في ساعة العسرة.[2]

يتبين ان الناصر لم يستفد من أخطاء جده وحنكة أبيه وتجاربه، إذ أرسل عدداً من جنده الأخيار باعمال حربية هامشية، وكان مستشاره ابن جامع سببا في اختلال التنظيم العسكري، واضطراب التنظيم في الجيش، وعدم تنظيم القياة العسكرية، مع عدم توزيع المسؤوليات. ورغم هذا وذاك، لم يشارك الناصر في المعركة ولم يشجع، بل ركن في قبته، ينظر إلى المعركة نظر المذهول، ثم لم يحاول تدارك الموقف، بل فر تجاه بياسة واشبيلية على فرس لأحد ضباطه العرب، يتجرع الهزيمة عائداً إلى عاصمة ملكه[3]

لهذا كان على الأندلس والحالة هذه ان تغرق في الدفاع عن نفسها بصبر وجلد ومعاناة، وسط هذه التيارات التي تحيط بها من كل جانب، وتبين أن موقعة العقاب اضحت منعطفا تاريخيا على قدر كبير من الأهمية، قد جنبت اسبانية النصرانية صولة الاسلام إلى امد غير منظور، على يد الحلفاء النصارى، والجموع الصليبية من اوروبا كافة، وحقيق عليها أن تضع الخيار الأندلسي موضوع الاختيار.

لم ينس المسلمون أن شبح الفناء عاد يلوح للأندلس قويا منذرا، وسرى هذا التوجس إلى كتاب العصر وشعرائه؛ واسطة الاعلام الوحيدة في ذلك الزمن. وما أبلغ ما قاله ابو اسحاق ابراهيم بن الدباغ الاشبيلي في موقعة العقاب، من الشعر، تعبيرا عن هذا التخوف.

ولا بد أن أذكر تأثر العدوتين بالآثار العسكرية والاقتصادية السابقة، وقد هزت البلاد، وابتليت بنقص من الأموال، والأنفس والثمرات، فروعته والقته في مضطرب من

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٣٦

(٢) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ٢٢١.

(٣) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القراطس، ص: ٢٣٨-٢٤٠.

الفوضى والارتباك؛ اذ انهارت الزراعة، وتعطلت التجارة، وفشت المجاعات، وتصحرت الأراضي وبارت، وخلت البلاد أو كادت من الايدي العاملة الفنية(١).

وهكذ كأنّ الارادة القوية شاءت أن يكبو المسلمون هذه الكبوة بعد سلسلة من الانتصارات التي حققوها قبل الأرك وبعدها لأن الانتصار الدائم يعرض الجماعة لنوع من اليقين الاعمى والاتكالية السالبة، ويحشر في صفوفهم الكثير من ضعاف الانتماء وطالبي المغانم، وهذا ما كان، فلا بد من هزة عنيفة تنخل المنتمين، وتسقط عنهم اولئك الذين لا يقدرون على الصمود ومجابهة الخطر وجها لوجه، وممارسة الموت بشرف، ولكن الهزة كانت عنيفة لم يحتملها الموحدون ولم تقو على مجابهتها مفاهيم التومرتية وحسهم في الانتماء والوجود.

٦. ثورات الشعب الاندلس في نهاية الدولة:

ليس من طبع المنهزمين عامة ونصارى اسبانيا على وجه الخصوص، أن يسكتوا على هزائمهم السابقة، وبخاصة هزيمة الأرك، وهم لا بد أن يسعوا معتمدين أي اسلوب لاسترداد مواقعهم ومصالحهم التي جردوا منها، ولهذا حدثت موقعة العقاب، فاشرأبت النصرانية كلها في اسبانية وخارجها، واصبح المسلمون (كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية)، لفقد زهرة شبابهم في تلك الهزيمة. ويقول كلاهان، وبعد الموقعة مباشرة اجتمع ملك ليون وملك قشتالة، وملك البرتغال، سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م، واتفق الملوك الثلاثة، وتعاهدوا على التعاون ضد المسلمين والاستيلاء على بلاد الأندلس جميعا أن أمكنهم ذلك. فبادر ملك ليون إلى احتلال مدينة القنطرة ذات الموقع الاستراتيجي الهام والمهيمن على أراضي وادي التاجة، وسلمها إلى فرقة فرسان القنطرة، التي ابلت بلاء حاسما، في وقيعة العقاب، حيث اتخذوها مركزا لجمعيتهم.(٢)

وانطلق الفونسو الثامن ملك قشتالة على رأس عدد من أصحابه المنتصرين مستهدفاً الحصون القريبة؛ فرال، وبلج، وبانيوس، وتولوسا، وعمد الى بياسة وابده القريبتين من ميدان المعركة، فقتل رجالهما، وهدم البيوت، واشعل فيهما النيران(٣). ثم

---

(١) سعيد عاشور: التارخ السياسي، ج١، ص:٥٥١؛ الحميري: الروض المعطار، ص:٤١٦.

(٢) J.F. O'callaghan: Ahistory of medienval spain, P. 249.

(٣) R. Al tamira: Ahistory of spain, p., 165-166;
S.P. Scott: A history of the moorish empire, , 11, p, 339-340;
ابن ابي زرع: الانيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٤٠.

استولى النصارى على مدينتي بسطة (Baza) وباغو (Viseu) وما جاورهما من القرى والحصون، وسبوا النساء والاطفال، وقتلوا كل من بلغ الحلم من الرجال.[1].

وبعد موت الناصر تولى الخلافة ابنه يوسف المستنصر أبو يعقوب، ولم يتجاوز عشرة اعوام، وقيل ستة عشرة عاماً، كان قليل الخبرة والتجربة، ومعرفة الامور، ولم يمتثل لأمره أحد، حتى كان كل والٍ يدير أمره بنفسه، منعزلاً عن غيره، ودون أخذ رأي السلطة المركزية في أي من الأمور، وانشغل أبو يعقوب عن تدبير الامر والجهاد بما يقتضيه الشباب، وقام أعمامه ومشيخة الموحدين بادارة الدولة نيابة عنه، فكانت أيامه كلها دعة وتواكل وهدنة، إذ رأت ملكة قشتالة أن تعقد معاهدة صلح وعدم اعتداء مع الموحدين سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م، فارسلت من قبلها ابراهيم بن الفخار الاسلامي (اليهودي الاصل) إلى مراكش، فاستقبله المستنصر، وعقد معه اتفاقية سلم وموادعة على جميع بلاد الموحدين بالاندلس على الشروط التي عدوها والعهود التي عقدوها، ثم وجه كتابين أحدهما إلى السيد أبي الربيع صاحب جيان والثاني للشيخ أبي العباس بن أبي حفص والي قرطبة، أمرهما بالتزام شروط الهدنة مع ملكة قشتالة فهدأت البلاد الاندلسية في هذه السنة من جهة المهادنة.[2]

وفي سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١، تجددت هدنة السلم والموادعة بين ولاة الأندلس من السادة الموحدين بأمر من أمير المؤمنين يوسف، وبين نصارى قشتالة، وكتب بذلك كتابا إلى ملكتهم يخبرها بالسلم الذي انعقد بينه وبين رسولهم، وطلب منهم المحافظة على الشروط المتفق عليها والوفاء بها، وأن يقفوا في وجه كل من يحاول نقض الهدنة، باختراق حدود المسلمين والتعرض بالأذى لأي من أفراد الرعية[3].

ومن الهزائم الكبار التي تقرب من هزيمة العقاب التي لحقت بالمسلمين في زمن يوسف المستنصر، كانت معركة قصر أبي دانس بغربي الأندلس سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٧م، حيث خرج جيش نصراني على رأسه الفونسو الثاني ملك البرتغال وحاصر الحصن المذكور، ونقب الأرض من تحت الحصن، ودخل منه الجند، والناس في غفلة، وعلى غير اهبة. فنهد المسلمون بجيش اشبيلية وكتائب قرطبة وفرقة جيان، وبجنود من غرب الاندلس، بأمر من الخليفة لنجدة الحصن، غير أن محنة العقاب فوق هذا كله ليست بعيدة

---

(١) الحميري: الروض المعطار، ص:٤١٦.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص ٢٤٤؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٣٧.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:٢٤٦.

عن الأذهان، ويدون تحوط منهم انهزمت الجيوش الاندلسية، ووقع فيهم القتل والاسر، واستولى البرتغاليون على الحصن، وجالت التصفية على كل من به من المسلمين.[1]

ومات المستنصر سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م، وخلفه عم أبيه عبدالواحد بن يوسف لمدة وجيزة؛ ثمانية اشهر، وبويع بعده عبدالله بن المنصور الملقب بالعادل في مدينة مرسية بالاندلس سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م، ولما تمت بيعته توجه منها إلى اشبيلية، وكان أخوه أبو العلاء المأمون، والياً على قرطبة، وعبدالله البياسي حاكماً لاشيلية، فبايعاه، واجتمع ثلاثتهم فيها، يتقبل طاعة أهل الاندلس؛ إذ بايعه أخوه أبو الحسن حاكم غرناطة، وأبو موسى والي مالقة، وامتنع عن بيعته حاكم بلنسية، ودانية وشاطبة السيد عبدالرحمن بن ادريس بن يوسف (أبو زيد البياسي)، وحاكم جزيرة شقر (Segura) أخي أبي دبوس[2].

وما ان علم السيد عبدالله البياسي حاكم قرطبة آنذاك، توقف أخيه السيد عبدالرحمن عن بيعة العادل، قام هو بانتفاضته ضد الخليفة سنة ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م ببياسة وقرطبة وجيان وقيجاطة وحصون الثغر الاوسط، وتسمى بالبياسي لقيامه ببياسة. فبعث العادل أخاه ادريس ابا العلاء بجند كثيف حاصر بها بلنسية، فاذعن البياسي مرحلياً وبايع العادل، ثم انتقض بعد عودة ابي العلاء، واستنجد بالقشتاليين فأمدوه بعشرة آلاف فارس مقابل أن يتنازل لهم عن بياسة وقيجاطة، فدخل بهم عبدالله حصن باجه ولوشه وغيرهما من الحصون، واختلت الاحوال بالأندلس وعظم أمر البياسي، وكثرت غارات النصارى على مرسية واشبيلية والعادل مقيم بها، فغادرها إلى مراكش وولى أخاه أبا العلاء الاندلس مقيما في اشبيلية، وقام البياسي وحلفاؤه النصارى بالهجوم عليها، لكنهم خسروا المعركة أمام أبي العلاء وكتب إلى أخيه بذلك[3].

---

(١) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٤٢-٢٤٣؛ الحميري: الروض المعطار، ص:٤٧٥.

(٢) ابن عذاري: البين المغرب، ق٣، ص:٢٤٨-٢٤٩؛
ابن ابي زرع: الانيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٤٦؛ المقّري: نفح الطيب، ج٦، ص:١٦٥.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:٢٤٩-٢٥٠؛ ويذهب ابن خلدون إلى ما ذهب اليه ابن عذاري؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٣٩؛ ٣٤٠؛ غير أن ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٤٦؛ يذكر أن الغلبة كانت للبياسي وحلفائه؛ إلا أنني أميل إلى الرأي الأول، إذ لو كانت الغلبة للبياسي وحلفائه لدخلوا اشبيلية واحتلوها، لكن هذا لم يحصل في ذلك التاريخ.

غير أن الشعب الذي عانى كثيراً في قرطبة انقلبوا على البياسي وقتلوه وبعثوا برأسه إلى اشبيلية، ومن ثم بعثه بو العلاء إلى مراكش، سنة ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م، وعادت بعض الحصون إلى حظيرة المسلمين[1]، لكنهم رغم ذلك ما استطاعوا التخلص من محنة العقاب، إذ بقيت عالقة في الاذهان، وجدار الخوف لم ينكسر، وبقيت النفوس على ضعفها وخذلانها تنتظر من يقدم لها الشفاء.

ولما تيقن أبو العلاء المأمون، باختلال أحوال أخيه العادل، ووقوعه في مأزق حرج، وأن الموحدين انقلبوا ضده؛ دعا لنفسه في اشبيلية وخلع طاعة أخيه، فبايعه الناس في جميع بلاد الاندلس وسبتة وطنجة من بلاد العدوة في الثاني من شوال سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م، وما ان رأى الموحدون تهافت أبناء عبدالمؤمن على الامارة، دخلوا القصر على العادل في ٢٢ شوال في السنة نفسها وطلبوا منه التنازل لأخيه المأمون فرفض، فجعلوا عمامته في عنقه، وخنقوه، ورأسه في وعاء ماء، وبايعوا المأمون، ثم نكثوا عهدهم، واعلنوا امارة يحيى ابن أخيه الناصر لصغر سنه خوفا من بطش الأول الذي استنجد بنصارى قشتالة ضد الموحدين، وأطمعهم بتنازلاته المهينة؛ إذ ولي الخلافة والبلاد تضطرم نارا قد نالها الخراب والفتن والقحط والغلاء الشديد، وانعدام الأمن، وقد سيطر العدو على أكثر بلاد المسلمين، فتحرك حاكم برشلونه إلى ميورقة، اثر مصيبة المسلمين في معركة العقاب، فنزل بساحتها باسطوله في شوال سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م، وضرب عليها الحصار، وانزل بأهلها أنواع المصائب والمحن، وعانوا من شدة الحصار وسوء الحال ما لم ير مثله، ودخلها عنوة بحد السيف عام ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م[2].

ونتيجة لهذه المعاناة التي يعانيها المغرب، استبد بنو حفص بافريقية، ودخل بنو مرين المغرب، واستحوذوا على جميع بواديه[3]، فقام اهل الاندلس بانتفاضاتهم؛ إذ توضح هذه تحدياً عنيفاً أخيراً لحكومة الموحدين المركزية، وكان ضعفها مدعاة لتنازع رجال السلطة فيها، وانهياراً للإدارة وتفككها، واختلالا للجيش، والغاء دوره كسلطة عسكرية ناجحة في حماية البلاد، وكذلك فقدان الاسطول حيويته، واهمال قواعده البحرية، بالاضافة إلى الجو المتشنج الذي خيم على الأندلسيين نتيجة الاضطهاد والتنكيل الذي حل بهم منذ ايام الناصر، قد عمق الهوه بين القطرين[4]

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ٢٥٢.
(٢) الحميري: الروض المعطار، ص:٦٦٨؛ المقري: نفح الطيب، ج٦، ص:٢٦١.
(٣) ابن ابي زرع: الأنيس لمطرب بروض القرطاس، ص:٢٥٠.
(٤) ابن ابي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٣٨؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:٢٢٢، ٢٢٣.

وعلاوة على ذلك أنهم حكموها -الأندلس- بنواب لهم، ولم يتخذوها مركزاً لسلطانهم، وجعلوها خارج دائرة الاستقطاب والتأثير في الأحداث المصيرية، تلك التي اخذت في الابتعاد نحو الجنوب، حيث انتقل الثقل السياسي والاقتصادي والعلمي، وربما كان من العسير أن تحكم الأندلس بهذه الكيفية. ثم الصراع القائم بين بني عبدالمؤمن، وقد أخذ اسلوبا دموياً منذ وفاة المستنصر، مما شجع استعانة بعضهم بعدوهم التقليدي، النصارى، وهروب البعض الآخر والالتحاق بهم سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م[1] .

اهتبل نصارى اسبانية حالة الضعف هذه، وضغطوا على الأراضي الاسلامية في وقت واحد؛ فأراجون من الشرق، والبرتغال من الغرب، وقشتالة تحيط بهم من الشمال، تعززهم حملة صليبية متقدمة من فرنساوانجلترا؛ اذ كان الموحدون قد عجزوا اثرمعركة العقاب من التصدي لهجمات تلك القوى المتحدة، ازاء هذه الاوضاع المتردية، جمع الاندلسيون كامل قواهم الذاتية، وقاموا بانتفاضة شعبية شاملة، ونادوا بتقرير مصيرهم بأنفسهم، وأعلنوا الثورة على الموحدين والاسبان في كل مكان وفي آن واحد، وسلموا زعامتهم إلى رجال من أبنائهم، كان أولهم ابن هود الذي تزعم الثورة سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٧[2]. وثانيهما أبو جميل زيان سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م[3]، وآخرهم الثائر ابن نصر سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣١[4]. وتبين أن هؤلاء لم يكونوا على ما يبدو أهلا للقيادة والزعامة في تلك الظروف الحرجة، فثارت مدينة ابده بزعامة أبي جميل زيان عميد آل مردنيش في ذلك الوقت، على أبي زيد والي بلنسبه، وكان أبو جميل يومئذ وزيرا له، اذ احتل المدينة الأخيرة، ودعا للعباسيين لكي يكون حقيقا بالامارة وحاول أبو زيد محمد بن

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٣٩-٣٤١، ج٤، ص:٢١٦.

(٢) هو محمد بن يوسف بن محمد بن عبد العظيم بن أحمد بن سليمان بن المستعين بن محمد بن هود ثار بالصخيرات قرب قرطبه؛ ابن خلدون: العبر، ج٤، ص:٢١٥.

(٣) أبو جميل زيان بن أبي الحملات مدافع ابن الرئيس بن يوسف بن سعد بن مردنيش، فجده يوسف ابن سعد، أخومحمد بن سعد، أمير شرق الاندلس، أواخر عهد المرابطين، وأوائل حكم الموحدين الذين أسندوا إلى آل مردنيش امارة الولايات وقيادة الاساطيل؛ ابن صاحب الصلاة: المن، ص:٤٩٩.

(٤) ابن نصر: كان عميد اسرة بني نصر، محمد بن يوسف بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي الانصاري، وعلى رأسها محمد الشيخ وأخوه اسماعيل، وينتهي نسبه إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج؛
ياقوت: المعجم، ج١، ص:١٥٤؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:٢٧٩؛
ابن الخطيب: الاحاطة، ج٢، ص:٩٤راشيل أري تاريخ اسبانية الاسلامية، ص:٣٧.

أبي حفص بن عبدالمؤمن عبثاً استعادة مركزه فلم يفلح، فلجـأ بعـزم إلى ملـك برشـلونه طالباً مساعدته. وبالمناسبة يقول ابن خلدون: "فخرج أبو زيـد مـن بلنسـية ولحـق بطاغيـة برشلونة ودخل في دين النصرانية"[1]

لقد انكر الدكتور حسين مؤنس على ابن خلدون هذا الـرأي واستبعده بحجـة أن مفارقة الدين في سن متأخرة لمثل هذا أمر غير يسير، وبخاصة من أمير موحدي مهما كان طبعه وسلوكه[2].

ليـس بعيـداً أن يتنصـر أمـير مسـلم، طالما رضـي بـاللجوء إلى النصـارى اعدائـه التقليديين، والاستعانة بقواتهم، والوقوع تحت رحمتهم وطوع أمرهـم، والحمـاس الديـني يومئذ يمتلك مشاعرهم، ولطالما دفع الجزية، وسلم الحصون الاسـتراتيجية الحصينـة ثمنـاً للمساعدة العسكرية العارضة[3]، فأين هي الحمية الاسلامية التي يتحلى بهامثل هـؤلاء؟ وبخاصة لم يكن تغيير المذاهب مقصورا على المسلمين وحدهم، بل كان متعارفا عليه بـين الامم في تلك العصور.[4]

وبعد أن ترك الموحدون الأندلس سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م. وقد وهى سلطانهم فيها وانحزم نظامهم وقد نشزت عليهم قبائل الأندلس، فواصل الشعب تمرده في الشرق بقيادة أبي جميل، فسيطر على دانية[5] Denia ، وجنجالـة[6] Chinchilla وغيرهـا مـن حصـون الشرق، لكنه تمهل قليلاً يحصن مواقعه، ويجهز قواته انتظاراً لما سيجلبه عليه ارتـداد أبـي

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٤، ص:٢١٦.

(٢) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج١؛ ص: ٣٠٠- ٣٠١، تح حسين مؤنس.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ط٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

(٤) قيل: أن ملك نا ار صاحب الامارة الصغيرة، قد اعتنق الاسلام، ليحصل على مسـاعدة عسـكرية واقتصادية من الموحدين، لمحاربة ملك قشتالة وأراجون، ولم يحفل ببواعث الدين والشرف، أو يعبأ بوعيد البابا أنوسان الثالث؛

اشباخ: تاريخ الاندلس، ج٢، ص: ٩٨ ويذكر أن فرنانده Frnado Rodringues صـهر الفونسـو السابعVII Alfonso وفد الى مراكـش وطلـب المسـاعدة مـن أمـير المؤمنـين وكـاد أن يسـلم سـنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م؛

ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٣٦٩.

(٥) دانية: مدينة أندلسية قرب بلنيـه على شـاطيء البحـر شـرقاً؛ يـاقوت: المعجـم: ج٢، ص: ٤٣٤؛ راشيل أرى: تاريخ اسبانية الاسلامية، ص: ٣٦.

(٦) جنجالة: مدينة بالأندلس بني شاطية والبسيط؛ ياقوت: المعجم، ج٢، ص: ١٦٨.

زيد حاكم بلنسيه السابق، وكان هذا قد ترأس حملة صليبية معززة بعطف البابا، وبفرق الفرسان، وأعداد من الجند قد انهمرت على شبه الجزيرة من مختلف بلاد اوروبا، فاستنجد زيان بأبي زكريا الحفصي في تونس الذي أمده باسطول محمل بالمؤن والعتاد، لكنه لم يتمكن من النزول الى البر، وإيصال حمولته الى المسلمين، لأن القوات المعادية أحكمت الحصار البحري، واخيرا لم تستطع بلنسيه مواصلة القتال، فانهارت مستسلمة سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م.[١]

خرج أبو جميل من بلنسيه ومعه خمسون الفا من سكانها، نزلوا على جزيرة شقر[٢] ملجأهم المرحلي، حطوا فيها رحالهم في اقامتهم المؤقتة، وجدد زيان بيعته للحفصيين سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م،[٣] ومنها انكفأ راجعاً الى دانية، ومن هناك شن هجوماً عنيفاً على مرسية واقتحمها، وسيطر على شرق الأندلس باسم خلفاء تونس.[٤]

لم يهنأ طويلاً بهذا اللقب الأميري، وقد نازعه عليه ابن هود، وهو ثائر آخر اعترف بالحفصيين على منابر بلاده[٥]. ثم تابع زعيم شرق الأندلس رحلته القهقري الى القنت[٦] Alicanteسنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م، غير أنها سقطت بيد النصارى، فهجرها متوجها الى تونس، تاركاً الأمر لغريمه ابن هود[٧] الذي ثار باسم العباسيين، وتمكن خلالها من استعادة مناطق كثيرة من بينها مرسية التي لم تهنأ بالحرية أكثر من سنتين. غير أن هذا الزعيم عجز عن حماية وسط وغرب البلاد، وانهزم أمام النصارى، فخسر جميع ما أخذه من مدن وحصون، ولم يتردد عن تقديم الجزية لهم من قوت شعبه[٨].

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٨٨؛ ابن الآبار: الحلة السيراء، ج٢، ص: ٣٠٥، ٣٠٦.

(٢) شقر: جزيرة في شرق الأندلس؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص: ٣٥٤.

(٣) الحميري: الروض المعطار، ص: ٣٢، ٣٣؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٨٨.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٨٨.

(٥) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٦) القنت: مدينة اندلسية تقع شرق الأندلس على ساحل البحر؛ ياقوت: المعجم، ج٥، ص:٢١.
R. Altamira, ahistory of, spain, p, 173.

(٧) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٨٩؛ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص: ٣٠٣، تح، د. شوقي ضيف، ط٢، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م؛
المقّري: نفح الطيب، ج١، ص: ٢٠٣.

(٨) راشيل أرى: تاريخ اسبانية الاسلامية، ص: ٣٧؛
ابن خلدون: العبر، ج٤، ص: ٢١٥ – ٢١٨؛ ج٧، ص: ٢٥٢؛
ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٧٤.

كانت الأندلس في هذا الوقت ناراً تلظى ولهيباً تضطرم؛ فثورات الأندلسيين في كل مكان، وثوارها يتسلقون في جميع الجهات، وكل يدعي الامارة والزعامة، وحصونها تتهاوى تباعاً بيد الاسبان، وحاميات الموحدين المتبقية ضعيفة وعاجزة، لم تقوَ على التصدي، سواء للثوار أم للنصارى[1]. لذا بلغ الاضطراب عند الاندلسيين حدا جعلهم على مفترق عدة خيارات:

أما التنصر، هذا ما تأباه نفوسهم، وتستثقله كرامتهم، واما الخضوع للتعصب الصليبي فترة من الوقت، وهذا أكثر قساوة من الأولى، أذ سؤدي بالنتيجة عاجلاً أم آجلاً الى الخيار الأول، وإما الرحيل الي ما وراء البحار، حيث لا مأوى ولا قربى، وهذا على مرارته يظهر هو الخيار الأكثر قبولاً لشعب يبلغ تعداده الملايين[2]. ومع انعدام الأمن ومعرفة المصير المجهول، وفشل المراهنة على ابن هود، لم يجد الشعب سبيلاً للخلاص مما هو فيه من المحن، سوى اعطاء القيادة لثائر أخير، هو ابن نصر الذي تصدى للنصارى، وأعلن الثورة عليهم من حصنه أراجونةArjona [3] مستعيناً بأقربائه، وبأصهاره من بني أشقيولة[4]. فأعلنت بعض المدن ولاءها له، ودخلت في طاعته، مثل وادي آش، وبسطه، وشريش، وجيان، وقرطبة، وقرمونة، وتسمى بأمير المسلمين، وقدم ولاءه للحفصيين أولاً، ثم ارتد عنهم ودعا الى اسياد بغداد ثانياً، واستظل تحت رايتهم السوداء[5].

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٤، ص: ٢١٥ - ٢١٩، ج٦، ص: ٣٩٢.

(٢) المصدر نفسه والصفحات نفسها؛
عادل بشتاوي: الاندلسيون المواركة، ص: ٨٥.

(٣) حصن منيع بالأندلس قريب من شنتمرية، وشمالي غرب جيان؛
ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص: ١٥٤، ١٤٤؛ المقّري: النفح، ج١، ص: ٢٠٤.

(٤) بنو أشقيولة، من رؤساء الاندلس وفرسانها، وهم أهل رياسة علي غرار بني الأحمر، ولهم ماضٍ مجيد في مقارعة النصارى؛ منهم أبو محمد عبد الله حاكم مالقه، وزوج ابنة ابن الأحمر، وأبو اسحاق ابراهيم ابن أبي الحسن بن اشقيولة حاكم وادي آش وزوج أخت ابن الأحمر. كان هؤلاء وصوليين ؛ فكلما آنسوا ضعفا من ابن الأحمر تمردوا عليه، وانحازوا الى جانب بني مرين تارة، والى جانب اعدائهم تارة أخرى. وعلى ما يبدو أن أصلهم من مدينة اشقالية من اقليم بطليوس في غرب الأندلس، وتسمو بأسمها؛
ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص: ١٩٩، ج١، ص: ١٩٩؛ المقّري: نفح الطيب، ج١، ص: ٤٤٨؛ ابن خلدون: العبر، ج٧، ص: ٢٥٩؛ ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٧٥.

(٥) ابن خلدون: العبر، ج٤، ص: ٢١٨، ج٧، ص: ٢٥١؛
ابن ابي زرع: الانيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٧٥.

أدرك ابن هود مدى الخطورة التي يشكلها عليه قيام ابن نصر وسيطرته على كثير من القواعد الاندلسية، واعتبره خارجاً عنه من ناحية، ومزاحما له حكم باقي الأندلس المشرذم من ناحية أخري.

غير أن ميزان القوى لم يبق مائلاً الى جانب ابن هود، فقد أوقع به عبد الله بن نصر ثلاث هزائم شهيرة، كان آخرها سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م[١]. ولما مات ابن هود سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م، اتسعت دولة ابن نصر، واحتل غرناطةGranada ، ودخلها دخول الفاتحين، بين أهازيج الشعب وترحيبهم، وطرد باقي الهوديين منها واتخذها عاصمة لدولته الفتية[٢].

فأخذ يضم المدن المتبقية؛ واستولى على المرية، وطرد محمد ابن الرميمي حاكمها الشرعي. وفي العام التالي أعلنت مالقة تبعيتها له[٣].

ثم رأى ابن نصر أن يقطع صلاته بالعباسيين، ويتجه نحو الرشيد خليفة الموحدين، ليحكم باسمه، ويكون تابعاً له سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م[٤]. ولما توفي الرشيد غرقاً سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م، قطع ابن نصر صلاته بالموحدين، بعد أن عجزوا عن مواصلة حروبهم في الاندلس، واتجه هذه المرة صوب الحفصيين في افريقية، لعله في تقلبه هذا بين المشرق والمغرب، يحصل على مساعدة مالية لمواجهة النصارى، فقدم ولاءه برسالة حملها ابو بكر بن عياش المالقي، وأبو جعفر التيزولي، الى الأمير أبي زكريا الحفصي، فتقبلها الأمير، وشكره، وأمد الاندلس بالأموال والمؤن اللازمة لمواصلة حروبهم ضد أعدائهم، واستمرت الامدادات الى حين وفاة أبي زكريا سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م، عندها قطع ابن الأحمر صلاته بهم، وأنهى دور التبعية وأعلن الاستقلال، وتسمى بأمير المسلمين[٥].

ولما علم ابن نصر خضوع الحلفاء المسلمين بشرق الأندلس الى ملك قشتالة، إثر معاهدة إذلال، يؤدون بموجبها الجزية، ويقبلون مرابطة قوات نصرانية بأراضيهم، لضبط

---

(١) ابن الخطيب: اعمال الاعلام، ج٢، ص: ٢٧٩؛ المقّري: النفح، ج٦، ص: ٢٥٥.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج٤، ص: ٢١٩، ج٧، ص: ٢٥١، ٢٥٢؛
ابن الخطيب: الاحاطة، ج٢، ص: ٩٨ - ٩٩؛ المقّري: النفح، ج٦، ص: ٢٥٥.

(٣) ابن الخطيب: الاحاطة، ج٢، ص: ٤١٩؛ المقّري: نفح الطيب، ج١، ص: ٢٠٤.
راشيل أري: تاريخ اسبانية الاسلامية، ص: ٣٧؛

(٤) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ٢٤٥.

(٥) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٩٥، ٣٩٦.

حركاتهم ومراقبتهم، وقع عليه هذا النبأ وقع الصاعقة، وشعر بنفسه وحيداً وسط قوى لا طاقة له بها، غير أنه حاول مسابقة الزمن، فحصن حدوده، وأعلن حالة التأهب القصوى في بلاده، لكن القشتاليين، كانوا من الحذر واليقظة، ففوتوا عليه كل استعداداته للتصدي لهم، فخارت قواه ولم يتجلد، وقدم بنفسه على رأس قواته لتهنئة ملك قشتالة في انتصاراته الساحقة على المسلمين[1]. ووقع معه معاهدة اذلال مماثلة، قدم بموجبها خضوعه التام له، واعتبر نفسه تابعاً له ومن عبيده المخلصين، فضلاً عن اداء جزية سنوية، مقدارها خمسون الف مثقال من الذهب، وتنازل له عن قلعة جيان ذلك الحصن المنيع الذي عجز القشتاليون عن احتلاله سابقاً بعد أن حاصروه مدة عشرة أشهر[2].

لقد تعرفنا على هذا الملك، وكان قد أثار معارك مع جيرانه، وإخوانه في العقيدة، وغدر بابن هود، وسيطر على مدن جيان وقرطبة واشبيلية وغرب الاندلس كله. ونصب نفسه وريثاً لحكام الاندلس السابقين، وهو الذي وضع يده بيد ابي زكريا الحفصي أمير افريقية، واصبح من اتباعه[3].

ولعل الذهول يتتابنا عندما نرى هذه الدبلوماسية الفاشلة والملفتة للنظر تختبيء وراء هذا الرجل الانتهازي الذي رأيناه يتقلب في ولائه بين الشرق والغرب، وأخيراً يرتمي بين احضان ملك قشتالة فرديناند، ويلتمس مه أن يقبله تابعاً من اتباعه في مجلس الكورتيس القشتالي اسوة بغيره من حكام الجزيرة سنة ٦٤٣هـ/ ١١٤٥م[4].

(١) الحلفاء المسلمون هم: حكام لقنت، واريولة، والحامة، ولبيط، وعقيقة، وجنجالة، ما عدا حاكم لورقة عزيز بن عبد الملك بن خطاب أبى أن يدخل في هذه المعاهدة المهيئة.
اشباخ: تاريخ الاندلس في عهد المرابطين الموحدين، ج٢، ص: ١٨٧ - ١٩٣.

(٢) ابن خلدون: ج٤، ص: ٢١٩؛
المصدر نفسه، ج٦، ص: ٣٨٥، ٣٩٤؛ المقّري: النفح، ج١، ص: ٤٢٩.

(٣) بن خلدون: ج٤، ص: ٢١٩؛
المصدر نفسه، ج٦، ص: ٣٨٥، ٣٩٤؛ المقّري: النفح، ج١، ص: ٤٢٩.

(٤) R. Altamira, ahistory of, spain, p. 173'
ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ٣٦٧.



الفصل الثالث

الحياة الاقتصادية

تمهيـــد:

شهد المغرب في عهد عاهل المرابطين "يوسـف بـن تاشـفين" وصـدر مـن أيـام ابنـه السلطان علي، خير أيامه رخاء وطمأنينة وعدلا[1]

ولما اندلعت الحرب الاهلية بين لمتونة والموحدين في فترة علي بن يوسـف، انقسـم الشعب ازاءها فرقا متعادية، تفشـت بينـه البطالـه، وحـل الحـزن والأسـى محـل البهجـة والصفاء، وعم الخوف والفزع، وانتشر اللصوص، وقطاع الطرق، فكثر النهب والسـلب في سائر الجهات[2]

ثم انتهى الصراع باستيلاء عبدالمؤمن على مراكش سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٧م، وغياب لمتونة عن المسرح السياسي طويلا حتى ظهرت ثانية متجسـمة في ثـورة ابـن غانيـة، الـتي كلفت الدولة كثيرا من الجهد والايلام.

فلم يكن سقوط مراكش نهاية الأحزان، وانقطاع الاضطرابات، بل لم يخلد الشعب الى السكينة والهدوء، وبدا دوره عنيفا قويا، وعرف عبدالمؤمن ان الطريق الى قطـف ثمـار النصر مازال طويلا وشاقا ومملوءا بالالغام، ومزروعا بالاشواك، فهبت رياح الثورة عليـه من كل مكان، حتى لم يبق تحت سلطنه سوى مراكش، وفاس تلك الثائرة.[3]

فاستعد عبدالمؤمن للنطاع، وهـو رجـل الدولـة الجـدي والمسـؤول، ومعـه الإرادة القوية لبناء دولة جديدة ومتطورة، وهو الواثق من حسم الأمور بالشـكل الايجـابي، مـن خلال جهازه العسكري القوي، وقائد جيوشه الشـيخ أبـي حفـص الهنتـاني، وقـد اتخـذ قراره، اذ زحفت جنوده الى مكمن الخطر الحقيقي في الجنوب، وتصدى لها الهنتاني يعزم، واستطاع السيطرة على الموقف سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٨م، وتفـرغ لجيـوب الثـورات المتبقيـة التي نتجت عنها، وأخمد لهيبها الذي بقي يشتد إلى سنة ٥٤٩هـ/ ١٥٥م كما مر سابقاً.

فيكون الشعب المغربي قد عاش حياة قلقة لنحو أربعة وثلاثين عاما منذ بداية حركة المهدي سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م، اذ لم ينعم خلالها بالأمن والرخاء[4]، ومن ثم اخذت حياة الشعب في الاستقرار، وأمنه في الاستتباب، وبدأ الاقتصاد في الانتعاش، وأحـوال النـاس

---

(١) مجهول: الحلل الموشية، ص:٨٢، ٨٣.

(٢) المراكشي: المعجب: ، ص:٢٦١، ٢٧٣، ٢٨٣.

(٣) ابن ابي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:١٩٠.

(٤) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:١٢٣.

في تحسن باطراد، ولم تتعدّ موارد البلاد المالية في بادئ الامر منهج ابن تومرت الذي اقره في جباية الاموال الضرورية. وتجنب ارهاق الأهلين؛ فقد قنع بجمع الزكاة، وتحصيل الأعشار، وأخماس الغنائم المحققة من الحرب، ومن التوسعات جهة افريقية، وما تحت الصحراء، ونحو البلاد النصرانية. ثم اتجهت الدولة كما اريد لها الى الاتساع والتضخم، لتشمل المغرب الاقصى والاوسط، علاوة على المغرب الأدنى. ثم بدأت تحتك بالأندلس، وتقف على أطول خط للنار، لتبدأ مرحلة الجهاد على جناحي الدولة[١].

لمست السلطة في مهدية بني عبيد والشمال الاسباني تصميما نصرانيا قويا، ذا ابعاد سياسة خطيرة تعود إلى ما قبل الفتح الاسلامي للمغرب العربي، فاهتز عبدالمؤمن لهذه النوايا التوسعية المتشبثة بعناد تابعيهم محمد بن سعد بن مردنيش، وصهره بن همشك[٢].

ثم ادرك أنه لا محيد عن القوة العسكرية القاهرة لايقاف الحرب النصرانية عند حدها، وأن ليس من سبيل إلى القوة المنشودة بغير المال الوفير والمستمر الذي يستند على نظام مالي يوفر انتاجاً مطردا. وإلا كيف تتمكن الحكومة من الشروع ببناء المنشآت الحربية؛ من قلاع وحصون، وتزويد الجيوش الجرارة بمختلف أنواع الأسلحة، وإمداد المقاتلين بالاقوات والنفقات؟ أصحيح أن مالية أساسها الزكوات والاعشار وأخماس الغنائم، وهذه الأخيرة لا يكون لجمعها سوى نتائج احتمالية، تفي بهذا كله؟

لذا لم تكن جدية المصادر المعاصرة في بحثها للحياة الاقتصادية في المغرب والأندلس، بالقدر الذي عالجت به الحوادث السياسية، وما تخللها من حروب، مع العناية إلى حد ما، أثر ذلك على الحياة نفسها، ورغم هذا ان جناحي الدولة المؤمنية، الأندلس والمغرب قد تبادلا المنتجات الزراعية والصناعية وكان تردد القوافل والمراكب التجارية بينهما لم يفتر طوال الوقت عن طريق التجارة الصامتة أحياناً[٣] وهذه المعلومات تتصف

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣- الخاص بالموحدين، ص:٤٠.

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣) يقول ياقوت: "يسافر التجار من سجلماسه إلى مدينة من حدود السودان يقال لها غانة، وجهازهم الملح وعقد خشب الصنوبر، وخرز الزجاج الأزرق، وأسورة نحاس أحمر، وحلق وخواتم نحاس لا غير ويحملون منها الجمال الوافرة القوية اوقارها... فإذا وصلوا ضربوا طبولا معهم عظيمة تسمع من الافق الذي يسامت هذا النصف من السودان.. فاذا علم التجار انهم قد سمعوا الطبل أخرجوا ما صحبهم من البضائع المذكورة، فوضع كل تاجر ما يخصه من ذلك، كل صنف على جهة ويذهبون عن الموضع مرحلة، فيأتي السودان ومعهم التبر فيضعون الى جانب كل صنف منها مقدارا من التبر، وينصرفون ثم يأتي التجار بعدهم فيأخذ كل واحد ما وجد بجنب بضاعته من التبر، ويتركون البضائع وينصرفون بعد ان يضربوا طبولهم".
ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص:١٢، ١٣؛ ج٤، ص:١٤٨.

بالشمولية، وعدم التركيز في معظم الأحيان، اذ أن أثر المصادر التي بحثت في هذه الأمور، إما سابقة على عصر الموحدين كالبكري والادريسي مثلا، وإما لاحقة كابن الخطيب والحميري وابن عذاري.

رغم ذلك فالحكم الموحدي قد تميز بسعي عبد المؤمن وخلفائه من بعده بمركزية الجهاز الحكومي في المغرب والأندلس، لا تموله موارد التجارة الكبرى والزكاة والأعشار وأخماس الغنائم فحسب، بل فرضت ضرائب منتظمة أساسها الإنتاج الزراعي.

ظهرت اهمية التجديدات التي جاء بها الموحدون بصفة خاصة على صعيد الضرائب؛ فقد فرض عبدالمؤمن ضريبة الخراج على أراضي المغرب والأندلس؛ اذ أصدر أوامره الى عماله في جميع المناطق، مستندا إلى فتوى شرعية أقرها الفقهاء، وهي أنه قد فتح البلاد بالسيف، أن يمسحوا الاراضي الواقعة بين حدود مصر شرقا إلى بلاد نول من السوس الأقصى غربا، ومن حدود الصحراء جنوبا الى بلاد الشارات في اسبانية شمالاً، ويفرضوا عليها الخراج، ويلزموا كل قبيلة بقسطها من الزرع والمال، بالاضافة إلى أعداد وافرة من الجند بأنواعها، ما عدا أراضي القبائل التي ساهمت في تأسيس الدولة، وأراضي العرب الهلالية، اذ انيطت بها جباية هذه الضرائب، بعد أن استثنى ثلثها مقابل الجبال والفيافي والانهار والسباخ والطرقات والغابات، وشمل هذا النظام الضرائبي مباني المدن أيضا ووجوهاً أخرى كثيرة تحصل الدولة بموجبها على الاموال.[1]

---

(١) استند عبد المؤمن في فرض الخراج الى فتوى دينية تسمح له التوسع بجمع المال؛ فأفتى علماء المغرب الموحدون، بأن عبدالمؤمن قد فتح المغرب الكبير بالسيف، ومن هنا جاز له أن يفرض الخراج على مملكته تيمنا بأرض السواد بالعراق زمن الخليفة عمر بن الخطاب، على الرغم من الفارق بين الفتحين، علما أن علماء المغرب الموحدين لم يأخذوا بالتقليد، وقالوا نأخذ بكتاب الله وسنة رسوله، ونجتهد رأينا. فلذلك وطبقا للمصالح المرسلة على المذهب المالكي جاز لعبد المؤمن ذلك.
فالمصالح التي لم يقم دليل من الشارع على اعتبارها أو الغائها، هي المصالح المرسلة، هي التي لم يشرع الشارع أحكاما لتحقيقها، ولم يقم دليل معين على اعتبارها أو الغائها، وهنا نسأل: هل يجوز تشريع الحكم لتحقيق مثل هذا النوع من المصالح؟ قال جمهورالعلماء بالايجاب، فكل واقعة ليس فيها نص ولا اجماع ولا قياس ولا استحسان، وفيها مصلحة للناس يجوز للمجتهد ايجاد الحكم المناسب لتحقيق هذه المصلحة. وهذا المصدر يتسع للاحداث المستجدة والوقائع المتطوررة، ويجعل الفقه مرنا ناميا لا يقف عند حدود، ولا يتحجر أو يضيق، أمام مصلحة حقيقية لم يأت الشارع بحكم لها. وكانت حجة الموحدين في هذا، أنه يجمع الأموال للجهاد في سبيل الله.
د. عبدالكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة الاسلامية، بحث المصالح المرسلة، ص:٢٠٢-٢٠٣، مكتبة القدس، مؤسسة الرسالة، ط١، بغداد، العراق، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م الا أن الناصري يتحفظ إزاء هذه الفتوى، ويقول:
فهو -أي عبدالمؤمن- أول من أحدث ذلك بالمغرب (عفا الله عنه) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:١٣٩.

وهكذا وللمرة الأولى سجلت الأراضي في ديوان الخراج[1] اذ زودت خزينة الدولة بجزء كبير من الفائض المالي، وتمكنت الحكومة من تحقيق مشروعاتها الداخلية والخارجية، من بناء مصانع وتمهيد طريق وتمويل جيش وتوسيع دائرة الحرب.[2]

ثم أخذ عبد المؤمن في تطبيق نهج الموحدين؛ من مصادرة لأموال اليهود والنصارى الذين رفضوا الاسلام دينا، مجانبين قراره الذي اصدره بخصوص ذلك. ولقد ابقى الموحدون اولاً الضرائب المفروضه على أهل الاندلس. كما كانت قبلا، منها الضرائب القانونية، واتاوات غير عادية، ويمكن ان تتغير كميات الأخيرة من سنة إلى أخرى، ومن الضرائب الاضافية؛ ضريبة الرؤوس (على الأفراد)، اذ يتحتم أن يدفعها المكلف كل شهر، ثم ضريبة على دواب الجر وقطعان الماشية وعلى المناحل والكرمة والزيتون والزبيب وضريبة المونة (وهي في الأساس ضريبة اضافية يجعلها الوالي عندما لم تكن تكفي الضريبة العاذية)، وضريبة (الفطرة) وهي عادة ضريبة يدفعها المسلم الصائم للفقراء، وضرائب على العمليات التجارية في السوق، وقد فرضت ضرائب اخرى اضافية اواسط القرن السادس الهجري، على أية مناسبة أو عيد، في حين كان الحاكم يعفي الأهالي من بعض الضرائب احيانا، اذا رغب في كسب شعبيتهم.[3]

وهذه الضرائب كانت تخضع في غالبيتها الى تقدير الوالي أو نوابه في بداية دولة الموحدين، وكانت تسجل على اسم كل مزارع في سجلات خاصة، ويقبض هذه الاتاوات جباة، يذهبون الى الأماكن مصحوبين بقضاة محليين، (رؤساء الفرق)، يجبون ما هو مخصص للادارة المالية، وكان لكل مقاطعة جابٍ خاص بها، ولم تكن له صلاحيات محددة على الاطلاق. لذلك رأينا الشعب يشكو من تعسف هؤلاء الولاة، اذ كثيرا ما كانوا يحاسبون من قبل السلطة التي تلغي بعض هذه القبالات احياناً.[4]

---

(١) ابن أبي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:١٩٨، ١٩٩؛ المراكشي: المعجب، ص:٣٧٠؛ Rachel Arie: Historia DE Espana. Page, 75.

(٢) المراكشي: المعجب، ص:٣٧٠، ٣٧١.

(٣) Ravhel Arie: Historia De Espana, Page, 74-75.
المصدر نفسه، ٧٩.

(٤) Ravhel Arie: Historia De Espana, Page, 74-75.
المصدر نفسه، ٧٩.

١- الزراعة:

أخضع عبد المؤمن الأرض زراعة وانتاجا إلى سيطرة الدولة، لذلك لم يبق شبر واحد من الأرض الصالحة للزراعة، الا وأصبح من المحتم على المزارع أن يستغله تحت نظر السلطة وتوجيهها وإشرافها المباشر، لتعطي أكبر طاقة انتاجية ممكنة لأرض هي من أخصب بقاع العالم، وأطيبها تربة، وأكثرها أنهاراً دائمة الجريان.[(١)]

وأهتم عبد المؤمن باستصلاح الأرض وغرسها بمختلف انواع الفاكهة، فقد استقدم الأمير المهندس أحمد بن ملحان، ملك وادي آشى، وقد التجأ اليه فرارا من ابن مردنيش- الذي قام بانشاء البستان الكبير في مراكش، ثم غرسه بأنواع الثمار والفاكهة الأندلسية، مما لم تكن معروفة حينئذ بالمغرب، فلما اكتمل البستان، ونضجت ثماره، وكان مصدرا هاما من مصادر الاقتصاد بالبلاد، مما جعل امير المؤمنين يقوم بتهيئة أراضٍ أخرى وغرسها[(٢)].

وحذا حذوه خليفته أبو يعقوب يوسف، اذ اهتم بغراسة البساتين؛ فأنشأ الجنات المعروشات في أغمات ومراكش وغيرها من المدن، وقام بتخزين المياه اللازمة لها في صهاريج ضخمة، وعلى أثره جاء ابنه يعقوب الذي أحدث بستانا طوله اثنا عشر ميلا في مراكش، وأكثر فيه من اشجار النارنج والرياحين والليمون، فضلا عن اعمار أراضي فاس بأنواع الفاكهة والزيتون، وكان لها من محاصيل التمر والتين والعنب والرمان، والسفرجل والبطيخ الشيء الكثير[(٣)].

وكان للخلفاء الموحدين الفضل في تقريب وتشجيع المهندسين المبرزين بالمساحة والفلاحة، مثل: محمد بن المعلم، وابو القاسم أحمد بن محمد الحوفي القاضي[(٤)]، وابو بكر

---

(١) المراكشي: المعجب، ص:٣٧٠، ٥١١، ٥١٢.

(٢) المصدر نفسه، ص:٢٩٤.

(٣) حسن علي: الحياة الادارية والاقتصادية، ص:٢٧٧، ٢٧٨؛ الحميري: الروض المعطار، ص:٤٣٥، ٥٤٤، ٤٦، ٣٠٥-٥٤١.

(٤) وابو القاسم أحمد بن محمد الحوفي القاضي: هو أحمد بن محمد بن خلف بن عبد العزيز القلعي المعروف بالحوفي، الفقيه الإشبيلي المشهور، وقد كان تلميذ ابن العربي، تولى قضاء إشبيلية بعد أبي بكر الغافقي، وتخصص في العقود والمواريث وكتب فيها كتاباً مشهوراً، توفي في شعبان سنة ٥٨٨هـ.

ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص: ٤٦٥، هامش ١، منقول عن التكملة (نشر ابن شنب) رقم ٢٢٧- التكملة، نشر العطار رقم ٥٩٢. ابن فرحون: الديباج المذهب، ص: ٥٤.

محمد بن يحيى الحذاء[1]، وتألق نجم هؤلاء في مدة بني عبدالمؤمن، واليهم يعود الفضل في تنفيذ كل المشاريع الهامة، وبخاصة الاقتصادية منها.[2]

وكان الخليفة الناصر يختلف دائما إلى بساتينه بمراكش، ولشدة محافظته عليها من العبث، واهتمامه بها من التعدي، عين عليها حراسا دائمين ليلا مع نهار.[3]

وقد اولع ابنه المستنصر بتربية المواشي وتكثيرها، اذ عمل على تحسين نسلها من الأنواع الجيدة، وإهلاك الرديء منها، فكان يؤتى اليه بأصناف البقر المحسّن من الأندلس، ويرسلها إلى الحظائر المعدة لذلك في بساتين مراكش.[4]

وقد استكثر الرشيد بن المأمون من غرس الرياض، وإنشاء البساتين في عاصمته[5].

لم يكن الخلفاء وحدهم أكثر الحاحا في احياء الاراضي وغرسها، بل سار على هديهم حكام المقاطعات، فهذا الوالي محمد بن عبدالله بن واجاج، قد عمر مكناسة بشجر الزيتون، اذ اصبح ثمره اسما مميزاً لها (مكناسة الزيتون)، وملأ أراضيها بغيضات الثمار والكروم والجنات والزروع، وأحدث بها ملوك بني عبدالمؤمن بحيرات عظيمة الاتساع، جلبت اليها المياه من النهر في شرقها التي بنيت عليه النواعير (الأرحا) لرفع المياه.[6]

واهتم الموحدون باعمار اراضي جبل طارق الصخرية بالزراعة واستنبات الكروم والبساتين، حيث جمعت مياه الينابيع من سفح الجبل، واجري جدول يصب في خزانات ضخمة لري أراضيه، ثم سربت للجبل واشبيلية المياه العذبة في قنوات فخارية تحت الأرض [7].

---

(١) هو محمد بن يحيى بن محمد بن متوكل التميمي من أهل إشبيلية وأصله من قرطبة ويعرف بابن الحذاء، وهو من بيت أبي عمر القاضي يكنى أبا بكر. روى عن أبي محمد بن عتاب وكان موثقاً، أخذ عنه أبو علي الشلوبين توفي سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م؛
ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص: ٤٦٥، هامش ٢، منقول عن التكملة (كوديرا) رقم ٨٨١. ابن فرحون: الديباج، ص: ٣٠٢، ٣٠٣.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:١٣٨-١٣٩، ١٤٣، ٤٦٤، ٤٦٩.

(٣) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:٢٥؛
B, Meaking: The moorish empire, pp, 84-85.

(٤) ابن ابي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٢٨.

(٥) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:٢٤٦.

(٦) الجميري: الروض المعطار، ص:٥٤١.

(٧) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:١٣٧-١٤١، ٤٦٥-٤٦٩؛
الحميري: الروض المعطار، ص:٣٨٢.

هكذا كانت الزراعة مزدهرة في سهول المغرب سواء منها الساحلية والداخلية، وفي التلال القريبة من الجبال، وقد كانت الزراعة -في الجزء الأكبر منها- زراعة بعليه، بينما انتشرت الزراعة المروية في المناطق التي يتوفر الماء فيها عند حدود جبال الأطلس، كما في أغمات أو في الواحات المتسعة على امتداد نهري زيز ودرعة[1]، حيث تكثر انواع من الثمر لا يشبه بعضه بعضا، مثل الرطب ذات الانواع المختلفة، منها الاسود والبني والاخضر جداً، وتفوق حلاوتها كل حلاوة، وتنتشر غلات القطن والكمون والكراويا والحناء والاعناب والنخيل والزيتون وغيرها.[2]

وقد بنى يعقوب المنصور ساقية معلقة لحمل الماء من أحد الأودية الى سهل البحيرة في ضواحي مراكش[3].

وهكذا لاحظنا تنوع الانتاج وكثرته في المغرب، فهو ينتج الغلال والزيتون، منها ما يستعمل للتغذية والانارة والعلاج، بالاضافة إلى المزروعات الصناعية؛ وأهمها قصب السكر في نواحي مراكش وسوس، والقطن في جهات سجلماسة، ويستنبت الحنا في أراضي درعة، وغيرها من النباتات التي تستخرج منها الاصباغ.[4]

ولم يكن هذا الازدهار الزراعي خاصا بالمغرب فقط، بل استفادت منه أيضاً سهول المغرب الكبير والأندلس، حيث تمتد فيها أراض واسعة تلائم زراعة الخضار والحبوب والاشجار المثمرة، وذلك لوفرة المياه التي تحملها الأنهار الكثيرة دائمة الجريان، فضلا عن توفر مناخ ملائم للفلاحة عموما، وقد عرف أهل الأندلس كيف يستفيدون من هذه الظروف الطبيعية المناسبة لجعل أراضيهم على درجة عالية من الخصب والعطاء، وبخاصة في ظل حكم الموحدين الذي حقق للبلاد على جانبي المضيق استقرارا سياسيا، وحرية اجتماعية، طالما افتقدتهما ابان الفتنة الثانية، حيث ازدهر انتاج الزعفران في أراضي بياسة

---

(١) زنيبر: تاريخ العصر الوسيط، ص:٢٣٢؛
نهر زيز: نهر يقع قرب سجلماسة، ويروي أراضيها الواسعة في جنوب المغرب؛
الحميري: الروض المعطار، ص:٣٠٦.
نهر درعة: نهر كبير قرب مدينة درعة في جنوب المغرب، يجري من الشرق نحو الغرب؛
الحميري: الروض المعطار، ص:٢٣٥.

(٢) المصدر نفسه، ص:٣٠٥.

(٣) ابن ابي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢١٨، ٢٦٩.

(٤) الحميري: الروض المعطار، ص:٢٣٥.

الذي كان يصدر منه بكميات وافرة إلى داخل الأندلس، وإلى الخارج عن طريق البر والبحر[1]، ومدينة جيان القريبة، كانت كثيرة الخصب وافرة اللحوم والعسل والحبوب والغلال[2]. واهتمت اشبيلية بزراعة الزيتون وعصره والتين القوطي والشعري، وهما صنفان لا يوجدان في أقطار الدنيا الا بها، مما جعل من اليسير تصدير انتاجها حتى بلغ الاسكندرية[3]، وكما في بياسة واشبيلية ازدهرت غرناطة بالبساتين والكروم والمتنزهات؛ حيث توزع النهر فيها على مساحات شاسعة عبر أحوازها، وكذا مدينة مالقة التي جمعت بين منظر البحر والبر بالكروم المتصلة، اذ لا نكاد نرى قسماً من الارض فيها دون استنبات أو غرس، وبما حوته ارضها ذات المسافات الشاسعة من شجر التين والكرمة وغيرها، حتى قيل في ثمرها حينما أشرف أحد الظرفاء على الموت، قال له اصحابه : "أسأل ربك المغفرة، فرفع يديه وقال: يا رب، أسألك من جميع ما في الجنة، خمر مالقة وزبيبيّ اشبيلية"[4]

وامتازت قرطبه بكثرة سهولها التي تمتد أحوازها شرقا لتصاقب حدود جيّان، وتنتهي غربا لتحاذي احواز اشبيلية، وتأخذ في الجوف ستين ميلا، كلها تشتهر بأنواع مختارة من الغلال، فضلا عن جبالها التي تزينت بأنواع نادرة من الورود[5].

وتوصل الاندلسيون إلى عملية تركيب النباتات لتنويعه وتكثيره، واهتدوا إلى استخراج المياه الجوفية، لتتوافق مع التطوير الزراعي، وتحسين السلالات الانتاجية التي ابتدعوها[6].

وتطورت الزرعة، وازدهرت، وتنوعت في بلاد الموحدين في العدوتين كلتيهما، اذ نشأت في الأندلس دراسات عن التربة والمياه والاسمدة، فظهرت تقنيات الحراثة والبستنة وزراعة الاشجار الحرجية وأشجار الزينة، فضلاً عن تقنيات علم الحيوان الذي المعنا اليه سابقا. وقد أحيا الموحدون الأراضي الموات في الاندلس، وأصبحت بجهودهم مورقة

---

(١) المقّري: نفح الطيب، ج٤، ص:٢٠٧.
(٢) الحميري: الروض، ص:١٨٣.
(٣) المقّري: النغم، ج٤، ص:٢٠٢.
(٤) المقّري: نفح الطيب، ج٤، ص:٢٠٩؛ Rachel Arie: His toria DEp ana,p. 224
(٥) المصدر نفسه، ص:٢٠٦؛ الحميري: الروض، ص:٤٥٨.
(٦) ابن سعيد: المعزب في حلى المغرب، ج٢، ص:٩؛
المقّري: تفح الطييب، ج٤، ص:١٥٠.

ومعطاءة، وأن غنى التربة هذه، ووفرة المياه فيها، وخصب السهول التي منحتـها الطبيعة الى المدن الأندلسية جعلتها وسط حزام من الحدائق والمناطق المخضرة، وبخاصة السـهول الواقعة على أعتاب جبل سيرانفادا Siera Nevada ، حتـى تجاورت البيـوت والمزارع مرصوصة في تناسق وتناغم رائع، فبدت سهولها كالمنحل لا مكان فيها لموطئ قدم واحـد دون زرع.[١]

وقد انتشرت غابات الزيتون على عهد الموحدين كما كانت زمن بني امية بل أكـثر في سهول قرطبة واشبيلية متوغلة في سلسلة الجبال الى المغـرب منـها، وفي لورقـة ومالقـة وغيرها، وكان بالاستطاعة أن تقول: أن منطقة خودار(شـوذر) Jodar الى الجنـوب مـن ابدة، كانت بالتأكيد ابان القرن الثاني عشر الميـلادي/ السـادس الهجـري، بلـد احتيـاطي الزيت في الأندلس، وتصدر الفائض منه الى المغرب والشـرق[٢]. وحيثمـا انتشـرت هـذه المزارع، شاع استعمال معاصر الزيـت (وهـي عبـارة عـن برغـي مـن حديـد أو خشـب وأدوات اخرى) ومنها اشتقت الكلمة الاسبانية Almazarra (المعصرة).

ولقد فرق عرب الأندلس زمن الموحدين بين الأراضي البعلية والمروية في الزراعة، اذ كان يزرع في الاولى القمح والشعير والكرمة في استجة ولورقة والحمة والمرية وغرناطة وأن الغلال كانت تختلف كثرة وقلة، حسب موسم نزول الأمطار، وعندما يقل المحصول، كان يجلبه الموحدون من أراضي المغرب، ولذا قد شـاع استعمال صوامـع تحـت الأرض لتخزين فائض القمح. أما في الأراضي المروية، كانت تسـتنبت البقوليـات، كالفاصوليـاء والفول والحمص الغذاء االأساسي لسكان الأندلس، وأن غنى التربة هذه كان سبباً وراء تنوع المحاصيل الحقلية، وانتشار الزراعة الحثيثة في اسبانية المسلمة (الحواكـير)، فتواجـدت في الأندلس الطواحين المائية والنواعير، مقامة على حواف الأنـهار، علـى طـول الـوادي الكبير؛ قرب قرطبة، والمنطقة الواقعة في المياه الواطئة من اشبيلية، وذكر أن هناك أكثر من ثلاثمائة طاحونة تدار بالماء في داخل أسوار غرناطة وخارجها فقط، فضلا عن الطواحـين التي تدار بواسطة الريح، وهذا بفضل التقنية الزراعية التي برع فيها المهندسون الزراعيـون الأندلسون[٣]، والتي ربما ورثوها عن أنظمة الري الرومانية، وطوروا هذه الابداعـات، اذ كانت تعتمد على السواقي (القنـوات)، وعلـى الاختـلاف في مسـتويات الأرض، حتـى

---

(١) Rachel Arie: Historia DE Espana, Page, 222-224.

(٢) المصدر نفسه والصفحات نفسها؛ المقّري: نفح الطيب، ج٢، ٢٠٢-٢٠٩.

(٣) أمثال الاستاذ المهندس الزراعي ابن باسة وغيره.، Rachel Arie: Historia DE Espana, page, 220.

أصبحت جهداً عربياً خالصاً، وهذا التطابق كان بادياً، ما بين نواعير الأندلس ومراكش، والتي ما زالت تعمل على شواطىء العاصي في سوريا والفرات في العراق[1]. وربما انتقل نظام الري هذا الى الأندلس والى الشمال الاسباني، اذ لم تكن الزراعة ممكنة في بعض الأودية بدون هذه النواعير التي هي عجلات وعوارض خشبية تتحرك بواسطة شلالات المياه، وكذلك عجلات تتحرك بواسطة الجمال أو الخيل او غيره، وكانت هذه الأجهزة تضخ المياة في برك كبيرة، ومن ثم يمكن جرها الى الحقول، وإلى مزارع القمح أحياناً[2]، وهذا الازدهار الزراعي قد عاد على خزينة الدولة بفائض كبير من المال.

٢- الصناعة:

نهض الموحدون بالصناعة التي توفرت لها المواد الخام المنتشرة في أنحاء المملكة الواسعة من مختلف المعادن، اذ عمد عاهل المغرب الى تكليف المتخصصين باستخراجها من مناجمها والانتفاع بها، للنهوض باقتصاديات البلاد، ولم يتوان ملوك بني عبد المؤمن عن دعم آلاف الصناعات النسيجية والمعدنية والورقية والزيوت النباتية، والصابون والدباغة التي أنتجت صنوف الحقائب والأحذية، ثم صناعة الصباغة والزجاج والحبر، هذا عدا عن ثلاثة آلاف طاحونة تطحن بالطاقة المائية بفاس وحدها كما مر آنفاً. والأرحا الطاحنة في جيان تحتشد على أبواب البيوت[3].

ولقد حاكى الموحدون في صناعاتهم الفنية والزخرفية من كان قبلهم، فأخذ الناس فيها ينشطون في ابداعاتهم الفنية، على الرغم من تداول الحكم بين الأسر الحاكمة وتعاقبها في تسلم السلطة، ولا أدل على ذلك من انتشار الفنون المعدنية في أرض الموحدين في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وبخاصة تلك الصفائح الذهبية التي تغطي المصراعين الخشبيين في جامع اشبيلية (كاتدرائية اشبيلية في الوقت الحاضر)، وتتوالى داخل البناء زخارف نباتية، وخطوط كوفية تتردد فيها عبارة (الملك لله)[4]، وربما توصل المغاربة الى صناعة الصوف الصخري[5]، والانسجة القطنية، اذ جاء

(١) Rachel Arie: Historia DE Espana, page, 223-225.

(٢) المصدر نفسه والصفحات نفسها.

(٣) المراكشي: المعجب، ص: ٥٠٥؛ الحميري: الروض، ص: ١٨٣.

(٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤٧٨.

(٥) الحميري: الروض المعطار، ص: ٢٣٦، وقيل أنه يوجد بوادي درعة حجارة تسمى (تامطغيت) تحك باليد فتلين الى أن تصبح في قوام الكتان، فتصنع منها الحبال، وتغزل وتنسج منها مناديل لا تؤثر فيها النار، مثل السمندل: وهذا نسيج من ريش بعض الطيور لا يحترق؛ المعجم الوسيط، ج١، ص: ٤٥٤.

في المصادر الاسبانية أن القطن ينتقى بكل عناية لينشر في الشمس على سطوح المنازل قبل نسجه[1].

وإلى مصنوعات الأندلس ينتهي الابداع، فانتشرت مقاطع الرخام الأبيض والخمري والجزع، وذات الألوان بين الأحمر والأصفر، وبخاصة في مدينتي قرطبة وغرناطة، واشتهرت الأخيرة باللباس الملبد ذي الألوان المتطورة النادرة[2].

كما ازدهرت على عهد بني عبد المؤمن، صناعات المرية ومالقة ومرسية وجبان وبلنسية بانتاج الحرير النادر الموش بالذهب الخالص[3]

وتخصصت بلنسية بصناعة النسيج البلنسي الذي يصدر الى أقطار المغرب العربي[4]، كما وأنتجت لورقة وحدها حجر اللازورد الفريد من نوعه[5]. وابتكرت اشبيلية ومرسية صناعة الأسرة المرصعة، وحصرها غاية في الأناقة وفيها السجاد الملون، والآلات الحديدية والنحاسية والمعدنية والفولاذية والذهبية، كالسكاكين والمقصات المذهبة وغيرها، وكان يتم تصديرها الى البلاد الافريقية[6].

أما مدينة المرية فلها قصب السبق في الصناعات النسيجية والحريرية اذ تحتوي مصانعها على آلاف الأنوال؛ ففيها ثمانمائة نول لتطريز الحرير وحده، والف نول لكل صنف من أصناف الحلل واللباس والديباج الفاخر وغيره، وكانت قد أبدعت وجارتها الثغرية مالقة في صناعة الفخار المطلي بالذهب، والزجاج والزليج المفضض، اذ يقوم مقام الفسيفساء في الشرق، هذا فضلا عن أصباغ الأمنان القرمزية ذات الألوان الحمراء الناصعة، وحتى حصى المرية، كان من النادر وجوده، فلا يتواجد في مدينة غيرها، في رونقه وبهائه الذي ينعكس على صفحة مائة بألوانه الزاهية العجيبة[7].

---

(١) Rachel Arie: Historia DE Espana, P. 224.

(٢) المقّري: نفح الطيب، ج١، ص: ١٦١.

(٣) المقري: نفح الطيب، ج١، ص: ٢٠٧، ٢٠٩؛ واختصت جبان بتربية دودة الحرير، ولها أزيد من ثلاث آلاف قرية كلها تعتني بدودة الحرير؛ الحميري: الروض، ص: ١٨٣.

(٤) ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص: ٢٩٧؛ اللمقري: ج٤، ص: ٢١٠.

(٥) المقري: نفح الطيب، ج٤، ص: ١٦١.

(٦) المصدر نفسه، ج٤، ص: ١٩٠؛ ج١، ص: ١٩١
ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص: ٢٤٥-٢٤٦.

(٧) ابن سعيد؛ المغرب، ج٢، ص: ١٩٣، ج١، ص: ٤٢٤؛ المقّري: النفح، ج٤، ص: ٢١٠؛ ج١، ص: ٢١٦، ١٩٠، ١٥٧؛ ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ١٧٣.

واستمر الخزف غير المموه الوافد من الشرق يصنع في دولة بني عبد المؤمن[1]. بقى الموحدون يستعملون هذا النوع من النسيج المذهب واللباس من الحرير المموّه بالذهب، وأنواع الجواهر واليواقيت والأحجار الكريمة[2]. وكانت تمدهم بها دور الطراز المنتشرة بمرسية وبلنسية وغرناطة ومالقة كما ذكرنا سابقاً[3]. وأحدثوا عدة مصانع لانتاجها في المدن المغربية، وكانت من الكثرة، حيث احصيت دور الطراز في مدينة واحدة، فنافت على الثلاثة آلاف[4] تنتج مختلف أنواع الديباج من الملابس الحريرية والقطنية والكتانية[5].

رغم التقدم الفني والبذخ الذي عاشه الأندلسيون، لم تنس مدنهم زمن الموحدين، أنها تعيش حالة حرب مستمرة، لذلك اقيمت الصناعات الحربية في مدن العدوتين لانتاج الأسلحة، من أسهم ورماح وسيوف، وابتكرت المصانع الحربية المدافع القاذفة التي تقذف الكرات الحديدية الملتهبة[6]. وازدهرت دورا لصناعة وانتاج سفن الأساطيل الحربية وسفن النقل لحمل المحاربين وأسلحتهم وتموينهم في قصر معمورة قرب طنجة[7]، إذ كان مركزاً لانتاج المراكب وصنع الحراقات لنقل المسافرين الى الأندلس[8] وانتجت دور الصناعة في المغرب والأندلس أساطيل من اربعمائة قطعة بحرية مختلفة نشرها عبد المؤمن على امتداد الثغور في العدوتين، استعدادا منه لخوض معركة بحرية مصيرية مع الاسبان، كان يخطط لها في الأندلس[9]، ففي أماكن استحداث دور الصناعة رابطت مائة وعشرون

---

(١) توريس بالباس: الفن المرابطي الموحدي، ص: ٦١.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ١٧٣.

(٣) المقري: نفح الطيب، ج٤، ص: ٢١٠.

(٤) الناصري: الاستقصا، ج٢، ص: ١٩٩. كانت فاس وحدها تمتلك ثلاثة آلاف دار للطراز.

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة، ج١، ص: ١٣٤، ١٣٥، ١٣٩.

(٦) أشباخ: تاريخ الأندلس، ج٢، ص: ٢٤٤-٢٤٧.

(٧) قصر مصمودة أو قصر المجاز، أو القصر الصغير: بناه أحد زعماء قبيلة، مصمودة قرب طنجة؛ أيام طارق بن زياد، وهو حصن على شاطىء البحر، على رأس المجاز الأقرب الى الأندلس، يبعد عن سبتة اثنا عشر ميلا، تقابله مدينة طريف Tarife في العدوة المقابلة من اسبانية، ويبعد عن طنجة عشرون ميلا.

ياقوت: المعجم، ج٤، ص: ٣٦٤؛ الحميري: الروض، ص: ٤٦٧؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٢٩.

(٨) الجزنائي: زهرة الآس، ص: ٦٨، تر، العزديل، الجزائر، ١٣٤٢هـ ١٩٢٣م.

(٩) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٥٨.

قطعة من هذه الأساطيل على سواحل مدينة المهدية[1]، ومائة وعشرون في ميناءها الرئيسي المجاور، وفي قواعد طنجة وسبتة وقادس، مائة سفينة حربية، وفي القواعد الريفية المطلة على اسبانية مائة قطعة، وفي موانيء افريقية (تونس) ووهران، مائة قطعة بحرية، وفي مراكز الأندلس البحرية ثمانون قطعة، هذا فضلا عن أن الطاقة الانتاجية لمصانع الأسهم وحدها كانت عشرة كنتالات يومياً، وكان العمل بها لا يهدأ ساعة من ليل أو نهار[2]. وابتنى عبد المؤمن مصانع اخرى الى الشرق من فاس، عند ملتقى وادي فاس بنهر سبو، لانتاج القوارب والسفن الصغيرة الصالحة للسير في النهر الأخير تعزيزاً للأساطيل عند توجهها الى افريقية، واهتم الى جانب ذلك بوسائل الدفاع الساحلية للحيلولة دون تقدم الأعداء النصارى والنزول الى السواحل المغربية، فأنشأ القلاع والرباطات- ذات الأبراج التي تشعل النار على قممها، وينتشر الدخان منها نهاراً لإنذار الشعب في حالة وقوع هجوم مباغت ليكون يقظاً وعلى تعبئة تامة، فضلا عن صناعة الطبول الكبيرة للغرض نفسه- كرباط (تيط) جنوب مدينة الجديدة، وغيرها.

واهتمت أجهزة التصنيع العسكري بربط مدينة الرباط وسلا بجسر من السفن المشدودة بالسلاسل عبر وادي (أبي الرقراق)، عليه ألواح خشبية، لتكون ممراً للجيش ومعداته المتجهة الى اسبانية، وابتنت جسراً على وادي اشبيلية (الوادي الكبير) من السفن لاستخدامه للغرض نفسه، ونقل الجيوش المتجهة الى غرب البلاد، وحضر الخليفة افتتاح هذا الانجاز الهندسي الحربي الضخم في سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، وأمر ببناء مصنع للسفن في هذه المدينة[3].

غير أن قمة الصناعات العسكرية الهامة التي توجت أعمال عبد المؤمن وخلدت ذكراه، هي تلك المدينة البحرية الحصينة التي بناها على سفح جبل طارق سنة

---

(١) تقع مدينة المهدية: الى الغرب من مدينة القنيطرة الحالية (شمال شرق الرباط)، عند مصب نهر سبو في البحر المتوسط؛
ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٠١، وقد قمت بنفسي بزيارة هذه المدينة عام ١٣٩٧/ ١٩٧٧م وعاينت مصب نهر سبو في البحر.

(٢) جغلول: مقدمات في تاريخ المغرب والأندلس، ص: ٦٥؛ الكنتال يساوي القنطار ويساوي مائتين وخمسين كيلوغراما؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٤٣.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٢١٨-٢٢٨، ٤٥٠، ٤٨١؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٢٣.

٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، وأطلق عليها اسم مدينة الفتح[١]، وأشرف على بناء هذه القلعة الاستراتيجية (العسكرية) السيد أبو سعيد عثمان، والي غرناطة، إذ وظف لاتمام هذا المشروع الصناعي مئات من الفعلة والبنائين الأندلسيين المهرة، كما تابع تنفيذ البناء فريق من المهندسين المشهورين، أمثال الحاج يعيش المهندس، برئاسة كبير المهندسين أحمد بن باسة، اللذين أحدثا الانشاءات العسكرية في هذا الجبل وفي غيره من المشروعات العمرانية الأخرى، تشهد لهما بالبراعة والابداع، كما تشهد لعصر الموحدين بالتقدم الحضاري والنبوغ العلمي[٢].

٣- الحركة التجارية:

اهتم عبد المؤمن بالتجارة الداخلية أولا، فسهل التعامل بين أبناء شعبه، بأن جزأ السكة، وضرب الدرهم، ونصفه وربعه، وثمنه، ثم الخراريب[٣]، وتشجيعاً منه أعفى التجارة من الضرائب المقررة وأخضعها للدولة، بأن راقب موازينها وجودتها، وعين رجال الحسبة الذين كانوا يسهرون ليلا مع نهار يجوبون الأسواق، ويضبطون الأسعار.

أما التجارة الخارجية، فنالت القسط الأوفر من اهتمامه، فقد نشطها، ووضع لها الأنظمة، وعقد من أجلها المعاهدات التجارية، مع مدن ساحل المتوسط كالبندقية وجنوه وبيزة ومرسيليا، واستطاع أن يوائم بين فئة كبار التجار 'الارستقراطية التجارية' المتناقضة مع 'الارستقراطية القبلية' برباط مصلحة وغير عدائي، يتوخى مصلحة الدولة في آن واحد، فالأخيرة مشاركة في التجارة الخارجية، والاولى صاحبة المشاركة في التجارة نفسها، ومشيدة المزارع الكبرى حول المدن بأموالها الخاصة[٤].

كانت العوائق تحول دون حرية النشاط التجاري بين شطري الدولة، لكن بلاد الموحدين رغم ذلك ظلت تحتفظ بالرخاء في ميادين الزراعة والصناعة والتجارة عبر

---

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٣١٠؛ مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٥٥؛ الاستقصاء: الناصري، ج٢، ص: ١٤٠.

(٢) الحاج يعيش المهندس: هو الذي صنع في أعلى الجبل (جبل طارق) أول رحى تدار بواسطة الريح لطحن الأقوات، وكانت قبلا تدارالطواحين في العصور الوسطى بالماء؛
ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٤٢، ٤٦٧- ٤٦٩، ٤٧٤؛ مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٤٥، ١٥٥.

(٣) الخراريب: صرف النقود؛ المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٢.

(٤) جغلول: تاريخ المغرب العربي الوسيط، ص: ٧٨-٧٩.

سجلماسة، مروراً بطريق الذهب الى بلاد السنغال الذي استمر عامرا، في حين تعطلت باقي الطرق الصحراوية الأخرى[1]. واستمرت منتجات المدن الأندلسية تتدفق على المغرب، وتصدر اليها الأخشاب والحبوب والكتان، مما حدا بالموحدين أن يزيدوا في عيار الدينار الموحدي (رفع سعر العملة). وقد نشطت حركة المراكب التجارية بين العدوتين، تحمل الغلال والطعام من المغرب، وتعود بأنواع الفواكة والقطن وزيت الزيتون من اشبيلية الى ميناء سلا، فضلا عن المنسوجات اليلنسية وأدوات الزينة من المرية[2].

تطورت طرق التجارة شمال جنوب وشرق غرب، وقام المغاربة بدور الوسطاء من اقليم السودان في الجنوب، يحملون الذهب والقمح، ويعودون بمنتوجات الأندلس الصناعية ومحاصيلهم التي يحملها المغاربة في طريق العودة من المغرب، كالزجاج والفخار والرخام والملابس الحريرية المذهبة والصناعات المعدنية، يجلبها الأندلسيون من مدينة مالقة الى المغرب[3].

هذا بالاضافة الى اللحوم الحمراء من الأبقار وبعض الحيوانات البرية الأخرى، إذ يزودون بها عدوة المغرب، عن طريق مدينة فاس، ذات النشاط التجاري الهام، وإليها يشد التجار رحالهم، وفيها ينزلون لكثرة انتاجها الصناعي، ومصارفها المختلفة التي أصبح فيها لكل أهل بلد وإقليم منزل ومتجر ومصرف[4]. ويقول المراكشي "ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج الى شيء يجلب اليها من غيرها -الا ما كان من القطن الهندي- سوى مدينة فاس، فإنها لا تحتاج الى مدينة في شيء مما تدعو اليه الضرورة"[5].

أما تجارتهم شرق غرب، كان الموحدون وسطاء للتجارة بين المشرق الاسلامي والمغرب، اذ شهدت الحركة التجارية في عهد الخلفاء الموحدين ازدهارا واضحاً لم تعرفه البلاد منذ سنين طويلة: فكانت كل من الاسكندرية وتونس قاعدتين هامتين ارتكزت عليهما التجارة الى الشرق؛ فموقع الاسكندرية المتميز على البحر، ومن الطرف الغربي لفرع رشيد، مكنها لأن تكون حلقة وصل بين مصر وصحراء المغرب الشمالي وأقطاره

---

(١) ارشيبا لدلويس: القوى البحرية والتجارية، ص: ٣٨٦-٣٨٧.

(٢) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص: ١٩٣.

(٣) المراكشي: المعجب، ص: ٥٠٥؛ المقري: النفح، ج٢، ص: ٦٨؛ ابن سعيد: المقرب في حلى المغرب، ص: ٤٢٣-٤٢٤.

(٤) حسن علي: الحياة الادارية والاقتصادية، ص: ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٠٥.

(٥) المراكشي: المعجب، ص: ٥٠٥، ٥٠٦.

الساحلية، حيث يمر الطريق القديم الذي يصل بين أقصى المغرب (من سجلماسة في الجنوب الى فاس وتازة في الشمال)، عبر افريقية الى تونس، ثم طرابلس الى الاسكندرية، والى الجنوب الشرقي، فالطريق الرئيس المؤدي الى الحجاز.

وتونس المدينة الموحدية بموقعها الساحلي المتوسط، كانت منفذاً رئيسا أيضا للطريق البري السابق، وبحكم هذا الموقع غدت تونس مركز استقطاب هام، سياسي واقتصادي معاً[1]. وإذا كان البحر المتوسط قد اصبح نتيجة لظهور الاسلام، حداً فاصلا بين الشرق والغرب ثقافياً وسياسياً، فإنه لم يكن كذلك في مجال التجارة والتعامل الاقتصادي اللذين احتفظا بنشاطهما في مياهه ومراسيه[2].

كما كانت مدينة المرية ثغراً هاماً، تحط وتنطلق منها المراكب التجارية الدولية، فلم يكن في بلاد الموحدين أكثر مالا من أهل المرية، ولا أعظم تجارة، ولا أرحب تخزيناً حيث كان بها من الحمامات الوفيرة والفنادق لاستقبال التجار من مختلف الاقطار، نحو الألف فندق، يأتيها رزقها زعداً من كل مكان، فنعمت بهذا الموقع التجاري الهام[3].

ومن المدن الافريقية التي ازدهرت تجارتها تلمسان مع وفرة الانتاج من الغلال وأنواع الفواكه، مع رخص الأسعار، فقصدها التجار من سائر الاقطار، مما أدى الى ثراء أهلها، ووفرة أموالهم. وقد قيل أنه لم يكن في بلاد المغرب بعد أغمات وفاس أكثر من أهل تلسمان أموالاً، ولا أرفه حالاً[4].

ومما ساعد على ازدياد التبادل التجاري بين قطري الدولة، هو إعادة الأمن والاستقرار الى تلك الربوع، ويقول ابن أبي زرع فكانت الظعينة تخرج من بلاد نول من بلاد السوس حتى تصل برقة شرقا وحدها، لا ترى من يعارضها ولا من يكلمها[5]. مما زاد الصناعة تألقا والزراعة بركة[6]. لذلك نشطت المراكب رواحا وغدوا بين مدن العدوتين (المغرب والأندلس)، ثم بين تونس وسوسة، وعنابة، وتنيس، ووهران من جهة، وبلاد الشام عبر الاسكندرية من جهة أخرى، وكانت الطرق التجارية سالكة بين

(١) عثمان الكعاك: العلاقة بين تونس وايران عبر التاريخ، ص: ٣٢، تونس، ١٩٧٢م/ ١٣٩٢هـ.
(٢) H. Pirenne, op, eit, p. 14.
(٣) المقري: نفح الطيب، ص: ١٥٧.
(٤) عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج٢، ص: ٢٣٣-٢٣٤.
(٥) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢١٧.
(٦) أندريه جوليان: تاريخ افريقية الشمالية، ج٢، ص: ١٥٩-١٦٠.

المرية-مالقة والاسكندرية-طرابلس من ناحية ثانية، ولم ينس تجار الأندلس أسواق بونة مما جعل مدينة المنستير التونسية سوقاً سنوية كبيرة يتزاحم عليها التجار من جهات عديدة[١].

واشتهرت مدينة بجاية بتجارة الرقيق بنوعيه الأبيض والأسود مما أغرى اسحاق بن غانية أن يملأ أجفانه (سفنه) في رحلاته المكوكية من هؤلاء العبيد، لاستخدامهم في الجندية وخدما في القصور، وعمالا لفلاحة الأرض[٢].

أما في ما يخص الحركة التجارية بين الموحدين ونصارى اسبانيا فثمة تحذيرات مشددة صدرت من الطرفين كليهما الى رعاياهما تحظر التعامل التجاري مع الطرف الآخر تحت طائلة القانون، فقد أصدرت السلطة الاسلامية قرارات متعددة في ما يخص بيع المواد الغذائية والخيل والعتاد الحربي والرقيق الى النصارى[٣]، وقابلهم ملوك اسبانيا بالمثل؛ إذ حظروا على رعاياهم الاتجار مع المسلمين خلال عصر الموحدين، وخاصة ما يتعلق بالثياب وأنواع الطعام والرقيق والحبال والأخشاب والحديد، وتشدد الضغط على المقاطعة الاقتصادية والعسكرية[٤].

وتدخلت البابوية، وأخذت تحذر النصارى من التعامل تجارياً مع المسلمين، وتذكرهم بين الحين والآخر بأن الاسلام هو عدوهم الحقيقي، والذين وصفوا بالوثنيين، على حد تعبير ارشيبالدلويس[٥]. ومن حين لآخر علا صوت البابا مذكراً أن الاسلام هو العدو، وأنه حجر أن يصدر نحو الأراضي الاسلامية ما من شأنه أن يزيد في طاقتها، وكان التحجير لا يشمل الرقيق النصارى فحسب، بل كذلك مجموعة من المواد كالاسلحة والمعادن والمراكب، والمواد الصالحة لبنائها وتجهيزها، وكذلك المواد الغذائية ولا سيما الحبوب[٦].

غير أن هذه العداوة المجذرة الى الأعماق والمحاطة بسياج من التشريعات القاسية، وجدت من يكسر هذا الطوق بهدوء، وقد وقع تبادل تجاري على مستوى فردي وغير رسمي على الأقل؛ فمعاهدات الصلح بين الفونسو الثاني ملك أراجون وملك قشتالة

---

(١) ارشيبا لدلويس: القوى البحرية والتجارية، ص: ٣٣٠.
(٢) الغبريني: عنوان الدراية، ص: ٢٣-٢٤.
(٣) لجاة باشا: التجارة في المغرب الاسلامي، ص: ٦٤، منشورات الجامعة التونسية.
(٤) J.F Ocallaghan; A history of Medieival,Spain, p. 297, 483.
(٥) ارشيبالدلويس: القوى البحرية والتجارية، ص: ٣٧٩.
(٦) لجاة باشا: التجارة في المغرب الاسلامي، ص: ٦٤.

سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٨م كتبت على ورق الكتان المصنوع من مدينة شاطبة الاسلاميةJaiva الواقعة الى الجهة الجنوبية من مدينة بلنسية[١]، مما يوحي أن المقاطعة التجارية بين المسلمين والبلاد النصرانية. كانت غير محكمة وغير جدية.

وقد ثبت أن النصارى القطلان من أهل مملكة أراجون يتصلون تجارياً مع البلاد الاسلامية الواقعة في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، وهذا ما أكده الرحالة ابن جبير، إذ يذكر أن الحروب الصليبية بين دول المسلمين والفرنج لم تعطل من حركة التجارة بين رعية الفريقين في أنحاء البلاد، ودل على ذلك ما شاهده بنفسه من نشاط وتبادل في السلع بين دمشق الاسلامية وعكا الصليبية[٢]، وسرعان ما أخذ تجار قطالونية دورا متطورا في البحر الأبيض المتوسط، الى حد منافسة المدن الايطالية، بيزا وجنوه والبندقية، اذ لم يمتنع تجارها من التعامل تجارياً مع المغاربة الذين استحوذوا على قدر كبير من التجارة العالمية خلال القرن الثاني عشر الميلادي، فهذه سبتة ثغر المحط والاقلاع فيها من التجار الأثرياء الذين يبتاعون سفن الاسطول التجاري بما فيه، من بضائع في صفقة واحدة، مما جعل الموحدين يتقاضون عشر قيمة البضائع المستوردة، وعشر وتصف من قيمة الصادرات[٣].

ومن المعروف أن قطالونية ورثت التجارة الاسبانية في البحر الأبيض المتوسط، وارتفع بذلك تعاملها التجاري مع ثغرتونس وحده من مائة الف بيرنت الى ثلاثمائة الف سنويا، كما ارتفعت تجارتها مع اقليم بجاية من اثني عشر الف الى أربعة وعشرين الف دينار[٤].

وهكذا اندفعت الأموال الى خزينة الدولة نتيجة طبيعية للنهضة الزراعية والصناعية والتجارية التي عادت على الشعب بالخير العميم، وانتشر الامن في جميع ربوع الوطن، وتمكنت الدولة من تحقيق طموحاتها في الداخل والخارج، وعاش الشعب في

---

(١) المقّري: نفح الطيب، ج١، ص: ١٥٩؛ أشباخ: تاريخ الأندلس، ج٢، ص: ٢٥٢.
(٢) ابن جبير: الرملة، ص: ١٤.
(٣) محمد زنيبر: تاريخ العصور الوسطى، ص: ٢٢٩، ٢٣٦؛ أرشيبالدلويس: اقوى البحرية والتجارية، ص: ٣٨٧.
(٤) نجاة باشا: التجارة في المغرب الاسلامي، ص: ٧٠. والبيرنت: عملة اسبانية قضية. وتساوي القطعة الواحدة الحالية منها 6 فلس بالعملة الاردنية في الوقت الحاضر.
حسن حسني: النقود العربية، ص: ٣٥.

كنف الخلفاء، وبخاصة أبي يوسف، إذ كانت أيامه زينة الدهر، وكلها رفاه وطمأنينة وأمن انتشر ظلاله على جميع البلاد[1].

وأنست الحضارة الموحدية تشق طريقها بهدوء وطمأنينة نوعا ما نحو الظهور والتفنن، ولا نغالي اذا قلنا: أن الخليفة الأول هو من أرسى قواعد الأنظمة الاقتصادية والمالية، اذا كانت هي السبب في ازدهار الرخاء في زمنه، وفي عهد خلائفه من بعده، ويفضل هذه المنجزات بلغت بلاد المغرب مبلغ من الرفاه لم تصل اليه من قبل[2].

يتبين أن الدولة الموحدية كانت سباقة الى جعل الاقتصاد باجنحته الثلاثة؛ الزراعة والصناعية والتجارة، موجهاً تشرف عليه الحكومة اشرافا مباشرا، دعماً وتنسيقاً وتسويقاً.

ورغم هذا يظهر أن الاقتصاد المغربي لم يشهد نموا ظاهراً في قواه المنتجة خلال حكم الموحدين، ولا يبدو أن الانتاج الزراعي أو الصناعي اليدوي قد عرفا أي تغيير أو تقدم يتناسب وقوة الدولة، باستثناء بعض الازدهار في اقصى المغرب وأقصى المشرق من البلاد.[3]

غير أن عظمة الامبراطوررية تكمن في تنشيط القدرات المنتجة -الموجودة قبلا- لصالح الجهاز الحكومي- وبخاصة لصالح الجيش، بينما الصناعة الحربية قد تكون هي الوحيدة التي تطورت تطورا مدهشاً.

لقد عزز الموحدون الوحدة الاقتصادية والروحية التي كانت قائمة بين أقطار المغرب العربي منذ الفتح الاسلامي بالوحدة السياسة، وهذا العمل وحده كاف لجعل عصرهم ذهبيا في تاريخ المغرب، ولكن هذه الوحدة ظلت سطحية، بسبب موقف الموحدين من الأرض المفتوحة؛ ففرض الخراج تدبيراً يتنافى مع وعود عبدالمؤمن للسكان، ومقتضيات الشريعة الاسلامية، ولهذا يكون مذهب التوحيد قد وقع لفائدة الفاتحين وحدهم.

---

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٣٧١، ٣٤٧، ٣٣٢، ٣٧٠، يقول المراكشي: ولم تزل أيام أبي يعقوب أعيادا وأعراساً ومواسم كثرة خصب، وانتشار أمن ودرور آرزاق، واتساع معايش واستمر هذا صدرا من إمارة أبي يوسف ويقول: كان يحمل الى أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف خراج افريقية، وجملته في كل سنة وقر مائة وخمسين بغلا، هذا من افريقية وحدها، خلا بجاية ومحيطها، وتلمسان ومحيطها، والمغرب والأندلس قاطبة.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٣٧١.

(٣) جغلول: فقد مات في تاريخ المغرب العربي، الوسيط منه، ص:٦٥.

٤- الصعوبات الاقتصادية:

اعترض طريق التبادل التجاري بين المغرب والأندلس بعض العوائق التي حالت بصفة مؤقتة أمام قيام تبادل تجاري بين القطرين، لتحريم التعامل تجاريا مع الخصوم، فلما استعصت مالقة على الموحدين، ورفضت فكرة التومرتية، فرضوا عليها حظرا تجاريا وحصارا اقتصاديا برا وبحرا، وهدد عبدالمؤمن بالقتل كل من يخالف هذا.[١] ناهيك عن الحالة التي وصلت اليها الأندلس والمغرب اثر حروب ابن مردنيش، اذ دامت زهاء عشرين عاما ونيف، ملحقة الخراب والدمار باقتصاديات نواح كثيرة من البلاد، فضلا عن المغارم الغريبة التي فرضها على رعيته من رسوم أعراس وملاه، وضريبة الاغنام والابقار وغيرها، يسدد بها نفقات الحروب واتاوات النصارى.[٢]

وكذلك حروب ابن غانية وحلفائه من العرب الثائرين بالمغرب والأندلس التي دامت مدة خمسين عاما،[٣] كبدت الدولة نفقات كثيرة؛ فقد انفق الخليفة الناصر بن المنصور مبالغ طائلة لاخماد فتنة يحيى بن غانيه في المهدية، كما يشير الى ذلك المراكشي بقوله: "وبلغني أن جملة ما انفق في هذه السفرة- أي سفرته لفتح المهدية- مائة وعشرين حملا ذهبا"[٤]، هذا ماعدا التخريب والدمار الذي لحقها حتى استسلمت، ويشير ابن عذاري الى سوء الحال اثناء الحصار فيقول: "والجاعة تشتد والوبا يزيد حتى عم الموتان والمحصر المسلوبون والمغنمون إلى البلد في امم لا يحصى عديدهم، ولا ينادي من الاقتار وليدهم، وعجز أهل البلد عن تكفين الموتى وعن مواساة الاحياء، فكانوا يصيحون في الخرب وفي سكك المدينة زمرا ذكورا وإناثا"[٥].

ان هذه الأحوال كانت كافية لكساد التجارة وندرة المحاصيل الزراعية، والمنتجات الصناعية، وبالتالي إلى انهيار البلاد اقتصاديا، مضافا اليها غزوات العرب الهلالية، وقطاع الطرق، وقراصنة البحار، ممن كانوا يعترضون القوافل التجارية البرية منها والبحرية،

---

(١) حسن علي: الحياة الادارية والاقتصادية في المغرب، ص:٣٢٢، ٣٢٣؛ رسائل موحدية: الرسالة الخامسة، ص:١٣.

(٢) ابن الخطيب: الاحاطة، ج٢، ص:١٢٤.

(٣) المراكشي: المعجب، ص: ٣٩٠-٣٩٧، ٤٤٨-٤٥١، ٤٥٢.

(٤) المراكشي: المعجب، ص:٤٥٢.

(٥) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:١٥٢-١٥٣.

يقتلون وينهبون كلما احسوا بجبل الأمن قد اضطرب[1] ورغم ذلك لم تكتف الممالك الاسبانية المجاورة عند حد المقاطعة التجارية، وإصدار القرارات، واعتراض طريق القوافل، بل كان اسطول برشلونه على الخصوص، والبحرية الجنوية تعترضان طرق السفن الموحدية المحملة بالمواد المختلفة وتستولي عليها بما فيها[2]. وكان نهب الشواطئ والموانئ هدفا من اهدافهم التجارية، بالاضافة الى فرض الغرامات على المدن التي تنشد العافية، وتشتري سلامتها على التصدي للقوى الصليبية، وخصوصا الايطالية منها والانجليزية والفرنسية وقوات الالمان والفلمنك والنورمان الذين زاولوا النهب والسبي، وامتهان كرامة الانسان خلال مرورهم عبر المحيط الاطلسي، ومضيق جبل طارق جهة الشرق، وغالبا ما يجدون في شواطئ الأندلس بغيتهم، فلم يعد هناك من تسويغ لمواصلة مسيرهم إلى الشرق، للاشتراك في الحروب الصليبية؛ ويعلق ارشيبا لدلويس على ذلك بقوله: "وهكذا تم الانتقام لمدن باري، ومونت جارليانو، وفراكسينت، بما أنزله المسيحيون بثغور الشواطئ الاسلامية الضعيفة من تقتيل وسلب ونهب."[3]

لم يتحرج رجال الدين والقساوسة كذلك من ممارسة مهنة السطو البحري، اذ اصبحت حرفة يتداولها كل طالب مغنم، فهذا كبير قساوسة طرّكونةTarrgona ، قام واعترض بعصابته طريق التجار التونسيين واستولى على أموالهم.[4]

ثم كثر انتشار القرصنة، وتخطت حدودها، وعاثت في أملاك النصارى واليهود على قدم المساواة مع المسلمين، حتى أصبحت السفن التجارية في عرض البحار لجميع الدول غير آمنة.

لم يكن والحالة هذه من مفر للدول الاوروبية، وبخاصة جنوه وبيزة، وميورقة من أن تعقد معاهدات مع المسلمين الموحدين، أول من حارب عصابات البحار، وتحملوا وحدهم، في سبيل ذلك، كثيرا من التضحيات والجهد والتكاليف، وهم في طليعه من

(١) البيدق: أخبار المهدي ابن تومرت، ص: ١١٨.
(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٣٩٨.
(٣) ارشيبا لدوليس: القوى البحرية والتجارية، ص:٣٧٢، ٣٧٣؛ الجيلالي: تاريخ الجزائر، ج٢، ص:٣١.
(٤) نجاة باشا: التجارة في المغرب الاسلامي، ص:٧٠.

قاوموا الارهاب الدولي بشتى اشكاله وصوره، من أجل القضاء عليه، وحماية التجارة البحرية العالمية عام ٥٨٢/ ١١٨٦، ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م، ٦٣٧هـ/ ١١٣٩م[1].

ولقد اتيح للمغاربة المسلمين تنفيذ نصوص هذه المعاهدات باعتبارهم سادة حوض البحر الابيض المتوسط، وهم القوة الرادعة، حتى ذلك الحين، استجابة لمقتضيات التجارة الدولية ونواحيها، ورعاية لمصالح تجارتهم الخارجية، ونشر الطمأنينة والسلام عبر المياه الدولية، وهكذا الزم الموحدون انفسهم بحماية الحرية التجارية[2]. وكان الخوف طاغيا من نهاية آجال المعاهدات التجارية، وكان عدم تمكن التجار الفرنج من الاحتفاظ بامتيازاتهم التجارية في الموانئ المغربية، دافعا لهم الى طلب تجديد المراسلات مع الموحدين. وفي هذا الاتجاه، جاء رد الخليفة يعقوب المنصور الموحدّي: "أنه ما زوى له من المشارق والمغارب والاكناف والأرجاء والرضا عن الامام المعصوم المهدي المعلوم محي رسوم الدين بعد الدروس... مظهر معالم الشريعة بعدما تناولها الجهل بيد الاضحار والاخفاء وعن خليفته أمير المؤمنين... ابن أمير المؤمنين.. ابن سيدنا الخليفة أمير المؤمين.. من الصلح للقناصلة والأشياخ والأعيان والكافة من أهل بيشة وجهاتها... وسردانية وجهاتها.. وكل من فيها من زعمائهم وأعيانهم، اطر روان بن تدسك واستنابوه في العقد لهم وعليه.... فعرف رسولهم المذكور برغبتهم في ادامة الهدنة لهم.. وأنهم ملتزمون لكل شرط يشرط عليهم ومنتهون إلى جميع ما يحل لهم... وأجاب مسئلتهم وأمر لهم صلح على عادتهم وهدنتهم وعقد لهم السلم إلى مدة خمسة وعشرين عاما من تاريخ هذا الكتاب، على الامنة التامة والمعدلة الشاملة العامة، وأذن لهم أعلى الله اذنه ووصل انعامه ومنه في الوصول إلى بلاد الموحدين، أعزهم الله للتجارة فيها والتجهيز بها وقصرهم على أربعة بلاد من جملتها وهي سبتة ووهران وبجاية وتونس حماها الله، ولم يبح لهم النزول بغيرها ولا الاحتلال بسواها الا لضرورة من صعوبة البحر."[3]

وتتوضح في موضع آخر صورة أخرى لطمأنة التجار الاوروبيين الى حد القول: "... ونحن نهدي اليهم من السلام أعطره، وننشر عليهم درره، ونذرف بذكرهم مسكة وعنبره، ونحضر فيهم كل يوم محضرة، لما انعقد قديما وحديثا من السلاف والأحلاف

(١) B. Meakin: Moorsh, empire, p, 256-257.

(٢) ارشيبا لدلويسي: القوى البحرية والتجارية، ص:٣٩٣.

(٣) مشيل أماري: رسائل موحدية، رسالة رقم ٥، مؤرخة في رمضان ٥٨٢هـ/ نوفمبر ١١٨٠٦م، ص:١٩-٢٠.

مناومنهم، ومن أسباب المحبة ومتقدم الصحبة والمودة.. وشجت بيننا وبينهم أواصر الاتيلاف واستمرت منا ومنهم المحبة..".[1]

وواضح من هذه الرسائل ان الدولة الموحدية بينت اسلوب تعاملها مع التجار الفرنج، كما حددت المراسي التي يدخلونها والأعراف التي يلتزمون بها.

وبالرغم من تحديد الموانيء والمراسي الموحدية التي يجب التعامل التجاري فيها فقط، الا أن هذا لم يمنع القراصنة الاوروبيين من مزاولة القرصنة دونما التفات لاي اعراف دولية أو معاهدات تجارية، فهذه جنوه لم تكن متلهفة لأي تحالف او اتفاق مع المسلمين، بشأن الحرية البحرية، بل تهتم اصلا بالتجارة ومسالكها لمزيد من الفائدة والربح السريع، فانتهزت فرصة تفكك الدولة الموحدية، وانقسامها، وزاولت السطو البحري (القرصنة) جهارا نهارا متجاهلة جميع العهود والمواثيق التي أبرمتها.

وقامت بحركة عسكرية بحرية خاطفة للسيطرة على ثغر سبتةCeuta ، نظراً لأهميته التجارية، فتصدت لها المدينة الباسلة، وأوقع اهلها بالمهاجمين هزيمة بحرية شنيعة ردتهم على أعقابهم خاسرين، فتمكن الناجون منهم من العودة مرة أخرى بمائة مركب جنوي يمخر عباب البحر للثأر والاستيلاء على سبته، إذ دفعتهم بغرامة مالية قدمتها لهم قدرها اربعمائة الف دينار ذهبا سنة ٦٣٢-٦٣٦هـ/ ١٢٣٤- ١٢٣٨م[2] ومثلها حدث في ميناء تونس، عندما قام تجار بيزة، بالاستيلاء على مسطحين (سفينتين)، وأسر ثلاثة مراكب للمسلمين، بما فيها من ركاب وتجار ومواد تجارية، وقتل آخرين، وما ترتب على هذا الاعتداء من انتهاك للحرمات، وقتل للاطفال والشيوخ والنساء، وموت البعض غرقا، ووقوع عدد من الجرحى، وعندها اتخذ الموحدون سلسلة من الاجراءات المشددة، لمعاقبة المعتدين، بالعقوبات المنصوص عليها في قوانين الدولة الموحدية، طبقاً للشريعة الاسلامية، لكي لا تتكرر مثل هذه الحوادث مرة اخرى- فلا يتجاسر احد من القراصنة بعد ذلك على التعرض للمسلمين "لا بأخذ ولا مضره"، وهذه المعاملة نفسها، تعامل بها أهل جنوة ازاء المسلمين الذين يتعرضون لهم بأذى أو اساءة.[3]

---

(١) المصدر نفسه، رسالة رقم ١، ص:٣.

(٢) ارشيبالدلويس: القوى البحرية والتجارية، ص:٣٩٣؛
الناصري: الاستقصاء ، ج٢، ص:٢٤٤.

(٣) أماري: رسالة رقم ٦، في ذي القعدة ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م، ص:٢٣-٢٨.

ومن الصعوبات الاقتصادية التي كانت ماثلة، تلك المغارم والمكوس، مضافا اليها الرشاوي وقضايا السلب الذي كان يمارسه بعض الولاة المغاربة مع رعيتهم باسم الحكومة، وقد أمر عبدالمؤمن بإلغائها في رسالة موجهة إلى الطلبة المسؤولين في الأندلس، والضرب على أيدي اصحابها بيد من حديد، وتلتها رسائل مماثلة وجهت إلى أهل قسنطينة.(١)

ثم تعرض التبادل التجاري بين المغرب والاندلس للكساد والتوقف بعد وقيعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ/ ١٢١٢م، فقد واصل النصارى ضغطهم على أراضي الاندلس، دون ان يتمكن الموحدون من صدهم، إذ انصرفوا إلى التنازع على عرش الخلافة، بل والاستعانة بالعدو، مقابل التنازل لهم عن بعض الحصون المهمة، مما أدى إلى ثورة أهل الأندلس على الموحدين وطردهم، حتى أصبحت بلد الجهاد لقمة سائغة يلوكها النصارى، ونهبا بين طغمة المتسلقين.(٢)

أخذت بعض القواعد تسقط تباعا بأيديهم، فتدهورت الحياة الاقتصادية بصفة عامة، وضمرت المبادلات التجارية على الخصوص(٣)

انتهز بنو مرين(٤) فرصة التمزق والتشتت هذه، فبسطوا سيطرتهم على بعض البلاد؛ سيطروا على مكناسة، وتازة، وفاس سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م(٥). وأنزلوا هزائم

---

(١) بروفنسال: رسائل موحدية، الرسالة العشرون، ص:١٠١؛ الرسالة التاسعة، ص:٢٨؛ الرسالة الحادية عشرة، ص:٤٠، ٤١؛ الرسالة الثانية عشرة، ص:٤٩.

(٢) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٥٠؛ يذكر أن الخليفة أبا العلاء ادريس، الملقب بالمأمون، تنازل لملك قشتالة عن عشرة حصون يختارهم بنفسه، مقابل أن يمده بجيش من المرتزقة يحارب به ابن اخيه يحيى، ليحتل منه مراكش.

(٣) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:٢٣٦-٢٣٩.

(٤) بنو مرين: ينتسب الرينيون إلى مجموعة قبائل زناته البربرية، ويذكر علماء التاريخ انهم عرب صريحون؛ اذ يقول بعض ولد ما دغيس بن بربن قيس عيلان:

أيها السائل عن احسابنا قيس عيلان بني العز الاول

وقيل غير ذلك.

اذ كانوا في مطلع القرن السابع/ الثالث عشر، يسكنون بلاد القبلة من زاب افريقيه الى سجلماسة، يتنقلون في تلك البراري والقفار، يرعون الابل والغنم، فينتجعون الكلأ في فصل الربيع والصيف حتى ناحية تازه ووجدة في المغرب، ثم يقفلون نحو الجنوب في نهاية الخريف، لا يؤدون لأمير درهما ولا دينارا، ولا يدخلون تحت حكم سلطان، وهم خلافا لبني عبدالواد لم يخضعوا لحكم الموحدين، لكنهم شاركوا إلى جانبهم في معركتي الأرك والعقاب لا يعرفون الحرث ولا التجارة، ولا يشتغلون بغير الصيد وطراد الخيل والغارة، جل اموالهم الخيل والابل والغنم، وطعامهم اللحم والتمر واللبن والعسل.

ابن خلدون: العبر، ج٢، ص:٥، ١١١-١١٢؛ ابن ابي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٧٨ وما بعدها.

(٥) المصدر نفسه، ص: ٢٩٣.

عديدة في جيوش الموحدين، وتسابق بنو عبدالواد[1] بدورهم، واقتطعوا جانبا من نواحي المغرب الممزق، اذ هزموا دولة بني عبدالمؤمن في مواقع كثيرة.[2]

لم تقف بعض القبائل المغربية موقف المتفرج، والمغرب يترنح تحت ضربات الثائرين، فشاركت في انعدام الأمن، وساعدت في تخريب الزرع والعيش بالأرض، وتدمير الاقتصاد، فانعدم الأمن، وسدّت طرق التجارة، وانتشرت المجاعات والاوبئة[3]، ويشير ابن عذاري الى ذلك بقوله: "ضاقت الارض بما رحبت على الناس... وارتفعت الأسعار وعدمت الأقوات... حتى انتهى الربع الواحد من الدقيق اللطيف الفاسد إلى ثلاثة دنانير، والناس في ازدحام على من يشعرون عنده زنة الخردلة منه أو من سواه..ومن لم يستطع المزاحمة فهم كثر..

وتغيرت الصور الجميلة، وتنكرت الدنيا باستيلاء المجاعة.. فإذا ما توصل احد الناس الى قطعة من الخبز، يجتمع عليه العشرون وأكثر من الضعفاء والمساكين حتى ينتزعوه منه قهرا... حتى لقد هلكت أمم لا تحصى"[4].

٥- العملة عند الموحدين:

كانت أساس العملة الموحدية الدينار الذهبي، والدرهم الفضي واستعمل المثقال الذي له نفس وزن الدينار، واستعملت الاوقيه التي لها نفس وزن الدرهم[5].

كان اول نقد موحدي للعملة المتداولة في الاسواق الدرهم المربع الذي احدثه المهدي محمد بن تومرت، وكانت نقوشه على الشكل الآتي:

---

(١) بنو عبدالواد: ينتسبون الى قبيلة زناته كبني مرين، اسسوا امارة بتلمسان على يد قائدهم يغمر أسن بن زيان سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م. وقد عرفت هذه الدولة منذ تأسيسها تاريخا مضطربا، فظلت معرضة للغارات من الشرق والغرب على السواء، وكانت لا تفلت من قبضة "الحفصين أمراء تونس الا لتقع في يد المرينيين، وظلت على هذا الحال إلى أن استولى عليها الاتراك سنة ١٥١ٸم/ ٩٢٥هـ.
ابن خلدون: العبر، ج٤، ص:٣-٧، ٩٧-١٦١؛
زنيبر: تاريخ العصر الوسيط، ص:٢٥٠.

(٢) ابن ابي زرع: الادنيس المطرب، ص: ٢٥١.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٤٨-٣٥٣؛ ج٧، ص: ٢٣٧-٢٣٩؛
مجهول: الحلل الموشيه ص: ١٦٨-١٧٠.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:٣٠٧، ٣١٥، ٣١٦.

(٥) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٦٥.

الوجه الاول: الله ربنا، محمد رسول الله، المهدي امامنا.

وعلى الوجه الثاني: لا إله إلاالله، الامر كله لله، لا قوة الا بالله.

ويأتي بعد المهدي خليفته عبد المؤمن بن علي، ليغير العملة من الدرهم الفضي إلى الدينار الذهبي، ومن الشكل المربع، الى المستدير مع بقاء التربيع شائعاً، ولم يلغ نهائياً.[1]

وكانت نقوش الدينار على النحو الآتي:

الوجه الاول: على حافة الدائرة: ابو محمد عبدالمؤمن بن علي أمير المؤمنين وفي داخل الربع الصغير: المهدي امام الامة الاسلامية بأمر الله وفي داخل الربع الكبير، على الحافة العليا والسفلى: اسم المدينة.

وعلى الوجه المقابل، في حافة الدائرة: بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على محمد وعلى آله وسلم تسليما.

وفي داخل المربع الصغير: لا اله الا الله محمد رسول الله.

وفي المربع الكبير على الحافة العليا والسفلى: اسم المدينة[2].

أما الدينار الموحدي الذي زاد انتشارا وذيوعا هو الدينار اليوسفي المغربي المنسوب الى أبي يعقوب يوسف. وقد بلغ وزنه، ٤,٧٢٩ غم ذهبا وتعادل اربعة عشر قيراطا، والقيراط، ثلاث حبات، فيكون المجموع ٧٢ حبة. وهذا يساوي وزن الدينار الاموي تقريبا الذي كان يزن ٤,٢٥غم حسب تحديد الوزن الشرعي له[3].

يتبين هنا أن التأثير الشرقي كان له حتى في العملة نصيب.

لقد قلدت الدولة الحفصية اختها الدولة الموحدية، في سك مسكوكاتهم شكلا ونقشا منذ فجر تاريخها، أما الامراء المتأخرون فقد شذوا عن تلك القاعدة، وتأثروا

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب: النقود العربية، ص:٣٥، توفي، ١٩٥٨، ابتسام مرعي، العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الاسلامي ص:٣٠١.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٢٩٢، جاثية رقم ١ نقلا عن Luis Massingnon, LeMarco, P, 102-103.
محمد الصبيحي: ابتلاج الفجر، ص:٩-١٨، ط١، الرباط، ١٩٤٠م/ ١٣٥٩هـ؛ محمد الزغاري، معرض نقود اسلامية وقديمة، ١٩٦٢، ص:١٦.

(٣) عبد الرحمن فهمي: النقود العربية، ماضيها وحاضرها، رقم ١٠٣، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٦٤؛ المصادر نفسها/ و الصفحات نفسها؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٥٧.

بالاتراك في عملاتهم أواخر القرن العاشر الهجري.[1] وجاءت نقوش الدينار الحفصي في زمن أبي زكريا يحيى بن علي في هذا الشكل:

الوجه الاول: الاطار: الامير الاجل- ابو زكريا يحيى بن ابي محمد بن ابي حفص.

الوسط: المهدي امام الامة القائم بأمر الله.

أما الوجه الآخر: الاطار: بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على محمد وعلى آله وسلم تسليما.

الوسط: لا إله الا الله محمد رسول الله.

وكان الدينار مستديرا، اما الكتابة فقد حشرت في مربعات، ولم تذكر التاريخ، بينما ثبتت اسماء المدن في أحيان اخرى.[2]

وحينما وصلت بيعة شريف مكة الى المستنصر الحفصي عام ٦٥٧/١٢٥٧.[3] نراه ينقش على ديناره المسكوك في تونس مايلي:

الوجه الاول: الاطار: المؤيد بنصر الله، المنصور بفضل الله، أمير المؤمنين.

أما الوسط: أبو عبدالله محمد بن أمير المؤمنين، تونس، والوجه الثاني.

الاطار: بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد، لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

الوسط: المهدي خليفة الله، الشكر لله، والحول والقوة بالله.[4]

وفي القرنين السادس والسابع الهجريين ظهرت مشكلة امام المدن التجارية الاوروبية تتعلق بقيمة الدينار، لما يعتريه من ارتفاع مستمر بالمقارنة بالعملات الأخرى، وأمام تلك المشكلة، حاولت الدولة ضرب انواع رديئة من العملات، أثارت ثائرة الناس، وغضب الرعية الساخطة، فتراجعت امامها السلطات، وهذا ما حدث عام

---

(١) ابتسام مرعي: العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الاسلامي، ص: ٣٠٢ نقلا عن حسن حسني عبد الوهاب: النقود العربية في تونس، ص: ٣٥.

(٢) المرجع نفسه، ص: ١٤٠-١٤١.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٤٠٧.

(٤) ابتسام مرعي: العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الاسلامي، ص:٣٠٤، نقلا عن د. حسن حسني عبدالوهاب: النقود العربية، ص: ١٤٣.

٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م، عندما ضربت الحناديس، أي الفلوس النحاسية التي الغيت في شوال من العام نفسه.[١]

لقد أدى نقص العملة الذهبية (كما حدث سنة ٥٧٧هـ/ ١١٩١م، إلى ظهور تغييرات متكررة في النظام النقدي[٢]. لذلك كان الالتجاء إلى العملات الاجنبية كي تعوض الدينار الاسلامي فظهرت في عام ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م في جنوه العملة الجنوية المذهبه، وفي السنة نفسها ظهر الفلورين الفلورنسي، وكان وزنها، ٥ ,٣غم، وهما يعتبران اكثر وزنا من وزن الدينار الموحدي، اذ كان يزن ٣٢ ,٢ غم، بالمقارنة بالدينار المرابطي الذي بلغ وزنه ٨٨ ,٣غم، وهذه كلها من الذهب الخالص، فضلا عن الدوكا البندقي، والبيزنت البرشلوني.[٣]

كان انخفاض قيمة الدينار منذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، واختلاف وزنه وعياره سببا في استخدام العملة الجنوية بشكل يدعو إلى الدهشة، وبخاصة في شرق البحر المتوسط وغربه.

ثم إلى جانب الدينار ظهر الدرهم الموحدي، وكان وزنه في بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ٥ ,١غم، وهذا اقل عن مثيله المرابطي الذي كان يزن ٢غم.

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص:٢٠٦، وعن هذه الحناديس يقول: د. حسن حسني: "واستحدث السلطان المستنصر بالله الأول، سكة من النحاس مقدرة على قيمته من الفضة، حاكى بها الفلوس بالمشرق، تسهيلا على الناس في المعاملات، وسمى سكته التي استحدثها (بالحندوس) يعني السوداء، ثم افسدها الناس بالتدليس، وضربها أهل الريب ناقصة في الوزن، وصارت ريبة لمن يتناولها، وأعلن الناس النكير في شأنها، وتنادوا بالسلطان في قطعها، وكثر الخوض في ذلك، وتوقعت الفتنة، فأزال السلطان تلك السكة وعفا عنها.

النقود العربية في تونس، ص: ٣٧.

(٢) مجلة الدراسات الاسلامية، ص: ٥٤، باريس، ١٩٤٩م/ ١٣٦٩هـ؛ نقلا عن:
E, strauss, prix, et salaires al, epoque, mamlouke, etude sur l, et et Economigue, de l, Egypte, et de la syrie ala fin du moyen Age.

(٣) الدوكا: عملة ذهبية استخدمت في معظم اوروبا، قيمتها حوالي ثلاث شلنات، واستخدمت كذلك الدوكات الذهبية، وكانت تمادل تسعة شلنات، في عهد الدوج وندولو في البندقية، أما البيزنت فهي عملة اسبانية فضية. تبلغ قيمتها حاليا في العملة الاردنية ستة فلسات.
New English Dictionary, Val, III, P, 699.

ولقد أقامت الادارة الحفصية بمناسبة نشاطها التجاري ادارة خاصة، ترعى مصالحها التجارية تعرف بالادارة القمرقية المعتمدة في ميزانيتها على المداخيل الناتجة عن التجارة والقرصنة (حرب البحار)، فقد عملت على تشجيع التجارة، وكانت تعفي الحبوب من الضريبة المترتبة عليها، وتمنح التجار الأجانب حقوق التصدير للبضائع المعفاة من الضرائب اذ كانت بضعائهم الى تونس تتساوى فيها قيمة الواردات مع الصادرات، أما اذا زادت قيمة الصادرات على الواردات. فتكون نسبة الضريبة ٥% وتعفي هذه الادارة الصفقات التي تعقد داخليا مع الاجانب من الضرائب، وكانت تشجع البضائع المحلية لتشجيع حركة الانتاج، وتمنح تسهيلات كبيرة في تصدير بضائعها ذات القيمة المرتفعة خارجيا، حتى أن دخل القمرقيمة في العهد الحفصي بلغ مائة وسبعين الف دينار سنويا، وهذا يدل على انتعاش التجارة في تونس في ذلك الوقت.

واعتنى الحفصيون باصلاح المكاييل لمعرفة النصاب الشرعي للمكاييل في القطر التونسي، فاعتمدوا الوسق الشرعي[1]، كالقفيز التونسي،[2] وهم اول من طبع الدينار والدرهم الذهبي التونسي الجديد.

كما اوجدوا نصف الدينار والدرهم الناصري[3]، وضربت كذلك في عهد الحفصيين نقود النحاس لأول مرة، وعرفت بالحندوس كما مر سابقا، وكان المكس يقدر على العموم في النظام المالي الموحدي بنسبة العشر حسب الشريعة الاسلامية. إلا أن هذا العشر قد اختلف في مقداره الفعلي بين ٨%، ٢٠% من ثمن البيع. ويعود سبب هذا الاختلاف في التقدير الى تعداد انواع البضاعة وديانة التاجر ومدى قربه وبعده من السلطة. وهذه المقادير موزعة بنسبة ١٠% للأجانب، ٥% للذمي، ٢,٥ % للتاجر المسلم، والتزمت الدولة بهذه النسب التزاما قانونيا واخلاقيا[4].

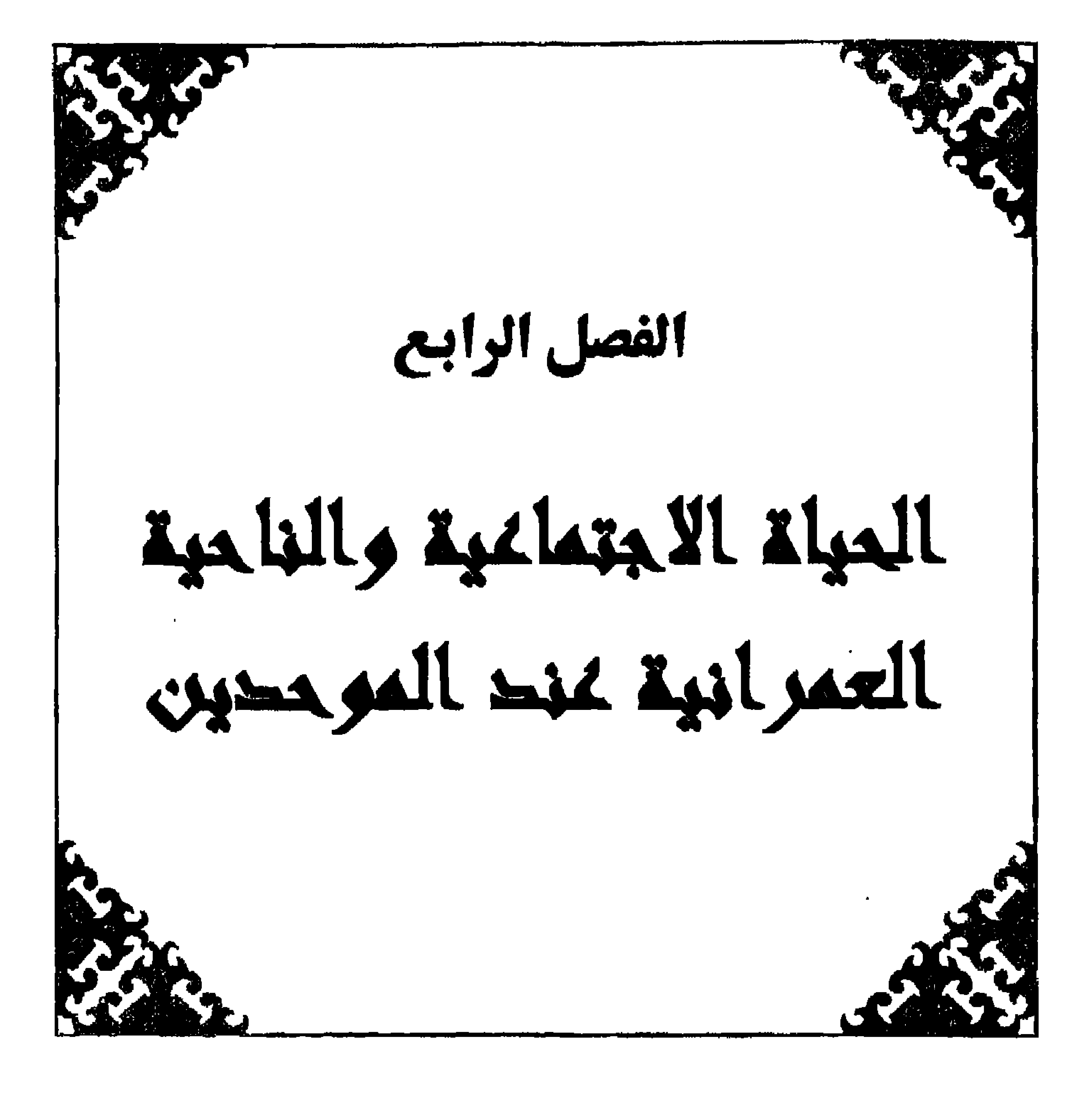
---

(١) الوسق الشرعي، يساوي مائة وخمسين كيلو غرام.
سيد سابق: فقه السنة، مج١، ص:٤١٢ فصل زكاة الفطر؛ المعجم الوسيط، ج٢، ص:١٠٤٤، احياء التراث العربي، بيروت، لا.ت. المعجم الوسيط، ج١، ص:٣٥٢؛
مجد الدين: المحيط، ج٣، ص:٢٩٩، دار الجيل، بيروت، لا.ت.

(٢) القفيز: مكيال يختلف باختلاف البلدان، فمثلا في مصر، يساوي اربع عشرة أقة ونصف، الاقة، تساوي نصف رطل شامي، أي تساوي كيلوغرام وربع، فيكون القفيز، يساوي ١٢٥ ,١٨ كغم؛ المعجم الوسيط، مج٢٢، ص:٧٥٦.

(٣) قام الحفصيون بتجزئة الناصري إلى خمسي، وهو خمسة أسداس الدرهم، وإلى خروبه وهي أربعة اسداس الدرهم، وإلى نصف ناصري، ويعني ٣/٦ ثلاث أسد س الدرهم، وإلى قفصي، وهو القيراط ويساوي ١/٦ درهم سدس ويساوي ثمانية عشر غراما؛ المعجم الوسيط: مج٢، ص:٧٣٤؛ حس حسني عبدالوهاب: النقود العربية في تونس، ص:٣٧.

(٤) د. ابتسام مرعي: العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق، ص:٣٠٨، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥/١٤٠٥.



الفصل الرابع

الحياة الاجتماعية والناحية العمرانية عند الموحدين

الحياة الاجتماعية والناحية العمرانية عند الموحدين

تطورت الحياة الاجتماعية مدة بني عبد المؤمن في جميع المجالات، وعلى كل الأصعدة في المغرب والأندلس، ففي المجال الرسمي كانت أيامهم كلها خير وبركة كأنها من حسنها أعراس، وبخاصة في عهد الخلائف الأوائل، اذ كثيرا ما تقربوا إلى الشعب بالصدقات والهبات، أغدقوها عليهم اثر كل مناسبة، سواء في تنصيب خليفة أم تشييد بناء، أم اقامة مصنع، وتوديع جيش أم انتصاره، وتدشين مسجد أم تطهيره.

لذلك جرت عادة الموحدين أن يحتفلوا عندما يتولى أحد الخلفاء منصب امير المؤمنين، ويتسلم سلطاته الشرعية كخليفة. ففي مناسبة بيعة أبي يعقوب يوسف بالخلافة من يوم الجمعه ١١ جمادى الثاني سنة ٥٥٨هـ/ ٢٩ أيار ١١٦٢،[١] كانت باكورة أعماله، أن اصدر عفوا عاما عن المساجين ليشاركوا الناس فرحتهم في الاحتفالات التي ستجري بهذه المناسبة؛ وفي غمرة هذه الاحتفالات وزع الخليفة الاموال على المحتاجين في العاصمة اولاً، وأصدر اوامره الى عماله في الولايات ان يحذوا حذوه بالعفو وتقديم الهاديا والمنح المالية، سواء في الاندلس أم في المغرب، وقد شملت هذه المنح جميع الناس، من موظفين ومزارعين ومسنين وغيرهم.[٢]

هذا لا يقل تألقاً عن الاحتفالات التي جرت اثر تولي يعقوب المنصور الخلافة من يوم الأحد ١٩ ربيع الثاني سنة ٥٨٠هـ/ ٣٠ تموز ١١٨٤م.[٣] وقد اغدق الاموال على الناس، اذ أخرج مائة الف دينار ذهبا من بيت المال. ووزعها على المحتاجين، وذوي العاهات واصحاب البيوتات الفقيرة، وأمر باطلاق سراح المساجين، عفوا وسماحة، ورد المظالم الى أهلها.[٤]

يتبين أن المظالم كانت تمارس مدة حكم أبيه أبي يعقوب يوسف، ويوقعها الولاة في غياب القانون، دون رادع من ضمير أو خوف من عقاب. وكان المنصور يتحسسها أثناء ولايته في عهد والده، ولم يتمكن من تغييرها، لكنه عندما اصبح صاحب الشأن أمر

---

(١) ابن أبي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٠٨؛ مجهول: الحلل، ص: ١٥٧؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣١٩؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٢٩١.

(٢) ابن صاحب الصلاة:: المن بالامامة، ص: ٣٤٧- ٣٥٧؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:١٥٨؛ ١٥٩.

(٣) ابن ابي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢١٦، ٢١٧.

(٤) المراكشي: المعجب، ص: ٤١١.

بايقافها، وايقاع العقوبة على مرتكبيها، متحريا العدل، وسنن الخلفاء الأول، ما استطاع سبيلاً إلى ذلك؛ فزاد تقربه إلى الفقهاء، وتودده إلى وجهاء الأمة وعامة الشعب بالاموال والهبات والمكافآت، ولم ينس افراد القوات المسلحة من عطفه وكرمه.[1]

ولم تخل مناسبة إلا وانتهزها الموحدون، فاحتفلوا بها، كاحتفالاتهم باستقبال الوفود الواردة اليهم والصادرة من قبلهم، ومن أهم المواسم الاحتفالية، ذلك الاحتفال لاستقبال القبائل العربية عند وصولها إلى مراكش من افريقية سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م.

وكان السلطان ابو يعقوب يوسف قد استدعى اليه هذه القبائل لتشترك معه في حروبه مع نصارى اسبانية، اذ أخذ يستعد لاستقبالهم حين بلغه مسيرهم نحو عاصمته، فأمر بتوزيع السلاح من مختلف الأنواع على المشتركين في موكب الاستقبال، وخرج الأمير نفسه في كوكبة لم ير مثلها في الاهبة والاستعداد، والسادة عن يمينه وعن يساره ومن خلفه.[2]

كما كانت تجري الاحتفالات كذلك عند قدوم احد السادة من اخوة الخليفة او من أقاربه، عمال الولايات، كالذي جرى سنة ٥٦٠هـ/ ١١٦١م، عند خروج السيد أبي حفص من مراكش بأمر من الخليفة، ومعه كبار رجال الدولة من القادة والاشياخ، وزعماء الاندلس لملاقاة اخيه السيد أبي سعيد بجبل الفتح "جبل طارق". إذ عبر البحر بموكب فخم وفي هيئة عظيمة ادهشت المشاهدين من نشر للبنود وقرع للطبوع، وبرز السيد أبو سعيد بجبل الفتح تحف به تشكيلات من قطاعات الجيش المختلفة، تخفق فوق هاماتهم الرايات والاعلام، في زي يعجز وصفه، لا عين كمثله رأت، ولا اذن سمعت؟ عن يمينه وفد أهل اشبيلية، وفي مقدمتهم الفقيه ابن الجد، وقاضيهم ابو بكر الغافقي، وصاحب المخزن محمد المعلم، وعن يساره اهل المغرب القاطنون في الأندلس، ووفد قرطبه وغرناطه، وقد تقدم الجميع الشعراء للتهاني باللقاء السعيد وجلس السيد في القصر المعد للاحتفال باستقبال الوفود، اذ تزاحمت للسلام عليه جماعة اثر جماعة، واغدق عليهم الهبات والاعطيات والشارات الخلافية، ومنحهم الالقاب والاوسمة، ودامت الأفراح خمسة عشر يوما متواصلة "في مسرة متصلة وميرة مشتملة"[3].

---

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١١.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٤٣٠- ٤٣٢.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٢٥٠-٢٥٧.

وكثيرا ما احتفل الموحدون بمناسبة الانتهاء من بناء مرفق من مرافقهم، بمحضر الخليفة وكبار رجال الدولة، والحاشية وأعيان البلاد، وحضور وفود شعبيه كبيرة، فينتهز الشعراء فرصة، يلقون بها قصائدهم بين يدي أمير المؤمنين.

ومن اوضح المراسم على ذلك، الاحتفال الذي جرى سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، عند الانتهاء من تشييد مدينة الفتح بجبل طارق، اذ سار الخليفة عبد المؤمن بموكب مهيب من مدينة مراكش عابراً البحر الى الجبل، ويوم اجتيازه المضيق برز لاستقباله اعداد من المشاهدين لا حصر لها، وكان يوما مشهودا؛ ظهر فيه من البذخ وعز الملك ما لا نظير له، مما شكل عبئاً ثقيلاً على بيت المال[١] "خزينة الدولة".

وحالما علم أهل الاندلس بزيارة امير المؤمنين، وذلك في شهر ذي القعدة سنة ٥٥٥هـ/ كانون الثاني ١١٦٠م، تدفقوا على شكل وفود على رأسها الولاة والقضاة والأعيان لاستقباله، وكان اول الداخلين على الخليفة الشعراء وبأمر منه؛ اذ استدعاهم بهذه المناسبة لالقاء اشعارهم، وكانوا قبلا يستأذنون فيؤذن لهم، ثم سمح لرؤساء الوفود بالقاء خطبهم وتجديد البيعة له وسمح بتقبيل يده[٢].

ظل الناس في عرس وفرح مدة عشرين يوما، مصاريفهم على نفقة الدولة من أكل وشرب ونوم، هذا فضلا عن عطاء الخليفة ومنحه لجميع الحاضرين كل حسب حاجته ومرتبته، وقد خص منهم عمال البناء والفنيين والمهندسيين بمكافآت سخية على اخلاصهم وتفانيهم، واتقانهم عملهم حسب المواصفات والمقاييس.[٣]

وامتازت الحياة الاجتماعية على مستوى الدولة بطابع جهادي مميز، كان الجيش يسير للغزو بموكب احتفالي مهيب وبروز عظيم، يعد له مسبقا، وقد استمر العمل بهذا النظام الرتيب طوال حكم الموحدين. فاحتفل أبو ديوس ادريس آخر خلفاء بني عبد المؤمن عندما اقتحم مراكش على عمر المرتضى، وقد فر هذا منها هاربا وتركها له.[٤]

---

(١) المصدر نفسه، ص: ١٤٧-١٥١.

(٢) المراكشي: المعجب، ص:٣١١.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٢٧-١٥١.

(٤) المرتضي: هو أمير المؤمنين عمر بن اسحاق بن يوسف بن عبدالمؤمن بن علي الكومي، تولى الامارة سنة ٥٤٦هـ/ ١٢٤٨م- سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م و ابن ابي ذرع: الانيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٥٨-٢٥٩.

وجلس أبو العــلاء في ديوانـه يتقبـل بيعـة الموحديـن كافـة، والأشياخ والـوزراء والفقهاء والقضاة، وزعماء العرب، ثم كبار المصامدة ذلك يوم الأحد الثالث والعشـرين من محرم سنة ٦٦٥هـ الرابع والعشرين من تشرين الأول ١٢٦٦م[١].

ومن اوضح الأمثلة التي ذكرت في وصف موكب الجيش خلال مسيره للحرب من مراكش إلى الأندلس سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م زمن الخليفة يوسـف أبـي يعقـوب بـن عبد المؤمـن؛ اذ قسـم الجيش المؤلـف مـن الموحديـن والعـرب، الى فـرق حسـب قبائلــهم، واستعرضها فرقة، فرقة، ودام هذا العرض مدة خمسة عشر يوما، زودهم أثناءها بـالخيل، وأمدهم بمختلف انواع الأسـلحة؛ مـن رمـاح، ودروع، وبيـض وسـيوف، وصـرف لهم المكافآت الماليه والرواتب الشهرية، وجهزهم بمواد تموينـهم تكفيـهم الذهـاب والايـاب، بالاضافة إلى الملابس الصيفية والشتوية.[٢]

ثم أخذ الجيش في الحركة صباح يوم السبت الرابع من شهر رجب سنة ٥٦٦هـ/ اليوم الثالث عشر من شهر آذار ١١٧٠م، من مراكـش، وعلـى رأسـه أمـير المؤمنين، في عسكر كثيـف، قد ملأ الأرض كثرة، تتقدمه الأعلام البيض، والطبول من ورائه، وأمامهم مصحف عثمان محمولاً على جمل مصحوباً بمصحف الإمام المهدي، وقد اصطف النـاس لتوديعه[٣].

وكان المصحف المذكور يصان بنفيس الجواهر والألوان الزاهية؛ الأحمـر والاصفر والاخضر الغريب، والزمرد الاخضر؛ وهكذا قد جمعت كل الزخارف المتعارف عليـها في ذلك الزمن، وموكب امير المؤمنين وراءه، يحيط به حرسه مـن السـود والحشـم، ويرافقه اهل بيته، ورؤساء أركانه، يتلوهم باقي الجيش من الموحدين والعـرب، وقـد غـصّ بـهم السـهل والوعـر، إلى ان القـى عصـا تسـياره في قرطبـة في الأول مـن ذي القعـدة سـنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م.[٤]

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب في اختصار اخبار ملوك الاندلس والمغرب، ص:٤٤٤-٤٥١.
(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٤٣٨-٤٥٢.
(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٤٣٨-٤٥٣.
(٤) المصدر نفسه؛ ص:٤٣٩-٤٤٠، ٥٣؛
المقريّ: نفح الطيب، ج٦، ص:١٣٦-١٤٣؛
ابن ابي ذرع: الأنيـس المطـرب بـروض القرطـاس، ص:٢١١، كـان اللـون الرسمـي والأساسي للدولة الموحدية هو اللون الابيض، بيد أنهم اتخذوا اللون الأحمر للقبة الخلافية مكان اقامة الخليفة كما أنهم عمدوا إلى اتخاذ الوان أخرى؛ الاحمر والاصفر، والابيض، وجملـوا بـها خزانـة المصحف العثماني.

اعتنى الموحدون بالاحتفالات بمناسبة انتصاراتهم الحربية، إذ كان الخليفة يبعث بكتبه إلى ولاته على الأمصار، فيقرأونها على الطلبة وعلى الرعية، يستظهرون ما اشتملت عليه هذه الكتب من الأخبار والاشعار، وبخاصة اثر المعارك الهامة والحساسة، فتستمر الاحتفالات مدة شهر كامل أحياناً، وفي العادة تصحبها قرع الطبول، وعزف الموسيقى وتناول مختلف اطايب الطعام، كما جرى سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، حين انتصر عبد المؤمن على نصارى صقلية، واسترد موانئ أفريقية منهم.(١)

ومن هذه المراسيم ما وصفها ابن عذاري حين انتصر المنصور على غرب الاندلس- مجال نشاط الموحدين العسكري وقتئذ- سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م، وانكفأ راجعا الى اشبيلية مزهواً يجر سباياه ويحتجز اسراه، ويحمل غنائمه الكثيرة، وجرى عرض عسكري، اشتركت فيه تشكيله من القوات البحرية والبرية، وظهرت فيه النجب المحلاه، والخيول المطهمة، وعلى ظهورها الجند المحاربون، من سودان وأغراز(٢)، فضلا عن العرب والموحدين والأندلسيين.(٣)

---

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:١٢٠-١٢١.

(٢) الاغزاز: جنس من الترك، بلادهم في أقصى المشرق على تخوم الصين وقد عرفهم العرب في أيام الفتوح الاولى، دخلوا بلاد المسلمين اسارى ومماليك، فلم يلبث كثير منهم ان ملكوا حرياتهم، وبرزوا في الحياتين المدنية والعسكريه جميعا، فنبغ منهم قادة ووزراء، وولاة؛ ثم قوي سلطانهم حتى صار الخلفاء في قبضة ايديهم، وسياسة الدولة وفق ارادتهم.
وهؤلاء الغز الذين اشرنا اليهم في المتن، كان لهم شأن في تاريخ افريقيه، أواخر القرن السادس وأوئل القرن السابع، وكان وصولهم اليها حوالي سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م، اذ كان على عرش مصر وقتئذ الناصر صلاح الدين الأيوبي، والحروب الصليبية ناشبة في الشرق والغرب، فثمة صليبيون يغيرون على الشام ومصر، وقد تجمعوا من اقطار شتى، وصليبيون في صقلية يحاولون أن يغلبوا العرب على سواحل افريقية، وصليبيون آخرون من الاسبان والفرنجة يضيقون الخناق على العرب في الأندلس وما يجاورها من الجزر في بحر الروم (البحر المتوسط)، وقيل ان في بعض هذه الحملات احس صلاح الدين الايوبي صاحب عرش مصر والشام بحاجته إلى معونة المسلمين في المشرق والمغرب، على رد عادية الصليبيين على بلاده؛ فأرسل الرسل والكتب الى أمراء المسلمين هنا وهناك، وكان في من ارسل اليهم صاحب عرش المغرب والأندلس من امراء الموحدين، وخاطبه برسالته "أمير المسلمين". قالوا: فغضب خليفة مراكش، اذ لم يخاطبه صلاح الدين "أمير المؤمنين" فلم يستمع لندائه.
وخلال ذلك ظهر المماليك المصريون في ذلك التاريخ بأرض افريقية، وأميرهم شرف الدين قراقوش مملوك تقي الدين عمر بن أخي صلاح الدين...، فحالفوا عرب بني هلال، ونزعوا الى الشر، وأغاروا على الأطراف الشرقية لمملكة الموحدين، ففتحوا كثيرا من المعاقل واستولوا على كثير من البلاد؛ المراكشي: المعجب، ص: ٤١٢، ٤١٤.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب في اختصار ملوك الأندلس والمغرب، ق٣، ص:١٨٠؛ ابن ابي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢١٩.
يذكر الاخير ان المنصور غزا شلب والمناطق الغربية من الاندلس، وعاد إلى قرطبة يجر وراءه ثلاثة آلاف اسير نصراني مقيدين بالحديد، وخمسة عشر الف سبيه من عقائل وأبكار بنات الروم، صنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م.

وللقارئ أن يتلقى باعجاب بالغ المعلومات التي اعطاها المراكشي في المعجب عن عادات الموحدين في إقامة الجمعة.[1] والمعلومات التي اوردها صاحب الحلل الموشية عن ترتيب السفر.[2] وله أن يندهش اكثر ويشعر بمتعة زائدة اذا قرأ عند ابن صاحب الصلاة "التشريفات"[3]، وبمناسبة تنصيب العمال الجدد، وعند خروج الخليفة للغزو، وعند أداء اليمين من المؤيدين الجدد، وكذا جلوسه في الصباح المبكر مجلس التهنئة، وتقديم الوزير الحاجب للأشياخ والكبراء، وأبناء الجماعة وطلبة الحضر، والقضاة والكتاب والولاة، والشعراء، وعند الاستقبالات الخليفية الفخمة التي كانت تجري في بحيرة مراكش، بل والعادات عندما يلازم الخليفة فراش المرض، ويخرج في أثنائه للمسجد.[4]

---

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٤٨٥-٤٨٩،

يقول حول اقامة الجمعة: "فيخرج -أي الخليفة- عند زوال الشمس من خوخه في القبلة، ويخرج معه خواصه (حشمة)، ويركع ركعتين ثم يجلس، فيقرأ قارئ قدر عشر آيات... ثم يقوم رئيس المؤذنيين ومعه العصا التي يتوكأ عليها الخطيب، فيقول: "قد فاء الفيء يا سيدنا أمير المؤمنين والحمدلله رب العالمين"... فيقوم الخطيب ويصعد المنبر، ثم يناوله ذلك الرجل العصا، فإذا جلس الخطيب فوق المنبر، أذن ثلاثة من المؤذنين مفترقين، أصواتهم في نهاية الحسن.. ثم يقوم الخطيب فيخطب، فأول شيء يقول: "الحمدلله نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور انفسنا وسيئات أعمالنا.. إلى أن يقول: أسأل الله ربنا أن يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله، ويتبع رضوانه، ويجتنب سخطه، فانما نحن به وله...".

ثم يتعوذ ويقرأ سورة (ق) من أولها إلى آخرها ثم يجلس، وإذا قام إلى الخطبة الثانية قال:

"الحمدلله نحمده ونستعينه، ونتوكل عليه، ونبرأ من الحول والقوة اليه، ويتشهد ويصلي على الرسول وأصحابه إلى أن يقول: وعلى الامام المعصوم المهدي المعلوم أبي عبدالله محمد بن عبدالله العربي القرشي الهاشمي الحسني الفاطمي المحمدي، الذي أيد بالعصمة، فكان أمره حتما... وعلى وارث شرفه الصميم قسيمه... في النسب الكريم المجتبي لوراثة مقامة العلي، الخليفة الامام ابي محمد عبد المؤمن بن علي، وعلى أبي يعقوب ولي ذلك الاستخلاص، اللهم وارض عن المجاهد في سبيلك، المحي سنة رسولك الخليفة الامام ابي يوسف امير المؤمنين ابن امير المؤمنين، ابن امير المؤمنين، وعلى الخليفة الامام ابي عبدالله ابن الخلفاء الراشدين- ويعني الناصر- اللهم وانصر ولي عهدهم... واجعل لهم من عضدك وتأييدك اعز ظهير وأكرم نصر..." ثم يدعو وينزل فيصلي، فإذا فرغ دعا الخليفة بنفسه...".

(٢) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٤٨.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٤٥٧.

(٤) المصدر نفسه، ص: ٤٢٠، ٤٥٦.

وكم تجملت البلاد بالحشود الشعبيه لاستقبال الخليفة وتوديعه، تعبيرا عن الطاعة وإظهاراً للمحبة، في مهرجانات تسمى (التبريز)، حيث لا يبقى من أعيان البلاد وعلمائها وشعرائها من لا يخرج لاجتلاء طلعة الخليفة والتبرك بوجوده.[1]

ومثلها تجديد البيعة للأمير الخلف، فيبايع المصامدة أولا، ثم الناس من مختلف الفئات ثانياً، ومن عادة الأمير أن يجلس في ديوانه يستقبل وفود المدن كل شهر مرتين، يستوضح منهم عن أحوال السوق، ومدى توافر المواد الغذائية فيها، واسعارها، وعن سيرة حكامهم، وقضاتهم وولاتهم، فاذا ما نوهوا بأعمالهم خيرا، حملهم مسؤولية شهاداتهم يوم القيامة، وربما تلاعليهم في بعض هذه الجلسات،"يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين أو الأقربين"[2].

يلوح مما سبق أن اصبحت الحرية الاجتماعية شعارا للدولة، فلا يقدمون على عمل صغير أم كبير، الا بعد طرحه على أهل الحل والعقد لنيل القبول، فهم اذن، عند قيامهم بغزوة أو تشييد مبان ومنشآت داخل الدولة، يلجأوون إلى أهل الاختصاص لصنع القرارات بخصوص ذلك، واخذ موافقة الشعب عليها، وتتجلى في شكل رسائل توقعها الطبقة المثقفة في البلاد وتبعث بها الى السادة.[3]

هكذا بدت لنا الحياة الاجتماعية في بداياتها، أنها كانت متأثرة إلى حد كبير بدعوة المهدي وآرائه الجدية، أي أنها تمثل خطا عاما في حياة المغرب الاجتماعية القائمة على العلم والعقيدة والتميز في التجديد والتقشف، وبخاصة في مكافحة الغناء والطرب، اللذين يعتبرهما مرشد الثورة لهوا وفسقا، لذلك استخدموا عصا غليظة في تكسير أدوات الطرب وآلات الموسيقى كما مر سابقا.[4]

---

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٣٠٩.

(٢) قرآن كريم، النساء، ٤٢/ ١٣٥؛
المراكشي: المعجب، ص:٤١٠.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٣٥٣.

(٤) البيدق: أخبار المهدي ابن تومرت، ص:٦٠-٦١؛
رسائل موحدية، ج١٠، الرسالة الثالثة والعشرون؛
B. Meakin: The Morrish, empire, pp, 65-66;
W. Ahistory of the Jews, in the north of africa, p122.

ولقد بالغ الموحدون بعد وفات ابن تومرت في محاربة، اللهو، فالخليفة عبد المؤمن أصدر أوامره إلى ولاته سنة ٥٥٦هـ/١١٦٠م في طول البلاد وعرضها، أمرهم باغلاق دور الملاهي والمواخير ان وجدت ومطاردة روادها أينما ثقفوا.[1]

ورغم هذا نراهم يغضون الطرف عن تعلم الموسيقى، فإن ابن طفيل العالم والطبيب، والمهندس، والكاتب والشاعر، والجندي المحترف، كان موسيقيا فيقول: "ولو نفق عليهم علم الموسيقى لأنفقته عندهم"[2]. في حين استقبلت النساء الخليفة المنصور ضمن المستقبلين أثناء زيارته قبر المهدي في تينمل، وهن يغنين ويضربن بالدفوف: "يولون ... ويقلن... صدق مولانا المهدي: نشهد أنه الامام حقا"[3]

غير أن صورة الحياة الاجتماعية قد تبدلت في عهد الموحدين، وتغيرت تغيرا واضحا في معالمها، ومسالكها العامة، ولم يكن تبدل هذه الحياة إلى هذا الحد، الا نتيجة حتمية للحرية الفكرية والاجتماعية، التي منحها الموحدون إلى مجتمعهم، وهذه بلا شك ميزت تاريخهم عمن سبقهم، وطبعت عهدهم بطابع خاص منفرد، له حلاوته، ووضوحه، واشعاعه، وهي اذ تركت اثرها في الممارسات العلمية والفلسفية كما سنرى، فمن الأجدر أن تترك بصماتها على الحياة الاجتماعية، وعلى سلوك الأفراد والجماعات، وعلى دواوين الدوله، ومجالس الامراء والخلفاء. وهذا واضح فعلا في مجتمع الاندلسيين، فأخبارهم واشعارهم لهي مؤشر مهم، إلى ذلك التحرر والانطلاق، مصورة مجالات البلح في أفراحهم، والترف واللهو التي لونت اجتماعاتهم اللاهية العابثة المتحللة، وصبغت مجالسهم الخمرية الصاخبة في استهتار وتجاوز لكل عرف ديني أو أثر اجتماعي.

ويعتبر ابن سعيد الاندلس خير من أطنب باسهاب وتفصيل عن تلك الجوانب السادرة من حياتهم العابثة، ذاكراً مروج لهوهم، واصفا بالشعر والنثر امسيات

---

(١) ابن القطان: نظم الجمان، ص:٢٣، ٢٤، تح ونشر، محمد علي مكي، المغرب، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٢؛ رسائل موحدية : الرسالة الثالثة، ص: ٥٩؛ الرابعة، ص:٦٩؛ والثالثة والعشرون، ص:١٣٤.

(٢) المراكشي: المعجب، ص:٣٥٠.

(٣) خرج المنصور يوما الى تينمل ومعه جماعة من الغز، فجلسوا تحت شجرة خروب مقابلة لمسجد المهدي، وقد كان ابن تومرت ان قال يوما لأصحابه: "ليبصرن منكم من طالت حياته أمراء أهل مصر مستظلين بهذه الشجرة قاعدين تحتها." فلما جلس الغز على الصفة المتقدمة، كان ذلك اليوم في تينمل يوما عظيما ومشهودا، فهتف الرجال بالتهليل والتكبير وجاءت النسوة يولون... المراكشي: المعجب، ص:٤١٦، ٤١٧.

شرابهم،[1] وتفانيهم في البحث عن اللذات المادية من خمر وجسد[2] ناقلا أخبار المدمنين وقصص فتيان الراح المعاقرين لدنانها ونوادرهم، اذ كانوا ندماء صبوة وخدم شهوة، راضعين لأخلاف البطالة، موغلين في طرق التهتك، بين قهقهات الأباريق وقرقرات الكؤوس[3]

---

(1)

ولا لحظ الا راتع في خميلة ونهر وخلّ بالحياء مورّد
ولا سمع الا سامع ما يريده حديث حبيب أو أغاريد منشد

ودعا ابن سعيد صديقه يوما الى مرج الفضة بهذه الأبيات

هلم أبا اسحاق نحو نزاهة كمثل التي عوّدت بالدّوح والنهر
وتبدي لزهر الروض والورد وجن وثغرفم أندى من الورد والزهر

فيرد عليه صاحبه الجواب:

أبا حسن لاحسّن الله حالة تحوّج أرباب الشباب الى العذر
فوالله ما في الأرض مجلس راحة بغير حلى الراح التي سكبت صبري
سآلفها الف العتيق كتابة ولا أشتهي وردا سواها لدى الحشري

ابن سعيد: القدح المعلي في التاريخ المحلي، ص:٧٣، ٧٤.

(2) كان ابن صناديد (ت ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م) يلازم سكنى غرف بشنتبوس، مكبا على الكؤوس والنساء، وكل يوم في كفه قدح بين مذهلات الناي والوتر، اذ قال:

لا تكن تعشق الا أملح العالم طرا
فإذا مت غراما وهوى الفيت عذرا
عجبا ممن يرى الشمس ويصفي الحبّ بدرا

وقال غيره في غلام:

يا ابدع الخلق بلا مرية وجهك فيه فتنة للناظرين
طوبى لمن قد زرته خاليا فمتع النفس ولو بعد حين
من ذلك الثغر الذي ورده ما زال فيه لذة الشاربين
و ما حوى ذاك الإزار الذي لم يعد عنه أمل الزائرين

وقال آخر وكان كاتبا لعثمان بن عبد المؤمن:

لا تدعني الا لشدو وراح وشادن كالمهرجمّ المراح
مهفهف همت له وجنة تسفر في جنح الدجى عن صباح
اسكنتي الخوف كخلخال لكن هواه ردني كالوشاح

ابن سعيد: القدح المعلي، ص: ١٤٣، ١١٣؛ المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص:١١٣

(3) قال أبو يحيي بن هشام القرطبي، شيخ الكتاب في أوانه:=

وراويا قول بعضهم في سبيلها ومن أجلها[1]. فقد كان في اشبيلية وحدها عديد من المتنزهات والمروح؛ مرج الفضة، والعروس، والسلطانية، وطريانة. وشنتبوس، ووادي

- ويوم شربنا فوق شاطئ جدول هو الدّرّ مياعا يسمونه نهرا
كبار زجاجات اعادت عقولنا عقول صغار تحمل النّفع والضرّا
ولما انفصلنا بالمصلى عشية تناثر سلك كان منتظما درّا
وصرت وذهني عازب غير حاضر وقد قيدت عن خطوها قدمي سكرا
إلى أن اتاح الله لي نجل حرة حداني إلى المثوى فيسر لليسرى

وقال ابو الحجاج البياسي مؤرخ الأندلس، وكان مدمنا على الخمر ملازماً لها، اذ دخل عليه في ساعة شربه شيخ ضخم الجثة: ثقيل الظل:

أسقني الكأس صاحبه ودع الشيخ ناحيه
ان تكن ساقيا له ليس ترويه راويه

بن سعيد: القدح المعلي، ص:٩٢، ٩٣ نفسه: المغرب في حلى المغرب، ج١، ص:٤٢٧.
المقري: النفح، ج٤، ص:١٨١.

(١) وقد وصف الشاعر ابو الحسن رضي بن رضا المالقي انهماك الناصر الموحدي في شرب الخمر، أنه كان لا يصحو منها فقال:

اشرب على البحر بحرا والثم على الزهر زهرا
وانظر لدهر تأتي فكم تشكّيت دهرا
ولا تمل لمميل لا يقبل الدهر عذرا
خلعت في الكأس عذري فأخلع فديتك عذرا
أولا فدعني في إتي أمحق العمر سكرا

ابن سعيد: المغرب في حل المغرب، ج١، ص:٤٢٦، ٤٢٧؛ وقال بعض المستهزئين:

اذا لاح الهلال فقم اليه بإهلال لتوديع الصيام
وقل ان قيل حيّ على حلال صباح الفطر حيّ على حرام
ولا تسمح بقدر اللحظ الا تلاقي وفد أكواس المدام

وقال في استهتار وافتخار كذلك:

إذا اسمعت حي على الفلاح فقم في نحو ريحان وراح
وصلّ الى وجوه من جمال كساها الحسن اردية الصباح
ولا تستدع الا كلّ خلّ يسرك في دنو وانشراح
يقيم كأيكة يهتز لينا ويرحل كالنسيم على البطاح

ابن سعيد: القدح المعلي، ص:١٧٩، ٨٦، ١٠٨، ١١٠. وقول بعضهم:

أهوى محادثة الندّمان في السحر ونغمة الطائر المصغي الى الوتر
وقول ساقي الندامى حان شربكم على بقايا شعاع البدر في النهر
وقد غدت رنة الدولاب موقظة إلى الصبوح عيونا دنّ بالسهر
والكأس ضاحكة في كفّ شاربها كالبكر تمرح بين الأنس والخفر
لا ضيّع الله الا من يضيع أو قات الأصائل للذات والبكر

المصدر نفسه، ص:١٨٦.

الطلح[1]، وفي غرناطة؛ حور مؤمل، واللشتة، والزاوية، والمشايخ، ومرج الشنيل[2]، وفي قرطبة؛ وادي العقيف والرصافة، ووادي الدير، وبطحاء عبدون، وأبواب جيرون، وعنين، وقضبان نعمان، وكثبان بيرين، والدير، ومتنزه الدمشقي، والمنية المصحفية، ومنية الزبير، والقصر الفارسي، ومرج الخز، وفحص السرادق، والسد (الأرحا) ومنية المنبر[3]

أمّا في المرية؛ منى عبدوس، ومنّى غسان، والنجاد، وبركة الصّفر، وعين النطية[4]. هذا فضلا عن منازه منبثة في جميع انحاء الاندلس، في كل قرية ومدينة، كالمنية العامرية، ومنية السرور، ومنية الناعورة[5]، وجنة وادي العسل، والعروش، وعين القدح، والرشاقة، والزنقات، وجبل أيل[6]، ومن أبدع المنازه وأشهرها، الرّصافة ومنية ابن ابي عامر في بلنسية[7].

وفي ظلال هذه النّزة، وبين ادواحها، وفي وسط تلك المروج، وترنم أطيارها، وعلى حافات الجداول ومنحدراتها؛ يكون منسرح العشاق، واحتشاد مغاني الأنس، ونضارة النعيم، ومجالس اللهو، وكواعب الطرب[8] وكان التطرف صفة هذا التيار، فما عاد يحس بخوف الرقيب، أو سلطة الحكام، أو حذر العقاب، فقد وجدنا من دعا للعشق حتى الموت، وإلى الشرب المدمن الذي لا يعرف الصحو "(متكئاً على دنّ مستنداً إلى خابية"، والاغراق في متع الحياة بنهم الظمآن الذي لا يرتوي، يتنقلون على ضفاف الانهار وشطآنها حفيلة الجنان، مغرمين بالحسان، ومنقادين إلى طاعة الغلمان، يجولون بين أصناف الملاهي التي تعج بالرواقص المشهورات، كأنهن خلقن للهو، وزينة المنزع، هكذا كان لهم حظ وثير المهاد في الترف والنعيم والمجون، والعيش بين شدو ورقص وتعانق (وتغامز بنواظر)[9]

---

(١) ابن سعيد: القدح، ص: ٧٣؛ المقري: النفح، ح١، ص:١٧٣.
(٢) المصدر نفسه، القدح، ص:٨٦، ١٠٨، ١١٠؛ المغرب، ج٢، ص:١٠٣
(٣) المقري: النفح، ج٢، ص:١٧-٢٦.
(٤) ابن سعيد: المغرب، ج٤، ص: ١٩٣- ١٩٤.
(٥) المقري: النفح، ج٢، ص: ١١٨.
(٦) ابن سعيد: القدح، ص: ٨٦، ١٠٨، ١١٠، المغرب، ج٢، ص: ٢٤٦.
(٧) المقري: النفح، ج١، ص: ١٧١؛ ابن خاقان: مصحح الأنفس، ص: ٣٤٧.
(٨) ابن سعيد : القدح، ص: ٧٣.
(٩) المقري: النقح، ج٢، ص: ١٧٥- ١٨٥، ١٩٩، ج١، ص: ١٩٧، ١٨٠، ومن قولهم:

وهوينه يسقي المدام كأنه	قمر يدور بكوكب في مجلس
يسعى بكأس في أنامل سوسن	ويدير أخرى من محاجر نرجس
عنا بكأسك قد كفتنا مقلة	حوراء قائمة بشكر المجلس

ولم يكن هذا الهيام في الشطحات والترويح بزيارة المتنزهات، قاصرا على الرعية، بل مارسه كذلك الخلفاءالموحدون، فقد أنشأوا البرك والبحيرات، وغرسوا البساتين والجنات، وكانوا دائمي الاختلاف الى تلك الأماكن، تتوسطهم جواريهم ومغنياتهم في شطحاتهم بين المروج والرياض.(١)

وكذا الولاة كانوا يخرجون مع خاصتهم وخدمهم إلى المشمومات والمعروشات، يتمتعون بلياليهم العابثة وبرؤى الجداول والأنهار تنساب بين الخمائل والأشجار.(٢) اذ حينما يكون الترف، وكان في القصور والحاشية، كان التحلل والتميع والفجور الناعم الذي يرتدي ثياب الارستقراطية.

ان هذه المتفرجات كان لها وقع حسن في قلوب الناس، حيث يذهبون اليها في المناسبات السعيدة، كالاعياد والاحتفالات يمارسون اللهو غير البريء والغناء والطرب، واستمر هذا الحال إلى أواخر الدولة الموحدية؛ منهم من اتخذ الشراب والخلاعة ملاذا للترفيه، وهذا دليل كاف يدين الى حد ما عقيدة المهدي المتشددة التي لم تعرف حدا للاعتدال والتوسط، فقضت تعليماته بالقتل دون غيره لكل من لا يؤدي الصلاة، أو يمتنع عن دفع الزكاة، أو يشرب الخمرة(٣) علما أن التعاليم الاسلامية لا تأمر بقتل شارب الخمر، وإنما تضع عليه الحد بنعلين أربعين جلدة، أو بجريدتين من نخيل اربعين جلدة، أو ثمانين جلدة بسوط، وإن تجاوزت السنة و قتلت تارك الصلاة، أو مانع الزكاة، فكان هذا لا ينفذ الاوسط ظروف سياسية نادرة للمحافظة على سيادة الدولة.(٤)

وأقبل الاثرياء وأصحاب المراتب العليا أواخر دولة الموحدين، على الاستكثار من الجواري، والعمل على تأديبهن، وتعليمهن الغناء والطرب؛ فكان لأبي علي بن يبقى والى مالقة جارية بارعة الجمال، قام على تأديبها وتعليمها الغناء، وكان يستدعي السادة الامراء الى حفلاتها الراقصة التي تحييها، فاشتهاها مرة ابو العلاء المأمون بن يعقوب

---

(١) المراكشي: المعجب، ص:٢٩٤؛ المقري: النفح، ج٧، ص:١٨٦؛ ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٠٤.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٢٩٩؛
ابن سعيد: القدح المعلى، ص:٨٦-١٠٨- ١١١، ١١٤، ١١٢- ١١٣.

(٣) رسائل موحدية: الرسالة الثالثة والعشرون، ج١٠، ص:١٣٣، أصدرها بروفنسال، الرباط، ١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م.

(٤) محمد منلامسكين: الكنز، ج٢، ص:٣٧٠، ط٢ بولاق، القاهرة، ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م.

المنصور، وطلبها منه لكن الوالي ضن بها عليه؛ لثقافتها وعلو كعبها في الطـرب والغنـاء، فكتمها الأخير في نفسه، إلى أن اصبح خليفة المسلمين سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م، فطلب مـن والي مالقة الحضور إلى العاصمة اشبيلية، وضرب عنقه فيها[١].

ان السبب في غضب الأمير، ربما لم يكن في عدم تمكنه من جارية الوالي، التي كانت تتميز بثقافة فنية جامعة الى جانب الجمال الرائع الذي كانت تتحلى به، بقدر ما كان مـن تمرد الوالي وعدم تلبية طلب أميره في أمر بسيط عارض كهذا، فكيف به اذا طلب منـه أن يركب مركبا صعبا لحماية الدولة ودرء الخطر عنها، أو طلب منـه الاستقالة مثـلا، فمـن المحتمل أن يثور ويؤلب الناس ضد الامارة، فاقتضت مصلحـة الدولـة تصفيتـه في الحـال عند اول فرصة.

ثم بدا لنا مدى الترف الذي عاشه الموحدون عند رجوعهم مـن احـدى المعـارك. فقد انصرف الخليفة ابو يعقوب بعد فشل معركة وبذه[٢] Huete سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، وتوجه الى مرسية ضيفا على هلال بن مردنيش وأقاربه، فخرج جميع أهل المدينة كبـيرهم وصغيرهم رجالهم ونساؤهم لاستقباله يغنون ويرقصون على أنغام الموسـيقى والطبـول، فضلا عن هبات الأكسية والأرزاق التي تزيد عن حاجة الجيـش، وممـا ادهشـهم ان رأوا: "الجواري الكعاب والسراري ذوات الحسن والشباب" وقد وزعت على كبار رجال الجيش والامراء والاعيان منهم.[٣]

عادوا للظهور مرة اخرى، وانتشروا بصورة ازعجت الخلفـاء ففـي حـوادث سـنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م، يقول ابن عذاري عن الخليفة المنصور: "لما رأى التسـاوي في الانـهماك والاغترار، وسمع المجاهرة والاستهتار والتنـافس في الشـهوات، ونفـاق سـوق الغانيـات الملهيات، تنكر وغضب في الله لذلك المنكر، وأضرب عن القال والقيـل وجعـل الإنـذار والإعذار مكان السيف الصقيل."[٤] فأمر بمنع المسكرات، وجعل عقوبة المـوت لكـل مـن يمارس ذلك اللهو.

---

(١) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص:٤٩؛ كان المأمون أمير الأندلس آنذاك، وعاصمته اشبيلية، قبل أن يلي إمارة المؤمنين، فلما جاءته، الخلافة، دعا لنفسه فيها قبل أن يرحل الى مراكش.

(٢) وبـذة: حصـن قديـم يقـع في مقاطعـة قونقـة، وغـرب طليطلـة؛ يـاقوت: معجـم البلـدان، ج٥، ص:٣٥٩؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٤٨٧.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٥١٤،..

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ص:١٤٣-١٤٤.

وابتعد الموحدون أول أمرهم عن ارتداء الملابس الزاهية الغالية الثمن والمصنوعة من الحرير والديباج المطرز، اذ كان ابن تومرت امامهم المؤسس لدولتهم يلبس الثياب المرقعة اقتداء بعمر بن الخطاب، وله قدم في التقشف وفي العبادة.[1] وسار على طريقة في الزهد والتواضع في اللباس والمعيشة تلميذه وخليفته عبد المؤمن بن علي؛ فاكتسى من الثياب خشنها، ومن الطعام أقله وأدومه، وربى أولاده على ذلك.[2]

لذا لم يحرص بنو عبدالمؤمن في بداية الدولة على إقامة مصانع دور طراز خاصة بهم لصناعة الملابس الحريرية والديباج المحلي بالذهب والأحجار الكريمة، وكانوا يتورعون عن لباس الحرير والذهب، انما أقاموها في أواخر الدولة.[3]

ثم أخذ الموحدون يقلدون الأندلسيين شيئا فشيئاً في ارتداء مختلف انواع الديباج من الملابس الحريرية والصوفية والكتانية والقطنية، فأقبل الخلفاء وكبار رجال الدولة وعامة الناس رجالا ونساء على اقتناء تلك الملابس[4] فنشطت دور الطراز الخاصة بهذا النوع من الملابس في كل من مرسية وبلنسية وغرناطة وبسطة ومالقة والمرية.[5]

عم هذا الاسراف في اللباس عامة الشعب مما جعل الخليفة المنصور يصدر مرسوما ملكيا بعدم ارتدائه سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م، وأن المنصور نفسه قد أظهر بعد عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، زهداً في الحياة والتقشف، وقد عاد الناس بعد المنصور الى ارتداء الملابس الحريرية المطرزة والديباج الموشى[6].

بالغ الموحدون في هذا العهد في نسج الأقمشة الحريرية، بأنواع الجواهر واليواقيت والأحجار الكريمة، وشاهدنا مدى الترف الذي بلغته البلاد زمن الناصر، تلك الهدية التي قدمها الخليفة الى علي بن الغازي (من بني غانية) عندما أعلن توحيده، وقدم ولاءه وطاعته للدولة. وكانت ثوبين نسجا بأنواع الجواهر، وحليت بنقوش من اليواقيت والأحجار النفيسة.[7]

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠٥.
(٢) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٠٤.
(٣) ابن خلدون: العبر، ج١، ص:١٧٣.
(٤) ابن الخطيب: الاحاطة، ج١، ص:١٣٤-١٣٩.
(٥) المقري: نفح الطيب، ج٤، ص:٢١٠.
(٦) المراكشي: المعجب، ص:٤٠٠.
(٧) الجزنائي: زهرة الآسى في بناء مدينة فاس، ص:٣٣؛
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٣٤، ويقول ابن خلدون بخصوص الكافي(ابن الغازي): "فناله من الكرامة والتقريب ما لا فوقه"؛
المقري: نفح الطيب، ج٤، ص:٢١٠، تح- يوسف الشيخ، دار الفكر، ١٤٠٦/ ١٩٨٦.

واتخذ الموحدون العمائم ذات الاثمان الباهظة التكاليف، وهي من جملة الهبات التي كانت توزع على الحاشية وأفراد الجيش[1]. إلا أنّ سكان شرق الأندلس، قد حسرت رؤوسهم وكانت دون أغطية، على عكس ما كان الناس في غرب البلاد[2]. لقد تأثر الأندلسيون بالأردية المغربية، فاستعملوا الأردية الأفريقية والمآزر والمقاطع التونسية[3].

أما اليهود الذين أسلموا بالمغرب وفي الأندلس كان لهم زيهم من الملابس الكحلية، ذات الأكمام المفرطة السعة حتى تصل إلى أقدامهم، والزمهم المنصور بارتداء هذا اللون من اللباس، وقد كرهوا هذا اللباس، وحاولوا تغييره، فتوسلوا إلى الخليفة الناصر، وكلموه في ذلك، فغيره بلباس أصفر اللون[4].

غير أن الموحدين لما شكوا بصدق نوايا أهل الذمة وبخاصة اليهود منهم لم يتسامحوا بإقامة ديانتين أوأكثر على أرض واحدة، وقالوا لن يجتمع دينان في المغرب، فحظروا اختلاط اليهود بالموحدين؛ لأن وجود فئة لا تدين بمباديء الدولة، ولا تخضع لقوانينها أمر بالغ الخطورة في كيان الدولة الداخلي، وكان لا بد أن تخضع هذه الفئة لنظام الدولة أو تحاربه، فمنهم من أسلم وحسن اسلامه، ومنهم من هاجر وترك البلاد، وقسم آخر كان مترددا في اسلامه، وفضل الاقامة بالمغرب يظهر خلاف ما يبطن، وإلى هؤلاء توجه المنصور في شكه وتردده في شأنهم، وكان يقول: "لو صح عندي اسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين.... في سائر امورهم، ولو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم.. ولكني متردد في أمرهم"[5].

الطعام والشراب:

بين صاحب كتاب الطبيخ[6] ألوان الطعام الذي شاع في بلاد الأندلس والمغرب خلال عصر الموحدين، وذكر طريقة طهي كل لون، وألمح إلى أسماء البلاد أو المدن التي

---

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٤٠٢.
(٢) المقري: نفح الطيب، ص:٢١٠.
(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، ج١، ص:١٣٤-١٣٥.
(٤) المراكشي: المعجب، ص:٤٣٤، ٤٣٥.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) هو مؤلف أندلسي، لم يذكر اسمه ولا عنوان كتابه.. عاش في النصف الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، عثر على كتابه المستشرق الاسباني امبروثوهويثي مرانـدا، فحققه ونشره في مجلة مدريد للدراسات الاسلامية ضمن مجلدين، ٩، ١٠، لسنتي ١٩٦١-١٩٦٢، ص:١٨-٢٢٥.

تخصصت في لون من ألوان الطعام، وأضاف اسماء بعض الخلفاء والوزراء والولاة الذين ابدوا رغبتهم بنوع خاص من الطعام، فكان من أشهر هذه الأنواع بالاضافة إلى طريقة عمله:

١. نوع من الأحرش:

استعملة السيد أبو الحسن[1] وغيره بمراكش، وكانوا يسمونه اسفيريا، يؤخذ كمية من لحم الغنم الأحمر، ويطحن طحنا جيداً، ويفرك بالخل والزيت والثوم المطحون، والفلفل والزعفران، والكمون والكزبرة، والزنجبيل والقرنفل (ويعرك بالمري النقيع والسنبل)، ثم يؤخذ كمية من اللحم ودهنه المطحون، وقليل من البيض، ويعمل من كل هذه خلطة على شكل اقراص لا تتجاوز سعة كفه اليد، وتوضع في الزيت على نار هادئة حتى تحمر، ثم يصنع لها شراب من خل وزيت وثوم أو بدون ذلك.[2]

٢. لون المخلل:

يؤتى بمقدار من لحم البقر أو الغنم السمين، ويقطع قطعا صغيرة، ويغمر بالخل والزيت في وعاء كبير، دون ماء، مع الملح والفلفل والكزبرة اليابسة، والكمون والزعفران، وكمية من الثوم المقطع واللوز، ويوضع الجميع على نار هادئة، ويحرك حتى يغلي، وينضج وبعدها يضاف اليه صفار البيض والقرفه وغيره، ويصبغ بالزعفران، وهذا يسمى ببلاد المغرب طعام الأعراس، وقد اشتهرت به قرطبة واشبيلية.[3]

٣. صنعة البلاجة:

كانت تستعمل في بلاد ما بين قرطبة ومراكش، يؤخذ من لحم الغنم السمين دون عظم ولا عصب، وقطعا اخرى من شحمه، وامعائه وكبده، وقلبه وكرشه، ويصار الجميع

---

(١) هو أبو الحسن علي بن أبي حفص عمر بن عبدالمؤمن، كان من أجل اهل بيته قدرا وأطيبهم ذكرا، وأسفحهم يدا وأمنعهم سندا... كان مألفا للشعراء والادباء، ولاه الخليفة المنصور على مراكش خلال احدى سفراته عنها، ثم ولاه الخليفة الناصر تلمسان؛ ابن سعيد: الغصون اليانعة، ص:١٥٠-١٥١، تح، ابراهيم الابياري، نشر دار المعارف بمصر، ١٣٦٥/ ١٩٤٥؛ بينما يذكر المقري: النفح، ج٤، ص:١٠٧؛ انه كان- اي ابو الحسن- من أهل الأدب ولي بجابه مدة، ثم عزل عنها لاهماله وانهماكه في ملاذه، وقيل انه ولي بجايه وتلمسان، ويده في الجود لا تطاول، ونفسه عالية زكية.

(٢) كتاب الطبيخ، ص:٢٢.

(٣) كتاب الطبيخ: ص:٢٦.

إلى قطع صغيرة، ثم يضاف إلى الخليط الملح والبصل مقطعاً، والكزبرة اليابسة والزبيب، ويجعل في قدر على نار هادئة حتى ينضج، ثم ينزل عن النار ويصفى من المرق، ويقلى في مقلاه بالزيت حتى يحمر، ويضاف اليه قسم من مرقه، ويفقس عليه كثير من البيض، وينثر عليه الفلفل والكزبرة، واللوز المقشر والمكسر، وصباغ الزعفران، ويغمر بالزيت، وصفار البيض مرة أخرى، ويدخل في فرن، ويترك حتى يجف ماؤه، ويحمر وعندها يخرج.[1]

٤. الحوت المروج:

اشتهر بتناول هذا اللون من الطعام اهل بلاد غرب الاندلس، وأهل سبته على الخصوص، فكان يحضر من السمك، يقطع ويقشر، ويسلق في الماء والملح لوقت قصير، ويترك جانبا حتى يجف من الماء، ويؤتى بوعاء فيه كمية من الزيت، ويوضع على نار هادئة حتى يغلي، ثم يقطع السمك المسلوق، ويغمر في الزيت حتى يحمر، ويرفع عن النار، وينشل من الزيت في وعاء، ثم يؤتى بالفلفل والكمون والثوم والصعتر والقرفة، ويغمر الجميع بالزيت، ويرفع على نار هادئة حتى يغلي، ثم تؤخذ قطع السمك وتوضع في الخلطة وتقلب، وتبقى حتى لا يبقى إلا الزيت وحده، وينزل عن النار حتى يبرد[2].

٥. طعام المجبنة:

يؤخذ من جبن البقر والغنم بنسبة الربع إلى الثلاثة أرباع، ويمزج معا ويحرك حتى يتماسك ويختلط اختلاطا جيدا، ويضاف اليه الحليب عند الضرورة، وهذا الطعام اشتهرت به على الخصوص مدن، قرطبة واشبيلية، وشريش وغيرها من بلاد غرب الأندلس..[3]

٦. طعام الرفيس:

هي عجينة من السميد المخمر الصافي مع قليل من الملح، ويخلط بالزبدة والعسل المصفى، ويخبز في تنور بحيث يبقى خبزه مفتوح المسام منفوشا.[4]

---

(١) المصدر نفسه، ص:٤٩.

(٢) كتاب الطبيخ: ص:٢٦.

(٣) المصدر نفسه، ص:١٩٩.

(٤) كتاب الطبيخ، ص: ٢٠٤.

٧. عجل مشوي:

كان يصنع للسيد أبي العلاء اخي الخليفة أبي يعقوب يوسف حين كان واليا على سبتة.

يؤتى بكبش سمين مسلوخ منظف مفتوح بين فخذيه فتحاً ضيقاً، ويخرج ما في جوفه من احشائه، ثم يوضع في جوفه اوزة مشوية، وفي داخل الاوزة دجاجة مشوية، وفي احشاء الدجاجة فرخ حمام، وفي جوف الفرخ زرزور مشوي، وفي بطن الأخير عصفور مشوي، ويدهن الجميع بالسمن أو المرق الموصوفة للشواء، ويخاط ذاك الفتح، ويوضع الكبش في الفرن المحمي، ويترك حتى ينضج ويحمر، ثم يدخل في جوف عجل قد أعد مسلوخا منظفا، ويخاط عليه، ويصار في التنور المحمى، ويترك فيه حتى ينضج ويحمر، ثم يخرج ويقدم.(١)

٨. طعام الثومية:

كان يصنع عادة للسيد ابي الحسن فيستطيبه، هو عبارة عن دجاجة سمينة، يخرج ما في جوفها وينظف ويترك جانبا، ثم يؤخذ كمية محددة من الثوم المدقوق ويخلط ما أخرج من جوف الدجاجة بالزيت، ثم يوضع مع الدجاجة في وعاء مع الملح والفلفل والقرفة والزنجبيل والقرنفل، والزعفران، ومع قسم من اللوز المدقوق وغير المدقوق، ويغلق الوعاء بالعجين ويدخل الى الفرن حتى ينضج ثم يخرج ويقدم غذاء شهيا.(٢)

٩. مجبنة البيض:

يوضع البيض على العجين، ويحرك تحريكا جيدا حتى لا يكاد يظهر عليه علامات البيض، ثم يفقس عدد آخر من البيض ويحرك معا، ويضاف اليه التوابل من اليانسون وغيره، ثم يؤخذ ويحشى به العجين وتقلى على النار بالزيت. وهذه كانت من الاكل المفضلة لأبي سعيد بن جامع.(٣)

---

(١) المصدر نفسه، ص: ٣٢، ٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٤٦.

(٣) هو ابو سعيد عثمان بن عبدالله بن ابراهيم بن جامع سليل اسرة تولت منصب الوزارة كثيرا للخلفاء الموحدين.. كان أبو سعيد المذكور وزيرا للخليفة الناصر أبي عبدالله، ثم تولى الوزارة أيضاً للخليفة أبي يعقوب يوسف المستنصر؛
المراكشي: المعجب، ص:٤٤٣.
كتاب الطبيخ، ص: ٢٠٠.

١٠. الفيجاطة:

كانت تصنع في الأندلس، وهي من الجبن الطري، تدعك باليد، وتوضع في إناء عميق مجوف في قعره رغيف من الرقاق المصنوعة، كخبز الكنافة، وتغطى برقاق، ثم جبن، فرقاق، طبقة فوق طبقة، وهكذا حتى ثلاثة أرباع الاناء، ويصب عليه الزيت، ويوضع في الفرن، ثم يخرج ويسقى بالحليب، ويرد للفرن قليلا، ويخرج ويسكب عليه الحليب مرة اخرى، ويرد إلى الفرن حتى يحمر وجهه ويصير مسكيا (لزجا مطاطا)، ثم يخرج ويصب عليه كمية من العسل، أو من السكر، ويقدم للأكل.[١]

١١. صنعة تارفست:

وهي من أطعمة أهل فاس، تتكون من عجينة السميد، ويصنع منها رغيف رقيق، وتخبز في فرن معتدل الحرارة، ثم يؤتي بالعسل ويحل بمثله من الماء، ويمزج بالزعفران، ويخلط مع الخبز مفتتا، ويحرك جيدا حتى يصبح مثل المعجون، ويفرغ في اناء، وينثر عليه اللوز والسمن والسكر والقرنفل وغيره من البهارات، بعدها تكون جاهزة للأكل.[٢]

١٢. السنبوسك:

كان يصنع للأمير أبي يوسف المنصور بمراكش، ويتكون من السكر الأبيض، ويخلط بماء الورد، ثم يضاف اليه اللوز المعجون، ويوضع على نار هادئة ويحرك، ثم ينزل عن النار حتى يبرد، ويوضع عليه القرنفل والزنجبيل وشيء من المصطكي، واللوز مخلوط بماء الورد، ويحرك الجميع تحريكا جيداً، ويصنع منه قرص على شكل الكعك أو التفاح، ويقدم باسم سنبوسك الملوك.[٣]

بالاضافة إلى ذلك نذكر ايضاً طريقة اضافة الملح والفلفل إلى الطعام، فكان المغاربة يضعون الفلفل المسحوق على الطعام وقت الأكل، بينما كان اهل الاندلس عادة يضيفون الفلفل المسحوق على الطعام قبل الطهي، ثم يضعون عليه عند الأكل القرفة وغيرها في أطعمة خاصة عندهم.

أما عادة تقديم الطعام على السفرة، فأول ما يبدأ تقديم البقول والمقبلات، ومن بعدها الوان من الجملى والمثلث والمري، ثم المخلل والعسل، أما الأثرياء منهم اتبعوا

---

(١) كتاب الطبيخ، ص: ٢٠٢.

(٢) كتاب الطبيخ، ص:٢١٣.

(٣) المصدر نفسه، ص:٨٠-٨١.

طريقة أجمل وأكثر تأدباً، اذ يضعون على كل مائدة بين يدي الرجال الوان مفردة، لون بعد لون آخر مرتبة، وهي طريقة أهل الأندلس والمغرب ورؤساؤهم وخاصتهم وعامتهم.[1]

١٣. شراب الرُّب:

هو الطبيخ الخاثر من عصير العنب، وقد كان شربه معهوداً عند الموحدين المصامدة، ليبعث الحرارة في أجسامهم، فيتحملون شدة برد جبال درن وثلجه، نظم أبو عثمان بن الشيخ أبي جعفر بن ليون التجيبي أبياتاً شعرية تدل على كيفية عمل الرّب فقال:

الرب طبخ صفو ماء العنب — بعد قعود ثقلة المجتنب

للثلث في الطيب او للربع — في العنب الرديء والباقي رع

واطبخه مع ماء يزاد وتزال — رغوته مدة طبخه اتصال[2]

وقد انتشرت عادة شرب الرب في كافة أنحاء المغرب والأندلس، لكن الناس على ما يبدو قد أسرفوا في تخميره حتى أصبح مفعوله لا يختلف عن مفعول الخمر الحرام، وأصدر الخليفة عبدالمؤمن أمره برسالة إلى الطلبة والكافة والأعيان والأشياخ، بالاندلس، أمرهم فيها بالكشف عن مواضع صناعة الخمر، ومكافحة أماكن بيع الرّب وعصره سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٧م[3].

لكن الناس قد استمروا أو عادوا الى تناول شراب الرب المسكر الحرام، ففي سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦١ أصدر الخليفة عبدالمؤمن رسالة أخرى إلى ولاته أكثر تقريعا، واشد حزما، يأمرهم فيها بالنظر في الربوب وتمييزها والهجوم على بائعيها، ومدمني شربها ومستعمليها، فيراق سكرها ويقطع منكرها، وليعمد الى من عمل المسكر الحرام عامدا، وشربه مدمنا عليه ومعاهدا ولم تردعه الحدود، ولم تقيده القيود... فيمحى أثره ويحذف خبره، فالخمر أم الكبائر وجماع الأثم.. وهي رجس من أعمال الشيطان.[4]

---

(١) المصدر نفسه، ص:٥٨.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:١٧٤-١٧٥.

(٣) بروفنسال: رسائل موحدية، الرسالة الثانية عشرة، ص:٥٣.

(٤) المصدر نفسه، الرسالة الثالثة والعشرون، ص:١٣٣.

ولم يكن تناول شراب الرب المسكر مقصورا على الناس وعامتهم فحسب، بل اتهم الوزير عبدالسلام الكومي "وهو ابن زوجة والد عبد المؤمن بن علي"، أولاد الخليفة نفسه بتناوله، وأخبر عبدالمؤمن بذلك، "فتأثر الخليفة لقوله وبحث عليهم وبعث شيوخ الموحدين الثقاة اليهم، ودخلوا موضعهم ومجتمعهم عليهم دون اذن ولا مشورة فوجدوهم يأكلون طعاما وبين ايديهم مشروب مطبوخ من الرب الحلال الذي لا مرية فيه ولا ريبة، فرجعوا إلى أمير المؤمنين وشهدوا عنده بالحال، وزوروا عنده كلام كل مطالب وحيلة كل محتال، فتيقن أمير المؤمنين رضي الله عنه مطالبته لهم"[1].

وكان محمد ابن عبدالمؤمن ولياً للعهد، وقد ادمن على تناول الخمر، فلم تتم لذلك بيعته بالخلافة، وقيل إن أباه عزله عن ولاية العهد قبل موته[2].

وقد استمر الموحدون يتناولون شراب الرب غير المسكر ممزوجاً بالماء، وكانوا يقدمونه للضيوف والوافدين عليهم في المناسبات الخاصة والاحتفالات الرسمية، هذا وقد تحايل الناس في صنع شراب الرب فجعلوه مسكرا بطريقة أو بأخرى، لذلك رأى الخليفة يعقوب المنصور ان يفوت كل الفرص على الناس، فأمر بمنع صنع الرب بجميع أشكاله من كافة أنحاء المملكة، وتحريم تناوله، ثم أصدر مرسوماً سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤، يأمر فيه بإراقة المسكرات وقطع دابرها، وهدد بالموت لكل من يتعاطاها[3]. غير أن الرواية، تذكر أن الخليفة الناصر عاد إلى مراكش بعد هزيمة العقاب سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م، فدخل "قصره واحتجب فيه عن الناس وانغمس في لذاته مصطبحاً ومغتبقا"[4].

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ١٧٤-١٧٥.
(٢) المراكشي: المعجب، ٣٤٤، ابن عذاري: البيان، ق٣، ص:٥٥؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٢١٦-٢١٧.
(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:١٤٤.
(٤) ابن أبي ذرع: الأيس المطرب بروض القرطاس ص: ٢٤١.

تأثير الموحدين في الحياة الاجتماعية للاسبان

تمهيـد:

لقد لعبت الجاليات الأجنبية دورا بارزا في نقل العادات الاجتماعية أثناء خضوعها لأحد الطرفين، أو حين انتقالها إلى الطرف الآخر، وتتمثل في المعاهدين النصارى واليهود والمسلمين المدجنين، فالأوائل لم تنقطع هجرتهم إلى الممالك النصرانيـة ومـن المغـرب إلى الأندلس، اذ حدثت اكبر هجرة لهم خلال قيام الفونسو المحارب بغزوته الكبرى للأندلس سنة ٥١٩هـ/ ١١٤٥م، اذ كان يشجعهم على الانضمام لجيشه والهجرة معه، مع تذكيرهم بوعودهم اليه، أنه حضر من أجلهم، وبناء على دعوة تلقاها منهم، فرافقه اثناء عودته اثنا عشر الف مهاجر نصراني.[١]

لذلك أشار القاضي ابن رشد على أمير المسلمين بتغريب النصارى مـن الأندلس الى المغرب، عقابا لهم على نكثهم العهود (وهذا اخف اجراء يمكن ان يتخذ بحق من يخون بلاده)، للعمل فيها كجنود مرتزقة وحراس، وجباة ضرائب،[٢] واستمروا على هذا الحال إلى أن خير الموحدون أهل الذمة عامة بين مغادرة البلاد أو اعتناق الاسـلام، مما أدى الى هجرة أعداد كبيرة من اليهود والنصارى إلى الاندلس، ومـن ثـم إلى الممـالك النصرانيـة، فاستوطنوا ضواحي طليطلة، والمقاطعات الاسـبانية الأخـرى، حيـث سـكنها إلى جـانب هؤلاء عناصر مهمة من المسلمين المدجنين الذيـن فضلـوا البقـاء في ديـارهم الذاهبـة الى الهجرة منها، منذ سقوط المدينة الأخيرة وضواحيها الواسعة الارجاء.[٣]

وعلى سبيل المثال كان في بلنسية وحدها ثلاثمائة الف نصراني، ومثل عددهم من المسلمين، مما أثار غضب رجال الدين تزايد المساجد على الأخص، فأخذت البابوية تكن لهم البغض والحقد، وتنقم عليهم تمتعهم بالحرية الدينية واللغوية، اذ تعتبره مـن التحـدي

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص: ٦٩-٧٢.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص:٧٢-٧٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص:١٣٨؛
ابن خلكان: الوفيات، ج٥، ص:٢٨؛
لطفي عبدالبديع: الاسلام في اسبانية، ص:١٦٧؛
وإلى هؤلاء المهرة من المدجنين ترجع من غير شـك بعـض الآثـار النصرانيـة ذت الطـابع العربي، وبعد سقوط قرطبة في أيدي القشتاليين، لم تجد السـلطات الحاكمـة سـوى المدجنـين، تعـهد اليهم بالاعمال الفنية التي ورثوها عن الموحدين بخاصة.

المذموم، وتسعى جاهدة لدى الملوك لتحريضهم على اتباع سياسة الانتقـام والعنـف ازاء اولئك الرعايا المسلمين، حيث أمر البابا أنوسـان الرابـع سـنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م ملـوك اسبانية، وبخاصة خايمي الاول ملك اراجون، من وجوب استرقاق المسـلمين فضـلا عـن تنصيرهم في حـين عـارض الاخـيرون هـذه السياسـة العنيفـة لبواعـث وأسـباب قوميـة واقتصادية.[١]

ان هذا الاستقرار والتعايش والانفتاح الذي تمتع به المدجنون لم يستمر طويلا، فقد تغلبت رغبة رجال الدين، بعد فترة، على السياسة السلمية التي انتهجها ملوك النصـارى، وعانى المسلمون كثيرا من المتاعب في خدماتهم مع الأخيرين؛ إذ اصبحوا الطبقـة الأكـثر سحقا على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي، حيث انطفـأت وهـج الابتكـارات الـتي زينتها أيديهم، فانزووا عبيدا في فلاحة الارض، وخدمـا في بيـوت النبـلاء، والقساوسـة، وفي الأديرة والكنائس، وكان اسعدهم حظا اولئك الذين انضموا إلى الفرق العسكرية.[٢]

أما اليهود فكانوا أحسن حظا من المسلمين، رغم صدور قـرارات مجحفـة بحقـهم، فقد استخدمهم الملوك، كسفراء، وجامعي ضرائب، وأطباء ومستشارين.[٣]

*** في العادات الاجتماعية:**

نستطيع القول ان المدجنين احدثوا انقلابا في الحياة الاجتماعية الاسـبانية، شملـت عدة جوانب من جوانبه الكثيرة في الاطعمة، اذ انتقـل معـه الـذوق الاندلسـي، وتعـداد الأصناف، في آداب الموائد التي لا زالـت في كثـير مـن ملامحـها سـائدة هـذه الايـام، وفي مظاهر الاناقة والتنويع في الألبسة التي تزين بها نبلاء قشتالة وأعيانها، اذ مارسوا رياضـة المبارزة بالسيف واللعب بالعصا.[٤]

وأخذت المرأة الاسبانية تتزين بالحياء، وتسبل الستار على وجهها، ومارست عـادة الجلوس على الأرض، وقد ظلت الحياة الاجتماعية في اسبانية متأثرة تـأثرا كبـيرا بالحيـاة الاسلامية، فاستمرت الريفيات عـدة قـرون، سـواء اندلسـيات ام نصرانيـات يسـتعملن الحجاب، ولا يخرجن سافرات في الطرق العامة، وإنمـا تسـليتهن الكـبرى ان يطلـن مـن

---

(١) J.. O, Callaghan, Ahistory of, medievel, spain, p, 246-263;.

(٢) J.. O, Callaghan, Ahistory of, medievel, spain, p, 463.

(٣) المرجع نفسه، ص: 246, 265, 283, 284.

(٤) شاخت بوزورث: تراث الاسلام، ق١، ص:١٣٩–١٤٠، تـر، ونشـر المجلس الوطـن، الكويـت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٨م؛

نوافذ بيوتهن عبر الستائر يشاهدن الحياة في الخارج التي تختلف كل الاختلاف عن حياتهن المنزلية الرتيبة.[1]

وانتشرت عادة الاستحمام المفضلة لدى المسلمين في عدة مدن، مارسها الجميع، ملكاً كان أم فقيراً، مسيحيا كان أم عربيا، أم يهوديا، حتى الراهبات امتلكن حمامات خاصة بهن في طليطلة وغيرها، وبقيت هذه إلى قريب من القرن السادس عشر، يرتادها الرجال والنساء، والصبيان في مواعيد مختلفة، ثم أخذت تختفي تلك العادة من بين النصارى.[2]

إلى جانب هذه الممارسات التي وصلت إلى منزلة متفوقة، فقد انتشرت عبارات التحية، وآداب المجتمع الاسلامي، من عطف الكبير على الصغير، واحترام الابن للأب، وعادة تقبيل اليد، إلى عادات الترحيب والتمنيات الطيبة، وتعابير غاية في المجاملة والدعاء مثل "حرسك الله وحفظك"، إلى تفضيل اللباس المغربي، والنسائي منه على الخصوص، إذ كان يشاهد لدى أعلى الطبقات الاجتماعية، كل هذه الألوان تطرقت إلى المجتمعات النصرانية في اسبانية، ويظهر فيها أن تعريب هذه العادات قد عاش مدة طويلة، بعد غروب السيطرة الاسلامية، وزوالها، ولا علاقة لها باخلاقيات الاقطاع الاوروبي.[3]

وقد يظهر للنظرة الاولى أن اختلاف الديانتين كان يمكن أن يكوّن عقبة كؤودا امام تبادل التأثير بين الأمتين، ومع ذلك فلم تقم هذه العقبة على الساحة الاسبانية؛ إذ ان العمل الملاحظ كان ظاهرة عمل متبادل مستمر متغلغل إلى الاعماق، بيد أن وصفنا هذا التأثير بالتبادل قولا من التجاوز، لأن الجانب الأسلامي كان اكثر تفهما للحياة الثقافية، أي أن الاسلام هو الذي قدم ادوات الانتاج، وأن الجانب النصراني هو الذي تلقى الأثر الانفعالي فقط.

---

(١) توريس بالباس: الأبينة الاسلامية الاسبانية، تر، عليه ابراهيم العناني، مجلة مدريد للدراسات الاسلامية.
ص: ١٢٥-١٢٦، العدد الاول، ١٩٥٣ م / ١٣٧٣هـ.

(٢) المرجع نفسه، ص: ١١٦- ١١٧.

(٣) شاخت بوزروث: تراث الاسلام، ص: ١٣٩-١٤٠.
أحمد لطفي: الاسلام في اسبانية، ص:٩٢-٩٣.

* **التأثر بالتطوع الجهادي:**

ان تأثير الاسلام على الفرد الاسباني في جانبه الجماعي يتجلى في ظهور الفرق الدينية العسكرية التي لها ذكر طويل في السجلات التاريخيه لما يسمى بحرب الاسترداد، باعتبارها قوى عسكرية محاربة[1].

نشأت هذه العصابات العسكرية في أحضان الاديرة والكنائس، ويتبين انها كانت محاكاة لفرق الزوايا والاربطة في الاسلام، الذين يقيمون في الثغور، وعلى أطراف البلاد في المناطق الحدودية، وقد نذروا انفسهم للجهاد في سبيل الله، امتثالا لقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا، اصبروا وصابروا ورابطوا، واتقوا الله لعلكم تفلحون"[2]، وقال تعالى: "فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، ومن يقاتل في سبيل الله، فيقتل او يغلب فسوف نؤتيه اجر عظيما"[3].

لأنه لا يمكن ان يتصور المرء حسب التصورات الكنسية الصرفة، كون الشخص يجمع بين الرياضة الروحية، والتعلق بالطعان، فالكنيسة لم تكن تنظر بعين الرضا الى من ينقطع للعبادة والتبتل داخل الدير، ويحمل الانجيل في يد، والسيف في يده الأخرى، فظاهر أن هذه الفرق ارتوت من نظم الاسلام، وتشبعت بروحه الكفاحية[4].

كما أصبحت عندهم جزءاً من الحرب المقدسة التي تفضي الى الجنة، والسبيل الذي يقود الى المجد في الآخرة، وهذا لم يكن له وجود في المفاهيم المسيحية الاولى.

كان لهذه المفاهيم آثار ذات شأن خطير على مستقبل اسبانية، ففي موقعة العقاب الحاسمة، وكان الفونسو الثامن يمر بلحظات ضعف، وتردد، وهو يقاتل الموحدين، اذ لاحظه، الدون رودريجو مطران طليطلة، فكان يتقدم اليه، ويستحثه على مواصلة القتال مشجعا "يا سيدي ان كان مصيرنا الموت فمآلنا معكم إلى الجنة"[5].

وكان يقال "الشهادة تمحو السيئات".

---

(1) Prestage. E. Chivarly, P, 124.

(2) آل عمران، ٣/ الآية ٢٠٠.

(3) النساء، ٤/ الآية ٧٣.

(4) احمد لطفي: الاسلام في اسبانة، ص:١٠١-١٠٤.

(5) احمد لطفي : لاسلام في اسبانة، ص:١٠٥-١٠٦.

ان مثل هذه النصوص وأمثالها، صدى لفكرة الجهاد في الاسلام الـتي تحـض علـى القتال، وتبين منزلة الشهداء في الجنة، وأنها قد أعطت مفهوم الحرب عند النصارى معنى جديدا لم يعرفوه من قبل.

* **استخدام الاسرى:**

كانت الروايات عادة تبالغ في تعداد الأسرى بما فيهم النساء والصبيان من الطرفين المتخاصمين؛ النصارى والمسلمين، ويجرونـهم كـلاً إلى بـلاده، لاستعمالهم كخـدم في البيوت، وعمال بناء، وفي المزارع.[1]

كان بعض أهل الذمة، سواء كانوا نصارى أم غيرهم، قد عاشوا أحـرارا في مدينة مراكش، لذلك رأينا، عندما حصـل قحط والحباس المطـر في عـهد المنصـور الموحـدي، طوائف المدينة كلها خرجت للاستقساء والدعاء، ومنها اليهود والنصاري.[2]

ثم جرت عمليات تبادل الأسرى بين الطرفين، بالمال حينا والمنّ احيانا، كما حصل لعدد ضخم من أسرى موقعة الأراك، اذ سرحهم المنصور دون مقابل، وأثبتت الأيـام ان تلك الفعلة كانت سقطة من سقطات الملوك التي ندم عليها بعد فوات الأوان.[3]

كما لم يتحرج الخلفاء الموحدون من اتخاذ بعض النصـارى، حراسـا لهـم وحجابا، وبالاخص في أوج عظمة الدولة، فاتخذ ابـو يعقـوب كـافور الخصـي، وريحـان، ومبشـر، وعنبر، حجابا له واحدا تلو الآخر، أما أبو السرور كان يعمل في خدمة الناصر.[4]

كما استخدم الموحدون كثيراً من المرتزقـة النصـارى جنـوداً لهـم وقـادة، كالقـائد بلاسكودي الأراجواني، والباربيريث القشتالي، والقائد شـانجة، ثـم جـبرالدو سيمبافور البرتغالي، ولم يكن يعنيهم من الولاء للدولة سـوى مـا تحققـه مـن مكاسـب دنيويـه لهـم ولرفاقهم في السلاح، دون التوقف عند هوية هذا أو انتماء ذاك، وقد عاد الأراجواني إلى بلاده يحمل إلى مليكه نقاط ضعف بلنسية، ويستعجله على احتلالها.[5]

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:١٦٧.

(٢) حسن علي: الحياة الادارية في المغرب الأقصى، ص:٤٢٠.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٢٨-٢٣٠؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامة، ص:٣٩٣-٣٩٤.

(٤) المراكشي: المعجب، ص: ٣٤١، ٣٤٣، ٣٤٨، ٣٥٦، ٣٦١، ٣٨٠.

(٥) N. Barbour: Marocco, P, 80.

وكان افضلهم صدق نية، وإخلاصاً في العمل أبو الحسن علي (ابن الربرتـير) مـن كبار قادة الموحدين في البر والبحر، اذ قتل سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م في مواجهـه ابـن غانيـة قرب قفصة الافريقية، وأحمد الصقلي، التي آلت اليه قيـادة الاسـاطيل البحريـة بأكملـها، فأحسن جهاد النصارى والنكاية بهم.[١]

ولم يقتصر هذا على القـادة منـهم، فـاتيحت حريـة التحـرك لجنـود مرتزقـة، مـن اخوانهم رافقوهم، أو لحقوا بهم، كان لهم شرف الخدمـة إلى جـانب الاصنـاف الأخـرى التي منها تكون جيش الموحدين؛ كالعرب والغز، والأندلسيين، وقبائل المرابطين وغيرهـم. للاستعانة بهم فقط على العناصر المتمردة على السـلطة مـن العـرب والـبربر.[٢] لذلـك منعهم الموحدون من مرافقة المجاهدين من الأصناف السـابقة الى أرض النصـارى، حـذرا من مما لأتهم على المسلمين.[٣]

ثم استخدمهم ضعـاف الخلفـاء. كالظـافر، ثـم المأمون، والرشـيد، ومـن بعدهـم السعيد، ثم الخليفة المرتضى، في الأزمات الموقوتة، التي عجزوا عن استيعابها.[٤] ولم تكن خدمات هؤلاء كرما وبلا مقابل بل بشروط كانت قاسية، كنت قد المعت اليها سابقاً.

وترتب على كل ذلك، أن تدخل بـابوات رومـا، ولأول مـرة، في شـؤون المغـرب الداخلية، وهو الهدف الذي جاهدوا من أجله طوال السـنين الماضيـة ليصلـوا اليـه؛ مـن تعيين اساقفة، ورجال دين، وعقد محاكم خاصة بهم، بحجة المحافظة على مصالح الجاليات الأجنبية فيها، وهذه من النذر التي بشرت بالاستعمار الحديث.

* الزواج من الاسبانيات:

على وهج هذا الجو، ظهر الخلفاد الموحدون في أفقهم الواسع ينزعون الى التمازج، والتكيف مع المعطيات المستجدة في مجمتع التماس مـع النصـارى. فلـم يجـدوا حرجـا في الزواج من نصرانيات، مواءمة مع روحية العصر. لقد اتخذ الخليفـة ابـو يعقـوب احـدى السبايا "ساحر" زوجة، أنجبت له الخليفة من بعده، المنصور، المع أمراء الموحدين، وأكـثرهم توفيقا، وهو الذي بنى بمخطيته "سر الحسن زهر" احـدى سبايا شنترين، إذ كـان الخليفـة

(١) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ١٦٦، ج١، ص:٣٢٨

(٢) المراكشي: المعجب، ص: ٤٨٣.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج١، ص:١٧٧.

(٤) المصدر نفسه، ج٦، ص:٣٣٩، ٣٤١، ٣٤٣، ٣٤٦، ٣٥٠.

الناصر من أنجب أبنائها، الذي هام الأخير "بقمر" الجارية السبية الحكيمة، وكان من عقبها ابنه وولي عهده المنتصر الذي يمثل عهده بداية شيخوخة الدولة.(١)

ثم اقترن الخليفة المأمون بنساء من سبي النصارى، فولدن له عدداً من الأبناء، فكانت جاريته "حباب" الأثيرة عنده، وأم الخليفة الرشيد، احدى دهاة النساء رجاحة عقل وادارة، أما الواثق ادريس، ذو البشرة البيضاء واللحية الشقراء، والعيون الزرقاء، فهو ابن امة "شمس الضحى" وآخر الأمراء الموحدين الذي كان على يديه زوال الدولة.(٢)

ومن سمات هذا العصر، اعتناق بعض النصارى الدين الاسلامي؛ وهذا أحد أبرز أمراء قشتالة، وهو قريب الملك الفونسو ويدعى بيدرو فرنانديزي كاسترو، كان قد لجأ على رأس وفد إلى الموحدين بمراكش، وأعلن اسلامه باسم "أبي زكريا يحيى بن فرناك"، واستوطن فاس(٣)، وهناك وصف شيق للاحتفال الذي يصفه الصديق بن العربي، لكل من يعتنق الاسلام، حيث يخترق شوارع مراكش في كوكبه على صهوة جواده، يرافقه موكب يختلط فيه الرجال والأطفال، تحت قرع الطبول وعزف الموسيقى، وزغاريد النساء.(٤)

تطور العمارة:

تمتعت الأندلس في عصر الموحدين بمستوى رفيع من القوة العسكرية والسياسية، والعمرانية والعلمية، فضلا عن الفنية، رغم أنها أضحت ولاية تابعة، لكن الفن الأندلسي وجد طريقه ممهدة للمغرب لذلك يعتبر عصر الموحدين من أخصب عصور الفن الأندلسي بالمغرب الاسلامي، فبنو عبدالمؤمن والموحدون بعامة لم تكن لديهم تقاليد فنية على درجة عالية من التقدم في بداية الامر لتعمل على تطوير الفن الأندلسي، أو

---

(١) المراكشي: المعجب، ص:٣٧٨، ٤٣٨، ٤٥٩؛
الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:٢٢٦؛
ابن أبي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢١٦.

(٢) ابن أبي زع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٥٤، ٢٥٠؛
الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:٢٤١.

(٣) الصديق ابن العربي: طوائف وشخصيات مسيحية بالمغرب، مجلة نطوان المغربية، العدد الاول، ١٩٥٦، ص:١٥٤، ١٥٥؛
أشباخ: تاريخ الاندلس،ج٢، ص:٨٧؛ ويذكر اشباخ اسلامه بطرقة ملتوية، إلى التلميح أقرب منها إلى التصريح، كعادته عند ذكر أي شيء ويهز العقيدة المسيحية.

(٤) الصديق بن العربي: طوائف وشخصيات مسيحية بالمغرب، ص:١٥٨.

احتلال مكانه، وإن ما يسمى تجاوزاً بالفن الموحدي، إنما هو في الحقيقة فن أندلسي مغربي متطور، مرتبط بمنهجية الموحدين التقشفية[1].

لذلك نرى، أن الفن الأندلسي الذي أخذ الموحدون به أنفسهم في محاربة كل ما في الحياة من مظاهر البذخ والترف، ليكون بذلك منسجماً مع دعوتهم الأصولية، فتخلى الفن عن الزخارف الجميلة، والنقوش البديعة، والتزم بدلا منها، أنماطا من النظام والبساطة، واصبحت زخارفه تتحلى في أشكال رئيسة حاسمة لخطوط، بينة المعالم فوق أرضيات قيمة، عاطلة من الزينة.[2]

فيتبين أن الحضارة المغربية اتخذت من الحضارة الاندلسية قاعدة لها وأرضية تستند عليها متأثرة معها، تنطلق بها في دروب التقدم والسمو وذلك عند استيلاء الموحدين على بلاد الاندلس وانتقال الكثير من اهلها الى المغرب طوعاً او كرها.

وهذا ما أشار اليه ابن خلدون في عبره : "فكان فيها -أي المغرب- حظ صالح من الحضارة... ومعظمها من أهل الأندلس... عندما انتقل الكثير من أهلها اليهم.. فأبقوا فيها وبأمصارها من الحضارة آثاراً".[3]

وعند بدء الجامع الكبير في اشبيلية، استنفر شيخ المهندسين، اي شيخ العرفاء، احمد ابن باسه الاندلسي، اصحابه المهندسين المعماريين من اهل اشبيلية، وجميع مهندسي اهل الاندلس، ومعهم المهندسون المعماريون من اهل مراكش ومدينة فاس، واهل العدوة، فاجتمع باشبيلية من المهندسين ومختلف النجارين والعمال الفنيين من العدوتين، وكان المهندس المخطط ابن باسه المذكور والمهندس المنفذ ابو داود يلول ابن جلداسن المغربي. وبنيت لاخيرالده على التصميم نفسه التي بنيت فيها صومعة حسان في الرباط، والكتبية بمدينة مراكش. فيتبين ان الفن الاندلسي رغم تقدمه كان لا يستغني بحال عن الفنانين والخبراء من اهل العدوة، فقد اسهم هؤلاء بنصيبهم في الفنون المعمارية في الاندلس، ولا تصح الفكرة ان الاندلس هي وحدها كانت تمد الغير رغم تقدمها، والا فكيف نفسر استنفار خبراء وعمال مدينتي مراكش وفاس وأهل عدوة المغرب، فضلاً عن اشراف يلول ابن جلداسن على الاعمال الفنية وتنفيذها.[4]

---

(١) ليوبولدتوريس بالباس: الفن المرابطي والموحدي ، ص ١٣-١٤، تر، سيد غازي، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، ص:٣١، ١٤.

(٢) عبدالعزيز بن عبدالله: تطور الفن الموحدي، ص:٧٤، الدار البيضاء، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج١، ص:٢٣٤.

(٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ٤٧٤، ٤٧٦، ٤٨٢.

لذا نرى، أن الموحدين أصبحوا أصحاب مدرسة فنية في العمارة، اذ ترك فنهم أثرا واضحا على الفن الأندلسي، من حيث الضخامة والاتساع، مع مراعاة الزخرف الحريص على الترتيب والوضوح، وتعتمد هذه الزخرفة على الكتابة الكوفية، والأشكال الهندسية، كالأقواس والرسوم التي تحاكي الأزهار والنخيل والأصداف، ويتسم المجموع بطابع الانسجام والضخامة، وهو انعكاس لازدهار الدولة وعظمتها وثروتها، ثم بدا في التدني والانحطاط منذ القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.[1]

وبنى الموحدون كثيرا من المنشآت؛ فالخليفة الأول أقام عدة مساجد، كان أولها مسجد مدينة تازة، في الجهة الشمالية الشرقية من المغرب، ثم جامع الكتبيين الأول في مراكش، فضلا عن مسجد تينمل تخليدا لذكرى المهدي، اذ كان عبدالمؤمن قد ارتحل الى مدينة تينمل بقصد زيارة قبر ابن تومرت، فزار وفرق في أهلها أموالا عظيمة، وأمر ببناء مسجدها وتوسعتها[2]، وقد اجتمع في هذه المساجد الفن الأندلسي المغربي.

ثم بنى عبدالمؤمن مسجد الكتبيين الثاني سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م، فيه من احكام البناء وغريب الصنعة، وتجهيزه ما يجل عن الوصف، من شمسيات الزجاج، ودرجات المنبر، وسياج المقصورة، مالو عمل في سنين عديدة لاستغرب تمامه.[3]

وأدرك عبدالمؤمن قيمة جبل طارق كموقع حربي هام، لمراقبة بلاد النصارى برا وبحرا، فقرر انشاء مدينة عسكرية على الجبل (كبرى ياكل؟) وهي واحدة من المعاقل الحصينة الفريدة في نوعها في ذلك الوقت، وابتنى فيها قصره، وأحاطه بقصور السادة أبنائه وألحق به ديارا ومنازل اقطعها الى اعيان البلاد ووجهائها، بالاضافة الى الجامع الذي تقام فيه الصلاة، وقد احيطت جميع هذه المباني بسور يدخل إليها الداخل من باب واحد، هو باب الفتوح، وقام على تخطيط هذه المدينة، والاشراف على تنفيذ بنائها، نفر من الاساتذة المهندسين اللامعين، ومئات من العمال والفعلة والفنيين، والبنائين وكان على رأسهم المهندسان أحمد ابن باسة والحاج يعيش المالقي، ولهذا الأخير الفضل في صنع

---

(١) أندريه جوليان: تاريخ افريقية الشمالية، ج٢، ص:١٦٧؛ الناضوري ورفقاه: المغرب الكبير، ص:٨٣٢.

(٢) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:١٢٢؛
أندريه جوليان: تاريخ افريقية الشمالية، ج٢، ص:١٦٥.

(٣) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:١٢٨؛
المقري: نفح الطيب، ج٢، ص:١٤٦.

الرحى التي تطحن الأقوات بواسطة الريح في أعلى جبل طارق، ولعلها أقدم رحى وجدت في التاريخ[١].

وفي كل هذه المباني التي اقيمت، كانت اليد الطولى فيها، للحاج يعيش، وهو من ألمع وأشهر المهندسين الذين تألق نجمهم على عهد الموحدين، إذ كانوا يلجأون اليه في كل المشاريع الهامة، وهو الذي صنع مقصورة المسجد الجامع في مراكش، بأمر من الخليفة الأول، فحير وصفها سائر المهتمين بالآثار الموحدية، وخاصة منهم الذين يعنون بالنهضة التقنية على ذلك العهد، "لقد وضعت حركات هندسية ترفع بها عند خروج الخليفة، وتخفض لدخوله"[٢]، وهو نفسه الذي قام سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م بعملية تسريب المياه لسقي البحيرة الملكية في اشبيلية التي شيدها ابو يعقوب يوسف، وتوصيله الماء إلى داخل المدينة من قلعة جابر[٣] Alcala de Guadaira كما قام ببناء خزان للماء في داخلها؛ منه كان الماء يتوزع على مختلف أحيائها[٤].

ثم أمر الخليفة أبو يعقوب البنائين ببناء قصور البحيرة خارج باب جهور[٥] من اشبيلية، اذ كان يختلف اليها في وقت راحته وتنزهه، ولقد أشرف على بنائها المهندس المعماري أحمد بن باسه، عمدة الموحدين في مشاريعهم العمرانية، سواء في جبل طارق أم في قرطبة أم قصور البحيرة، وهذه التسمية "باسه" ما تزال بعض الأسر تحمله بمدينة فاس، وهي مشهورة بخبرتها في البناء.[٦]

---

(١) وقيل إن أقدم رحى تحدث في هنغاريا ترجع للقرن الثامن الميلادي، وإذا صح هذا فإذن تكون أقدم رحى تعمل على الريح توجد في الأندلس. ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:١٣٧-١٤٢؛ هامش ٢؛ ١٤٣.

(٢) مجهول: الحلل الموشية، ص:١٤٥.

(٣) قلعة جابر: تقع إلى الجنوب من اشبيلية على مقربة من قرمونة؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٤٦٩، ويذكر ابن سعيد، أنها تقع قرب اشبيلية، وكثيرا ما يتفرج فيها، الأعيان لحسنها مع كثرة المروج والمياه والطير؛
ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج١، ص:٢٩١؛
ابن أبي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢١١.

(٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٤٦٨، ٤٦٩.

(٥) يرد اسم هذا الباب عند ابن صاحب الصلاة في كتابه المن بالامامة، سيما عند ذكره القصور الموحدية، ثم ذكر المؤرخ المسيحي Ortiz De zuniga في كتاب "الحوليات الكنسية لمدينة اشبيلية" كان موجودا في حي اليهود باشبيلية، ومن المحتمل ان يكون هذا الاسم تحريفا لباب جهور؛
نقلا عن ابنه صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٢٣٥.

(٦) المصدر نفسه، ص:٤٦٨-٤٦٩؛ وقد عفى الزمن على قصور البحيرة هذه؛ المصدر نفسه، ص:٤٦٥، هامش ٤.

وشرع أبو يعقوب في سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، في بناء الجامع باشبيلية حتى كمل عام ٥٧١هـ/ ١١٧٥م، وابتنى قصبتها الداخلية والخارجية وعمل على تدعيم سورها، وتقوية قلاعها، إذ أمر بترميم قلعة رباح لرد عادية الاعداء، وأقام رصيفين بضفتي وادي اشبيلية[١]، وابتنى داراً لصناعة السفن[٢]

ولما قضى عبد المؤمن على ثورة برغواطة، سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م شيد قصبة على الضفة اليسرى لوادي ابي الرقراق، وهي المعروفة اليوم بقصبة الاودايا[٣]، وإلى جانبها اختط ابو يعقوب يوسف مدينة الرباط، ورسم حدودها، وابتدأ في بنائها، لكن المنية عاجلته، وعاقه الموت عن اتمامها[٤]، فشرع أبو يوسف يعقوب في بناء هذه المدينة، ذات الموقع العسكري الممتاز الذي يسهل تحصينه والدفاع عنه، فهي تشرف على المحيط الاطلسي، على مدخل وادي ابي الرقاق، من أعلى ضفة شديدة الانحدار، يحيط بها جدار عال طوله خمسة كيلومترات. كانت رباطا للمتعبدين والمجاهدين في آن واحد، وقاعدة لانطلاقهم نحو الاندلس، لذلك سميت برباط الفتح، وقد زينها الأمراء بالقصور والمتنزهات، إذ كان المنصور ينوي اتخاذها عاصمة لبلاده، لكنه عدل عن ذلك مترددا.[٥]

أما آثارها المتبقية من عهد الموحدين؛ السور المحيط بها، وباب الاودايا المار الذكر، وباب الرواح، وجامع حسان، وهو أعظم جامع بالمغرب الاسلامي، إلا أن بناءه لم يتم[٦].

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢١١؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ١٠٣.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤٨١.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص:١٩٠-١٩١؛
قام البناء عام ٥٤٥ هـ/ ١١٥٠م؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٤٤٧، ٤٤٨.
قصبة الاودايا: هي قصبة الاودية، نسبة إلى قبيلة 'اودي' التي هي فخذ من قبيلة معقل العربية التي سكنت في ذلك المكان، وكانت تسمى قبلا المهدية، نسبة إلى المهدي ابن تومرت، وحرفها العامة الى اودايا؛ ابن عذاري: البيان،ق٣، ص:١٨٨،
مجهول: الاستبصار في عجائب الامصار، ص:٢٨، نشر، سعد زغلول، ١٩٥٨.

(٤) المراكشي: المعجب، ص:٥٠٦.

(٥) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٣٠.
نهر أبي الرقراق، يقع بين سلا والرباط؛ ويسميه المراشكي: المعجب، ص:٥٠٦، وادي الرمان.

(٦) لم يتم بناء هذا المسجد، بسبب موت الخليفة أبي يعقوب، فتوقف البناء ولم يتمه خلفه المنصور؛ المراكشي: المعجب، ص:٣٨٤.

وندم المنصور على بنائها وقال: "ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي، الا على ثلاث، وددت اني لم أفعلها:

اولها: ادخال العرب من افريقية الى المغرب، لأني أعلم أنهم أصل فساده.

والثانية: بنائي رباط الفتح، أنفقت فيه من بيت المال وهو صعيد لا يعمر.

والثالثة: اطلاقي أساري الأرك، ولا بد لهم أن يطلبوا بثأرهم" إذ كان المنصور قد أخذ اربعة وعشرين الف فارس من زعماء النصارى أسرى من حصن الأراك سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٥م[(١)].

لم تصدق نبوءة الامير يعقوب الا في واحدة، اطلاقه نصارى الأرك؛ اذ حرضوا ملوكهم على مواصلة حرب المسلمين، ومن نتيجة ذلك وقيعة العقاب الحاسمة سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١١م، وقد خسر فيها المسلمون خسارة لا تعوض.[(٢)]

أما الرباط[(٣)] فقد عمرت وما زالت عامرة إلى هذا اليوم، وأما ادخال العرب من افريقية، كان له فائدة تعريب المغرب، وهي فائدة عظيمة جداً لا تزال آثارها عميقة الجذور، ولم يكن التعريب قبلهم قد ترسخ وتجذر، كما كان لهم مواقف حاسمة في معركة الأرك المذكورة[(٤)].

يلاحظ أن بني عبدالمؤمن، ابتداء من الخليفة الأول، بدأوا يتحللون من القيود التومرتيه، ويتأثرون إلى حد ما بمظاهر الفن الأندلسي، وهو أول علامة على طريق تطور الفن الموحدي، حيث أخذ يظهر واضحا في جامع القصبة بمراكش، وجامع رباط الفتح، وجامع حسان، وقد تميز الأخير بأنه المسجد الوحيد الذي اشتمل على أعمده رخامية اسطوانية.[(٥)]

---

(١) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب، ص:٢٢٨-٢٣٠.

(٢) المراكشي: المعجب، ص:٤٥٦-٤٥٨؛ مجهول: الحلل، ص:١٦١؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٣٩-٢٤٠؛
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٣٥، ٣٣٦.

(٣) لقد قيل أن الموحدين بنو مدينة الرباط، بناء على أوامر من ابن تومرت، اذ "قال لهم: تبنون مدينة عظيمة على ساحل هذا البحر، أي المحيط الأطلسي يعني البحر الأعظم، ثم يضطرب عليكم الأمر وتنتقض عليكم البلاد، حتى ما يبقى بأيديكم الا هذه المدينة، ثم يفتح الله عليكم ويجمع كلمتكم، ويعود أمركم كما كان"؛
المراكشي: المعجب، ص:٥٠٦-٥٠٧.

(٤) ابن أبي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٢٣-٢٣١.

(٥) ليو بولد بالباس: الفن المرابطي الموحدي، ص:٢٢؛ المراكشي: المعجب، ص:٣٨٤.
وقد قمت بنفسي بزيارة سور الرباط، ودرت حوله، وإلى مكان مسجد حسان، واطلعت على ساحة كبيرة مكشوفة مبلطة بالرخام، وأعمدة مقامة، وواقفة دون سقوف، وصومعة لم يتم بناؤها، وذلك في السنوات، ١٩٧٥، ١٩٧٤، ١٩٧٧، ١٩٧٨.

هكذا قد تفنن الخلفاء الموحدون بالبناء، (كما ولعوا بشؤون الفكر والثقافة)، فشيدوا بنايات عديدة، ذات فائدة اقتصادية أو عمرانية، عسكرية أو دينية، ولا تزال بعض هذه الآثار قائمة إلى الآن بالرباط، ومراكش، واشبيلية على الخصوص، ولقد سبق أن تعرفنا على مآثر الموحدين بهذه المدن، ولا تزال الأخيره تضاهي بمسجدها ومنارها المعروف بالخيرالدة[١].

وقد استعمل الموحدون في أبنيتهم مواد مختلفة، كالحجر المنحوت في صومعة حسان، والآجر في اللاخيرالدة، والطوب المشوي في سور الرباط.[٢]

لقد حقق تصميم البناء تقدما ملحوظا يتجلى بالخصوص في أبواب المدن، وفي المساجد؛ فباب الرواح بالرباط مثلا، يحيط بها برجان شاهقان كالعادة، لكن ممرها متعرج[٣]. وربما كانت الغاية من تعريجه، عرقلة وثوب خيالة العدو المهاجمين.

أما الصوامع فقد أقامها الموحدون على غرار مئذنة جامع قرطبة الأموي التي شيدت زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٤٠هـ/ ٩٥١م، اذ كانت نموذجاً اهتدى به الموحدون، فنسجوا على مثيلتها في جامع الكتبيين بمراكش، والاخيرالدة باشبيلية، وصومعة حسان بالرباط، وهذه المآذن الموحدية الثلاث الباقية، تعد بحق من أروع ابتكارات الفن الاسلامي[٤]، غير أن منارة الكتبية تفوق حجما وضخامة صومعة قرطبة.[٥].

---

(١) أمر ببناء هذه الصومعة الخليفة ابو يعقوب يوسف، أثناء توجهه إلى مدينة شنترين غازيا سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م، وهي السنة التي توفي فيها، فتعطل العمل بها، ولما تولى يعقوب المنصور الخلافة، أمر باتمام البناء سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨١م، تحت اشراف نائب ابن باسة المهندس (العريف) علي الغماري، ولم نعثرعلى ترجمة لهذا المهندس، ولو أننا عثرنا على ترجمة وافية لحياة الغماري، لكان في امكاننا ان نحكم بصفة شبه قاطعة على باني صومعة حسان؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٤٧٦، ٤٨٢.

(٢) المصدر نفسه والصفحات نفسها؛
ابتدأ البناء في الصومعة بالحجر الصلب، واكملت بالآجر

(٣) محمد زنيبر: تاريخ العصور الوسطى، ص:٢٤٠.

(٤) بالباس: الفن المرابطي والموحدي، ص:٢٤؛ المقري: نفح الطيب، ج١، ص:١٩٦؛ ابن ابي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٢٩.

(٥) ما نيول جوميث: الفن الاسلامي في اسبانية، ص:٣٥٢، تر، أحمد لطفي عبدالبديع، وسيد محمد عبد العزيز سالم، مراجعة جمال محمد محرز، الدار العربية للترجمة والنشر، لا.ت؛ السلاوي الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:١٩٥-١٩٦.

ومن غير شك أن المئذنة الوحيدة، التي تجلى فيها الفن الموحدي في أبـهى صوره، كانت مرصد اشبيلية، إذ أمر الخليفة يعقوب المنصور باتمام ما بدأه والده وعمل "التفـافيح من أملح ما يكون، ومن أعظمه، لا أعرف لها قدرا، إلا أن الوسطى منها لم تدخـل علـى باب المؤذن، حتى قلع الرخام من اسفله، وزنة العمود الذي ركبت عليه أربعون ربعا من حديد، وكان الذي صنعها ورفعها في أعلى المنار المعلم أبو الليث الصفار.."، كما قام هذا المهندس بطلاء هذه التفافيح بمبلغ مائة الف دينار ذهبا، وسربلها بهاء يرد الأعين كليلـة، وبالغ في رفع منارها، وثابر على تزيينها.[1]

ولقد شغف الخلفاء الموحدون بتشييد القصور الخلافية، في المغـرب والأندلـس؛ اذ أمر يعقوب المنصور أن يبنى له حصن على نهر اشبيلية، وأن تنشـأ لـه في ذلـك الحصـن قصور وقباب، وكان ولوعا بالبناء "وفي طول ايامـه لم يخـل مـن قصـر يستجده أو مدينـة يعمرها".[2]

يظهر أنه لم يبق أثر لكثـير مـن المنشـآت الـتي بنيـت في منتصـف القـرن السـادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي.

وتـأثر الموحـدون في أبنيتـهم الـتي شـادوها؛ بمظـاهر الـترف والبـذخ الاندلسـي، فجملوها بالحدائق المغروسة حواليها، وزينوها بالـبرك في داخلـها، وأكـثروا مـن تحليتـها بالزخارف البديعة، والنقوش الجميلة[3].

---

(١) ابن أبي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٢٩؛
السلاوي: الاستقصاء، ج٢، ص:١٩٥؛ يذكر أن المهندس الذي قـام بصنـع هـذه القطـع الذهبيـة النادرة، وبطلائها، هو المهندس ابو الليث الصقلـي، ويظـهر أن المـهندس هـو نفسـه الـذي يحمـل اللقبين، ويذكر ابن صاحب الصلاة؛ أن أمر الخليفـة صـدر اثنـاء اقامتـه باشبيلية "بعمـل التفـافيح العربية الصنعة، العظيمة الرفعة، الكبيرة، الجرم، المذهبة الرسم، الرفيعة الاسم والجسم، فرفعت في منارها بمحضره، وحضر المهندسون في أعلاها على رأيه وبلوغ وطره مركبـة في عمـود عظيـم مـن الحديد مرسى اصله في بنيان اعلى صومعة الصومعة اعلاها-هكذا وردت- ربما يعـني ان العمـود ركب من أسفل الصومعة إلى أعلاها ليحمل هذه التفافيح "وزنة العمـود مائـة وأربعـون ربعـا مـن حديد"، وهذا خلاف ما أورد ابن ابي ذرع، وكان عدد التفافيح التي رفعت أربع، احداهن صغرى، وطليت جميعها باللذهب الذي يبلغ تسعة وعشرون كيلو غراما ونصف تقريبا، ورفعت بآلة، هكـذا يقول: ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٤٨١-٤٨٤، هامش ١.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٤٨٤-٤٨٦.

(٣) المراكشي: المعجب، ص:٤١١-٤١٤-٤١٨؛ المقري: نفح الطيب، ج٤، ص:٢٢٧؛ الحلل الموشـية: ص:١٤٤-١٤٥؛ النـاصري: الاسـتقصاء، ج٢، ص:١٢٨؛ النـاصري: الاسـتقصاء، ج٢، ص:١٩٦-١٩٧؛ المقري: النفح، ج٤، ص:٢٧؛=

=الضبي: بغية الملتمس، ص:٥٠٨؛ مجهول: الحلل، ص:١٤٥؛ المقري: النفح، ج٤، ص:٢٢٦، ٢٢٧.

ومن أوضح الأمثلة على هذا المستشفى الفخم الذي بناه الخليفة يعقوب المنصور في مدينة مراكش، لايواء المرض وعلاجهم، اذ بنى بها بيمارستانا فريدا من نوعه، لما يحويه من ساحة فسيحة، في أفضل موضع في البلد، وأمر البنائين باتقانه وهندسته على أحسن الوجوه؛ فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة، ما زاد على الوصف، حيث غرس فيه من جميع أنواع الاشجار، وجرت اليه مياه كثيرة، واستحدثت اربع برك في وسطه.

لذا كان من المستشفيات النادرة، يستقبل كل المرضى بدون النظر الى مستواهم الاجتماعي، سيان كانوا اغنياء أم فقراء، وقد بني في الأصل للفقراء فقط، لكنه لم يقصره عليهم دون الاغنياء، قام هذا المستشفى بالمعالجة المجانية (على حساب الدولة)، لكل مريض وطئت قدماه أرض مراكش، إلى أن يتماثل للشفاء.

ويتبين أن المنصور أول ملك احدث زيارة المرضى في المستشفيات، في كل جمعة، بعد صلاته، يركب ويدخله -أي المستشفى-، يعود المرض، ويسألهم فردا فردا، مستوضحا عن أحوالهم، "ويقول كيف حالكم..."، ويحاول أن يطلع بنفسه على معاملة الاطباء والممرضين، وموظفي المستشفيات، للمرضى، من نزلاء المستشفى انفسهم، ويسأل: "كيف القومة عليكم؟..".

ويظهر التألق الفني الموحدي واضحا جليا في المقصورات التي احدثها الخلفاء الموحدون، فعبد المؤمن عملت له مقصورة في جامع الكتبية بمراكش، إذ أثارت اعجاب كل من شاهدها، وقد ركبها المهندس الحاج يعيش المالقي على حركات تتحرك تلقائيا، وتخرج أطرافها بطريقة تكنوولجية (تقنية) متقدمة، لا يسمع لها همس، ولا يرى مسارها.

ثم عمل الخليفة المنصور مقصورة مماثلة للسابقة، وضعها في مسجده المتصل بقصره في مراكش، اذ كانت تعمل بحركات هندسية، فترتفع عند دخول الخليفة ومرافقوه من الوزراء والأمراء، وتختفي اذا انفصلوا عنها. ويذكر الناصري نقلا عن صاحب النفح "وقد بطلت حركات هذه المقصورة الآن، ويقيت آثارها حسبما شاهدته سنة عشر وألف"، وهذه ربما كانت ابرز معلم حضاري شهدته المدينة الموحدية، إن لم تكن المع ما أفرزته الذهنية العالمية حتى ذلك الوقت، ويقول الكاتب الشاعر أبو بكر بن مجبر يحيى الفهري وصفا لهذا الابداع من قصيدة طويلة له:

طورا تكون بمن حوته محيطة	فكأنها سور من الأسوار
وتكون طورا عنهم مخبوءة	فكأنها سر من الأسرار
وكأنها علمت مقادير الورى	فتصرفت لهم على مقدار
فإذا أحست بالأمير يزورها	في قومة قامت إلى الزوار
يبدو فتبدو ثم تخفى بعده	فتكون كالهالات للأقمار

يحيى بن مجبر: أديب شاعر متفوق على أهل زمانه، من أهل بلش بالاندلس، توفي بمدينة مراكش سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م؛

ولما افتتح عبد المؤمن بن علي مدينة مراكش، وسيطر عليها، خلفا للمرابطين، امتنع الموحدون عن سكناها، لاعتبارها نجسة استجابة لتعليمات المهدي الذي كان يقول: لا تدخلوها -يعني مراكش- حتى تطهروها. فسأل عبدالمؤمن الفقهاء في هذا المجال، فأفتوه بوجوب بناء مسجد حديث، وهدم مسجد السلطان علي بن يوسف بن تاشفين.[1]

لقد زود الخليفة مسجده الجديد بمراكش بمنبر فخم، كان قد أمر بصنعه في الأندلس؛ من خشب العود والصندل المغطى بصفار الذهب والفضة، على يد المهندس بعيش المالقي السابق.[2]

واشتهر هذا المنبر منذ القدم بأنه من أجمل المنابر شأنا في بلاد الاسلام، بعد منبر المسجد الجامع بقرطبة الذي اتخذ مثلا في مثمناته، وأجزائه المحفورة في الخشب، وزخارفه النباتية، وفصوصة المتداخلة.[3]

وإذا تمكنت دولة المغرب من غزو الاندلس عسكريا، فإن الرد المفاجئ كان من الأخيرة بما يتناسب وحسها الحضاري، فغزتها فينا، حتى نعم المغرب بما أنتجته القريحة الأندلسية، من ابداع فني تألق في بناء المساجد، والصوامع والقناطر والاسواق، والاقنية والجسور، والبساتين، والحدائق، تتخللها البرك للتنزه، والتعليم، وغير ذلك من متطلبات المجتمع المتحضر، وتوثقت العلاقة الفنية بين الاقليمين، لذلك رأينا الفن المغربي قد بلغ في عهد الموحدين، بهاء وانسجاما لن تجدهما في الأيام اللاحقة.

لذا فإن أثر الموحدين الفني، اذا اخذناها من الزاوية المغربية بدا زاهيا ذا بهاء، وإذا ما نظر اليه من دائرة أوسع، كان تفتحا في نهاية الخريف، تبعا لاقتصاد الدولة الذي لم يكن قد نما، وازدهر ذاتيا في القرن السادس الهجري، وإنما ثروات الزيريين وأموال المرابطين، اذ استولى عبدالمؤمن على خزائن علي بن يوسف، وذخائر لمتونة "مما يقصر على وصفه اللسان، ولا يأتي على شرحه البيان".[4] فضلا عن ثروات ملوك الأندلس.

---

(١) مجهول: الحلل الموشية، ص:١٤٤.

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣) جوميت مورينو: الفن الاسلامي في اسبانية، ص:٣٥٠.

(٤) مجهول: الحلل الموشية، ص:١٤٤.

اذن فلم تكن الحضارة الموحدية، على ما يبدو، الا امتداداً لذلك الارث الحضاري الذي لم يكن للموحدين يد طولى في تدعيم اسسه، كما لم تعمل الحكومات الموحدية المتعاقبة على اثرائه ونمائه، كما أن عدم تقبل المغاربة للمفاهيم المهدوية المهزوزة، ساهم وبشكل كبير، إلى جانب تلك الصراعات، في جمود ذلك التراث الحضاري، وعدم ارتقائه، فكانت تلك الحقبة بصدق آخر عهود المسلمين الحضارية.



الفصل الخامس

الحياة الثقافية النتاج الثقافي والعلمي والفكري

الحياة الثقافية النتاج الثقافي والعلمي والفكري

تمهيد:

لم يكن المظهر العام للموحدين يدل على أنهم من حماة العلوم والحضارة؛ فقد نشأوا كالمرابطين في مهاد القبائل العسكرية الساذجة، لكنهم أبطلوا مطاردة تعاليم الغزالي وغيرها من الكتب المحظورة، وأطلقوا حرية العلوم والفنون[1]، فسارت الدولة الموحدية بوحي الفكرة، بفضل الدفعة الاولى التي أطلقها المهدي وألّف لها عدة من الكتب: كتاب التوحيد في سبعة أجزاء على عدد أيام الاسبوع، باللسان البربري، يقرأونه كل يوم، أثر صلاة الفجر، وكتابا آخر "الامامة"[2]، وكتبا اخرى "أعز ما يطلب" وعقائد في اصول الدين[3]. وكان بمقدور هذا الرجل أن يعيد صياغة الحياة المغربية بما تتطلبه المرحلة من تربية عسكرية وحضارية. وحرص خليفته عبد المؤمن على رعاية الرعيل الاول في أول عهده، فربى طلائعها، وزودها بالعلم والمعرفة، وخصها بالتربية[4].

وفي ظلال هذه الدولة المغربية تفيأ الادب والشعر، وازدهرت الحكمة والفلسفة، وتعددت مواهب العلماء والادباء؛ فهناك جماعات متخصصة في كثير من العلوم والفنون؛ ولذلك لا نتعب في البحث عن العدد الضخم من الرجال الممثلين للثقافة والفكر في كل مجال من المجالات، فهذه اسرة ابن زهر في الطب، وعائلة ابن البيطار في النبات[5]، واحمد بن محمد البطروجي في الرياضيات، وفي النحو عمر بن محمد المعروف بالشلوبين، وفي التاريخ من أمثال ابن الابار وابن بشكوال وابن صاحب الصلاة، وفي الادب والشعر من النساء: أسماء العامرية والشلبية وحفصة الركونية وغيرهن، ومن الرجال: ابو جعفر بن سعيد، وابن حبوس، والاصم الروائي "الطليق"، وابن المنخل وغيرهم ممن سنذكره في وقت لاحق من هذا البحث وفي الفلسفة ابن طفيل وابن رشد، ومن الجغرافيين: أبو حامد الغرناطي، وابن جبير، واليهودي بنيامن الرحالة وغيرهم.

---

(١) ابن الخطيب: الاحاطة، ج٤، ص: ٣٥١.
الحلل، ص: ١٠٤.

(٢) ابن ابي زرع: روض القرطاس، ص: ١٧٧.

(٣) المراكشي: المعجب، ص: ٢٧٥ وللمهدي كتاب الموطأ طلب من اتباعه حفظه.

(٤) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٥٠.

(٥) وهناك علماء نبات آخرون مثل ابن العوام، وأبي جعفر الغافقي وغيرهم.

وعلى ما يبدو فقد بلغت الحياة الفكرية بعيداً في كل مظهر من مظاهر النشاط المعرفي، وهذا مرجعه تشجيع رجال السياسة لارباب الفكر وما يغدقون عليهم من الهبات، حبا في العلم وشغفاً في الثقافة، وليس أدل على ذلك من علو كعب يوسف بن عبد المؤمن بالعلوم، ومطارحاته اللغوية والدينية والطبية للعلماء، وجمعه للكتب حتى تجمع لديه العدد الضخم الذي حوته مكتبته التي ضارعت، بل فاقت مكتبة الحكم المستنصر الاموي الشهيرة، مع ايثار للعلم، وتعطش اليه شديد[1]، ولا نستطيع الاحاطة ولو حرصنا بعلماء كل فن في عصر الموحدين وهو الزمن الحضاري الاخير لدولة الاسلام، حتى المدينة الواحدة من مدن دولة بني عبد المؤمن يحتاج علماؤها الى مجلدات ضخمة ليس مجالها هذه الاطروحة.

وإنه ليمكن القول بتأكيد ان الثورة الثقافية التي أحدثها ابن تومرت قائمة على التحرر العقلي والمنهج النقدي ونبذ التقليد، وكانت المناخ الصالح الذي نما فيه فكر فلسفي مغربي متميز الملامح ابتداء بأبي بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة (٥٣٣هـ/ ١١٣٨م) الذي شهد فجر الثورة التومرية وقضى اكثر سني حياته بالمغرب، حيث توفي بفاس، والف مجموعة من الرسائل في الفلسفة اشهرها 'تدبير المتوحد' ثم ترسخ هذا الفكر بابن طفيل المار الذكر الذي عاش في بلاد الموحدين، وكان أحد مستشاريهم الثقافيين، ومن المقربين، ثم بلغ أوجه عند ابن رشد الذي عاش هو أيضاً في البلاط الموحدي وانتج ما انتج من الشروح الفلسفية بتكليف منهم[2].

ثم لاتصاف ابن تومرت بالعلم وولعه به، ودعوته إليه واعتماده إياه أصلاً للايمان، وأساساً للحياة الاجتماعية، كما أوضح ذلك في تآليفه وتعاليمه، كانت ثمرته أن أصبح معظم الامراء الموحدين علماء في أشخاصهم مشجعين عليه في رعيتهم، وتلك صورة قل نظيرها في التاريخ الاسلامي، فقد كثر أن يتولى حكم المسلمين غير العلماء، وهو ما كان بابا لشر صعب اغلاقه.

---

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٣٤٦، ٣٤٩-٣٦٠.

(٢) Juan Vernet; La culture hispanoarabe, en oriento yoccident, de, Editorial Ariel p. 43-44.

خوان بيرنيث: الثقافة الاندلسية في الشرق وفي الغرب.

١. الكتاب والادباء:

اهتم عبد المؤمن كما ذكرنا سابقاً بالعلماء من كل فن، وجمع حوله طائفة من الكتاب، جعلهم على الاقاليم لتبصير أبنائه ومساعدتهم في سياسة ولاياتهم، فكان ابو الاصبغ بن عياش كاتباً في تلمسان، وابو الحسن ابن هرودس على كتاب غرناطة، وأبو بكر بن حبيش رئيس كتاب بجاية، وعلى فاس الكاتب أبو العباس بن مضاء، وكان رئيس كتاب القصر الملكي الكاتب ابو علي الاشيري[١]، الذي برع في الشعر أيضاً فارتجل أبياتاً من قصيدة له في موقف لعبد المؤمن[٢].

أنس الشبل ابتهاجا بالاسد	**ورأى شبه أبيه فقصد**
ودعا الطائر بالنصر لكم	**فقضى حقكم لما وفد**
أنطق الخالق مخلوقه	**بالشهادات فكل له قد شهد**
أنك القائم بالأر له	**بعد ما طال على الناس الامد**

أما ابو جعفر احمد بن عطية الوزير والكاتب الخاص لامير المؤمنين، وكان قبل ذلك كاتباً لأمير المسلمين علي بن يوسف المرابطي في آخر أيامه، فاختصه عبد المؤمن لنفسه، وانفلت يخدم معززاً حاشية الخليفة ومن المقربين الى أن قضى نحبه على يديه للحظة ضعف كان بها مدلا على السلطان؛ أفشى أسرار الدولة وحرض صهره يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين، فارس المرابطين المشهور الذي آمن بالتوحيد، واصبح زعيم لمتونة في جيش الموحدين عل الهرب، واللحاق بجزيرة ميورقة عندما اكتشف ان

---

(١) ابو علي الاشيري هو الحسن بن عبداللة بن الاشيري من أهل تلمسان، كان كاتباً لعبد المؤمن (ت ٥٦٩-١١٧٤).

(٢) قيل أن عبدالمؤمن كان مولعاً بتربية الاسود فاهدى اليه شبل صغير وادخل على الخليفة في مجلسه، فأمر بحله من عقاله فمشى الشبل بين الناس يخترق الصفوف حتى وصل الى الخليفة وسكن بين يديه وربض لا يتحرك من مكانه، واتفق ان اهدي اليه في نفس اليوم زرزور يتكلم بأنواع الكلام، ودعا بالنصر لعبد المؤمن وعندما ارتجل الكاتب المذكور الأبيات الشعرية تلك. وقيل ان عبد المؤمن عمل حيله ليخضع المترددين من المغاربة لحكمه فدرب الاسد والطير على ذلك بالسر، وجمع رجال دولته لينظروا واقع الحال.
مجهول: الحلل، ص: ١٤٩-١٥٠.
المقري: النفح، ج٤، ص: ١٠٢، يذكر هذا الشعر أنه قيل في حفيد عبد المؤمن الخليفة المنصور.
الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٠٢.
وأورد صاحب الأنيس المطرب بروض القرطاس، الرباط، ١٩٧٢، ص: ١٨٤-١٨٦ قصة طريفة حول هذه الحادثة مناقضة لما جاء في البداية فارجع اليه.

السلطة مصممة على القبض عيه، وإيداعه السجن والتحقيق معه في امور عسكرية، ربما تكون لغير صالحه.

وخلفه ابو القاسم عبد الرحمن القالمي من مدينة بجاية -من بلدة قالم- ومساعده الكاتب ابو محمد عياش بن عبد الملك القرطبي، ومن الكتاب ابن محشوة البيجاوي، الذي خدم الدولة في مدة أبي يعقوب وابنه أبي يوسف يعقوب من بعده، والكباشي، وأبو محمد مغن، فضلا عن الذين كتبوا للخلفاء والامراء السادة كما مر سابقاً[1]. وأخص بالذكر منهم ابراهيم الزويلي شيخ الكتاب، وأمير الشعراء في عصره الذي لزم أمير المؤمنين المنصور، ومدحه بقصيدة أثر حصاره ابن غانية في مدينة قفصة منها:

سائل بقفصة هل كان الشقي لها بعلا وكانت له حمالة الحطب

تبت يدا كافر بالله ألهبها فكان كالكافر الاشقى أبي لهب

ويستطرد ويقول:

لما زنت وهي تحت الامر[2] محصنة حصبتموها اتباع الشرع بالحصب[3]

ولا ننسى آخر من انتهى اليه علم الآداب بالاندلس أبا جعفر الحميري المؤدب محمد بن يحيى الحميري، الذي لم يغادر حكاية تتعلق بأدب أو مثل سائر، أو بيت نادر، أو سجعة مقبولة الا أتقنها، وعلمها الى غيره، وكان لا يعد من حفظ كتاب سيبويه وديوان المتنبي شيئاً، ولم يكن بالاندلس في زمنه أعلى رواية منه، ولا من يباريه في اتساع علمه وشدة تمييزه، وحسن اختياره ومعرفته فقه اللغة، توفي في شهر صفر من عام ٦١٠هـ/ ١٢١٣م[4].

ومن الكتاب الذين خدموا أبا عبدالله الناصر، أبو الحجاج يوسف المُرَّاني، من كتاب الجيش الذين اختصوا به[5]. وأبو جعفر احمد بن منيع الذي أتى بعده. ومن الادباء المتقنين: ابو الربيع سلمان الاندلسي المعروف بكثير المتوفى ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م من أهل الضبط والحفظ، وفي الادب لا يباري سبق اهل زمانه بلاغة وفصاحة، متفوقاً في الانشاء،

(١) المركشي: المعجب، ص: ٢٩٢، ٣٥٥، ٣٧٤، ٣٨٠، ٣٨١؛ المقري: النفح، ج٥، ص: ٢٩٥

(٢) الامر: الخليفة.

(٣) المصدر نفسه، ص: ٣٩٦، ويسميه المعجب: من شيوخ الكتاب، وظرفاء الشعراء، وهو ابراهيم ابو اسحاق الزويلي الكاتب.

(٤) المصدر نفسه، ص: ٣٩٥، ٣٩٦، ٤٢٩، ٤٣٤.

(٥) من مدينة شريس بالاندلس، المصدر نفسه، ص: ٤٤٤.

مختصاً في الخطابة والفصاحة مفوها، واليه انتهى، وينتهي الحديث في مجالس الملوك، اذ نبغ في النظم والنثر، وله قصيدة تربو على خمسائة بيت، فيها يصف نفسه ويلوم زمانه مطلعها:

الحمد لله ليس لي بخت ولاثيات يضمها نحت

وهو ممن أزرى على الغزالي تسمية كتابه إحياء علوم الدين فكان يقول:

"ومتى ماتت العلوم حتى تحيي علوم الدين؟ ما زالت حية ولا تزال"[1]، وكان من الناقدين للمؤلفين والمصنفين والمتكلمين والشعراء.

ونبع في اللغة أعداد من أئمتها لا يحصيهم هذا البحث[2]، وليس بعجيب أن يظهر هذا العدد من رجال الادب، طالما ان ابن تومرت نفسه من المهتمين باللغة العربية، وعلى دربه سار خليفته عبد المؤمن الذي ربى ابنه يوسف تنشئة دينية ولغوية فالناس على طريق ملوكهم[3].

وكان من أساطين النحاة في المغرب والاندلس على عهد الموحدين، محمد بن عبدالله بن مالك الطائي الجياني؛ ابو عبدالله جمال الدين، أحد الأئمة في علوم العربية، الذي ولد في جيان سنة ٦٠٠هـ/ ٦٧٢هـ-١٢٠٣م/ ١٢٧٣م، ورحل عن المغرب الى دمشق وتلقى علومه هنالك، وتصدر لتعليم اللغة العربية في حلب، ومات بدمشق، وهو صاحب الالفية المشهورة في النحو، والصرف، وله أيضاً "تسهيل الفوائد" و"لامية الافعال" من انتاجه وغير ذلك[4]، أما شيخ الادباء ونقيبهم في هذه الحقبة "ت ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م فهو ابو موسى عيسى بن عبد العزيز بن يللبخت بن عيسى الجزولي البربري المراكشي من علماء العربية، تصدر مجلس الاستاذية زمناً لتعليم النحو في المرية، والجزائر وكان متقدماً في النحو لا يجاريه أحد في دقائقه وغريبه، وشاذة ومن كتبه المهمة، "شرح قصيدة بانت سعاد" و"الامالي" في النحو و"مختصر شرح ابن جني لديوان المتنبي"، وصاحب "الجزولية" وهي رسالة في النحو التي انكب عليها النحاة، درساً وتحليلاً ونعتوها بعده، بأسماء منها:

---

(١) الغبريني: عنوان الدراسة، ص: ٢٧٩، ٢٧٠.

(٢) منهم محمد بن جعفر بن احمد خلف الذي برع في علم اللغة والبلاغة، وعبدالله بن يحيى الحضرمي النحوي البلنسي، وجيه بن يحيى بن خلف الاشبيلي الذي اتخذه المنصور معلماً لاولاده. ابن الابار: التكملة، رقم ١٤٦٧، ٢٠٦٦، ١٨٧٩.

(٣) المراكشي: المعجب، ص: ٤٠١.

(٤) ابن قنفذ: الوفيات، ص: ٣٣٢.

"القانون" "الاعتماد" وسميت كذلك "المقدمة" وعلى الرغم من صغر حجمها، كانت شهرتها بالألغاز والرموز اكثر منها قواعد نحوية واضحة[1]. ومن الكتاب الموسومين بالجرأة وقوة الحجة الأديب أبو العباس احمد بن عبد السلام الكورايي[2]، وقد تقدم به الشأن، وجالس عبد المؤمن ثم ولده يوسف ثم ولده يعقوب[3].

يلاحظ أن الموحدين، رغم الذي قيل فيهم كانوا الضوء الساطع الذي أشرق بالعلم والمعرفة من أول يوم ظهرت فيه دعوة ابن تومرت على ارض المغرب، اذ جند طائفة لامعة من تلاميذه انبثوا في أنحاء عديدة من البلاد بيشرون بميلاد مبدأ جديد يحملون على كواحلهم جزءاً من قضيته.

٢- الشعر في زمن الموحدين:

لما كان الشعر العربي، وبخاصة المدح منه، مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً على طوال التاريخ الأدبي بالساسة والحكام، وذوي النفوذ والثراء، فهو لذلك يتأثر سلباً بموقف الأخيرين منه. يشع، وينمو اذا واجه التشجيع والرعاية، ويخمل، ويضعف حينما يصادف الزهد والاهمال من ذوي السلطة، وعدم الالتفات الى قائليه، فلا بد لحاملي هذا الفن من توفر عاملين رئيسين في ممدوحيهم ليكون الابداع والاجادة والرغبة.

أولهما: الاذن الشعرية من الممدوح والذهنية الناقدة.

وثانيهما: النفس السمحة واليد المعطاء، فهل توافر هذان الدافعان في عصر الموحدين؟

لقد توافر هذان العاملان مدة دولة بني عبد المؤمن؛ فزعماؤهم عُرفوا بثقافاتهم العالية، وبخاصة في اللغة العربية وآدابها، على الرغم من نشأتهم المتواضعة غير

---

(١) ابن قنفذ: الوفيات، ص: ٣٠٧؛ ابن خلكان: الوفيات، ج٣، ص: ١٥٧، ١٥٨؛ ابن الابار: التكملة، ج٢، رقم ١٩٣٢؛ حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص: ٥٠٥.

(٢) وكورايا قبيلة من البربر ويقال لها جَرَاوة؛ ابن خلكان الوفيات، ج٧، ص: ١٣٦.

(٣) ولقد حضر الكورايي يوماً إلى باب الأمير ، والتقى هناك الطبيب سعيد الغُماري، فطلب الامير من بعض رجال الحرس ان ينظر من بالباب من الاصحاب، وعاد إليه وقال: احمد الكورايي وسعيد الغُماري، فقال الامير متعجباً: من عجائب الدنيا شاعر من كورايا وطبيب من غمارة، فلما سمع ذلك الكورايي، قال: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ { يس:٧٨}، اعجب منها والله خليفة من كوميا؛ فيقال ان الأمير يوسف لما بلغه ذلك، قال نعاقبه بالحلم والعفو ففيه تكذيبه،
المصدر نفسه، ص:١٣٧.

العلمية[1]. فالأمين العام للدعوة ومرشدها، وأميرها الأول من بعده كانا من العلماء المختصين، فان ابن تومرت مؤسس الدولة، وتلميذ الغزالي عاش حياته يتلقى العلوم الدينية، ويعلمها لتلامذته، كما مر سابقاً، ويكفي مؤلفه القيم "أعز ما يطلب" أول ما طبع بالجزائر سنة ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م، أما صاحبه وتلميذه عبد المؤمن، كان معلماً للصبيان للعلوم الدينية واللغة العربية، قبل اتصاله باستاذه، وله مواقف عديدة تؤكد ميله للشعر وعنايته به، وتذوقه اياه، لقد مدحه أبو محمد عبدالله الجياني بشعر من بحر الطويل استهله بقوله:

أضاءت لنا الأيام واتصل النجح   كأن وجوه الدهر مسوده كلح

فأجابه عبد المؤمن على نفس البحر والقافية[2]:

هو الفتح لا يجلو غرائبه الشرح   أصاب بني التجسم من باسه ترح
أتتنا به البشرى على حين غفلة   بمهلك قوم كان موعدها الصبح

ولربما كانت بلاغتهما الأدبية في النثر والنظم تدخلهما -مع نزارتها- بين الشعراء والفحول لولا الظروف السياسية ومشاغل الحروب، وأولويات أكثر أهمية كانت تفرض الانصراف اليها قد حالت بينهما وبين نظم الشعر، فهذا المهدي ينظر الى عبد المؤمن نظر المعجب الولهان، ويجد في طموحه صورته الشابة، اذ وضع فيه كل أمله في تحقيق ما كان يستهدفه من خطته، ويعبر عن اعجابه بصفاته في قوله[3].

تجمعت فيك أشياء خصصت بها   فكلنا بك مسرور ومغتبط
فالسن ضاحكة والكف مانحة   والصدر متسع والوجه منبسط

وليس أدل على مواقف عبد المؤمن الشعرية وتشجيعه له، فعند عبوره الى الأندلس، ولأول مرة، اجتمعت لديه على جبل الفتح، وفود من وجوه بلاد الأندلس، ورؤسائها، وأعيانها للتهنئة والمبايعة، وعلى رأسهم طائفة كبيرة من الشعراء المداحين من جميع أنحاء المملكة، أكثرهم مجيدون، فاستدعاهم في هذا اليوم المشهود ابتداء وكانوا أول الداخلين[4]. فلا يمكننا الا أن نستشرف ثلة مجيدة منهم، اذ لم تسعفنا الحظوظ بصحبتهم

---

(١) المقري: نفح الطيب، ج٩، ص: ٣٠١-٣١٠.

(٢) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٥٧؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ق٢، ص: ٢٢.

(٣) المراكشي: المعجب، ص: ٢٨٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص: ٣٦٣-٣٦٤؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٨٤؛مجهول: الحلل، ص: ١١٩.

(٤) المراكشي: المعجب، ص: ١١٣-١٣٥؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٨٥-٤١٩.

جميعاً. وكان أبو عبدالله محمد بن حبوس من أهل مدينة فاس اول المنشدين قصيدته التي أجاد فيها فقال:

بلغ الزمان بهديكم ما أملا — وتعلمت أيامه أن تعدلا
وبحسبه أن كان شيئاً قابلا — وجد الهداية صورة فتشكلا[1]

ولابن حبوس قصائد كثيرة، وهو شاعر الدولة اللمتونية السابقة التي لم تغفر له طول لسانه عليهم، فهرب يتنقل في الخفاء من بلد الى بلد آخر حتى ظهور الدولة الموحدية، وظهر معها، ونال بسبب قصائده حظوه عند السلطان وعند ابنه ابي يعقوب، وجمع ثروة طائلة، لذلك فهو يمثل الشعراء المداحين المتكسبين. أما بعض الشعراء فقد دافع عن كرامته وقناعته بما لديه من مال يجنبه ذل السؤال، ولعل الرصافي البلنسي كان على رأس الممثلين لهذا الموقف، فهو شاعر عصره المعترف له بالاجادة مع العفاف والانقباض وعلو الهمة، والترفع عن التكسب بالشعر، وعاش من صناعة الرفو التي كان يعالجها بيده "لم يبتذل نفسه في خدمة ولا تصدى لانتجاع بقافية"[2]. فيلاحظ أنه يفضل العيش بما تدره حرفة الرفو على ضآلته وقلته، على التسكع والتذلل أمام أبواب ذوي الجاه والنفوذ، والأثرياء، متحصنا بالقناعة، مؤمناً بأن الرزق يجري بنصيب، وقدر بعد أن ساوى عبد المؤمن بينه وبين الشعراء بالعطاء[3].

صون الفتى وجهه أبقى لهمته — والرزق جار على حد ومقدار
قنعت وامتد مالي فالسماء يدي — ونجمها درهي والشمس ديناري

غير أن زهده وترفعه لم يمنعا المسؤولين من تقريبه، واغرائه بالعطايا دون ان يرحل اليهم او يفد الى حضرتهم، وهو ما يعنيه بقوله مخاطباً الوزير الوقشي[4].

---

(١) بهذا الاستهلال البارع- يبدو أنه أجاد فيها ما أراد- القائم على مبدأ المهدي المنتظر، الذي يملأ الزمان بهدية ما أمل، في ادعاء الشاعر. وازداد تقربا من عبد المؤمن، ونال ثقته، فتجرد لخدمته؛ المراكشي: المعجب، ص: ٣١١-٣٢٦؛ مجهول: الحلل الموشية، ص: ٥٥١-٦٥١؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٥٠-١٧٠.
نرى أن ابن صاحب الصلاة يغفل او يتغافل عن ذكر هذا الشاعر في هذه المناسبة المهمة، الذي استخلصه عبد المؤمن دون سائر الشعراء فلربما يعود ذلك الى نزعة التعصب الاقليمي.

(٢) الرُّصافي: هو الوزير الكاتب أبو عبد الله محمد بن غالب البلنس المعروف بالرصافي، هذا الشاعر منسوب الى رصافة بلنسية، وكان مستوطناً مالقة، وعاش فيها سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م، ويسمى "ابن رومي الأندلس" تشبها بالشاعر ابن الرومي المشرقي؛ المراكشي: المعجب، ص: ٣١٦-٣٢٧؛ ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص: ٣٤٢.

(٣) ديوان الرصافي البلنس، ص: ٩٤ جمعه، د، احسان عبا، بيروت، دار الثقافة؛ ١٩٦.

(٤) ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، ج٢، ص: ٣٤٣.

نعمــاء جــدت بــها ان لـــم نلتـــق فيمـــن يدنـــدن حولـــها ويحـــوم

وهذا الترفع من قبل الشاعر ربما يرجع الى شيء واحد هــو الكرامـة وحفـظ مـاء الوجه، وقد عبر عنها الشاعر (بغيرة جاهلية) أم غيرة شعرية، وقال[1]:

على أنّنـي لا أرضـى الشعـــر خطـــة ولــو صُيّرت خضرا مسارحـيَ الغـــبر

يقــول انـــاس: لــو رفـــعت قصيـــدة لأدركت حتما فـــي الزمـــان بـــها أمـــراً

ومـــن دون هـــذا غـــيره جاهيـــة وإن هـــي لم تلـــزم فقـــد تلـــزم الحُـــرا

وفي هذا العهد تطورت قصيدة المدح في مضمونها، وتعينـت معالـمها، وشـاع روح الغلو والمبالغة، واتسامها بالروح التومرتية وتعاليمها وتضمين المديح معان دينية مستوحاه من قصة موسى-ع- في أغلب الأحيان وتتجلى نزعة المبالغة بغلو في أمداحهم في وصف المدوح بصفات تخرجه عن كونه بشراً، وتجعله شيئاً آخر مقدساً متزهـاً، شـبيهاً بالأنبيـاء يسير الأقدار، ويتحكم بالقضاء، وهو نور لا تدركه الابصار فكأنه خلق كما يشاء، وهذا يذكرنا بابن هانيء الاندلسي شاعر الغلو، عند مدحه الخليفة المعز الفاطمي، فقال:

شئـــــت لامـــا شـــاءت الاقـــدار فـــاحكم فـــانت الواحـــد القـــهار

ومن أمثلة الغلو في مدائحهم قول الرصافي يمـدح أبـا جعفـر الوقشـي وزيـر ابـن همشك[2]:

لمحـــــلّك الـــــترفيع والتعظيـــــم ولوجـــــهك التقديـــس والتكريـــــم

ولـــراحتيك الحمـــد فـــي أرزاقنـــا والـــرزق أجمـــع منـــهما مقســـوم

فممدوحه مكرم معظم أقرب إلى النبوة ان لم يكن نبياً، ويقـول ان الشـعر لا يبلـغ صفاته، ولا يحيط بمآثره، وهو حقيق بآيات قرآنية فيه لا أبيات شعرية:[3]

فلو لحقتم زمان الوحـــي نـــزّل فـــي تلـــك الصفـــات مكـــان الشـــعر قـــرآن

(1) المراكشي: المعجب، ص: ٣١٧، يتضح لي أن الرصافي مع غـروره وجـودة شعره كـان يطمـح الا يساوى كالشعراء، بل يجب أن يميز عنهم بأي شيء، لذلك ترك المدح لغيره وقنع بصنعة الرفو.

(2) ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، ج٢، ص: ٣٤٣.

(3) ديوان الرصافي، ص: ١٤٠.

لكن الروح الترمرتية تظهر واضحة جلية في مدحه لعبد المؤمن بجبل الفتح استهلها بقوله[1]:

لو جئت نار الهدى من جانب الطور قبست ما شئت من علم ومن نور

أما المدائح التي تشبه الموحدين بالأنبياء، فتبرز بشكل واضح ملفت للنظر، اذ كانت قصة موسى وطوره ويوشعه وعصاه وعبوره البحر تتردد في أشعار المديح، وربما كانت اولى المدائح التي استغلت هذه المعاني، تلك الاشعار التي قيلت بجبل الفتح ترحيباً بعبور عبد المؤمن بن علي الى الأندلس لأول مرة، اذ أوجدت هذه الأمداح ترابطا بين موسى عليه السلام، وبين عبد المؤمن، وكأن الشعراء بذلك يتخذون من عبد المؤمن رمزاً للمنقذ المخلص، كما شأن موسى منقذاً ومخلصاً لبني اسرائيل فالصورتان -موسى وعبوره ومعاناته وعبد المؤمن وعبوره وهمومه ايضا- تلتقيان من مفهوم الجهاد من أجل مثل أعلى، والمضي قدما بهمة ونشاط في سبيل هدف مقدس، فيقول الرصافي:[2]

فالبحر قد عاد من ضرب العصا يبساً والأرض قد غرقت من فور تنور

وإنما هو سيف الله قلده أقوى الهداة يدا في دفع محذور

فإن يكن بيد المهدي قائمُهُ فموضعُ الحدّ منه حدٌّ مشهور

والشمس اذ ذكرت موسى فما نسيت فتاة يوشع قمّاعَ الجبابير

ويتحقق هذا التوافق في المعنى في أكثر من قصيدة من قصائد المديح، يقول الأصم المرواني (الطليق) بجبل الفتح منشداً عبد المؤمن[3]

وطودُ طارقَ قد حل الإمام به

كالطور كان لموسى أيمن الرتب

لو يعرف الطود ما غشاه من كرم

لم يبسط النور (الغور) فيه الكفٌ للسحب

ولو تيقن بأساً حل ذروته

لغار كالعين (لعاد كالعهن) من خوف ومن رهب

---

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٣١٧؛ ابن سعيد: المغ في حلى المغربرب، ج٢، ص: ٣٤٣؛ المقّري: نفح الطيب، ج٥، ص: ٣٥.

(٢) المراكشي: المعجب، ص: ٣٢٣.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٦١؛ الكراكشي: المعجب، ص: ٣١٥..

ويلبس الدينَ غضا ثوب عزته — كأن أيام "بدر" عنه لم تغب

وهنا قد وصل المدح الغاية في الغلو، اذ لو عرف الجبل الأمير الذي حل به لخر صعقاً من جبروته وبطشه. وتأكد هذا التلاحم في الغلو عند أكثر من شاعر من شعراء المدح، فقد ألقى أبو جعفر بن سعيد العنسى قصيدته على جبل الفتح مخاطباً عبد المؤمن استهلها[1]:

تكلم فقد أصغى إلى قولك الدهر — وما لسواك اليوم نهى ولا أمر

ورم كل ما شئته فهو كائن — وحاول فلا بر يفوت ولا بحر

فما "طارق" الا لذلك مطرق — "ولابن نصير" لم يكن ذلك النصر

هم مهداها كي تحل بافقها — كما حلّ عند التم بالهالة البدر

وهنا يظهر الغلو واضحا جليا، فما فتوح طارق بن زياد، وابن نصير في الأندلس الا شيئا ضئيلا ومقدمة لفتوح عبد المؤمن لها.

وكانت في أمداح الموحدين تتردد معاني التفاخر بالأنساب العربية العريقة، اذ كان الموحدون يرفعون أنسابهم الى قيس عيلان من مضر[2].

ويذلك مدحهم الشعراء، ففيهم يقول أبو محمد بن حامد في مدح سليمان حفيد عبد المؤمن[3]

ومؤيد من قيس عيلان الألى — هم روضة الجاني وعود الجاني

ويقول الرصافي في عبد المؤمن[4]:

وآية كآيات الشمس بين يدي — غزو على الملك القيسي منذور

ومن مميزات شعر الأندلسيين مدة الموحدين أنهم كانوا حريصين على وقع الفاظهم في نفوس السامعين، مدركين قيمتها الجمالية، ومقدار أهميتها صوتيا ومعنويا، حذرين مما قد يصادف منهم قراءً ناقدين ومتلقين متذوقين كالذي حدث للشاعر أبي

---

(١) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٥٥-١٥٦.

(٢) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٤٢؛ المراكشي: المعجب، ص: ٢٨٨.

(٣) التجيبي: زاد المسافر، ص: ٣٨.

(٤) ديوان التجيبي، ص: ٧٩.

العباس أحمد بن سيد المعروف باللص حينما ألقى قصيدته الرائعة أمام عبد المؤمن على جبل الفتح استهلها بقوله[1]:

غمض عن الشمس واستقصر مدى زُحل

وانظر الى الجبل الراسي على الجبل (جبل)

فأنكر أمير المؤمنين هذا الاستهلال، وقال على مسمع من الناس غمّض!! غمض!، لقد ثقلتنا يا رجل، وأمره بالجلوس، وأعطاه جائزته علماً أن هذه القصيدة كانت من خيار القصائد التي قيلت لولا أن كدرها بهذه الفاتحة، وكانت لعبد المؤمن ملاحظات نقدية على أشعارهم تدل على تذوق الشعر ومعرفته به، وأدرك ثقل اللفظين غمّض وزحل، فالاولى فيها صيغة الأمر ومعنى العمى. فالكلمة اذن تأخذ ثقلاً مهماً في بناء القصيدة، وقد تزيد على معناها وتوازنها.

لم يكن أولاد عبدالمؤمن بأقل منه حماساً للشعر وتقريباً للشعراء، وبخاصة حفيده أبو يوسف يعقوب، اذ كانت علاقاته مع الشعراء تؤكد ذلك الحماس وهذا التقريب[2]، وكان الشعراء يعرفون ذلك ويعونه، فعند انتصاره بموقعة الأرك سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٥م، اجتمع لديه منهم عدد جم غفير فلم يكن لكثرتهم ان ينشد كل انسان قصيدته، بل كان يختص منها بالانشاد البيتين أو الثلاثة المختارة... وانتهت رقاع القصائد وغيرها إلى أن حالت بينه وبين من كان أمامه لكثرتها[3] ثم امتدت نزعة الغلو في المدح مدة الموحدين، قال أبو العباس الجراوي، صاحب الحماسة المغربية، مشيرا إلى الطوائف المتمردة أيام ابي يعقوب.[4]

تنال المارقين بكل أرض ... ولا طارت ولا نقلت خطاها

وعذر الشمس لوحسدتك باد ... لأن سناك اشهر من سناها

---

(١) المقري: النفح، ج٥، ص: ٣٣٣، ٣٣٥، وسمي باللص لاغارته على اشعار الناس؛ المراكشي: المعجب، ص: ٣١٦؛ ابن سعيد: رايات المزرين، ص: ٤٨؛ لعل عبد المؤمن استحسن هذه القصيدة، وقال له: أنت شاعر هذه الجزيرة لولا ما بدأتنا بغمّض، وزحل، والجبل كما يذكر الرايات، ونفح الطيب.

(٢) المقري: نفح الطيب، ج٣، ص: ٢٣٧-٢٣٨.

(٣) المقري: النفح، ج٥، ص:٥٠٣؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:١٩٧؛ يقول ابن عذاري، وقد أكد الخليفة المنصور على وزيره أبي الطاهر، أن يوجز كتب المدح في هذا الفتح غاية الايجاز، فامتثل الوزير أمره، (وطوى بساط الشعراء).

(٤) المصدر نفسه، ص:١٣، ١٤.

ويقول:

لو كانت الجوزاء من اعدائه   لم تنج عن غاراته الجوزاء

هذه الرغبة لدى الخلفاء في سماع المديح شجعت الشاعر، ودفعته الى النظم والاجادة، لأنه يدرك مسبقاً مقدار ثقافة السامعين، ورقة اذواقهم، ودقة ملاحظاتهم ولم يطل هذا الحال، فبعد امارة الناصر سنة ٦١٠هـ/ ١٢١٣م، قل موقف الشاعر المادح، واصيب باحباط وتخاذل مشوب برهبة وخوف نتيجة لتغير الظروف والحكومات، واضطراب الاحوال، وقد خيم الرعب وانتشر الهلع في كل مكان، بينما كان الشاعر مادحاً مقربا من الحاكم، نرى رأسه معلقاً إلى جذع شجرة مصلوبا، تنز منه الدماء وتفوح منه الروائح في الهواء[1]. وقد يصبح مديحه نقمة عليه، فيجمح في البلاد خائفاً طريداً لان ممدوحه قد زال حكمه، وأفل سعده، ازاء هذه الأحوال القلقة، فضل بعضهم الصمت والعيش في الظل بعيدين عن أجواء السياسة وبلاط الحكم.

واستحدث إلى جانب المدح، الاستصراخ، وطلب العون والحض على الجهاد، وتأتي القصيدة في مثل هذا ممتزجه مع المدح، بل هي جوهره لأنها تحمل معاني البطولة والشجاعة والنخوة، ومن ذلك نماذج لأبي المطرف محمد بن أحمد المخزومي يستصرخ أمير المؤمنين الموحدي عند حصار مدينة ٠(شقر) من قبل محمد بن سعد سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م.[2]

تدارك أمير المؤمنين دماءنا   فانك للاسلام والدين ناصر

فهذا الذي يبني المساجد امره   وأمر ابن سعد أن تشاد المعاصر

واستنجد ابن مردنيش (أبو جميل زيان) بالأمير أبي زكريا بتونس، وأوفد عليه كاتبه الفقية أبا عبدالله بن الأبار (صريخا)، اذ بلّغ البيعة، وأنشد في ذلك المحفل قصيدته على روي السين يستصرخه فيها للمسلمين ضد الاسبان بدأها بقوله:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا   ان السبيل إلى منجاتها درسا

إلى أن يقول:

وفي بلنسية منها وقرطبة   ما يذهب النفس أو ما ينزف النفسا

---

(١) ابن سعيد: القدح، ص:١٣٦. (٤) المصدر نفسه، ص:١٢٤.

(٢) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص:٢٦٩.

طـهر بـلادك منـهم انـــهم نجـــس ولا طـهارة مـا لـم تَغْسِـل النجسـا

وهي قصيدة طويلة مشحونة بالمدح والاستغاثة وذم الاعداء وشتمهم.(١)

أما شعراء الوصف في القصيدة الأندلسية زمن الموحدين، فقد كان ميدانها الطبيعة التي أصبحت أفقاً رحبا لتحليق الخيال، ومصدراً مهما للاستلهام والاستيحاء، فاستحوذت بفضل ذلك على حواس الشعراء وأذواقهم، وتسربت الفاظها وألوانها إلى كل الفنون الشعرية الأخرى من غزل وخمر ومدح ورثاء(٢). وعرف ابن الأبـار في عصر الموحدين بالاهتمام بوصف الطبيعة. ومن قوله في وصف ظل منسرح على نهر.(٣)

والظـــل يبـــدو فوقـــه كالخـــال فـــي خـــد الكعـــاب

حيث أثارت الطلال المنتشرة على صفحة النهر اهتماما خاصا لدى شاعرنا الرصافي فقال:(٤)

ومـهدّل الشـطين تحسـب انـه مُتسيّل مـن درّة لصفائـه (متسايل)

فـاءت عليـه مـن الـهجيرة سـرحة صدئـت لفيئتـها صفيحـة مائـه

فـتراه أزرق فـي غُلالـة سُـمرة كـالدارع اسـتلقى بظـلّ لوائـه

فقد صور الرصافي الطل بالصدأ، وهذا جديد في أيام الموحدين، ويتعرض الرصافي كذلك في وصفه للجبل من خلال قصيدة يمدح فيها عبدالمؤمن عند نزوله بجبل الفتح، وقد استمد منه معنى القوة والشموخ والمجد.(٥)

مُعـبّرا بـذراه عـن ذُرى ملـك مسـتمطر الكـف والأكنـاف ممطـور

وقد رأى في الجبل شيخا وقوراً ناظراً في اطراق كأنما يفكر في أمر.(٦)

قد واصل الصمـتَ والاطـراقَ مفتكـراً بادي السكينة مغفّر(مغـبّر) الأسـارير

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٨٥-٣٨٨؛
المقري: النفح، ج٦، ص:٢٤٧-٢٥١.
(٢) د. احسان: عصر المرابطين والموحدين، ص:٢٠٣.
(٣) المقري: أزهار الرياض، ج٣، ص:٢٢٣.
(٤) ديوان الرصافي، ص:٢٦؛ المراكشي: المعجب، ص:٣٢٤.
(٥) المصدر نفسه، ص:٨٢؛ المصدر نفسه: المعجب، ص:٣٢٤.
(٦) المصدر نفسه، ص:٨٣؛ المصدر نفسه، ص:٣٢١.

وانتشر الوصف في عصر الموحدين بين الشعراء، فمن واصف للنار والدولاب، والرياض، اذ تبارى الشعراء في عهد الموحدين في استغراق اوصاف خيول عديدة، وبخاصة وصف خيول الخلفاء[1].

ومن شعر ابن مجبر (يحيى بن عبدالجليل بن عبدالرحمن بن مجبر الفهري) يصف خيل المنصور من قصيده في مدحه:

له حلبة الخيل العتاق كأنها نشاوى تهاوت تطلب العزف والقصفا

عرائس اغنتها الحجول عن الحلى فلم تبغ خلخالا ولا التمست وقفا

تهب على الأعداء منها عواصف ستنسف ارض الشركين بها نسفا

وانتشر لون من الشعر وهو الشعر العاطفي، وبخاصة النسائي منه، المصبوغ بصبغة عاطفية، المرتبط بصورة وجدانية عميقة، بحياة شاعرة وعواطفها وانفعالاتها. وهو يكاد أن يشكل مسرحية عاشتها الشاعرة، وعانت ما فيها من حرقة الانتظار والترقب، وفرحة اللقاء، وقاست بسبيلها هموم البعد والهجران، وكان الشعر العاطفي الصادر من طرفي القصة، وهما شاعران يتحركان ضمن جو عاطفي واحد، ويسعى كل منهما الى هدف واحد، لا يرجوان اكثر من دفء الحنان وساعة لقاء ووصال بين الورد والأزاهير بعيدا عن اعين الناس، بين العناق والضم والارتشاف.

كان خير من يمثل هذا الشعر النسائي حفصة الركونية، من أشراف غرناطة، رخيمة الشعر رقيقة النظم والنثر، أديبة نبيلة فريدة زمانها حسنا وجمالا، مع ظرف وأدب ولوذعيه[2]. وكان صاحبها الشاعر الوزير أبو جعفر بن سعيد العنسي المار الذكر، لم يكن اقل منها شاعرية، ولا أقل منها منزلة اجتماعية، فقد برع في الادب والكتابة والشعر وهو حدث، واعتبر أشعر بني سعيد بل أشعر اهل بلدة[3]. فقد تحققت بهما خلوات، وزورات، ذاقا فيها عذب اللمى، وتهامسا بأرق كلمات الحب والهيام، ونعما بلحظات هنية خالية من رقيب أو حسيب، تقول حفصة الركونية:

---

(١) المقري: النفح، ج٤، ص:٢٨٥، ٢٢٦، ج٥، ص:٢٩٣، ٢٩٥.
المراكشي: المعجب، ص:٣٢٦؛ الحميري: الروض المعطار، ص:٤٧٩.

(٢) ابن الخطيب: الاحاطة، ج١، ص:٤٩٩.

(٣) المقري: نفح الطيب، ج٥، ص:٣١٢(٣) ابن دحية: المطرب، ص:١٠.

ثنائي على تلك الثنايا لانني أقول على علم وانطق عن خبر[1]

وانصفها -لا اكذب الله- انني رشفت بها ريقا أرق من الخمر

وطالما اغرته شاعرتنا بزياراتها، وأثارت فيه لواعج ولهفة بما تقدمه من أصناف الاغراء واسباب الاثارة كقولها:[2]

أزورك أم تزور فان قلبي إلى ما ملتم أبدا يميل

وقد أمّنت أن تظمى وتضحى اذا وافى الي بك القبول

فثغري مورد عذب زلال وفرع ذوائبي ظل ظليل

فعجل بالجواب فما جميل اناتك عن بثينة يا جميل

قال في جوابها:[3]

اجلكم ما دام بي نهضة عن ان تزوروا إن وجدتُ السبيل

ما الروض زوارا ولكنما يزوره هب النسيم العليل

زارها من غدا سقيم هواها وبراه شوقا اليها النحول

وكذا الروض لا يزور ويأتي أبدا نحوه النسيم العليل

وهذه صرعة جديدة في الغزل، وسلوك محدث في تصرف انثى، فقد جعلت الشاعرة من نفسها عاشقة لا معشوقة، ومتهلفة لا متهلّف اليها. مندفعه مع غرائزها وهيامها، ولا تقف حفصة عند هذا الحد، وإنما تندفع أكثر وراء نزواتها وعواطفها متجاوزة حياء العذارى وتمنعهن، فتسمح لنفسها بزيارة الحبيب في بيته، ويصادف أن تجد عنده مجلس انس وشراب، فتتحرج عن الدخول، وتكتب اليه بطاقة تقول فيها.[4]

زائر قد أتى بجيد غزال طامع من محبيه بالوصال

بلحاظ من سمر بابل صيغت ورضاب يفوق بنت الدوالي

---

(١) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص:١٦٦.

(٢) المقري: النفح، ج٤، ص:٢٠٨، ج٥، ص:٣١١.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص:١٣٩؛ المقري: النفح، ج٥، ص:٣١٢.

يفضح الورد ما حوى منه خدّ وكذا الثغر فاضح للآلي
ما ترى في دخوله بعد اذن او تراه لعارض في انفصال

فيهرع اليها الحبيب ابو جعفر ليدخلها، لكنه لم يجدها، فقد عادت فيكتب اليها راغبا في الوصال والانس المتصل.(١)

اي شغل عن الحبيب يعوق يا صاحبا قد آن منه الشروق
لا وذل الهوى وعز التلاقي واجتماع اليه عز الطريق

وما دمنا نتفيأ حنان الشعر النسائي، لا بد أن نذكر إلى جانب شاعرتنا، شواعر غزلات، وأخريات مقلات ازدان بهن المجتمع الموحدي، وأفرزتهن الحياة الفكرية اللامعة في هذا الزمن، وجعلت منهن شريحة اجتماعية على قدم المساواة مع الرجل ولنا مؤشر من قول ابن رشد فيلسوف الموحدين، (الذي أفردله مقعد في مجلس أبي يوسف العلمي). إذ يرى أن المرأة بعامة لا اختلاف بينها وبين الرجل، وإنما هو اختلاف في الكم وليس في المضمون. إن طبيعة النساء تشبه طبيعة الرجال، ولكنهن اضعف منهم في الاعمال التي تتطلب جهداً شاقاً. فطالب بافساح المجال لهن بالعمل،وإعطائهن حرية التعبير والتفكير. وعاب على المشارقة حرمانهم المرأة تمتعها بقواها الانسانية، وكأنها لم تخلق الا للولادة وإرضاع الاطفال.(٢)

يتبين ان هذه فكرة تقدمية وتطور ناضج، وهي خطوة تسمح لنا ان نتصور مقدار تحرر الفكر العربي في نظراته تجاه المرأة، وإفساح المجال أمامها للعمل المثمر، وبناء المجتمع الانساني، فانطلقت المرأة الموحدية الاندلسية، أديبة وشاعرة جنباً إلى جنب مع الرجل تقاسمه الحب، وتشاركه الشعر وهموم الحياة. وقد برزت في فترتنا عدة اسماء منهن على سبيل المثال: الشاعرة الشلبية، وأسماء العامرية، وحمدة بنت زياد المؤدب، فضلا عن حفصة الركونية المارة الذكر، وغيرهن، يقلن الشعر يطفح بالعذوبة والصراحة، وبالعلاقات الغرامية، والجرأة في مزاولة العشق دون حرج أو خوف من عرف اجتماعي أو قيد شرعي، ونتلمس ذلك من خلال اخبار الشاعزة الاخيرة، والشاعرة نزهون بنت الكلاعي، التي كان في سلوكها وشعرها نوع من التحلل والابتذال والفحش، ما يدل على

---

(١) ابن الخطيب، الاحاطة، ج١، ص:٥١١.
(٢) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص:١٦٦؛ المراكشي: المعجب، ص:٤٣٧.
د. محمد مجيد السعيد: الشعر في عهد المرابطين والموحدين، ص:٥٠.

نفسية متحررة ماجنة، لا تعرف الخفر والاحتشام اللذين يجملان في المرأة، ويطلبان منها، وقد اشار بذلك ابن سعيد حينما وصفها بأنها "شاعرة ماجنة كثيرة النوادر"[1]، ولعلها كانت مثقفة ثقافة ادبية واسعة مع خفة روح وجمال فاتن. مما مكنها ان تقف امام شعراء كبار وتجالسهم، كالاعمى المخزومي والكتندي وأبي بكر بن قزمان، تهاجيهم أم تحاورهم، وتجادلهم وتجيزهم[2]. ويقول بعض الرواة ان ما وصلنا من شعرها العاطفي لا نجد فيه تلك المجونية، ولا ذاك التحدي الصارخ لأعراف المجتمع، ولكنه لا يخلو من صراحة منحرفة كقولها.[3]

لله در ليال ما أحيسنها — وما أحيسن منها ليلة الأحد

لو كنت حاضرنا فيها وقد غفلت — عين الرقيب فلم تنظر إلى أحد

ابصرت شمس الضحى في ساعدي قمر — ورئم مجهلة في ساعدي أسد

وربما اجادت في بيتها الأخير في اظهار محاسنها إلى جانب صفات العشيق، وهو ما تحرص عليه، أغلب الاحيان، النساء عامة. ولها قطعة أخرى تتغزل فيها بأبي بكر بن سعيد، وفيها تدعي أنه افضل من غيره، وترديه منزله لا يطولها احد، وقد استعملت في بيتها الثاني تورية معنوية طريفة تقول:[4]

حللت أبا بكر محلا منعته — سواك وهل غير الحبيب له صدري

وإن كان لي كم من حبيب فانما — يقدم أهل الحق حب أبي بكر

فلفظة "أبي بكر" يمكن أن تعني حبيبها، كما تعني في الوقت نفسه أبا بكر الصديق.

أما أسماء العامرية فليس لها سوى قطعة واحدة، بعثت بها الى الخليفة عبدالمؤمن بن علي تسأله، ان يعيد اليها دارها، وما أخذ من مالها[5]. وكذلك الشاعرة الشلبية ليس لها غير قطعة وجهتها إلى السلطان يعقوب المنصور تتظلم فيها من حاكم بلدها الموحدي،

---

(١) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص:١٢١.

(٢) ابن سعيد: المغرب، ج٤، ص:١٢١؛ المقري: النفح، ج٤، ص:٢٩٥، وما بعدها، المقري: النح، ج٦، ص:٧٥.

(٣) المقري: النفح، ج٦، ص:٧٨.

(٤) المصدر نفسه، ج٦، ص:٧٥.

(٥) المقري: النفح، ج٦، ص:٧٢؛ وكانت دار الشاعرة قد صودرت، واموالها قد جمدت.

وصاحب الخراج فيها، وقيل أنها ألقت هذا الشعر في مصلى المنصور، ولما انتهى من الصلاة قرآه، فرق لها، ثم أنصفها وأكرمها.[1]

أما الشاعرة أم السعد بنت عصام الحميري التي توفيت بمدينة مالقة سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م، فهي تختلف في منحاها وسلوكها الشعري عمن سبقها من شواعر غزلات، فهي شاعرة متدينة عفيفة متيمة في الذات النبوية، تود وتتمنى لثم تمثال نعل المصطفى، وليس إكبار القبر وما حوى، والتلذذ بترابه، والالتصاق باحجاره الا تعبيراً عن تقديس صاحب النعل والقبر وتكريما له، وتفخيما لمبادئه وأفكاره[2]، وهذا لا يدخل في موضوع الغزل، وإنما تكملة لشواعر هذه الفترة.

وفي عصر الموحدين ظهر اتجاه في الغزل، التزم اصحابه جانب العفة، وصرحوا بتلك السلوكية حقيقة أو زعما، منهم الفيلسوف ابن طفيل، له قصيدة رقيقة يتحدث فيها عن زيارة محبوبة في الظلام ليلا بعد نيام الرقباء والوشاة، وكان لقاؤهما حارا فيه لوعة وشكوى ودموع مسكوبه، لأنه جاء بعد تهاجر وتباعد، لكنهما رغم شوقهما وتوهج عواطفهما لم ينسيا الطهر والخلق المستقيم، يقول فيها:

ولما التقينا بعد طول تهاجر	**وقد كاد حبل الود أن يتصرما**
جلت عن ثناياها وامض بارق	**فلم أدر من شق الدجنة منهما**
وساعدني جفن الغمام على البكا	**فلم أدر ايّنا كان أسجما**
فقالت وقد رق الحديث وابصرت	**قرائن احوال أذعن المتكتما**
نشدتك لا يذهب بك الشوق مذهبا	**يهوّن صعبا أو يرُخّص مأثما**
فأمسكت مستغنياً عن نوالها	**ولكن رأيت الصبر أوفى واكرما**

أما الشاعرة حمدة بنت زياد المؤدب، وتعرف بحمدونه، وتسمى بخنساء المغرب، لها جودة في الشعر، ورصانة في التركيب، والقدرة الفنية، وهي من وادي آش[3]، وهي ملتزمة في أشعارها جانب العفة إلى حد ما، وتشكو مراقبة الناس، وهي تتبع الحبيب من

---

(١) المصدر نفسه، ص:٧٤.

(٢) المقري: النفح، ج٤، ص:٣٠٠.

(٣) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٤، ص:١٤٥-١٤٦.

مكان إلى آخر، وآخيراً تلجأ إلى الشفيع الاعظم، دموعـها، وتنهداتـها ونظـرات العشيق الحادة تجاه الواشين، وتقول:[1]

ولما أبى الواشون الافراقنا ... وما لهم عندي وعندك من ثار

وشنوا على أسماعنا كل غارة ... وقلّ حماتي عند ذاك وانصاري

غزوتهم من مقلتيك وأدمعي ... ومن نفسي بالسيف والماء والنار

وللشاعرة غزل من نوع ظريف تتعشق بنات جنسها، فخرجت متنزهة إلى نهر 'شنيل' قرب مدينة وادي آش مع جوار كان لها منهن هوى" كما في عبارة ابن سعيد، وسبحت معهن، وتأثرت بالجمال المحيط بها، جمال النهر المنساب، يصافح الروض المعطار، والفتيات الجميلات يعمن برشاقة وخفة، ومن بين اولئك الظباء الرشيقات، مها انسيه ساحرة، خلبت لب الشاعرة، لها لحظ تكمن في تكسره الحلو المطيب، هو الذي يعذبها ويؤرقها في عزّ منامها فأنشأت تقول:[2]

أباح الدمع اسراري بوادي ... له في الحسن آثار بوادي

فمن نهر يطوف بكل أرض ... ومن روض يطوف بكل وادي

ومن بين الظباء مهاة انس ... لها لبي وقد سلبت فؤادي

لها لحظ ترقده لأمر ... وذاك الأمر (اللحظ) يمنعني رقادي

إذا سدلت ذوائبها عليها ... رأيت البدر في افق الدآد[3]

كأن الصبح مات على شقيق ... فمن حزن تسربل بالسواد (أو بالحداد)

وقد رفعت كتابا إلى الخليفة ابي يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن، يتضمن بيتين من الشعر فيه توقيعاً (فوتوغراف)[4].

---

(١) المصدر نفسه، ص:١٤٦؛ المقري: نفح الطيب، ج٦، ص:٦٧؛ ابن الأبار: التكملة، ج٢، ص:٧٨٤.

(٢) ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص:١٤٦؛ المقري: النفح، ج٦، ص:٦٧-٦٨.

(٣) الدآدي: الليالي الثلاث الأخيرة من الشهر.
وفي رواية أخرى: رأيت العجز في افق الدادي، وفي ثالثه رأيت الصبح أشرق في الدآدي، وفي رواية رابعة، تخال البدر اشرق في الدآدي.

(٤) الضبي: بغية الملتمس، ص:٥٤٥.

امنـــن علـــي بصــــك يكـــون للدهـــر عـــدة
تخـــط يمنــــاك فيــــه الحمــــد لله وحــــده

(وهذه العبارة الأخيرة، كانت هي شعار الموحدين).

*** الشعر الماجن:**

لون آخر من أغراض الشعر في عصر الموحدين، ان الحركة الفكرية والاجتماعية التي اتسمت بها مدة بني عبدالمؤمن، هي بلا شك ميزة تاريخية مهمة، طبعت عهدهم بطابع معين، وسنرى كيف تركت اثرها في النشاطات العلمية والفلسفية، فمن الأولى أن تترك بصماتها على الحياة الاجتماعية، وعلى سيرة الفرد ومذهبه واتجاهه، وهو ما تراءى لنا فعلا في مجتمع الأندلسيين.

فأخبارهم وأشعارهم تومىء إلى التحرر والانطلاق، وانعكاس لجوانب البذخ والترف واللهو، التي راجت في أنحاء الأندلس، متعرضه لمجالسهم اللاهية العابثة، واجتماعاتهم المختلطة الصافية، وبخاصة أواخر دولة الموحدين، أيام ضعف السلطة، واهتزاز سيطرتها، وتهاونها بالقيم التومرتية في بداية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وقد بلغ الأمر ببعض الشعراء، أن اعلنوا صراحة الحادهم وزندقتهم بلا تردد أو خوف، متمردين على الأعراف والقيم، متهمين برهق في دينهم، واصفين الاسلام بدين الرعاع، وفي ذلك يقول احمد بن محمد بن طلحة (ت سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م.

يقـول أخـو الفضـول وقـد رآنـا على الايمـان يغلبنـا المجـون
اتنتـهكون شـهر الصـوم هـلاّ حمـاه منكـم عقـل وديـن
فقلـت اصحـب سـوانا نحـن قـوم زنادقـة مذهبنـا فنـون
نديـن بكـل ديـن غـير ديـن الله فمـا بـه أبـداً نديـن
يحـيّ علـى الصبـوح الدهـر ندعـوا وإبليـس يقـول لنـا آميـن
فيـا شـهر الصيـام اليـك عنـا اليـك ففيـك (أكفـر) مـا نكـون[1]

---

(١) ابن الخطيب: الاحاطة: ج١، ص:٢٤٧؛
المقري: النفح، ج٤، ص:٢٩٠.

ولا نستطيع الاحاطة، ولو حرصنا، بأغراض الشعر كافة، في زمن بلغت فيه الحضارة الموحدين أعلى درجاتها، وكانت خاتمة المطاف للحضارة الاسلامية اجمع حتى الآن.[1]

ومن أغراضه الأخرى على سبيل المثال لا الحصر، كثيرة، منها، اليأس، والزهد، والشعر الصوفي، والهجاء، والحنين والتشوق، وكثرت في مدة الموحدين اشعار الغربة، ذات طابع الحنين والتشوق، وذكرى الربوع والصحاب، فهذا الشاعر أبو الأصبغ عيسى بن محمد العبدري (كان موجودا سنة ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م، يشكو بقصيدته اهمال أهل بلده (ألش) لمكانته العلمية والثقافية، مصورا تعذيبه النفسي، وعزلته التي فرضها عليه بنو قومه، حتى أصبح فيهم غريباً. كأنه في جزيرة مسجونا يحيط بها البحر من جميع الجهات، لا ينفلت منها، وهم مع ذلك لا يدركون مقاساته وآلامه، وهو يقول[2]

عدمت باخمالي وجوها من الانس ... فها أنا في الأيام مستوحش النفس

برئت زمانا من حوادث أمرضت ... وألش لعمري اسلمتني الى النكس

أقمت بها كالسيف لازم جفنه ... وإن كنت حيا مثل من دس في رمس

فإني بآدابي أتيت جزيرة ... فعوقبت منها بالاقامة في حبس

وهل وحشة الانسان الا بمثلها ... فصيح لسان بين السنة خرسي

شروني رخيصا ليس يدرون بقيمتي ... وقد تشتري الاعلاق بالثمن البخس

أما شعر الزهد، فإنه بصورة عامة تظهر عليه مسحة الكآبة وروح اليأس، تصل الى حد التخاذل والانهزام، وأول ما صدر عن علماء أتقياء، وزهاد عباد، دفعهم إلى نوع من التشاؤم، والخوف من الناس والحذر منهم، ومن الزهد نظرات قد تبدو غارقة في التواكل والسلبية، وفيها بعد عن التفاعل الاجتماعي، والعمل الانساني، لكنها وقتئذ تمثل الخضوع لله، والتذلل اليه، والرضى بقدره، ومن الزهاد من اتصف بالعزوف عن الدنيا وأهلها، منصرفاً عن الزواج أحياناً، ومن أتقيائهم، أبو عمران موسى بن عمر المارتلي الذي عرف بالورع، والانقطاع للعبادة، وشدة العزلة، وملازمة المسجد، وكان الملوك

---

(١) ابن سعيد: المغرب، ج١، ص:٤٠٦؛ ابن ابي اصبيعة: عيون الانباء، ص:٥٢٤.

(٢) ابن الأبار: المقتضب، ص٦٣.

يزورونه ولا يلتفت اليهم، وتوفي في اشبيلية سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م، وقد عبر عن زهده وتقشفه وقناعته في قوله[١]:

سليخة[٢] وحصير	لبيت مثلي كثير
وفيه-شكر لربي-	خبز وماء نمير
وفوق جسمي ثوب	من الهواء ستير
ان قلت اني مقل	اني اذن لكفور
قررت عيشا بعيشي	فدون حالي الأمير

وتطور شعر الزهد، حتى أفرز فنا جديداً من فنون الشعر الأندلسي، القصيدة النبوية، وكان مولد هذا اللون من الشعر، في أواخر العهد الموحدي، في بداية القرن السابع الهجري، اذ ظهرت فيه المدائح النبوية، مع ذكر فضائل الني ومكارمه، ومنزلته بين الناس، وبين المرسلين والانبياء، وتؤكد هذه الظاهرة مخمسة ابن الجيّان(ت ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م) التي تصل إلى تسع وعشرين مخمّسة مطلعها.[٣]

الله زاد محمداً تكريما	وحباه فضلا من لدنه عظيما
واختصه في المرسلين كريما	ذا رأفة بالمؤملين رحيما

صلو عليه وسلموا تسليما

دار أمة بالمؤمنين رحيما	صلوا عليه وسلموا تسليما

ومن الزهد، التبرك بالأثر النبوي، من القصائد المنظومة في تمثال (نعل) المصطفى محمد، للشاعر علي بن إبراهيم الأنصاري المتوفي سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م يقول:[٤]

يا لاحظا تمثال نعل نبيه	قبّل مثال النعل لا متكبرا
والثم به فلطالما عَكَفَتْ به	قدم النبيّ مروّحاً ومبكرا

---

(١) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج١، ص:٤٠٦؛ ابن الأبار: التكملة، ج٤، ص:٧٨٦.

(٢) سليخة: جلد شاة مدبوغ؛ المعجم الوسيط، ج١، ص:٤٤٤.

(٣) المقري: نفح الطيب، ج١٠، ص:٢٩١-٢٩٥.

(٤) عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، ج٥، ص:١٨٩.

أو مــا تــرى أن الشـــــجيّ مقبّـــلٌ طلــلاً وإن لــم يُلــف فيـــه مخـــبرا

والشعر الفلسفي لون من الزهد، يتمثل في قطعة قصيرة لابــن طفيـل عـالج فيها موضوع الروح وانفصالها عن الجسد، وحقيقة العلاقة بينهما، منها.[1]

يا باكيـــا فرقـــة الأحبـــاب عـــن شـــحط هـــلا بكيـــت فـــراق الـــروح للبـــدن

نـــور تـــردد فـــي طيـــن إلـــى أجـــل فانحـــاز علـــوا وخلّـــى الطيـــن للكفـــن

يا شدة ما افترقـــا مـــن بعدمـــا اعتلقـــا أظنـــها هدنـــة كـــانت علـــى دخـــن

وكانت بواعث هذا الزهد، تناقض الحياة وثقلها، وتغير الأيام وغدرها، فلربما هي ممرّ واسع يخلص الانسان مما يشعر به من تمزق، وألم، ويلهمه الطمأنينـة والهـدوء، ليمده بالقناعة والرضا، ولعل من أسباب الزهـد كذلـك، الشيخوخة والكـبر، ومـا يشعر بـه صاحبها من احاسيس وهواجس محزنه، بقرب الرحيل ودنـو الأجـل، وذهـاب الشباب وقوته اللذين يستمد منهما المرء اعتداده وأمله.

أما شعر الهجاء فمقتطفات في معظمه، تنظم باسلوب بسيط واضح ليسهل فهمـها من قبل الآخرين، وليكون وقعها في النفوس أشـد، وابعـد اثـراً، وقـد تعتمـد اللوحـات (الكاريكاترية) القائمة على الاستخفاف بالاشياء، او ابداء التناقض فيها وتضخيمه لتثير الضحك، ومنه ابيات للشاعر ابي بكر محمد الأعمى المخزومي، نزيل غرناطة، وأصله من المدوّر، وكان لا يسلم من هجوه أحد، وقد تعرض للشاعرة نزهون وهجاها بقوله.[2]

ألا قـــل لنزهونـــــة مالــــــها تجرمـــــن التيـــــه أذيالـــــها

ولـــو ابصـــرت فيشـــةً شـــمّرت -كمـــا عودتنـــــي- ســـــربالها

فقالت فيه:

قـــل للوضيـــــع مقـــــالا يتلـــى إلـــى حيــــن يحشـــر

مـــن المـــدوّر انشـــئت والخـــــرا منــــه اعطــــر

حيـــث البـــداوة امســـت فـــي جهلـــها تتبخـــتر

---

(١) عبدالواحد المراكشي: المعجب، ص:٣٥٢.

(٢) ابن سعيد: المغرب، ج١، ص:٢٢٨.

وللشاعر ابن حزمون باع طويل في هذا الفن (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م)[١]، الذي يقول فيه المراكشي أنه ركب طريقة ابي عبدالله بن حجاج البغدادي.. فأربى فيها عليه...، وله في الهجاء يد لا تطاول.

غير أنه تفحش في كثير منه، وكان بذيء اللسان، صاعقة من صواعق الهجاء، له موشحات في الغرض نفسه، ومن هجوه لرجل من أعيان الأندلس يدعى محمد بن عيسى، بدأها بهجو نفسه، على طريقة الحطيئة، ثم ختمها بهجو ذلك الرجل، ويقول:[٢]

تأملت في المرآة وجهي فخلته ... كوجه عجوز قد أشارت إلى اللهو

اذا شئت أن تهجو تأمل خليقتي ... فإن بها ما قد أردت من الهجو

كأن على الأزرار في عورة ... تنادي الورى غضوا ولا تنظروا نحوي

فلو كنت مما تنبت الأرض لم اكن ... من الرائق الباهي ولا الطيب الحلو

وأقبح من مرأى بطني فإنه ... يقرقر مثل الرعد في مهمه جوّ

ثم ينتقل بعد ذلك لهجو ابن عيسى قائلاً:

وإلا كقلب بين جنبي محمد ... سليل بن عيسى حين فرّ ولم يلو

تميل بشدقيه إلى الأرض لحية ... تظن بها ماء يفرّغ من دلو

ثقيل ولكن عقله مثل ريشة ... تُصفّقها الأرواح في مهمة دوّ

أما قصيدة التشوق والحنين، فتبنى على وصف الرحلة، عبر الصحاري والقفار، وما يواكبها من مشاق ومتاعب، وعلى تصوير الاشواق، والهيام في زيارة ضريح خير الأنام، ومن أجل ذلك لا يريد مع عيسه الراحة او التوقف، ولا حتى شرب الماء، دون مقام الرسول والبيت الحرام لأنه مشتاق وهائم، كما هي عيسه حسرى مشتاقه لبلوغ مرادها، تركض وسط الهجير وفي لهبان الحر ظلعاً غير مبالية، وقد أضناها السرى وأذابها المسير، فقال الشاعر علي بن محمد بن حسن الأنصاري الاشبيلي الجياني الأصل:[٣]

يا حداة العيسى: رفقا أنها ... شكت الجهد وبعد المرتمى

---

(١) المصدر نفسه: ج٢، ص:٢١٤-٢١٧؛
المراكشي: المعجب، ص:٤٢٢-٤٢٣.

(٢) المصادر نفسها.

(٣) عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، ج٥، ق١، ص:٢٩٤.

طاويات لم يدع منها السرّى ودخيل الشوق الا الأعظما

جنبوها مورد الماء فقد حرّمته او تزور الحرما

يا خليلي: رويداً إنها لتعاني الشوق مثلي فاعلما

تبين لنا من خلال دراستنا السابقة لأغراض الشعر وفنونه في عصر الموحدين، مدى نضوج الشعر الأندلسي، ونموه، وتلبيته لحاجات الفرد العاطفية والوجدانية، التي كانت انعكاسا وانسجاما مع جمال الطبيعة الأندلسية اللاهية، اللاهثة وراء مراتب الغناء، وآلات الصهباء. كما اتضحت أصالة الشعر وواقعيته المتمثلتان في تجذير التفاعل بينه وبين أحداث العصر ووقائعه، ولا سيما المآسي الوطنية التي تضمنتها دواوينهم، غير أنه لم يحافظ على مستوى واحد من النمو والازدهار والأصالة طوال عصر الموحدين، فقد كان يصطدم أحيانا بهزات ذات طابع ديني او سياسي تؤثر في تقدمه، وتحد من تفتحه، وتضيق من آفاقه، وبخاصة الأزمات التي تبلورت أواخر فترة الموحدين، حيث اصيب بشيء من الضعف والنكوص، والتراجع؛ فانخفض مستواه الفني، واهتز مبناه وتركيبه، متحولا إلى نظم أقرب إلى النثرية والضحالة الساذجة التي تهتم بموضوعات مألوفة ليست ذات بال، كالشكر والاعتذار وغيرها.

أما خصائصه الفنية وسماته التي تميز بها، أنه كان يعني بالبيت ويحرص على استقلاله، لذلك نجد في قصائدهم مجموعة من الصور المتجاورة غير المتداخلة أو المتلاحمة، وربما يقع التنافر، أو عدم الانسجام احياناً، هذا في الشكل، أما في المضمون، فيكثر الوضوح والصدق، والاغراق في المبالغة والبعد عن التفلسف والتوكؤ على التراث، استمدها الشاعر من ثقافاته الدينية، والأدبية واللغوية، والتاريخية، لتغذية مضامين شعره واثرائها وهناك ملاحظة تجدر الاشارة اليها وهي ظهور قصائد ذات أوزان شعرية تتصل بعروض يسمى الخبب.[١] استعملها ابن حزمون لأول مرة في الأندلس بنى عليها قصيدة تربو على الأربعين بيتا، ومدح فيها أمير المؤمنين يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن، عند صدوره منتصرا من معركة الأرك، استهلها بقوله:[٢]

حيتك معطرة النفَس نفحات الفتح بأندلس

فذر الكفار ومأتمهم ان الاسلام لفي عرس

(١) تفعيلاته (فعلن، ثماني مرات) وهو في الحقيقة بحر المتدارك (فاعلن، ثماني مرات) مخبون التفعيلة.
(٢) المراكشي: المعجب،ص:٤١٩-٤٢١.

٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، في مدح ابي زكريا الحفصي في قصيدة طويلة مطلعها.[1]

قـــامت بـــــالحق خلافتـــــه يتقلـــــــده ويقلـــــــــده

ويمكننا ان نستخلص من ثنايا دراستنا للمدح، سمات منها؛ طغت علـى المـدح في عصر الموحدين مسحة دينية ذات صبغة موحدية متـأثرة بتعـاليم ابـن تومـرت، وبـرزت شخصية النبي موسى -ع- في مدائح الموحدين، اذ لم تكن معهودة او مطروقة مـن قبـل، ودخلت كذلك معاني الاستصراخ، وطلب النجدة كعنصـر بـارز في مدائـح الموحديـن لم يسبقهم اليه من كان قبلهم.

*** الشعر الزجلي والموشحات:[2]**

أول ما ظهر الزجل في زمن الأمير عبدالله بن محمد (٢٧٧-٣٠٠/ ٨٨٨-٩١٢) في الأندلس وله أسبقية على الموشح[3]. لأن الزجل في أصله اغنية شعبية، ولكنه أخذ مكانته الأدبية بعد شيوع الموشح الذي هو شعر منظوم باللغة العامية الأندلسية من غير التزام في الاعراب -وهو هزلي-... لقد تناول الوشاح الموحدي الموضوعـات المطروقـة مـن مـدح وغزل وخمر وطبيعة، وعالج في موشحاته عدا ما سبق، التصوف والهجاء والرثـاء، وكـان الغـرض الأخـير مضمحـلا حتـى جـاء ابـن جبـير وابـن حزمـون (كـان موجـودا سـنة

---

(١) ابن الأبار : المقتضب من كتاب تحفة القـادم، تـح، ابراهيـم الأبيـاري، القـاهرة المطبعـة الأميريـة، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م.

(٢) الزجل والموشح: فن شعري واحد، أما الزجل فيطلق على الشعر السوقي، والموشـح يطلـق علـى الشعر المهذب منه، وهو فن من فنون الشعر العربي يختلف عن غيره من أنواع النظم بكثرة قوافيه، وتعدد أوزانه، وتنميق الفاظه؛

جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص:١٤٣، تر، حسين مؤنس.

(٣) يقول المقّري في نفحه: هكذا أورد جنثالث في كتابه، غير أنني أميل إلى أن الموشح فن منفصـل عـن الزجل وأما الزجل فهو فن شعري للعامة؛ ان الموشح سابق على الزجل "ولما شاع فن التوشـيح في أهل الأندلس، وأخذ به الجمهور لسلاسته، وتنميق كلامه، وترصيع اجزائـه، نسـجت العامـة مـن اهل الأمصار على منواله، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضريـة مـن غـير أن يلـتزموا فيـها اعرابـا، واستحدثوه فنا سموه الزجل"؛

المقّري: نفح الطيب، ج٩، ص: ٢٥٠، دار الفكر، ط١، ١٩٨٦م/ ١٤٠٦هـ.

ابن خلدون: ج١، ص:٥٨٣.

٦١٤هـ/ ١٢١٧م) فكتب الأخير فيه مرثيته الباكية في القائد ابي الحملات الموحدي قائد الاعنة ببلنسية وقد استشهد في حربه مع النصارى، فقال:[1]

يا عين بكي السراج الأزهرا ... النيّرا اللامع
وكان نعم الرتاج فكسّرا ... كي تنثرا مدامع
من آل سعد أغرّ ... مثل الشهاب المتقد
بكى جميع البشر ... عليه لما أن فُقد
والمشرفيّ الذكر ... والسمهريّ المطرد
شق الصفوف وكرّ ... على العدو متئذ

أما الثاني الذي طرق الرثاء في موشحاته، فهو الرحالة ابن جبير، له، كما يذكر صاحب الذيل والتكملة، خمس موشحات في رثاء زوجه (أم المجد)، جمعها مع مرثيات أخرى في كتاب أسماه "نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح"[2] فيه يذكر وفاتها ويتوجع لها أيام حياتها.

ومن مراثيه يقول في زوجه بعد أن فرغ من دفنها بسبتة:[3]

بسبتة لي سكن[4] في الثرى ... وخلٌّ كريم اليها أتى
فلو أستطيع ركبت الهوا ... فزرت بها الحيّ والميتا

ولقد نال المدح والغزل حظا كبيراً من موشحات الأندلسيين، كما بلغ كذلك التصوف عند ابن عربي شأوا عظيما بين أغراض الموشح.

وقد يبتدئ الوشاح المادح موشحته بالغزل ثم يختمها به، أو يختمها بغيره من الأغراض الأخرى، كالفخر بنفسه، أو كذم اعداء الممدوح، وفي بعض المدائح لا يكتفي الوشاح بالغزل وانما يذكي غزله ويثير اشجانه وعواطفه بالعقار فيمزج الكؤوس، ويغترف بنت العنب من كف غلام أهيف، وبعدها يعرج على المديح ليعود ثانية الى حبه

---

(١) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ح٢، ص:٢١٧؛
المقري: نفح الطيب، ج٩، ص:٢٤٥، دار الفكر، ط١، ١٩٨٦م/ ١٤٠٦هـ.
(٢) عبدالملك المراكشي: الذيل والتكملة، ج٥، ق٢، ص:٨٠٦.
(٣) المقرّي: نفح الطيب، ج٣، ص: ٢٤٥؛
(٤) السكن: الزوجة؛ أحمد حسن الزيات: المعجم الوسيط، ج١، ص: ٤٤٢.

واشواقه. وقد يصف مجلس شراب في أحضان الطبيعة ابتداء، وتحت ظـلال خمائلـها، ثـم يمدح فيوجز، ليختم انشاده باظهار الجوى ولوعة الهـوى. فـالغزل، اذن يـلازم مدائحـهم بشكل حاد، ويشاركها بشكل عضوي اقرب ما يكون إلى الديمومة والاستمرار.[1]

أما الطبيعة فقد ذكرت في موشحات المديح مصاحبة بنت الدوالي وسـلافة النبيـذ، بتجاوب حفيفها وانسياب نسيمها مع أصوات الكؤوس وعربدات الأباريق.[2] وخير من يمثل هذه الخصائص، ابن زهر، وابن هرودس، وابن مسلمة وغيرهم، في موشحاتهم.

يقول ابن زهر الحفيد[3] في موشحته.[4]

أيـــها السّـــاقي اليـــك المُشْـــتَكى   كـم دَعَوْنــاكَ وإن لــم تَسْـــمعِ

ونديـــم هِمْـــتُ فـــي غُرّتـــه   وســـقاني الــراحَ مـــن راحتـــه

كلمـــا استيقظ مـــن سَـكْرَتِه

جَــذَبَ الــزِّقَّ اليـــه واتكـــى   وســـقاني أرْبَعـــا فـــي أربـــعِ

وقال ايضاً:

أدرأ كـؤس الخمـر عنبريـة النشـــر   ان الـــروض ذو بشــــر

وقال ايضاً:

ان عينـــي لا أذنبّـــها   اتعبـــت قلبـــي وأتعبـــها

لنجـوم بـت أرقبـها

رمـــت أن احصـــي لـــها عـــددا   وهـــي لا يحصـــى لـــها عـــدد

وغـــزال يغلـــب الأســـد   جئـــت لاســـتنجاز مـــا وعـــدا

فانــزوى عـــني وقــال غـدا

---

(١) ابن الخطيب: الجيش، ص:١٠، ٥١، ٤٦، ١٠٦، ٢١٣.

(٢) المصدر نفسه، ص:٩٩.

(٣) هو أبو بكر ابن زهر الطبيب، الايادي الاندلس الاشبيلي، تفرد هـذا الطبيـب العـالم، فضـلا عـن علمه بالشعر المنظوم والموشح، وحفظ شعر ذي الرمة، وهو ثلث لغة العرب.
ابن خلكان: الوفيات، ج٤، ص:٤٣٤، ٤٣٦.

(٤) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج١، ص:٢٧١-٢٧٩؛
ابن ابي اصيبعة: عيون الأنباء، ص:٥٢٦؛ المقري: النفح، ج٩، ص:٢٤٤.

وقال:

عشيت (شقيت) عيناي من طول البُكا   وبكى بعضي على بعضي معي

قد يَراني في هواكَ الكمدُ   يا لقومي عذلوا واجتهدوا

أنكروا شَكواي مما أجدُ

وقال:

أنحى على رُشْدي وأفقدني (واعدمني) صلاحي

ثغرُتَنَي الأَبصار عن نورِ الصباح (الأقاح)

يسْقيُ بمختلِطَينْ من مسكٍ وراح كالحبَاب العائم في صفحة الماء القَراح

وموشحته:

صادَني ولم يدرِ ما صادا   شادنٌ سَبَا الليث فانقادا   واستخفَّ بالبدر أو كادا

لو أجاز حكمي عليه   لاقترحت تقبيل نَعْليه   لا أقول ألثّم خدّيه[1]

وقال ابن هرودس في موشحته في عثمان بن عبد المؤمن:[2]

يا ليلةَ الوصل والسعودِ بالله عودي   كم بتُّ في ليلة التمني   لا أعرف الهَجْر والتجني

ألثم ثغر المنى وأجني   من فوق رُمّانَتَيْ نُهودِ   زَهْر الخدود

بسَمْع صوت ونقر عود   من كف خُودِ   مَدحُ الأمير الأجل أولى

السيد الماجد المعلّى   تاج الملوك السني الأعلى

لله يوم أغر زاهر   قد حل بالأندلس آمر   قالوا وقد وافت البشائرْ

بالملك السيد السعيد ابي سعيد   افضل من سار بالجنود تحت البنودِ

أكرم بِعلْياهُ من هُمام   امام هَدْيٍ وابن الامم

مبدّد الروم بالحسام

---

(١) ابن أبي اصبيعة: عيون الأنباء، ص:٥٢٥-٥٢٧؛
ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج١، ص:٢٧٣-٢٧٧.

(٢) ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص:٢١٥-٢١٦.

وطرق الوشاح موضوعات مختلفة في فنه المحدث، وتغاضى فيه عن المدح والغـزل، وعرج على التصوف، وانحاز إلى الطبيعـة والخمـر، ولم ينس الرثـاء والهجاء والأمـداح النبوية بشكل يسير، وبذلك تكون الموشحة موازية ومزاحمة للقصيدة في التعريج على كل الفنون المعروفة، فلم تتوقف عند الغناء والانشاد، ولم تنحصـر اسيرة اللـهو والتطريـب، وإنما مارست موضوعات هامة، وأغراضاً انسانية محددة.

وعودة الى تلك الأغراض، لنشاهد ان الطبيعـة والخمـر تلازمـا، والتحمـا في بنـاء الموشحة حتى شكلا أو كادا ان يشكلا نسقا واحداً وشيئا متكاملا. فالخمر والشرب لهما مجالس خاصة، تكون في أحضان الطبيعة وبين خمائلها، وفي متعرجـات بسـاتينها، وجمـال الرياض لا يبدو زاهيا ذا بهاء الا من خلال قرع الكؤوس وجليها، برضاب ابنة الـدوالي، وتمايل الندماء، وعربدتهم. ويظهر ذلك التلاحم والتمازج جليا في موشحة ابـي الحسين بن مسلمة التي منها:[1]

بـــــــــوادي ريّــــــــــه ... اخلـع عِـذار التصـــابي

أمَـــا تــــــراه مفــــــرّعْ، ... مثل الصباح المرصّـــع، ... بالـــروض عـــاد مُجـــزّع

ســـــقاه ريَّــــــــه ... من صفو مـــاء السـحاب

عليـــه خُـــتٌّ المدامــــــة، ... وانظُرْه في شكل لامـه، ... خــاف الريــاض حِمامـــه

فكـــــم خِطَبّيـــــــة ... مُــدّت لـــــه كـــالحراب

دعني مـــن العشــق دعنـــي، ... فكم به هـــاج حزنـــي، ... فــالآن اعشــق دنّـــيّ

وأقصِيــــــــــي ميّــــــــه ... مــع المثّـــى والربّـــــاب

الكـأس اعشـــق عمـــري، ... لله ســاعات ســـكري، ... مــا بيـن ورد وزهـــر

ويقـول: ابـو جعفـر بـن سـعيد في متنزه حـور مؤمـل في غرناطـه، في موشـحته البديعة:[2]

ذهبت شمس الأصيـــل فِضّـــة ... النـــــــهر

اي نـــــهر كالمدامــــــة، ... صير الظـل فِدامـــهْ، ... نســـجتْه الريـــح لامَـــه

وثنت للغصن لامـــه

فلـــهذا بـــالقبول خُـــطٌّ ... كالســـــطر

---

(١) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج١، ص:٤٢٤.

(٢) المصدر نفسه: ج٢، ص:١٠٣، ١٠٤.

حبذا بالحوز مغنـــى، هي لفظ وهو معنـــى، مُذهِبُ الأشجان عنـد كم دريْنا كيف سرينا

بيد أنناء ومع كل ما تقدم، نأخذ على الوشاح والموشح الأندلسي، عدة ملاحظات تتعلق بالتعبير والبناء اللغوي؛ أهمها، أن الوشاح، وبرغم تواجده في بيئة أندلسية مترهلة جميلة، وفاتنة، نراه يقحم الفاظ العيس، والجمال، والرحال، والبيد والصحارى والقفـار، والأنجاد، والأغوار، والأربع الخوالي والأطلال، إلى ما هنالك من تعابير بدوية، ومشـرقية في موشحاته، وربما كان السبب، حب التقليد، أم التـأثر بـالأجواء المشـرقية، مـن خـلال مطالعاته الغزيرة للأدب المشرقي، ويلوح انها تأثرت به، وأملت عليه هذا الأسلوب[1]

وشيء آخر نهمس به على موشـحاتنا فيمـا يتعلـق بالاسـلوب، وبنـاء الجمـل في مضايقة القوافي وغيره، كما في قول ابن حزمون من موشحة.[2]

نضـــــا لبـــــاس الـــــزرد

وخـــــاض مـــــوج الفيلـــــقِ

ولـــــم يُرغـــــه عـــــددْ

ذاك الخميـــــــــــس الأزرق

والحـــور تلثـــم خـــدّ اديمـــه الممـــزّق

وكـــــان ذاك الأســــــدْ فـــي كـــل خيـــل يلتقـــي

٣. المحدثون والفقهاء:

ان بذار النهضة العلمية الكبرى التي نمت وترعرعت، وأتت ثمارها الحلوه، بذرت في أيام أسلافهم المرابطين، التي توكأت ابتداء على جهود ملوك الطوائف الاندلسيين.[3]

إن حديث الرسول أخذ يتبوأ مرتبـة عاليـة في صفـوف الموحديـن، فكـان امامـهم المهدي محدثا ملهما رغم استناده في مهدويته إلى طائفة من الاحاديث المنتحلة التي ابتدعها خيال غلاة الشيعة، لتسويغ مبادئ الامامة والمهدوية.[4] وربما كان ابن تومرت مؤمنا بمثل

---

(١) ابن الخطيب: الجيش، ص:١٧٥، ١٨٥، ١٩٨، وهذه الصفحات فيها امثلة على ما تقدم.

(٢) ابن سعيد: الغرب في حل المغرب، ح٢، ص:٢١٧.

(٣) المراكشي: المعجب، ص:٢٤٣، ٢٤٤، ٢٥٤، ٢٧١، ٢٩٠.
مجهول: الحلل الموشية، ص:١٤٢.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠٢. الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:٨٠، ٨١.

هذه الاحاديث التي تمنيه بقيام الدوله على يديه، فسلك اسلوب الغاية تبرر الوسيلة، طريق الساسة المحترفين، بلجاجة غير مبررة؛ انتقاده الهجومي لأمير المسلمين على بن يوسف، "ارى جواري منقيات"[1]، ووصفه المرابطين بالمجسمه، لعدم ايمانهم بتأويل المتشابهات من آي القرآن الكريم، وكشف "الصوره" اخت علي بن يوسف عن وجهها وباقي نساء المسلمين[2]، وذلك في سبيل الوصول الى قيام الحكومة الموعودة.

وكان عبد المؤمن من المتضلعين بعلم الحديث، بالرغم من انتحاله بدعة الامامة والعصمة كسلفه، وهي من الفلتات التي انكرها رجال السنة، وسجلت في تاريخه، وبدأت هذه الاخيرة تنهار بعد الخليفة الاول؛ فالامير يوسف اشتد في طلب الحديث من أصوله الموثوق بها، على حد قول المراكشي: "... صح عندي أنه كان يحفظ أحد الصحيحين - الشك مني، أما البخاري أو مسلم، وأغلب الظن أنه البخاري- حفظه في حياة ابيه بعد تعلم القرآن..."[3]

يتبين أن يوسف جانب احاديث العصمة المنتحلة الى الاحاديث الصحيحة مع ابقائه مرحليا على رسوم المهدوية والعصمة والامامة.

غير أن ابنه يعقوب المنصور، كان من أشد الموحدين اهتماماً بالحديث وعلمائه، استطاع وبهدوئه المعروف ان يرفض علنا الاعتراف بالامامة والعصمة، وأبقاها لتمارس في خطب الجمعه ومناسبة الاعياد،[4] مداراة للجمهور الساذج. وظل الحال هكذا حتى عصر المأمون، الذي محا آثار العصمه وجميع رسوم المهدويه:

واشتهر في هذا العهد طائفة مبدعة من المحدثين.[5] المعهم القاضي ابوالفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي[6]، من قمة الحفاظ، ومن أقدر أئمة عصره على تمييز

(١) البيدق: أخبار المهدي بن تومرت، ص:٦٧، ٦٨.
(٢) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠١، ٣٠٣.
(٣) المراكشي: المعجب، ص:٣٤٧.
(٤) المراكشي: المعجب، ص:٤١٧، ٤١٨.
(٥) منهم: محمد بن عبدالله بن احمد بن مسعود بن صنعون، ويوسف بن عبدالعزيز المعروف بالدباغ، ثم ابو الخطاب بن دحية، والشيخ ابو الحسن علي بن عبدالملك الكتامي الحميري، المعروف بابن القطان، صاحب كتاب نظم الجمان، الذي استفدت منه كثيرا في هذا البحث، ومحمد بن ابراهيم بن خلف المعروف بابن الفخار المالقي، وكان هذا اماما في الحديث يحفظ صحيح مسلم وشديد الورع والتمسك بالحق، ابن بشكوال: الصلة رقم ١٥١٠.
(٦) ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٣، ص:٥١١؛
ابن بشكوال: الصلة ق١، ج٧، ص:٤٥٣.

صحيح الاحاديث من موضوعها. إماما في علم اصول الفقه وعلم الكـلام، متمكناً من الشروط والاحكام، متقنا للغة العربية، اديبا متبحـرا بالسـير والاخبار، ولـه مشـاركة في علوم كثيرة، وعندما اكتمل شبابه تنقل في رحلة علميـة بـين مـدن المغـرب، واستمع إلى فقهائها، ومن ثم عاد إلى بلده ليتولى القضاء فيها وفي غرناطة مدة من الزمن، ليعـود مـرة ثانية إلى سبتة يتولى منصب القضاء وسط زوابع كثيرة أثيرت حوله لموقفـه المتذبـذب مـن الموحدين، وبقي صامدا لم ينحـن، وأخـيراً أعلـن طاعتـه للآخـيرين، اشـتهرت لـه عـدة تصانيف منها "الاكمال في شرح كتاب مسلم" و"مشـارق الانـوار في تغـير غريـب الحديـث والتنبيهات"، و"العيون الستة في أخبار سبتة"، وكتاب "الشفاء بتصريف حقوق المصطفى" وهو من أشهر كتبه.

وكذلك اخذ علم الكلام نصيبه الكامل من الانتشار والظهور، اذ الزم ابن تومرت المغاربة على الأخذ بمذهب التوحيد الكلامي على طريقة الاشعرية بالأخص[1]. علما أن المغاربة، كانوا قبل هذا الوقت يمقتون علم الكلام، ويسيرون على طريقة السلفيين، فأخذ ابن تومرت بتأويل المتشابه من القرآن.[2]

ومثله علم أصول الفقه، اذ تبوأ مقعد صدق بين العلـوم الدينيـة في هـذا العصـر، ووجد في الذهنية المغربية المجال الأرحب لنموه وازدهاره، غير أنه لم يكن من وضـع ابـن تومرت الذي ابدع لهم مذهبا توحيدياً كلاميا، لكنه لم يحاول فيما يبدو أن يهيء لهم مذهبا فقهيا، بل بقي فقه مالك له السيطرة الكاملة علـى الحيـاة المغربيـة، رغـم الحريـة الكافيـة للمذهب الظاهري ليجد طريقه في النمو والذيوع.[3]

ولقد تزعم الموحدون الدعوة الاجتهادية، وعرفنا كيف حاول عبدالمؤمـن تـأصيل المذهب التوحيدي، وطلب إلى الناس العودة إلى القرآن الكريم، وقـراءة كتـب الحديـث، واستنباط الاحكام منهما، لكنه ركن إلى الـتراجع، ولم يتـابع تنفيـذ اوامـره، كمـا حـاول

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، :٣٠٢؛ الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقليـة الدامغـة، وذهب الى رأيهم في تأويل المتشابه من الآي والأحاديث؛
المراكشي: المعجب، ص:٢٧٥.

(٢) من علماء الكلام في عهد عبد المؤمن: أبو الحسن علي بن محمـد بـن خليـد الأندلسـي الاشبيلي، وأبو عمر عثمان بن عبدالله القيسي القرشي المعروف بالسلالجي الذي يرجع اليه الفضل في اقنـاع المغاربة بعصمة العقيدة التومرتية؛
ابن بشكوال: الصلة، رقم ٢٠٥.

(٣) المراكشي: المعجب، ص:٢٦٤-٢٧٠؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠٢.

خليفته يوسف تنفيذ رغبة ابيه، والاحتكام لفقه يستنبط مباشرة من القرآن والسنة، دون الرجوع إلى أقوال الفقهاء، إلا أن المنية عاجلته، ومات قبل أن يتم هذا المشروع.[1]

أما الذي خطا الخطوة الحاسمة في أمر الفقه، وعجز عن اتمامها أبوه وجده هو الخليفة يعقوب المنصور، إذ أصدر أمر الاحراق، وهز عصا غليظة هدد بها فقهاء المالكية، الذين انحنوا أمام العاصفة ينتظرون الوقت المناسب للظهور[2]. وطلب إلى الناس عدم الاشتغال بعلم الرأي، وهو أول من أمر بقراءة البسملة في أول سورة الفاتحة في الصلوات،[3] تحت طائلة القانون، ثم طلب الى العلماء الحاضرين جمع الاحاديث من المصنفات العشرة[4]، وبعد أن فرغ العلماء من وضع هذا الفقه المأخوذ من الكتاب والسنة، جمع في مدونة واحدة اطلق عليها "موطأ الامام المهدي" بعد وفاة الاخير.

إن الموحدين قد انفوا من التمذهب بمذهب معين[5]، وليس صحيحاً ما ورد عنهم أنهم مقلدون للظاهريه وابن حزم، بل رجعوا إلى الكتاب والسنه، وتركوا الفقهاء يصطرعون ويتجادلون الى نهاية دولتهم، وقد اشتهرت طائفة كبيرة من الفقهاء في هذه الحقبة من الزمن سواء كانوا مالكيين أم موحدين: مثل القاضي عياض المار الذكر، واسحق ابن ابراهيم بن يعمر الفاسي، تولى قضاء فاس ومرسيه، وتبحر في الفقه المالكي[6]. ثم محمد بن أحمد المعروف بأبي جمره، نشأ بمرسية وتولى قضاءها، ثم ناحية بلنسية وشاطبة، واريوله، وكان بصيرا بمذهب مالك متخصصا في تدريسه[7]. أما قاضي الجماعة في مدة المنصور، فهو أبو عبدالله محمد بن علي بن مروان، الذي كان له حظوه عند الخليفة، وله في الفتوى باع طويل، ولا أعلم أحداً كان أفضل في الصحبة عند

---

(١) المصدر نفسه، المعجب، ص:٤٠٠-٤٠٢.

(٢) المراكشي: المعجب، ص:٤٠٠، ويقول المراكشي وهو شاهد عيان "لقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس يؤتى منها بالاحمال فتوضع ويطلق عليها النار".

(٣) ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٧، ص:٤.

(٤) المراكشي: المعجب، ص:٤٠١-٤٠٢، التفاصيل في الفصل الأول من هذا البحث.

(٥) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج٧، ص:١٠، ١١. اورد المعجب ان المنصور وابنه ابراهيم على مذهب ابن حزم الظاهري، ص: ٤٤١.

(٦) التكمله: رقم ٥١٧.

(٧) ابن الابار: التكمله، رقم: ١٥١٤.

السلطة يداً منه، وإذا ما شعر بتغير نحوه من النظام القائم. هدد بالاستقاله.[1] لأن وظيفة قاضي الجماعة منصب خطير يعادل سلطة الأمير الحاكم نفسه.

وكان من أكثرهم تملقا إلى الخلفاء، القاضي المكيدي، الذي رافق المأمون (الخليفة وقتئذ) في رحلته الانتقامية من اشبيلية إلى مراكش، واعتمده مفتيا للدولة، ومستشاراً خاصة له، لا يبرم أمراً دون أخذ مشورته، في ظل مناخ مازالت عقيدة ابن تومرت تأخذ دورها المؤثر. غير أن المفاجأة التي نقلتها الاخبار من العاصمة؛ -تخلي سكانها عنه(أي عن المأمون)، ومبايعة أشياخها والسياسين فيها ابن أخيه 'يحيى' بعد أن انحدر من اشبيلية ميمما شطر مراكش-، جعلته يتريث قليلاً ويطرق مليا، ليستنجد بالنصارى، ويستأصل جذور الفتنة، فيدمر العقيدة التومرتية، بناء على نصيحة قاضيه المذكور. وبخاصة في أمر التصفية والملاحقة التي طالت زعماء الموحدين، ورؤساءهم. وبعد أن مارس معهم الحرب النفسية والتبكيب، قطع بالسيف اعداداً لا تحصى من رؤوسهم دون رحمة، وساق منها إلى مراكش وحدها اربعة عشر الف رأس، تعلق على جذوع اشجارها للعبرة، ولم يرحم صغيراً ولا ذا رحم، وسط حمام من الدم يديره ببراعة قاضية المذكور 'إنك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجراً كفاراً'.[2]

ومن المفتين البارزين الذين اتصفوا بالصلابة والمعرفة بمدينة مرسية محمد بن احمد بن محمد بن ابي العافية اللخمي، اشتهر بالفقه، وكان مرجعاً ترجع اليه الدولة في

---

(١) ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٧، ص:١٠.
ومن القضاة الآخرين الذين تعاونوا مع الامراء الموحدين وخدموا دولتهم، وهم طائفة كبيرة، فهم: ابو محمد عبدالله بن حجبل المغربي الوهراني، وعبدالله بن عبدالرحمن المالقي، وابو عبدالله محمد بن مروان لوهراني، وأبو القاسم محمد بن محمد بن يقي، وأبو العباس بن مضا القرطي، ومحمد بن عيسى بن عمران واحمد بن عبدالرحمن بن محمد البطروجي، واحمد بن محمد بن احمد بن رشد قاضي قرطبة؛ ابن بشكوال: الصلة، ق١، ج٢، ص:٢٨، ٨٣.
المراكشي: المعجب، ص: ٣٥٧، ٢٩٣، ٣٨٢، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٦١.
ابن ابي زرع: روض القرطاس، ص:٢٠٦-٢١٦؛
(٢) مجهول: الحلل الموشية، ص:١٦٥؛ سورة نوح ٢٧/ ٧٠؛
ابن ابي زرع: روضن القطراس، ص:٢٥٢-٢٥٣.
وكان لهذا القول مناسبة، في أمر صبي هوابن اخت الخليفة المأمون، لا يتجاوز ثلاثة عشر عاما، حينما جاء دوره في القتل، فقال لخاله: اعف عني لثلاث: قال له ما هي: قال صغر سني، وقرب رحمي، وحفظي لكتاب الله العزيز، فنظر إلى القاضي كمستشير، ويبدو أنه رق له: 'وقال للقاضي: كيف رأيت قوة جأش هذا الغلام واقدامه على الكلام في هذا المقام؟'. فرفض القاضي، وقال قولته السابقة، فقتل الغلام بناء على فتواه.

المعضلات الدينية، وتوفي عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م والقاضي محمد بن ابراهيم بن خلف المالقي المعروف بابن الفخار، اشتهر بالفقه والحفظ.[(١)]

أما أكثر الفقهاء حفظا وأبعدهم صيتا، عالم متفنن اصولي محدث مشهور أديب شاعر جيد الشعر، مؤلف، رئيس وقته، وهو آخر علماء الأندلس وأئمتها وحفاظها، هو محمد بن عبدالله ابن محمد بن عبدالله بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن العربي المعافري الاشبيلي، قاضي قرطبة، المكنى بأبى بكر، كان من العلماء الرحالة الذين تركوا بلدهم إلى المشرق سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م، فدخل دمشق، والتقى أبا بكر محمد بن الوليد الطرطوشي، واستمع اليه، ورحل إلى الحجاز في موسم سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م، وأمّ بغداد مرتين، وصحب أبا بكر الشاشي، وأبا حامد الطوسي الغزالي، وغيرهما من العلماء والادباء، ثم صدر عن بغداد، الى مصر وأقام بالاسكندرية، واجتمع إلى علمائها، وخلف أباه متوفياً فيها سنة ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م،[(٢)]. ثم انصرف عائداً إلى الأندلس بحصيلة كتب تربو على الاربعين تأليفا. تتلمذ على يديه عدد من العلماء، يقيمون عنده عدة اعوام، فكثر حساده وأعداؤه، وأوذي في ذلك بذهاب كتبه وماله، فأحسن الصبر والتجلد.[(٣)]

قال الشعر ومن أجوده:[(٤)]

وقد قيل يشقى الحاسدون بسعيهم ... ألا إنما المحسود أشقى وأنصب

يريد بي الأعداء ما الله دافع ... وفيض المعالي والجلال المهذب

يسرّ لك البغضاء نارا يحشّها ... عليك لسان باد العظم اشنب

ومن العلماء المجيدين العلامة، أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي البلنسي المعروف بابن دحية المتوفى سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م[(٥)].

---

(١) الضبي: بغية الملتمس، ص:٥٤، ٥٧، ٨٢.

(٢) ابن قنفذ: الوفيات، ص:٢٧٩، ٢٨٠؛ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج١، ص:٢٥٤؛ ويذكر الضبي: بغية الملتمس، ص:٩٢-٩٩، ان ابن العربي ذهب إلى دمشق برفقة إبنه.

(٣) من هذه الكتب كتاب أنوار الفجر، و أحكام القرآن، و التلخيص في مسائل الخلاف، وكتاب القبس، وكتاب العواصم من القواصم، وأحكام القرآن، وقانون التأويل وغيرها؛ الضبي: بغية الملتمس، ص: ٩٣؛ النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص:١٠٥، ١٠٦.

(٤) الضبي: بغية الملتمس، ص:٩٤-٩٨.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص:٢٩٦.

٤- المؤرخون:

لم يخرج هذ العصر مؤلفات مهمـة ذات شـأن في التـاريخ، وإن كـان علمـاؤه قـد خلفوا لنا عدداً لا بأس به من معاجم التراجم. أما المؤلفات التاريخية الذي تنسبه المراجع إلى هذا العصر قد ضاع معظمه، ونكاد لا نعثر على مؤرخ ذي أهميـة إلا في آخـر عصر الموحدين، اذ كانت هناك حركة ناشطة في مجال التاريخ، فشارك فيها مؤرخون معاصرون للأحداث، ومن أشهرهم: ابن بشكوال، وابن الأبار، وابن صاحب الصلاة وعبدالواحـد المراكشي، وابن سعيد، وأبو بكر يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري الغرنـاطي[1]، وأبـو الحسن السالمي الذي أرخ اخبار الفتنة الثانية بالاندلس، وروى في كتابـه، أخبـار الصـراع بين دولة لمتونة وبني عبدالمؤمن، ورتبه حسب السنين، وبدأه سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م، وبلغ به سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٣م. ولكننا لم نعثر على هذا الكتاب،[2] وأرخ لهـذه الفـترة كذلـك المؤرخ، اليسع بن عيسى بن حزم الغافقي (ت ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م)، ولـه كتـاب، "فضـائل اهل المغرب"، ولكن لم يعثر المهتمون إلى الان على هذيـن الكتـابين، وقـد ضـاعت كتـب كثيرة ليست بذات قيمة كبيرة، وأهم منها كتـاب المن بالامامـة لابـن صـاحب الصـلاة، الجزء الثاني منه، وربما كان أحسن ماكتب في تاريخ الموحدين، وتوكأ عليه كـل مـن أتـى بعده من المؤرخين.[3]

أما وقد نشط بنو سعيد بالأدب، وألمنا في ما سبق بذكـر أبـي جعفـر بـن سـعيد صاحب حفصة الركونية، واشترك بنو سعيد في تـأليف كتـاب "المغـرب في حلـى المغـرب" وكتاب "المشرق في حلى المشرق"، ونهجوا في التصنيفين كلهيما مرتبا على حسـب البـلاد، حتى إذا ما ذكر مدينة تكلم عنها، ثم عطف على كورها (قراها)، واسهب في كل منهما، اذ يبتدئ بحاضرة مملكتها من تعريف بمكانها من الاقاليم، ومن بناها، ومـا يحيـط بـها، أو يكتنفها من أنهار أو متنزهات، أو معادن، أو زراعات وصناعات، ومن تعاقب عليها مـن أبناء الملوك، وما تتجمل به من طبقة الأمراء، وطبقـة الرؤسـاء، وطبقـة العلمـاء، وطبقـة الشعراء، وطبقة اللفيف، أي الذين ليس لهم حظ من النظم، ثم يعود ويقسـم الأندلـس، إلى غرب ووسط وشرق، ويفرد لكل قسم كتابا، وينحو فيه المنحى السابق،[4].

---

(١) جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص:٢٤١.

(٢) المقري: النفح، ج٤، ص:١٧٥.

(٣) عبدالهادي التازي: مقدمة المن بالامامة، ص:٤٧-٥٠.

(٤) ابن سعيد: المغرب، ج١، ص: ٣٣-٤٤٥
جنثالث: تاريخ الفكر الاندلسي، ص٢٤٣-٢٤٥.

ويجدر بنا ان نثبت دراسة واضحة لما أنجزه المؤرخون الثلاثة الأوائل، فضلا عن عدد آخر من المؤرخين، اخص بالذكر منهم المؤرخ الجغرافي الأديب المعاصر للأحداث، الذي اعتمدت عليه هذه الدراسة كثيرا، هو عبدالواحد المراكشي الذي كان رفيقا لامراء بني عبدالمؤمن وفي خدمتهم[1]، وهو المؤرخ المنفي إلى المشرق، والشاعر الذي ليس له ديوان، مثلما هو مؤرخ ليس له تاريخ الا هذا الكتاب الذي أملاه في بلاد الغربة، ويتبين أنه نفي لأسباب سياسية، كما يتضح ذلك في ثنايا الكتاب، وإلى مثلها يبعد الزعماء، وأهل الرأي عن بلادهم أيام الجور والطغيان.

❖ ابن بشكوال: "٤٩٤- ٥٧٨/ ١١٠٠-١١٨٢"

هو أبو القاسم خلف بن عبدالملك بن مسعود بن موسى بن بشكوال،الخزرجي الانصاري الاندلسي.[2] وفي مقدمة كتاب الصلة: أبوالقاسم خلف بن عبدالملك بن مسعود بن موسى بن بشكوال بن يوسف بن دامه "داحه" الانصاري، ويقول عنه ابن خلكان: هو أبو القاسم خلف بن عبدالملك بن مسعود بن بشكوال بن يوسف بن داحه بن داكة بن نصر بن عبدالكريم بن وافد الخزرجي الانصاري القرطبي.[3]

ينحدر هذاالمؤرخ من قرية شرّين "Sorrion" بضواحي بلنسية في شرق الاندلس، أما مولده كان بقرطبه عام ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م وقيل غير ذلك، ويبدو ان سبب هذا الاختلاف في يوم مولده، ان ابن بشكوال كان له يجيب من يسأله عن مولده، ويقول لسائله معنفا، أقبل على شأنك، ليس من مروءة الرجل ان يخبر بسنه[4]

وهو عالم بحاثة، ومن كتّاب السير، وراوية اخبار بلاد الاندلس، تتلمذ اولا على والده، وأخذ عن معاصريه، مثل: ابن عتاب، وابن رشد، وأبي بحر بن العاصي، وأبي الوليد بن طريف وأبي القاسم بن بقي، وشريح بن محمد، والقاضي ابي بكر بن العربي، وأبي علي بن سكرة الصدفي، وأبي القاسم بن منظور،وغيرهم، وانتقل إلى إشبيلية ليستمع إلى علمائها، وبخاصة من ابن العربي، وشريح المذكورين، وسافر إلى المشرق، ميمماً بغداد، فالتقى هبة الله بن أحمد الشبلي، وانضم إلى مجلسه وإلى آخرين هناك.

---

(١) المراكشي: المعجب، ص:٣٥٦، ٤٣٩، ٤٤١.

(٢) ابن قنفذ: كتاب الوفيات، ص:٢٩٠، تح، عادل نويهض، دار الافاق، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣، ابن بشكوال: الصلة، ق١، ص:٤، الدارالمصرية، القاهرة.

(٣) ابن خلكان: الوفيات، ج٣، ص:١٣، ط، القاهرة، لا تاريخ؛ نفسه، ج٢، ص٢٤، دار صادر، بيروت، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

(٤) ابن بشكوال: مقدمة الصلة، ص:و

وراسله جم غفير من العلماء سواء كانوا من اهل المشرق ام من اهل المغرب، ثم عاد إلى الاندلس، وتتلمذ على يديه كثير من العلماء، نذكر منهم علــى سبيل المثـال لا الحصـر: الحافظ ابا بكر بن خــير، وابـا بكـر بـن سمحـون، وابـن بقـي، موسـى بـن عبدالرحمـن الغرناطي، وابا الخطاب بن دحيه، وغيرهم.[1]

فهذه المجموعات الكبيرة من الاساتذة، الذين اخذ عنـهم، والذيـن تتلمـذوا عليـه، والجو العلمي الذي عاشه، والحياة العلمية التي كانت تتميز بها المدن الاندلسية، كل ذلك أكسبه معرفة واسعة بالابحاث التي طرقها، كما اتسعت معارفه التاريخية، وله فيها مجلدات عديدة؛ اهمها كتاب الصلة في مجلدين، وهو آخر ما يصل اليه كتّاب التراجم، لا يسـتغني عنه رجال التاريخ والادب وعلماء الفقه، واعتمد فيه مؤلفه على تاريخ الاندلـس لأبـي بكر حسن بن مفرج المعافري القبش القرطبي.[2] الذي جعله تتمه لكتاب بن الفرضـي في "تاريخ العلماء والرواة بالاندلس"، وجاء ابن الابار بعده، فذيل كتابه وسماه "التكملـة"، ثـم جاء ابو جعفر بن الزبير فوضع له تذييلاً آخر اسماه "صلة الصلة"، وكتاب الصلة يعتبر من أوثق مصادر التاريخ للآن.[3]

ووصل، كتاب ابن بشكوال المذكور، ابوالقاسم بن حبيش "عبدالرحمن بن محمد بـن عبدالله بن يوسف الانصاري "٥٠٤-١١١١/ ٥٨٤-١١٨٨"، وهو استاذ الضـبي صـاحب كتاب بغية الملتمس في تاريخ رجال اهل الاندلس "٥٥٩-٥٩٩هـ" "١١٦٣-١٢٠٢" ولابن بشكوال كتب منها: "معرفة العلماء الافاضل" في مجلدين، ولـه عـدة مؤلفـات تربـو علـى الخمسين، وأخص بالذكر منها، "الفوائد المنتخبة من الحكايات المستغربة" في عشرين جزءا، و "كتاب المحاسن والفضائل في معرفة العلماء الافاضل" في واحد وعشـرين جـزءا، واسـند إلى اساتذته نيفاً واربعمائة كتاب، أخذ منها عن ابن عتاب وحده نيّفاً ومائة كتاب[4]، كان هذا العالم بعيد الافق، كثير الرواية، شديد الملاحظة، دقيق الاخـذ، واسـع المعرفـة، نـاقدا محللا للراوي والرواية، مـيزة اتصـف بـها عـن غـيره، واهتـم بتـاريخ الاندلـس القديـم والحديث، ولم يترك خبرا صغيرا او كبيرا، لا شارده ولا وارده إلا ذكرها بخطه، اشتغل في

---

(١) ابن بشكوال، الصلة، ق١، ص:و.

(٢) جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الاندلسي، ص:٢٧٥.

(٣) المقري: النفح، ج٤، ص:١٧٥.

(٤) ابن قنفذ: الوفيات، ص:٢٩٠، ٢٩١.

اثناء حياته مدة مـــن الوقت بولاية القضاء في بعض جهات اشبيلية تابعا لأبـي بكـر بـن العربي وعقد الشروط ببلده.(١)

عاش هذا المؤرخ حياته فقيرا متقشفا، يرضى بالدون من العيش، علـى أن يـترامى علـى أعتـاب الحكـام والمسـؤولين، وبقـي كذلـــك إلى أن وافتـــه المنيـــة بقرطبـــة عـــام ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م.(٢)

❖ ابـن الابـار: ٥٩٤/١١٩٨- ٦٣٥/١١٣٨

أبو عبدالله محمد بن عبد الله بن ابي بكر بن عبدالله بن عبدالرحمن بن احمد بن ابي بكر القضاعي الاندلسي البلنسي الشهير بابن الابار.(٣) مؤرخ كبير، ربما كان اكبر مصنف لمعاجم الرجال أفرزته الاندلس، اديـب نـاقد، كـان مـن اعلـم النـاس بتـاريخ المسـلمين السياسي والعلمي والادبي، وهو من اهل بلنسه، أصله من انده.(٤) اشتغل كاتبـا لامـراء الموحدين في بلده للسيد أبي عبدالله بن ابي حفص بن عبدالمؤمن، ومن بعـده لابنه أبي زيد.(٥) وقد رافق الاخير، عندما خرج معلنا الحـرب علـى النصـارى، إلى قلعـة ايـوب، ولكنه انفصل عنه، حالما اعتنق ابو زيد النصرانيـة، وعـاد الى بنلسـية كاتبـا للامـير زيّـان مردنيش، نشأ ابن الابار في بيت علـم وديـن وعفـاف، وتتلمـذ علـى كبـار شـيوخ بلـده وغيرها، وتولى قضاء دانيه ٦٣٢هـ/ ١٢٣٥ لفترة قصيرة، سرعان مـا عـزل مـن منصبـه، وارسله ابن مردنيش، -الذي صمد مقاوما لحرب الاستنزاف النصرانية، إذ عولـت عليـه بلاد شرق الاندلس، بعد ان خاب ظنهم بقيادة الموحدين-، سفيرا علـى رأس وفـد مـن بلنسية، المدينة التي اصبحت هدفا للقوات المعادية الاسبانية وغير الاسبانية، إلى أبي زكريا

---

(١) الشرط: ما يوضع ليلتزم في بيع أولحوه، وفي الفقه، مالا يتم الشـيء الا بـه؛ أحمـد حسـن الزيـات: المعجم الوسيط، ج١، ص:٤٨١؛
ابن منقذ: الوفيات، ص:٢٩٠-٢٩١.
ابن بشكوال: الصلة، المقدمة، ص: ي.

(٢) المصدران: نفساهما.
جنثالث بانلثيا: تاريخ الفكر الاندلسي، ص:٢٧٥.

(٣) الغبريني: عنوان الدراية، ص:٣٠٩، المقري: نفح الطيب، ج٣، ص:٣٤٥، ابـن سـعيد: المغـرب في حلى المغرب، ح٢، ص:٣٠٩، ج٣، ص:٣٠٣، ٤٧٧.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٤١٨
ابن منقذ: الوفيات، ص:٣٢٤، ٣٢٥.

(٥) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٤١٨، المقري: نفح الطيب، ج٣، ص:٣٤٦، جنثالث بالنثيـا: تـاريخ الفكر العربي، ص:٢٧٧.

الحفصي، وريث الموحدين؛ ففي افريقية (تونس)، يستصرخه لانقاذ شرق البلا وعاصمته بلنسية، التي ضرب ملك برشلونه عليها حصاره، والح في الهجوم مصمما على احتلالها مهما غلت التضحيات، فادى ابن الابار الرسالة وانشد قصيدته المشهورة على روي السين امام الامير الحفصي، يحثه فيها لانجاد المسلمين قبل فوات الاوان مطلعها:

ادرك بخيلك خيل الله اندلسا ان السبيل الى منجاتها درسا[1]

استجاب السلطان لاغاثتهم، وجهز الاساطيل وشحنها بالسلاح والمؤن والاموال، وتوجهت صوب الاندلس، في حين شدد المحاصرون مراقبتهم للشواطئ، ومنعوا وصول الامدادات الى المدينة المنكوبة، وعزلوها عزلا تاما، مما اعاق تقدم سفن اسطول الاغاثة الى بلنسية، وتحولت إلى ميناء دانية، وافرغت حمولتها فيه، ولم يتمكن اهل المدينة المحاصرة من الاستفادة من هذه الامدادات التي وصلت بعد فوات الاوان[2].

وعند سقوط المدينة تسلل ابن الابار الى دانية، وابحر الى بجاية، واختارها مقرا له ثلاثة أو اربعة اشهر، وكان على معرفة تامة بها قبل هذا التاريخ[3] وارتحل بعدها الى تونس، بدعوة خاصة من الامير، والتحق بأبي زكريا الحفصي الذي ولاه رئاسة كتاب الرسائل، لكنه عزل من منصبه لافتقاره الى التواضع واتصافه بالأنفه التي ينفر منها الملوك عادة[4]. استشاط ابن الآبار غضبا، ولم يحترم غياب السلطان، فوشى به الحاسدون وعوتب على ذلك، ولكنه لج في كبريائه، ورمى القلم "وكان بيده" وانشد متمثلا:

واطلب العزفي لظى ودع الذل ولو كان في جنان الخلود[5]

فوصل خبره الى أبي زكريا، فوضعه تحت الاقامة الجبرية في بيته. لكنه هذه المرة أظهر ندمه للسلطان وتوبته، واستجار بابنه المستنصر، ثم استعتب بتأليف رقعة اليه عدّ فيه

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٨٦-٣٨٨.
ابن منقذ: الوفيات، ص:٣٢٤.
والقصيدة كلها مذكوره بابن خلدون، ارجع اليها ان شئت وفي كتاب النفح المقري: النفح، ج٣، ص:٣٤٥-٣٤٩.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٨٥-٣٨٨.

(٣) الغبريني: عنوان الدراية، ص: ٣١١.

(٤) ابن منقذ: الوفيات، ص: ٣٢٥
جثالت بالنثيا: تاريخ الفكر الاندلسي، ص: ٣٤٦.

(٥) المرجع نفسه، جنثالت؛ المقري: النفح، ج٣، ص: ٦٤٣.

ممن عوتب من الكتاب واعتب، وسماه أعتاب الكتاب[1]. فـأفرج عنـه السـلطان، ونـال الحظوة عنده، واصبح وزيراً للخليفة المستنصر، غير ان ابن الآبار كان يتيه عجبـا بنفسـه، بعيدا عن الكياسة والسماحة، سريع الغضـب، طويـل اللسـان، حتـى في حـق السـلطان نفسه، وأخذ يتنبأ بزوال الدولة الحفصية، فانثال عليه حساده، وأوغـروا صـدر السـلطان عليه، فأمر الامير بنفيه إلى بجاية، فانصرف ابن الآبار فيها الى التأليف والبحث، واستدعى من المنفى للتحقيق معه، إذ اتهم بالتحريض والتآمر، وداهمت الشـرطة بيتـه، ووجـدت، أثناء التفتيش بين أوراقه، وادانته رقعة من الشعر مكتوب في أولها:

طغـــــى بتونـــــس خلــــــف ســــموه ظلمـــا خليفــــــة[2]

فثبت للسلطان صحة التهم المسنودة اليـه، فـأمر بجلـده بالسـياط، ثـم قتلـه طعنـاً بالرماح، واحرقت جثته مع مجلداته وكتبه ودواوينه التي اربت على خمسة وأربعين كتابـا، وذلك ضحوة يوم الثلاثاء ٢١ محوم سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م[3].

ومن كتبه "التكملة لكتاب الصلة" في تراجـم علمـاء الانـدلـس، "والحلـة السـيراء" في تراجم امراء المغرب، و "أعتاب الكتـاب"، و "تحفـة القـادم"، و "الغصـون اليانعـة في محاسـن شعراء المائة السابعة"، وخلف لنا معجم تراجم آخر "المعجم في اصحـاب القـاضي الامـام أبي علي الصدفي بن سكرة"[4].

اعتمد مؤرخنا في تآليفه على عدد غفير من شيوخه تتلمذ عليهم، وكاتبهم، سـواء كانوا من الشرق أم من المغرب، كأبي الربيع بن سالم، وسـليمان بـن موسـى ابـي الربيـع الحميري الكلاعي" خطيب وعالم بصناعة الحديث، وكتب اليه ابن جمرة، وأبو عبداللة بـن عبد الرحمن التجيبي المرسي أشهر من حدّث، وهو من علماء التراجم المعدوديـن، فضـلا عن العالم الاندلسي[5].

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٤١٨؛ المقري: النفح، ج٣، ص: ٣٤٦.

(٢) ابن خلدون: العبر ، ج٦: ٤١٩؛ ص: ٤١٩؛ المقري: النفح، ج٣، ص: ٣٤٧ ابن منقذ: الوفيـات، ص: ٣٢٥.
جنثالت بالنثيا، تاريخ الفكر الاندلسي، ص: ٢٧٨.

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤) الغبريني: عنوان الدراية، ص: ٣١٠-٣١١.

(٥) المصدر نفسه يقول ابن الآبار: سمعت عن محمد بن احمد الانصاري المعروف بالاندلسي" من يغمزه فتركت الاخذ عنه "ت ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م".

وتتلمذ على المشارفة، كابي البركات عبد القوي بن عبد العزيز السعدي الاغلبي المصري المالكي، الاخباري راوي السيرة، وأبي الطاهر اسماعيل القلعي وغيرهم[1]. ولابن الأبار أشعار وقصائد، لو لم يكن له من الشعر الا القصيدة السينية المار ذكرها لكفاه فخرا، وكان من أول انشاده لما مثل بين يدي المستنصر الحفصي[2].

بشراي باشرت الهدى والنورا ... في قصدي المستنصر المنصور

وإذا أمير المؤمنين لقيته ... لم ألق الا نصرة وسرورا

وقال:

أمير المؤمنين لنا غياث ... فعند المحل تُستسقى الغيوث

فلا حرج ويمناه الغوادي ... ولا خوف وقتلاه الليوث

وقال يمدح المستنصر[3]

ان البشائر كلها جُمعت ... للدين والدنيا وللامم

في نعمتين جسيمتين هما ... برء الامام وبيعة الحرم[4]

وقال:

فخر لشعري على الاشعار يحفظه ... خليفة الله كان الله حافظهُ

وقال:

الا اسمع في الامير مقال صدق ... وخذه عن امرىء خدم الاميرا

---

(١) المصدر نفسه والصفحة.

(٢) المصدر نفسه، والصفحة.

(٣) المقري: النفح، ج٤، ص: ١١٩-١٢٠.

(٤) بيعة الحرم: ان اهل مكة خطبوا للمستنصر صاحب تونس بعرفة وكتبوا له البيعة، من انشاء ابن سبعين المتصوف، وهذا الاخير من أهل مرسية رحل الى تونس، وهو من المتصوفة الفلاة، وتكلم بمذاهب غريبة، رمى بالكفر والفسق من قبل الفقهاء، وطاردته الجماهير، فهرب ولحق بالمشرق، ونزل مكة، ولجأ الى جانب شريف مكة يحتمي به، وهو الذي حرض الشريف على أمر البيعة للمستنصر، المقري: نفح الطيب، ج٢، ص: ٣٩٣-٤٠٨؛ ابن خلدون: لاعبر، ج٦، ص: ٤٠٧-٤١٧.

متى يكتب تردْ وشلا أجابا وإن يركب ترد عذبا نميرا[1]

❖ عبد الملك بن صاحب الصلاة

هو عبد الملك بن محمد بن أحمد بن ابراهيم الباجي، المكنى ابا مروان، وأبا محمد المعروف بابن صاحب الصلاة، أصل اسرته من مدينة باجة، واستوطن اشبيلية، ظهر ابن صاحب الصلاة، ليدخل ميدان المجد بكتابة المن بالامامة عام ٥٥٧هـ/ ١١٦١، حينما حل بقرمونة بعد فتحها بقيادة الشيخ عبداللة بن أبي حفص الذي امر بغسل مسجدها وتطهيره من الشرك بعد تطهيره من المشركين، فدخل مؤرخنا المذكور المسجد مهنئاً الامير بالفتح، فأخذ ينفتح له الحظ حتى انتخب وزيرا للاشغال في الاندلس مدة الموحدين، وكان تدخل الدولة في عمله الخاص بانتقاء موظفين وعزل آخرين، مما أجبره أن يعتزل منصبه[2] مقيماً في قرطبة في عداد الكتاب المرموقين، وأحد أعضاء وفد اشبيلية الذين خرجوا يستقبلون السادة ابا يعقوب وأبا سعيد حين عبورهم البحر الى الاندلس[3] ويظهر مؤرخنا في سنة ٥٦٠/ ١١٦٥ ضمن موكب السيد ابي سعيد ليلتقي أخاه ابا حفص في جبل طارق، الذي حضر من مراكش موفدا من قبل الخليفة لازالة التوتر بين أبي سعيد وبين أخيه أبي يعقوب إثر تولي الاخير الخلافة[4] ومن هناك تقدم ابن صاحب الصلاة ليكون ضمن حاشية السيدين للالتقاء مع أمير المؤمنين في العاصمة، وهناك استوطن مراكش ليتعلم عقيدة التوحيد عن طريق اطلاعه على كتب ابن تومرت: الطهارة، واعز ما يطلب وغيرها، ومن ثم عاد ابن صاحب الصلاة، واشتغل مدير مكتب حاكم غرناطة الجديد (كاتم سره) الشيخ محمد بن ابي ابراهيم، صديقه القديم، عام ٥٦٤/ ١١٦٩. ولكنه سرعان ما افتقد صديقه حينما أمره حاكم غرناطة بالعودة على جناح السرعة الى مراكش، في حين زهد ابو مروان العمل الوظيفي في غياب صديقه، فاستغل شفاء امير المؤمنين من مرضه، وترأس وفد الاندلس لتهنئة السلطان والقدوم الى العاصمة[5] ٥٦٦/ ١١٧٠، يقيم فيها، ليحظى بوسام التكريم الأميري، ويتفرغ لكتابة التاريخ مدونا ملاحظاته التاريخية، وأصفا عناصر المجتمع الموحدي، وعادات الناس، وطرق معيشتهم وهدايا السلطان، ذاكراً مرافقته له في تحركاته العسكرية، مسجلا كل المسالك والممالك

---

(١) المقري: النفح، ج٥، ص: ٢٥٨.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٦٤.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٤.

(٤) المصدر نفسه، ص: ١٥.

(٥) المصدر نسه، ص: ١٩-٢٠.

التي مر بها[1]، ولم ينقطع ابن صاحب الصلاة عن مشاركة أمير المؤمنين في جميع غزواته الأندلسية والمغربية منذ حصوله على الوسام المذكور، حيث شارك في معركة شنترين التي استشهد في أثنائها الخليفة سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م، واستمر بعدها في خدمة الموحدين، أثيراً عندهم كعالم مجاهد، ومؤرخ نزيه محايد، دقيق الملاحظة ضابط للحوادث، ومؤرخ للبلاط الملكي[2] وقد ترك لنا ابن صاحب الصلاة كتابين "المن بالامامة" و "تاريخ المريدين"؛ فالأخير لم يكن له وجود، والمشهور هو الكتاب الأول[3]، وتوفي نهاية المائة السادسة للهجرة على أصح الاقوال[4].

٥- الجغرافيون[5]:

تمهيد

من مطالعتنا لعلماء المغاربة، يبدو أن غرب العالم الاسلامي (المغرب والاندلس)، اتخذ فيه علم الجغرافيا صبغة محلية، وقلما كان يخرج عن محيط البلاد التي ظهر فيها، وأن تطور تلك العلوم في هذه الأصقاع كان أبطأ مما في الشرق، على حد قول كراتشوفسكي[6]؛ ذلك انه منذ القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ظل عدد كبير من المصادر الأدبية يقدم مادة جغرافية، غير أن الأدب الجغرافي نفسه بدأ يتخذ بالتدريج طابع التجمع، ويتوكأ على ما خلفه المؤلفون السابقون، وأخذ حجمه في التزايد بشكل ملفت للنظر، حيث تولدت الرغبة في توحيد جميع المعطيات السابقة في قالب أدبي، فظهر اتجاه جديد في هذا العصر- عصر الموحدين- يرمي الى الربط بين الجغرافية

---

(١) ابن صاحب اللصلاة: المن بالامامة، ص: ٢٣.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٨١-١٨٤؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ١١٥، ١٢١، ٦٣، ٦٥، ٧٢.

(٣) ابن صاحب الصلاة: لمن بالامامة، ص: ٢٩، ٢٨.

(٤) جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الاندلسي، ص: ٢٤٢.

(٥) علم الجغرافيا:كلمة يونانية بمعنى صورة الأرض، ويقال جغراويا (بالواو على الأصل): وهو علم يتعرف منه أصول الأقاليم السبعة الواقعة في الربع المسكون من كرة الأرض، وعروض البلدان الواقعة فيها، وأطوالها، وعدد مدنها، وجبالها، وبحارها، وأنهارها الى غير ذلك، وهو علم بأحوال الأرض من حيث تقسيمها الى الاقاليم والجبال والأنهار، وما يختلف حال السكان باختلاف؛ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج١، ص: ٨٨.

(٦) المصدر نفسه، ص: ٢٧٢؛ تر، صلاح الدين عثمان، مراجعة، ايغوربلباين، الادارة الثقافية، الجامعة العربية، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م.

الوصفية والجغرافية الفلكية مرة أخرى[1]. وهذا أكثر ما يبدو واضحاً عند الادريسي وأبي بكر الزهري. وهناك نمط آخر من الأدب الجغرافي يتسع، وينال اعجاب الناس، هو وصف الرحلات الذي كثيراً ما حمل عنواناً 'الرحلة'، وقد دونت على شكل مذكرات، مع تفاوت في الدقة تظهر خلالها، وربما كان الحج الى مكة، هو السبب في تأصل حب الرحلة في قلوب الأندلسيين، ثم اولعوا بالتنقل والاسفار ولعاً شديدا[2].

ولعل أكثر الآثار قيمة في هذا المجال رحلة الأندلسي ابن جبير، بيد أنها ليست الاولى من الناحية الزمنية في هذه الصناعة من الأدب الجغراي، غير أن ابن جبير رفع هذا اللون من الصياغة الى درجة عالية، فيكون وصف الرحلة أحياناً قصة ممتازة يسجل فيها الرحالة كل ما رآه، واهتم به، وكثيراً ما تبلغ مستوى عاليا من الفن والصياغة الأدبية[3].

ومن هؤلاء الجغرافيين، الفلكي أبو علي حسن المراكشي الذي توفي سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م، وكان رحالة عصره؛ زار الأندلس، وأطلع على شمالي افريقية، فعبر المحيط الأطلسي، وانتهى الى نهر النيل، وأن كتابة الموسوم 'جامع المبادىء والغايات الى علم الميقات' لهو خير ما يمثل تلك العلوم التي يتوكأ عليها علم الفلك، في وصف الكون 'الكوزموغرافيا' وصنع الساعات الشمسية، وأفرد في كتابة بابا لصناعة أجهزة الرصد، وطريقة العمل بها، إذ كانت له محاولات جدية لرصد مائتين وأربعين نجماً سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م، فضلا عن وضعه جداول لخطوط العروض والأطوال لمائة وخمسة وثلاثين مكانا جغرافيا، وقد حقق جزءاً كبير منه بنفسه[4].

والجغرافي محمد بن أبي بكر الزهري الذي عاش بغرناطة حوالي سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م، وتوفي بعد سنة ٥٤١هـ/ ١١٥٤، ويعود نسبه الى قبيلة بني زهرة بن كلاب التي كانت تعيش بضواحي مكة، اذ أنجبت أعلاما من الصحابة والتابعين. والمحدثين والفقهاء والقضاة، وانتشروا في مشارق الأرض ومغاربها، وأن الجغرافي السابق من فرعها الأندلسي، ومن سكان المرية، حيث جعل ميدانه التجوال في ربوع الأندلس،

---

(١) المصدر نفسه، ص: ٣٦٣-٣٧٩؛ الجغرافية الوصفية: هي علم المسالك والممالك، وعلم عجائب البلدان، وتسجيل المشاهد العامة لكل قطر، بينما الجغرافية الفلكية: هي علم الأطوال والأعراض، أو علم تقويم البلدان.

(٢) جنثالث: تاريخ الفكر الاندلسي، ص: ٣٠٩.

(٣) كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص: ٢٩٧-٢٩٨.

(٤) المصدر نفسه، ص: ١١٣.

ولم يغادرها، وتوفي فيها سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦١م، وهو من معاصري الأندلسي، وأبي حامد الغرناطي اللذين سيأتي ذكرهما، وكتابه المسمى "جغرافية" اهتم بالجغرافية الفلكية، مع ميل ظاهر الى ايراد جميع أنواع العجائب والمعلومة في ذلك الوقت مثل أسطورة الشجرة المسحورة بجزائر واق الواق بالصين التي تثمر اشجارها كل عام نساءً بدلا من الفاكهة[1].

وليس بمقدورنا أن نتجاوز الجغرافي الرحالة ابن سعيد المغربي الذي عاش في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، اذ أخذ عن مصنفات الادريسي جل معارفه الاوروبية تقريباً، وجزءاً كبيراً عن بلاد أخرى[2]. أما الرحالة جواب الآفاق الذي ما كان يمل الأسفار، ولا يستقر به قرار، فهو أبو حامد أبو عبدالله محمد بن عبد الرحيم (الرحمن) المازني القيسي الغرناطي الأندلسي الاقليشي القيرواني، ويكنى أيضاً أبا محمد وأبا بكر، ويرد اسمه في مراجع أخرى أدبية في صياغات مختلفة، ولد بغرناطة سنة ٤٧٣هـ/ ١٠٨٢م، وفي سن الخامسة والعشرين سنة ٥٠٨هـ/ ١١١٤م، قام بأول زيارة له الى مصر حيث اجتمع الى بعض علمائها، ثم رجع الى وطنه الذي لم يتمكن به طويلا[3]، فغادره مرة أخرى سنة ٥١١هـ/ ١١١٧م متجهاً صوب الديار المصرية، وربما كان ينوي عدم الرجوع اليه مرة ثانية، في ما يبدو، وتطلع في رحلته هذه الى سردينيا، وانثنى الى صقلية، وانتهى الى الاسكندرية والقاهرة، ولا نعرف فيما اذا كان عاد الى وطنه أم استأنف رحلته شرقاً. وفي عام ٥١٦هـ/ ١١٢٢م. نلتقي به في بغداد، حيث استقر بها أربع سنوات، يستمع فيها الى دروس المحدث الكبير أبي العز أحمد بن عبيدالله بن كادش، وقد تمتع الغرناطي بعطف ورعاية الوزير العباسي الأديب الفقيه يحيى بن هبيرة الذي أكرمه، وأمده بالمال، فرفع الى مكتبته أحد مصنفاته "المغرب عن بعض عجائب المغرب"[4]، وبعدها انكفأ يتطلع نحو البلاد الشرقية سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م، فزار أبهر في ايران، ثم نراه يتجول، فيعبر بحر قزوين شمالي ايران، ويصل الى مدينة سخسين التي يفرد لها وصفا

---

(١) المصدر نفس، ص: ٢٧٨؛ ويفسر الزهري عنوان كتابه "جغرافية"، فيقول: كتاب الجغرافية، وما ذكرته الحكماء فيها من العمارة، وما في كل جزء من الغرائب والعجائب، تحتوي على الأقاليم السبعة، وما في الأرض من الأميال والفراسخ؛ المقري: النفح، ج٢، ص: ٢٤٧-٢٥٠؛ د. عبدالرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص: ٤٧٣.

(٢) كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج١، ص: ٢٩٢؛ جنثالث: تاريخ الفكر الأندلسي، ص: ٢٤٨.

(٣) كراتشوفسكي: تاريخ الفكر الجغرافي، ص: ٢٩٥.

(٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

مفصلا في كتابه، ويصل الى مصب نهر الفلجا سنة ٥٢٥هـ/ ١١٣١م، وفي سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٦م، يهبط الى بلاد الفلجا الأدنى، وفي خلال هذه المدة قام بثلاث رحلات الى خوارزم، ومن هناك يلتفت الى باشغرد في هنجاريا التي كان يمتلك فيها منزلاً، لأن ابنه الأكبر حامداً قد تزوج بسيدتين من أهل تلك البلاد، وأقام بها نهائياً. لكن الأب قد غادرها سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٩م[١]، عائدا الى سخسين، ومضى عنها سنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩ عن طريق خوارزم قاصداً اداء فريضة الحج سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، ومن ثم عاد الى بغداد لائذاً بابن هبيره[٢].

غير أن أبا حامد كان يود العودة الى باشغرد، حيث منزله وولده، فأحضر له ابن هبيرة كتابا من لدن الخليفة، وكتب الى صاحب قونية ليكون ابو حامد في حمايته وهاديه الى باشغرد، الا أن عودته الأخيرة لم تتحقق، لأننا نجده في سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦٢م بالموصل، ومنها توجه الى حلب فدمشق، وكانت خاتمة المطاف، حيث توفي فيها سنة ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م، وقد نيف على السبعين[٣].

ومن مصنفاته ذات الطابع المنسوبة إليه "تحفة الألباب ونخبة الإعجاب"، ويتألف هذا الكتاب من مقدمة وأربعة أبواب؛ الأول في صفة الدنيا وسكانها من انسها وجنها، والثاني: في صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان، والثالث: في صفة البحار وعجائب حيواناتها، والرابع في صفة الحفائر والقبور وللغرناطي رسالة تبحث في جغرافية المعمور تسمى "تحفة الكبار في أسفار البحار"، وله "نخبة الألباب ونخبة الإعجاب" و "نخبة الأذهان في عجائب البلدان" ، "عجائب المخلوقات".

وأبو حامد من الناقلين غير الناقدين، لسهولة تصديقه للأساطير، إذ يكثر في كلامه ذكر الخرافات والخوارق التي رآها، وسمع عنها في الأقطار التي تجول بها أثناء رحلاته، فقد كان مولعاً بهذا النوع من التصنيف، ولرؤيته أهمية لما عاينه بنفسه ورآه بعينيه، إذ رأى أعمدة هرقل عند مضيق جبل طارق سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م، قبل انهيارها، وهو ممن رأى أيضاً منار الإسكندرية في صورته التامة، ورأى المسلة بعين شمس التي سقطت سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦٠م، ثم دخل إلى جوف هرم خوفو.

---

(١) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٢) د. عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين العرب، ص: ٣٦٨.

(٣) كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج١، ص: ٢٩٥.

وقد استفاد من أبي حامد العلماء الأوربيون كثيراً من المعلومات عن الألمان وهنجاريا، ووصفه لمدينة رومية العظمى (القسطنطينية)، ويعد أحد المؤلفين الذين كان لرواياته عن شعوب الاتحاد السوفيتي أهمية خاصة، لا يزال علماؤها يعكفون على دراستها وتحليلها[1].

*** الإدريسي:**

أبو عبد الله محمد بن محمد الحمودي بن عبد الله الشهير بالشريف الإدريسي ولد عام ٤٩٣/ ١١٠٠- ٥٦٤/١١٦٩[2]. في مدينة سبتة، وانحدرت أسرته من الشرفاء الأدارسة العلويين. أما أجداده القريبون فقد كانوا أمراء مغمورين في مالقة، وهناك عجزوا عن الاحتفاظ بسلطانهم طويلا، فركبوا البحر عائدين إلى سبتة في القرن الحادي عشر الميلادي.

لكن صلتهم لم تنقطع بالأندلس، فارتحل أبو عبد الله، وهو ما يزال حدثا، إلى قرطبة التي اشتهرت بمركزها الثقافي المتميز، وفيها نشأ، وتلقى العلم في جامعتها، وتعلم العلوم والرياضيات، واهتم بدراسة التاريخ والجغرافية، وبخاصة جغرافية قرطبة، وافرد لها وصفا شاملا في كتابه الذي يحتوي على كل انطباعات المعرفة المباشرة بهذه المدينة، وبدأ أسفاره في سن مبكرة؛ أمّ كثيراً من جهات الأندلس والمغرب ومصر وآسيا الصغرى ولشبونة، وفرنسا وبعض مدنها الهامة، واوغل حتى الجزر البريطانية، وهو لم يتجاوز السادسة عشر من عمره، وذلك سنة ٥١٠هـ/١١١٦م وفي عام ٥٣٣هـ / ١١٣٨م. عبر البحر بناء على دعوة من الملك النورماندي روجر الثاني، قاصداً صقلية، وقيل غير ذلك، مستقراً في عاصمتها بالرمو التي جعل منها الملك السابق مركز دراسات لا معاجدا، واعجب أمير صقلية بالادريس، وكان كلفا به؛ إذ طلب منه الإقامة لتلبية طموحاته الفلكية، والأخير خير معين على إشباع هذه الرغبة الملكية، فرغب إليه أن يصنف كتابا شاملا للقارات المعروفة آنذاك "في صفة الأرض" مبنياً على المشاهدة المباشرة، لا منقولا عن الكتب، على الرغم من وفرتها في ذلك الوقت، فاستجاب العالم العربي المغربي

---

(١) كراتسوفشكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج١، ص: ٢٩٦-٢٩٧؛ جنثالث: تاريخ الفكر الأندلسي، ص: ٣١٢-٣١٣؛ د. عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص: ٣٦٨-٣٧٧.

(٢) ابراهيم خورشيد ورفاقه: دائرة المعارف الاسلامية، ج١، ص: ٥٤٧، دار المعرفة، بيروت جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الاندلسي، ص: ٣١٢-٣١٤، وهذا على اصح الاقوال في حين يذكر د. حميدة وفاته ٥٦٠/ ١١٦٦، ص: ٣٨٨، ويوافقه كراتشكوفسكي، ص: ٢٨٠.

للقيام بتلك المهمة الصعبة، وانتقى نفراً بمعرفة روجار، صاحبهم الرسامون، وانتشروا في أنحاء العالم وبخاصة إلى جهات أوروبا، يرسمون شكل العالم، ويقدرون المسافات وهو بدوره يتلقى تلك المعلومات، ويقوم بمعالجتها وتسجيلها أولا بأول حتى فرغ من كتابه:

"نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" في سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٤م، ويعرف كذلك بالكتاب الرجاري، ولأبي عبد الله عدة مؤلفات أخرى منها: "كتاب المسالك والممالك"، وله كتاب في الأدوية "المفردة" و كتاب "روضة الأنس ونزهة المفس"، وهذا الأخير هو الاسم الثاني للكتاب الأول، ألفه في بلاط النورمانديين من أجل غليوم الأول الذي خلف أباه روجار عام ٥٤٢هـ/ ١١٥٤م، واستفاد من هذا الكتاب الأمير ابن البيطار، وأبو الفداء، وقد فقد هذا الكتاب[١] .

اعتمد الإدريسي في تصانيفه على بعض المراجع منها: كتاب "المسالك والممالك" لابن الدلالي[٢]: احمد بن عمر بن أنس دلهات.

إن الإدريسي له أرجحية على سائر الجغرافيين العرب، بما تلقاه من الرواد الذين زاروا أطراف أوروبا لاستطلاع أوصافها وتحقيق مواضعها، ولما قيده الإدريسي من أحاديث الرحالة والتجار والحجاج؛ ركاب السفن التي كانت تحط بموانئ صقلية (الحجاج النصارى) وغيرهم، إلى جانب ما استطاع الحصول عليه من معلومات عن البلاد النصرانية، وما جمعه من معلومات عمن سبقه كبطليموس والمسعودي، ولذا يبدو أن كل من جاء بعده من الجغرافيين كان عالة على ما كتبه.

وقد وصف الإدريسي الأرض التي يتصورها على شكل كرة طول محيطها اثنان وعشرون ألفا وتسعمائة ميل معلقة في الفضاء "كالمح في البيضة"، وبعد وصف قصير للأقاليم والبحار والخلجان ينتقل إلى وصف سطح الأرض بالتفصيل، فجعل لكل إقليم من أقاليمها السبعة عشرة أقساماً متساوية من الغرب إلى الشرق، كما هي الحال في درجات الطول المعروفة في أيامنا هذه. ثم انه جعل لكل قسم من هذه الأقسام السبعين خارطة خاصة، وإذا ما ضمت هذه الخرائط ألّفت خارطة عامة لكل العالم على شكل مستطيل[٣].

---

(١) كراتشوفسكي: تاريخ الادب الجغرافي العربي، ج١، ص: ٢٨٠-٢٨٣.

(٢) والدلالي من دلالة قرية في مقاطعة المرية الذي حج الى مكة ٤٠٧/ ١٠٠٢ ومات سنة ٤٧٨/ ١٠٨٥؛ جنثالث: تاريخ الفكر الأندلسي، ص: ٣١٦.

(٣) كراتشوفسكي: تاريخ الادب الجغرافي العربي، ج١، ص: ٢٨٥، خير الدين الزركلي: الاعلام، ص: ٢٥٠. دائرة المعارف الاسلامية، ج١، ص: ٥٤٧-٥٥١.

إن العمل في كتابه قد مر بثلاثة أطوار ليخلف وراءه ثلاثة معالم أحدها أنموذج فريد من نوعه للكرة الجوية، وهو قرص من الفضة، مرسوم عليه صورة العالم وثانيها خارطة مرسومة على الورق، وثالثها كتاب خاص مبينة فيه الأسماء الجغرافية ويقال أن الثوار حطموا "أنموذج الكرة الجوية"، ونهبوها عند استيلائهم على مقر حكم روجر في عهد خلفه عام ٥٥٦هـ/ ١١٦٠م، وبقي الكتاب والخارطة وقد حفظا في مخطوطات عديدة، ويلاحظ أنها غير معاصرة للمؤلف على حد قول كراتشوفسكي.(١)

إن تكليف روجر لعالم عربي مغربي مثل الإدريسي،، بوضع وصف للعالم المعروف آنذاك، لدليل قاطع على تفوق الحضارة العربية على كل الحضارات في ذلك الوقت، وبخاصة الغربية منها، وباعتراف الجميع بهذا التفوق(٢)

ولقد قام الإدريسي بعمله الضخم الرائع المار الذكر خير قيام، إذ استفاد من ملاحظاته الشخصية، ومن معلومات معاصريه، ومن أبحاث الذين سبقوه، كمؤلفات اليعقوبي، وابن حوقل وصار من المؤكد أن أوصاف المناطق الغربية من العالم في عصره، تبدو أوضح من كل ما عداها، ومن أحسنها دراسة، فهي المناطق التي يعطينا عنها المؤلف أظهر معلومات وثائقية وأوضحها من الطراز الأول، ولهذا يخيل لي من العبث البحث عنها في كتب الجغرافيين الآخرين، باستثناء "أبو عبيد عبد الله البكري"، إذ هو أكبر جغرافي أخرجته الأندلس قاطبة، كما أورد كراتشوفسكي عن دوزي(٣)، لذلك لم يكن غريباً أن يطلق على الإدريسي "استرابون العرب"(٤)

---

(١) كراتشكوفسكي: تاريخ الادب الجغرافي العربي، ج١، ص:٢٨٣.

(٢) كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج١، ص: ٢٨٠-٢٩١.

(٣) Dozy: Recherches, 1, 1849, p, 282
نقلا عن كراتشوفسكي، ج١، ص: ٢٧٤؛
ابراهيم خورشيد: دائرة المعارف الاسلامية، ج٤، ص: ٤٨٠.

(٤) استرابون: جغرافي يوناني ولد في ماسيا، بآسيا الصغرى حوالي سنة ٥٨ ق.م وتوفي سنة ٢١ أو ٢٥م، وهو مؤلف كتاب ثمين اسمه (جغرافية) اذ يتخذ كتابه طابعاً تاريخياً واضحا، ويهتم باظهار العلاقات بين الانسان والشعوب والامبراطوريات، وبين البيئة الطبيعية؛ كراتشوفسكي: تاريخ الادب الجغرافي، ج١، ص: ٢٩٥ والادريسي، جغرافي مغربي تلقى علومه في مدينتي قرطبة ومراكش، في سن مبكرة، وزار عدة بلدان، ومن ثم توجه إلى صقلية وهو في سن الاربعين تقريبا، ولم يمكث بها أكثر من ستة عشر عاماً، وغادرها بعد موت روجر بقليل إلى مسقط رأسه سبته حيث توفي فيها سنة ٥٦٠هـ/ ١١٦٠م، فلهذا يعتبر الادريسي عربي مغربي موحدي، في المولد والمنشأ والثقافة والممات؛ كراتشوفسكي: تاريخ الادب الجغرافي، ج١، ص: ٢٨٠، ٢٨٦؛ د. عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين لعرب، ص: ٣٨٩.
وما دام الادريسي حينما هاجر الى صقلية، لم يكن في نيته الالقامة الدائمة، اذن فهو مغربي، لأن الرجل ينسب الى مكان هجرته التي استقر بها، ولم يرحل عنها رحيل ترك لسكناها الى أن يموت؛ ابن حزم: رسالته في المقري: النفح ج٤، ص: ١٦١، ١٦٢.

وبالإضافة إلى كونه أشهر جغرافي العرب، فهو أستاذ في علم الجغرافية، تعلمت منه أوروبا في القرون الوسطى[1].

*** ابن جبير:**

ولد في١٠/ ٣/ ٥٤٠هـ / ١١٤٥، وتوفي في عام ٦١٤/ ١٢١٧[2]: هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الشاطبي البلنسي، غرناطي الاستئصال، ينحدر من أسرة عربية عريقة. سكنت الأندلس عام ١٢٣هـ/ ٧٤٠م، قادمة من الشرق مع القائد المشهور بلج بن بشر بن عياض القشيري. وكان اسم جبير من الأسماء المحببة إلى أسرته، فقد حمله الكثير من قبله، وأتم بن جبير دراسته في بلدته شاطبة حيث كان يعمل والده موظفا فيها. وقد أولع بعلوم الدين وبخاصة الفقه والحديث سمعها من أبيه وتفقه في علوم القرآن على أبى الحسن بن أبي العيش. لكن ميوله برزت في العلوم الدنيوية، وأخذ قسطا في الآداب، وله رسائل نثرية لها شهرتها في هذا المجال، إذ يسرت له مواهبه الشعرية نجاحاً في الأوساط الرسمية، مما جعله يحتل منصب كاتب لدى حاكم غرناطة أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن أحد ولاة الموحدين، ولم يلبث أن كسب الشهرة كاتبا وشاعرا له عدة قصائد متفرقة، بالإضافة إلى ديوان شعر.[3]

وقد استدعاه الأمير أبو سعيد ليصوغ له ترجمة وهو في مجلس انسه وشرابه، وحدث في أثناء ذلك أن دفع إليه كأساً من خمرة، فأظهر ابن جبير الامتناع ابتداء، واعتذر قائلا أنه لم يشربها قط، غير أن الأمير غضب، وأقسم عليه ليشربن منها سبعاً، فلما رأى منه الإصرار لم يستطع إلا الإذعان فشربها كارها، وأحسن إليه الأمير، وأجزل له الصلة، فرد إلى ضيفه سبعة أقداح مملوءة بالدنانير الذهبية، وصبها في حجره مكافأة له على مجاملته، فحملها عالم الأندلس، واعتزم أن يكفر عن جريمته بأداء فريضة الحج، فباع بعض عقاراته، وأضاف ثمنه إلى هبة الأمير، وأستأذن الأخير لأداء فريضة الحج[4]

بدأ رحلته إلى الأراضي الحجازية يوم الخميس في شوال سنة ٥٧٨/ ١١٨٣ برفقة صديقه الطبيب احمد بن حسان، والمحدر من جزيرة طريف إلى سبتة على متن سفينة

---

(١) كرا تشكرفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي لعربي، ج١، ص: ٢٩١.

(٢) ابن جبير: المقدمة الرحلة، ص: ٥.

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها؛ المقّري: النفح، ج٣، ص:١٤١.

(٤) جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الاندلسي، ص:٣١٦؛ المقّري: النفح، ج٣، ص:١٤٢، ١٤٤؛ ابن جبير: الرحلة، ص:٥-٦.

جنوية، تريد الإقلاع قاصدة الإسكندرية، مارا برحلته بمحاذاة سواحل ميورقة وسردينيا، حيث علم بوجود عدد من أسرى المسلمين في الأخيرة من رجال ونساء يباعون في أسواق النخاسة، فأحس بالألم الشديد يعتصره. وأدرك أن ما أصاب البؤساء، إنما هو نتيجة موعودة لتفكك العالم العربي يومئذ.(١)

وساحل البحر قرب صقلية حتى دخل ميناء الإسكندرية المار الذكر، التي لفتت انتباهه منارتها الشاهقة الارتفاع، بعد أن أقام في البحر ثلاثين يوماً بين الخوف والأمل، وبعدها بأيام قلائل ركب النيل إلى القاهرة، التي غادرها إلى صعيد مصر، فوصل بلدة قوص التي قطع منها الصحراء الشرقية إلى البحر الأحمر، ليستقل من ميناء عيذاب، -وهو المرفأ المعروف للحجاج على البحر الأحمر- سفينة تحمله إلى جدة، ومنها رافق قافلة إلى مكة التي مكث بها حوالي نصف عام، ثم طوّف بالمدينة المنورة في طريقه إلى الكوفة، المدينة التي أمر ببنائها الخليفة عمر بن الخطاب، مارا بالقادسية والمدائن فالموصل متجولا بنصيبين وحران ومنبج، فحلب، ومنها انحدر إلى دمشق وأمضى بها مدة شهرين، وقبل أن يغادر الأراضي الإسلامية شاهد سواحل بلاد الشام في قبضة الصليبيين آنذاك، وعلى الرغم من ذلك فقد كان الشرق ينعم بالازدهار والأمن في ظل صلاح الدين، ثم ركب البحر من ميناء عكا إلى بلاده على متن سفينة أوروبية في رحلة اتسمت بالمشاق والكوارث، كما يصفها بنفسه، حتى نزل بساحل صقلية التي كانت تحت سيطرة غليوم الصالح النورماندي(كما كان يوسم)، حيث كان يحاط بحرس وشعب مسلم في أكثره، وفي ٢٥ نيسان عام ٥٨١/ ١١٨٥ وصل غرناطة بطريق قرطاجنة بعد غياب دام اكثر من عامين، وقيل أنه وصل إلى منزله ٢٢ محرم سنة ٥٨١هـ/ ٢٥ نيسان ١١٨٤م(٢).

وبعد وقت ليس بالطويل قام ابن جبير برحلة ثانية، حالما سمع الخبر المبهج استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس (٥٨٣/ ١١٨٧، إذ تعلقت به آنذاك أنظار المسلمين بطلا يعرف كيف يحقق الانتصارات. واستمرت هذه الرحلة سنتين، خرج عام

---

(١) المصادر نفسها؛ اذ يذكر المقّري ان صديق ابن جبير الطبيب الذي رافقه هو: ابو جعفر احمد بن الحسن بن احمد بن الحسن القضاعي من أنده في اقليم بلنسية، وأدّيا سوياً فريضة الحج وسمعا طرفا من العلوم في دمشق، ودخلا بغداد وتجولا فيه مدة، ثم قفلا كليهما إلى المغرب.

(٢) المقري: نفح الطيب، ج٣، ص: ٣٤٤، ١٤٢

ابن جبير: الرحلة، ص: ٥، ١٧

جنثالث: تاريخ الفكر الاندلسي، ص: ٣١٦-٣١٨.

كراتشوفسكي: تاريخ الادب الجغرافي لعربي، ج١، ص: ٢٩٨-٣٠٠.

٥٨٥هـ/ ١١٨٩م، ولكننا لم نعثر على تفاصيل عنها، سوى انه قام بزيارة المساجد الثلاثة في عام واحد متوجهاً، وفي شهر واحد منصرفا إلى غرناطة يطالع الحديث في مالقة وفاس ثم سبتة(١).

وكانت رحلته الثالثة من سبتة إلى المشرق وهو شيخ كبير، بعد وفاة زوجه عاتكة (أم المجد) سنة ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م، ولم يكن في نيته العودة مرة أخرى إلى الأندلس بل أمضى اكثر من اثني عشر عاماً متنقلا بين مكة وبيت المقدس والقاهرة، مشتغلا بالتدريس والأدب إلى أن وافته منيته بالإسكندرية سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٧م(٢).

ومن بين رحلاته الثلاث، قامت شهرته على كتابه الذي دون فيه أخبار الرحلة الأولى في شبه مذكرات يومية باسم "تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار" غير أن كتابه اشتهر فيما بعد تحت اسم "الرحلة"، ولو أن هذه الشهرة قد اقتصرت على المغرب وحده غير أنها أضحت أنموذجاً يحتذى بالنسبة للآخرين، اذ استفاد منها الجغرافيون والمؤرخون مشيرين الى اسمه تارة، ومضمنين قدرا كبيراً منه في مصنفاتهم(٣).

ويقص علينا المؤلف يوما فيوما، مختلف طوارىء جولته، والمصاعب التي عاناها، والمخاطر التي تعرض لها، ويصور لنا حياة ذلك العصر، اذ وصف وصفا حيا وبإسهاب المدن والاقطار التي عبرها مروراً بمصر والشام، عندما بدأت فيها حركة التحرير الاسلامية ضد الصليبيين بزعامة نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، وانتهاء بمكة والمدينة، وبغداد والموصل وحلب، وصقلية. كما يقدم ابن جبير عن حياة السكان الذين عايشهم معلومات قيمة تمتاز بالدقة، وبقوة الملاحظة، وبخاصة فيما يتعلق بحياة مسلمي صقلية، وببلاط النورمان فيها.(٤)

ويعتبر اسلوبه ذا قيمة ممتازة مملوءاً بالحيوية وسهولة التعبير، فهو يوجز عند وصف المدن والأوابد، ويسهب في وصف الجماهير المتحركة ومعاملة جمارك الاسكندرية للمغاربة ولكارثة السفينة على سواحل صقلية، أما عرضه في الكتابة فيستهدف التصنع

---

(١) عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، ج٥، ص: ٦٠٦-٦٠٧.

(٢) كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص: ٤٩٩ جنثالث: تاريخ الفكر الأندلسي، ص: ٣١٧.

(٣) الرحلة، ص: ٤١.

(٤) كراتشكوفسكي: تاريخ الادب الجغرافي العربي، ص:٣٠٠-٣٠١؛ الرحلة، ص: ٦٠، ٦١، ١٠٨، ٢١٦-٢٢٤؛ المقري: النفح، ج٣، ص: ١٤٢-١٤٣، ١٤٦، ١٤٧.

والاناقة، ويضمن كتاباته السجع المملوح بمهارة دون أن يمله القارىء، أو يتكلف الجهد في فهمه، كما يشحن كتابته بالاقتباسات الأدبية الرفيعة مما يتطلب درجة معينة من الثقافة والاطلاع، وقد أثار اهتمام المستشرقين لما له من قيمة ثمينة، ربما تكون آخر حلقة من حلقات الجغرافيين الأندلسيين لهذا العصر(١).

٦- العلوم:

لقد حظيت العلوم في هذه الحقبة بنهضة زاهرة، انتشرت انتشاراً كبيرا لم تبلغه في أي عصر آخر من عصور المغرب، ولا نكون مغالين اذا قلنا أنها دخلت عصرها الذهبي من أوسع أبوابه، ولا يقل اهتمام الموحدين في تنشيط هذه العلوم والاهتمام بها عن نظرائهم العباسيين، اذ كان لابن تومرت كل التأثير في هذه العلوم العقلية، كالفلسفة وعلم المنطق والجدل والمناظرة، وبخاصة تلك التي تصلح مسائلها مقدمات لقضايا جدلية عقدية، وكان قد حصل على طرف منها أيام طلبه العلم بالمشرق على يد استاذه الغزالي الذي كان يقول (من لا يعرف المنطق لا يوثق بعلمه)، ومن غيره من أساتذة العلوم والرياضيات، كما ذكر سابقاً، ورأينا كيف تكونت لديه عقلية فلسفية ظهرت في النهج العام لتآليفه، وصبغت تفكيرة العام القائم على (الجدل والمناظرة).

وكان لهذه العقلية التي اتصف بها ابن تومرت، تأثير في الحياة الثقافية بالمغرب، حيث حرك فيهم العلوم العقلية، وهم أهل البادية الذين لم يسبق لهم أن زاولوا مثل هذه العلوم، ويمكن ان نبين نتاج المنهج العقلي (لابن تومرت) في هذا المجال (تولد الفلسفة وانتشار المنطق، وشيوع الجدل والمناظرة) والذي تبناه من بعده خلفاؤه، وجعلوه منهجاً لسياستهم الثقافية العامة، فأصبحت الأندلس في هذا العهد أكثر تقبلا للتيارات الفلسفية من السابق، بسبب المناخ الجدلي الذي فرضه الاحتكاك بين المذاهب والأديان المختلفة التي تعايشت هناك، اذ قامت بينها العراكات الجدلية، مما اضطر كل الاطراف أن تقوم جاهدة للاقتباس من الفلسفة، لتقوية حجتها والرد على خصومها، فلذلك تفتحت الذهنية المغربية، لتقبل مثل هذه العلوم، اذ أصبحت عنصرا من عناصر ثقافتها، وعرفنا كيف كان أبو يعقوب يوسف من أكثر الموحدين تعلقا بالفلسفة وتشجيعاً على تعلمها، وذكر المراكشي في ذلك، أنه بعد تعلم العلوم الشرعية والتبريز فيها "طمح به شرف نفسه وعلو همته الى تعلم الفلسفة، فجمع كثيراً من أجزائها، وبدأ من ذلك بعلم الطب،

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص: ٦٠، ٦١، ١٠٨، ٢١٦، ٢٢٤، ٢٤٠.

فاستظهر من الكتاب المعروف بالملكي أكثره، مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل، ثم تخطى ذلك الى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة، وأمر بجمع كتبها، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الاموي[١].

وإلى جانب اشتغاله بالفلسفة وجمعه لكتبها، من جميع أقطار المغرب والأندلس، اشتدت رغبته في جلب الفلاسفة الى مراكش من مختلف الأرجاء، وقد بالغ في اكرامهم وتشجيعهم، ورغبهم في التأليف في علم الفلسفة، وتبسيط غوامضها، وتذليل صعابها، فضم اليه عدداً من الشخصيات اللامعة[٢]، كان أبرزهم اثنان؛ أولهما الفيلسوف الشهير أبو بكر بن طفيل الأندلسي، أحد ألمع فلاسفة الاسلام، وكفاه مدحا، أن فضله علماء كثيرة على فيلسوف الأندلس أبي بكر بن باجة، وكان له حظ وافر، فضلا عن أنواع الفلسفة في الطبيعيات والطب، والهندسة، والالهيات، ورسالته "حي بن يقظان" فيها بيان مبدأ النوع الانساني[٣]. ثم له باع طويل بين الكتاب والشعراء والرماة والاجناد، كما لم ينسَ سوق الشعر المتأثر بفلسفته الزاهدة على طريقة ابن سيناء[٤]. وهو الحريص على الجمع بين الحكمة والشريعة، فضلا عن علم الموسيقى الذي يتقنه جيداً، فأخفاه الى فرص أكثر ملاءمة، وهو القائل "لو نفق علم الموسيقى لأنفقته عندهم"[٥].

أما تصنيفه كأحد أبرز أطباء الخليفة أبي يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن، وكان في رأس الافضلية، قد افتخر به قصر الأمير ذاتا وعملا، وانقطع اليه ليلا ونهارا، ولا يكاد يظهر في مكان آخر، غير أنه لما مات يوسف بن عبد المؤمن اتهم ابن طفيل أنه دبر له مقتلا، فدس له السم، فجرت عليه محن كثيرة من جراء ذلك، واعتزل الناس، منزويا في بيته مسجونا لم يخالطه أحد رغم ان التحقيقات لم تثبت هذه التهمة[٦].

---

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٣٤٧-٣٤٩.

(٢) منهم عبد الملك بن قاسم القرطبي، وأبو بكر بن زهر الاشبيلي الطبيب الذائع الصيت الخاص للمنصور، والعلامة جبر الاشبيلي الذي عاش في القرن الثاني عشر، والفلكي البتراجي المراكشي؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٠٧.

(٣) وهي قصة صبي، ترك وحيدا في جزيرة نائية، واستطاع بواسطة التأمل الادراكي وحده ان يتوصل الى معرفة الخالق الأحد، ويتعرف على قواين الطبيعة؛ خوان بيرنيت: الثقافة الأندلسية في الشرق وفي الغرب، ص: ٤١-٥٨، المراكشي: المعجب، ص: ٣٥٠؛ وقيل أن ابن طفيل قد وظف أفكار ابن باجة في قصته السابقة؛ خوان بيرينت: الثقافة لاأندلسية في الشرق وفي الغرب، ص: ٤٣، هذا الكتاب ما زال باللغة الاسبانية.

(٤) ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، ج٢، ص: ٨٥-٨٦.

(٥) المراكشي: المعجب، ص: ٣٥٠.

(٦) ابن سعيد: المغرب ف حلي المغرب، ج٢، ص ٨٥.

وثانيهما أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الحفيد القرطبي، الذي نشأ كسابقه، وبالأخص بين الفلاسفة الأندلسيين الذين تمكنوا بتراجمهم وتحليلاتهم واضافاتهم، مع تقريب فهمها الى الناس، أن يسهموا برسم الطريق لدراسة الفلسفة العالمية، وعلى الخصوص فلسفة أرسطو بين المفكرين المسلمين الذين اقتحموا هذا الميدان رغم خضم الصراعات السياسية التي لم تعطل دور الابداع في هذا المجال الا حينا، والى جانب الفلسفة اختص ابن رشد علوما كثيرة ومتنوعة، اذ مضى شوطا يمارس مهنة الطب على الخصوص، أما الفقه فأصبح به قاضيا على قرطبة، وغيرها من المدن، الى جانب تفوقه في الرياضيات وعلم الموسيقى[1].

وقد أخبر بأول مقابلة له مع أبي يعقوب يوسف، حين قال كما ذكره الكراكشي: "ولما دخلت على أمير المؤمنين يعقوب وجدته هو وأبو بكر، يثني علي ... بأشياء لا يبلغها قدري، فكان أول ما فاتحني به أمير المؤنين بعد أن سألني عن اسمي واسم أبي، ونسبي أن قال: ما رأيهم في السماء؟- يعني الفلاسفة- أقديمة هي أم حادثة؟ فأدركني الحياء والخوف، فأخذت أتعلل، وأنكر اشتغالي بعلم الفلسفة... ففهم أمير المؤمنين مني الروع والحياء ... ... وجعل يتكلم على المسألة التي سألني عنها، ويذكر ما قاله أرسطو طاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة، ويورد مع ذلك احتجاج أهل الاسلام عليهم، فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له"[2].

ومن أشهر مؤلفاته الكثيرة؛ كتاب الجوامع، "والسماء والعالم"، و"رسالة الكون والفساد"، و"الآثار العلوية"، ثم كتاب "تهافت التهافت" وهذا الاخير كان ردا على كتاب الغزالي، "تهافت الفلاسفة"[3].

وقد كان ما كتبه ابن رشد من تلخيص لمؤلفات أرسطو وشرح لها، نتيجة لاهتمام الأمير يوسف بالفلسفة، جعلت الأخير يتشكى الى ابن طفيل من قلق عبارة أرسطو، أو عبارة المترجمين عنه، فطلب هذا الى ابن رشد ان يلخصها، ويقرب اغراضها من أفهام الناس، معتذراً في صرف الامر عنه لكبر سنه وانشغاله بخدمة الأمير. فكانت نتيجة ذلك،

---

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٤٣٧.

(٢) المراكشي: المعجب، ص: ٣٥٣.

(٣) المصدر نفسه، ص: ٣٥٤؛ وصنف نحو خمسين كتابا، منها: "فلسفة ابن رشد، و"الحيوان"؛ الغبريني: عنوان الدراية، هامش ٢، ص: ٢٠٩.

شروح ابن رشد لفلسفة أرسطو، تلك التي كان لها بالغ الأثر في الفكر الفلسفي الاوروبي على الخصوص، وفي الفكر الفلسفي العالمي على العموم[١].

ولما جاء أبو يوسف يعقوب المنصور اقتفى في أول أمره نهج أبيه في انتحال الفلسفة وتشجيع علمائها، وإكرامهم، غير أنه جافي هذا الفكر بعد ذلك، وهجر علوم الفلسفة؛ وطلب الى الناس في مختلف الانحاء بترك هذه العلوم، وأمر باحراق كتبها، سوى ما كان في الطب والحساب والنجوم، وأبعد عنه ابن رشد، لوشايات بلغته عنه تظهر ابتعاده عن الشريعة في فصول من تآليفه الفلسفية، والتعريض بأمير المؤمنين[٢]، فأمر باخراجه على حال سيئة من المهانة واللعن وسوء المصير، ونفيه الى بادية قرطبة (بيَّانة قرية اليهود) فارضا عليه الاقامة الجبرية هناك[٣].

الا أن هذه الأزمة لم تطل بأبي يعقوب، فأعاد سالف عهده بالفلسفة وعلمائها، ورغب في تعلمها من جديد، وأبدى استعداده لاستدعاء ابن رشد من الأندلس الى مراكش للاحسان اليه والعفو عنه، يقيل عثرته، ويعيد له اعتباره، فحضر اليها، وتعلم الخليفة الفلسفة على يديه، وتولى منصب الطبيب الخاص له، وبقي في هذا المنصب، الى أن لبى نداء ربه سنة ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م، بعد أن نيف على الثمانين[٤].

وقد تأثر ابن رشد تأثرا بالغا بمنهج ابن تومرت، وظهر ذلك واضحاً في التقريب بين العقل والشرع[٥]، وبين أن العهد الثقافي الذي أحدثه ابن تومرت، ودعمه خلفاؤه من

---

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٣٥٤.

(٢) وجد الوشاة بخط ابن رشد تلاخيص عن بعض قدماء الفلاسفة، تقول: "فقد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة ..." فأوقفوا أبا يوسف على هذه العبارة؛
المراكشي: المعجب، ص: ٤٣٦، ٤٣٧؛
وكذلك قرأ المنصور (عبارة ابن رشد عن الزرافة ويقول: "وقد رأيتها عند ملك البربر، فقرعه على ذلك، فاعتذر أنه ما قال الا ملك البرين"؛
ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، ج١، ص: ٥٠١.

(٣) بيانة: قرية قرب قرطبة؛ الحميري: الروض، ص: ١١٩؛ ابن سعيد: المغرب، ج١، ص: ٥٠١.

(٤) الغبريني: عنوان الدراية، ص: ٢١١؛
ابن سعيد: المغرب، ج١، ص: ١٠٤؛
المراكشي: المعجب، ص: ٤٣٧.
مات ابن رشد في مراكش، ونقل جثمانه الى بلدة اشبيلية، وحضر ابن العربي ودفنه في مقبرة ابن عباس؛ خوان بيرنيث: الثقافة الاندلسية في الشرق وفي المغرب، ص: ٤٣-٤٤.

(٥) يحيى هويدي: تاريخ فلسفة الاسلام في القارة الافريقية، ص: ٢٦٣.

بعده، عهد رفع الشرور والجهالات التي خنقت الفكر الجامع بين الحكمة والشريعة، وفسح المجال لهذا الفكر، ومهد له طرق النمو والازدهار، كما أكده في فصل المقال قائلا: "وقد رفع الله كثيرا من الشرور والجهالات والمسالك المضلات، بهذا الأمر الغالب وطرق به إلى كثير من الخيرات، وبخاصة على الصنف الذين سلكوا سبل النظر، ورغبوا في معرفة الحق، وذلك أنه دعا الجمهور الى معرفة الله عن طريق وسط ارتفع الى حضيض المقلدين، والمحط عن تشغيب المتكلمين)[1].

غير أن الفلسفة لم تتغلغل بعيدا في المجتمع المغربي الموحدي، بل بقي طلابها محدودي العدد، الا ما ظهر من أبي العباس أحمد بن خالد من ميل للطب، ومشاركة في الحكمة والطبيعيات والالهيات، وعلم الحركة، والمنطق، وشيء من علوم ابن سينا في التنبيهات[2].

ثم أبو الحسن على بن أحمد الحرالي، الذي كان أعلم الناس بالمنطق، وله فيه تصنيف سماه (المقولات الاول)، وسبق أهل وقته بعلم الطبيعيات والالهيات[3]، وله ملاحظات قيمة على فلسفة ابن سيناء كذلك، من شرح وتحليل ونقد[4]. ومنهم أبو العباس محسن بن أبي بكر بن شعبان الذي شارك بمقالاته في العلوم[5]. وكان أبو عبدالله محمد بن ابراهيم المشهور بالاصولي، من جلساء أمير المؤمنين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، وله معرفة خاصة بالحكمة والفلسفة، وقد جمعته مع ابن رشد مودة وإخاء وصفاء، وهو الذي أقنع أمير المؤمنين بالعفو عنه واستدعائه ثانية[6]، بينما ظل المنهج العام المغربي يعارض هذا اللون من الفكر، ولم تذكر المصادر، أن احداً من امراء الموحدين بعد المنصور اهتموا بالفلسفة، وشجعوا عليها، ما عدا الذي كان من أمر الناصر، أن قرب اليه الفلاسفة، وأحسن اليهم وعطف عليهم[7].

---

(١) ابن رشد: فصل المقال، ص: ٦٧.

(٢) الغبريني: عنوان الدراية، ص: ٧٣.

(٣) المقري: نفح الطيب، ج٢، ص: ٣٩١.
الغبريني: عنوان الدراية، ص: ١٤٣- ١٥٥.

(٤) هو الفيلسوف الرئيس أبو علي الحسين عبدالله، من كبار فلاسفة العرب، وأئمة المفكرين، صنف نحو مائة كتاب في الطب والمنطق والالهيات والطبيعيات ولد سنة ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م ومات سنة ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م؛
الغبريني: عنوان الدراية، هامش٢، ص: ٣٥٩

(٥) المصدر نفسه، ص: ٢١٢.

(٦) المصدر نفسه، ص: ٢٠٨، ٢٠٩.

(٧) المصدر نفسه، ص: ٢١١.

بل ظهر تيار مناوىء للفلسفة، فحذر من علمائها، في ما تؤدي اليه من الفساد والبعد عن الشريعة. لذلك لم يكن المناخ العام بالمغرب يشجع عليها، فأصابها الذبول والضمور، فلم يبرز من يستحق الذكر، كما رأينا بعد ابن رشد سوى اعداد لا تتجاوز أصابع اليد، الا ما كان من محي الدين بن العربي الذي كان أميل الى التصوف الاغراقي منها الى الفلسفة العقلية[1]. وبقيت آثار المعارضة لعلم المنطق والفلسفة، والتنكر لها الى القرن السابع الهجري، وهو ما نفهمه من قول الرحالة العبدري في ازرائه على أهل مصر لتعاطيهم لعلم المنطق: "... ومن الأمر المنكر عليهم، والمنكر المألوف لديهم تدارسهم لعلم الفضول وتشاغلهم بالمعقول عن المنقول في اكبابهم على علم المنطق، واعتقادهم أن من لا يحسنه لا يحسن أن ينطق فليت شعري، هل قرأه الشافعي ومالك، أو هو أضاء لأبي حنيفة الحوالك... والذي دعا بعض الفضلاء الى مطالعته هو اتقاء شره، والحذار من غوائله ومكره"[2].

ولكن رغم الحذر الشديد من علم المنطق الباقية الى القرن السابع، فقد عرف هذ العلم انتشارا متزايدا بين العلماء، ونبغ فيه كثير منهم، وحبّروا فيه المؤلفات، وأدخلوه في العلوم منهجا للفهم، والتقرير والبرهان، ومن أشهر من برز فيه من رجال القرن السابع، محمد بن عبد الوهاب بن يوسف بن عبد القادر (ت ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م)، الذي قال فيه الغبريني: "له علم باصول الدين واصول الفقه، ومعرفة الحكمة، وبراعة في علم المنطق، وخصوصا على طريقة المتأخرين (طريقة فخر الدين الرازي) ولم يكن في وقته أعلم منه بكشف الأسرار الذي وضعه الخونجي (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م كان عالما بالحكمة والمنطق) في علم المنطق، وهو أعلم به من واضعه"[3]، ومنهم أبو علي منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدالي[4] (ت ٧٣١هـ/ ١٣٣٠م)، وكذلك أبو محمد عبدالله بن محمد بن يحيى الاغماتي الذي نبغ في العربية وعلم المنطق[5]. ثم أبو الحسن علي بن عصفور (ت ٦٥٧هـ/ ١٢٧٦)، وقد استخدم المنطق في توضيح مسائل النحو وتبويبها[6].

---

(١) جنثالث: تاريخ الفكر الاندلسي، ص: ٣٨٦؛ الغبريني: عنوان الدراية، ص: ١٥٦.
(٢) العبدري: الرحلة، ص: ١٣٠.
(٣) الغبريني: عنوان الدراية، ص: ٢٣٣.
(٤) المصدر نفسه، ص: ٢٢٩.
(٥) المصدر نفسه، ص: ٢٢٣.
(٦) المصدر نفسه، صك ٣١٧.

أما مهنة الطب فقد زخرت مجالس الخلفاء الموحدين بعلماء الطب، وتعد أحفل سجل عرفته هذه الحقبة الذهبية من المدنية الاسلامية العربية، وبخاصة المغربية منها، وهي اصدق واشمل سجل عن الحياة العقلية في المائة السادسة والسابعة للهجرة.

ومن أشهر هؤلاء فضلا عما سبق، أبو محمد بن رشد ابن أبي الوليد الطبيب الخاص للخليفة المنصور، الذي كان يعتمد عليه اذا نزلت به علة، وله معرفة تامة بالطب التجريبي، وابو الحجاج يوسف بن موراطير من شرق الاندلس، من جهات بلنسية، برع في تشخيص الامراض ووصف العلاج، والتزم القواعد الشرعية، ونبغ بالادب والشعر، مليح النادرة، رافق الخليفة الناصر في حروبة الافريقية، على الرغم من مجونه الذي اشتهر عنه.

وأبو مروان عبد الملك بن قبلان، الذي اشتغل بصناعة الطب في مدة المنصور، وتفوق في هذا الباب، ومهر في حسن العلاج، وأبو اسحق ابراهيم الداني، فله عناية بالغة في مهنة الطب، والتحق بالعاصمة من بجاية، بناء على رغبة الخليفة الناصر، الذي ولاه مدير مستشفى مراكش وطبيب العائلة المالكة. أما أبو يحيى بن قاسم الاشبيلي، كبير الصيادلة، فهو الذي زود القصر الاميري بالادوية أيام المنصور وولده الناصر وحفيده المستنصر.

والطبيب أبو الحكم بن غلندو الاشبيلي، اذا اتصف بالادب والشعر علاوة على تميزه في صناعة الطب، أن كان مقربا من الخليفة المنصور متمكناً في دولته وجيهاً بين معارفه، شغوفاً بجمع الكتب النادرة، وضم بلاط المنصور الطبيب الحاج أبا جعفر احمد بن حسان الغرناطي، له تأليف في الطب، ورفيق الرحالة ابن جبير الغرناطي صاحب كتاب الرحلة.

واحتوى بلاط المستنصر، الطبيب والكاتب أبا العلاء بن أبي جعفر احمد بن حسان، ويعد من أشهر أطباء اشبيلية. وكذلك أبو محمد الشذوني الاشبيلي الذي اختص بعلم الفلسفة والحكمة فضلا عن الطب الذي تعلمه على يد الطبيب ابي مروان عبدالملك بن زهر، وكان للأمير تلميذ آخر نبغ في الطب واشتهر بالادب والشعر، هو أبو الحسن بن اسدون المشهور بالمصدوم الاشبيلي، الذي لازم المنصور، وأحد جلسائه المقيمين. وعبد العزيز بن مسلمة الباجي الاندلسي، وكان تلميذاً للطبيب السابق، ومن حاشية الخليفة المستنصر وأبو جعفر بن الغزال، طبيب الخليفة الناصر، الذي اشتهر بصناعة الادوية، وتركيبها، في مدة المنصور والد الخليفة السابق[1].

---

(١) ابن ابي اصيبعة: عيون الانباء، ص: ٥٣٠-٥٣٦.

وأبو بكر بن القاضي ابي الحسن الزهري الذي خدم دولة الموحدين، ونـذر نفسه لعلاج المرضى ووصف العلاج للناس دون أجر. والطبيب المتميز في علم الادب والعربية فضلا عن الطب، أبو جعفر أحمـد بـن سـابق الـذي خـدم النـاصر وصـدرا مـن خلافـة المستنصر. وأبو الحلاء المرسى أحد أطباء المنصـور الخليفـة الموحـدي. وأبـو اسـحاق بـن طملوس البلنسي الذي كان له ولع خاص بمهنة الطب. وابو جعفـر الذهـبي لـذي ضمـه مجلس المنصور العلمي، وكان بارعاً في المناظرة الادبيـة، وتـوفي في مدينـة تلمسـان برفقـة الناصر في غزوته الافريقية سنة ستمائة للهجرة. وأبو العباس بـن الروميـة الـذي تمـيز في علم النبات، ومهر بالادوية، وعني بالحديث الشريف. أما الطبيب الذي فاق اقرانه وتوج هذا المحفل العلمي هو الحفيد الوزير أبو بكر محمد بن أبي مروان بن أبي العلاء بن زهـر، أحد من نبغ بالطب مبكرا، أخذ عن أبيه، واشتهر اسمه في جميع انحـاء العـالم الاسـلامي، علاوة على العالم الاوروبي، وتقدم أهل زمانه عاصر أواخر دولة الملثمين، وأوائـل دولـة الموحدين، انقطع الى خدمة عبد المؤمن، وخليفته من بعده يوسف، وحفيده المنصور، ومن بعدهما الناصر، وكانت وفاته عام ستة وتسعين وخمسائة مسموما بمراكش علـى يـد أبـي زيد عبد الرحمن بن يوجان وزير المنصور الذي كثيراً ما كان يتآمر عليـه، ويكيـد لـه عنـد الخليفة، ولما عجز عن ذلك دس له السم خفية في الاكل، وإلى جانب الطب، نبغ في حفظ القرآن، وتلاوة الحديث، وبرع في علمي الادب والعربية، وتميز في مختلـف فنـون الشـعر، وأجاد فيه. وكان معلما من معالم لعبة الشطرنج حديث فراغ اهل ذلك الزمان[١].

واشتهر من نساء الاندلس بالطب أم الحسن بنت القـاضي أبـي جعفـر الطنجـالي، وكانت امرأة واسعة الاطلاع كثيرة المعارف، أجـادت علومـاً عديـدة، ولكنـها في الطـب كانت أبرز وأشهر[٢]، واشتهرت كذلك بهذه المهنة اخت الحفيد المار ذكره وابنتـها فكانتـا عالمتين بصناعة الطب والمداواة، ولهما خبرة جيدة في ما يتعلق بالطب النسـائي والتوليـد، وكانتا تدخلان الى نساء المنصور ولا يقبل[٣] لمداواة أهل الخليفة المنصور سواهما[٤].

---

(١) ابن أبي أصيبعة:عيون الانباء، ص: ٥٢١-٥٢٤، ٥٣٧-٥٣٨.

(٢) ابن الخطيب: الاحاطة، ج١، ص: ٢٦٥-٢٦٦.

(٣) تتولى قبالة نساء أهله أي توليدهن.

(٤) ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء، ص: ٥٢٤؛ وقيل ان الطبيبة بنت اخت ابن زهـر مـاتت مـع خالهـا اثر تناولها البيض المسموم معه.

وما دمنا في مجال المفكرين، فلن ننسى أمير مفكري الأندلس اليهودي موسى بن ميمون (٥٢٩-٦٠٠/ ١١٣٥-١٢٠٤)، الذي تلقى علومه في المدارس العربية واليهودية في قرطبة، وأخذ معارفه عن أحد تلامذة ابن باجة الشهير مدين، واتصف ابن ميمون بذهنية نيرة، وعقل راجح، قادر على تصنيف الموضوعات بترتيب وعرضها بوضوح، وتعد ميزة انفرد بها بين اللامعين من العلماء، له كتب بالعربية، رسالة في الردة وهي من وحي المحنة التي قاساها بنو جلدته اليهود المغاربة على أيدي الموحدين الذين أصدروا قانوناً يقضي باجبارهم على اعتناق الاسلام[١].

وله كتاب السراج الذي يشرح بطريقة منهجية كتاب المشنا و رسالة العزاء، موجهة الى يهود مصر واليمن الذين اعتنقوا الاسلام قسرا على يد العبيديين[٢].

وكتاب الفرائض الذي ألفه دفاعا عن كتابه تثنية التوراة وكتاب دلائل الحائر الذي كتب اولا بالعربية، وترجم الى العبرية واللاتينية، ولغات اوروبية أخرى، وهذا كتاب اليهود اللاهوتي، والفلسفي، حاول فيه صاحبه أن يوفق بين العقل والدين، تقليدا لطريقة ابن رشد والفارابي وغيرهم من فلاسفة المسلمين، والذي نحا على طريقته توما الاكويني في ما بعد وسارت هذه النظرية في الغرب حتى تدارسها الفيلسوف كانت. ويعتبر هذا الحبر أبرز مفكري اليهود، إن لم يكن آخرهم، ولم يظهر أحد بعده الا مقلدا، يتوكأ على ما أنتجته قريحته الفذة[٣].

إذن فالموحدون كانوا حسنات دهرهم في التقدم العلمي والابدع الحضاري، وبالاضافة الى ما سبق شجع ملوك الموحدين علم الفلك الذي حظي بتقدير جم بين معظم الاسر المغربية. وقد ابتنى عاهل المغرب يعقوب المنصور سنة ٥٩٢هـ/ ١١٩٦م برجا عاليا ليكون مرصدا في مسجد اشبيلية، وكان في ما يبدو أول مرصد بني في الجانب الأوروبي، وسمي في ما بعد اللاخيرالدة[٤].

وأود أن أختم كلامي عن العلوم بخبر جليل القدر له دلالته في التأثير الفعلي للذهنية العربية على مسيرة اوروبا الحضارية. هو أن التركيبة العضوية بين العقلية العربية، وبين التطور الحضاري تتجسد في واحد من مفكري القرن السابع الهجري، رغم تعرض

---

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٤٣٥.

(٢) جنثالث: تاريخ مفكري الأندلس، ص: ٥٠٢-٥٠٣.

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤) المقّري: نفح الطيب، ج٥، ص: ٢٦٦.

البلاد آنذاك لأشد أزماتها في مطلع هذا القرن، ويعد أكثر العلماء بريقا وتأثيراً، هو محمد بن أحمد القرموطي المرسي، من أعرف الناس بالعلوم القديمة، والمنطق والهندسة والرياضيات والموسيقى، وفيلسوفا طبيبا، وكان متقنا للغات عديدة غائصا في دقائقها، عرف له فضله الأعداء قبل الأقرباء، فهذا ملك قشتالة حينما دخل مرسية في العاشر من شوال سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م[١]، عرف له قدره، فعرض عليه التنصر (لو تنصرت وحصلت الكمال كان لك عندي كذا، وكنت كذا ولكنه رفض، وأجابه بما أفحمه، ومنح هذا الباحث ما يحتاجه من دعم مادي ومعنوي، وإن كانت على ما يبدو مناورة منه في الأصل لكسب الوقت ولإلتقاط الأنفاس، وبني له مدرسة تدرس فيها عدة لغات، عربية ونصرانية ويهودية، كان هو على رأسها[٢].

٧- المراكز الثقافية:

تمهيـد:

رأينا أن الحضارة الفكرية قد شملت الوان التفوق الفكري التي انتعشت زمن الموحدين، وازدهرت في المغرب والأندلس، فاهتم أمراء الموحدين وولاتهم كذلك بالعلوم الشرعية اهتماماً كبيراً لتنظيم امورهم الدينية، وحياتهم الاجتماعية، من زواج وطلاق ووصية، وميراث، وبيع، وشراء، ومن هنا كان لزاما عليهم الاهتمام بالفقه لدراسة هذه الاتجاهات، ومن علماء هذا الاتجاه الفقيه الزاهد محمد بن حسن بن زيادة الله نزيل فاس وغيره[٣]، وإلى جانب ذلك كانت تسير الفلسفة قدما أحيانا، فيحقق الفلاسفة الوانا من الفكر الراقي، وكان أتباع الفكر الأول يثورون ضدها، فتصاب الفلسفة بنكسة خاسرة، فتحرق كتبها، ويؤذى علماؤها، ونهضت بلاد الموحدين نهضة كبرى في رعايتها للعلوم العقلية، من موسيقى ورياضة وفلك وكيميا وطب وهندسة وغيرها.[٤]

---

(١) المصدر نفسه، ص: ٢٦٦-٢٦٧، ج٦، ص: ٢٦٣؛ في حين يذكر ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٩٤، أن مرسية سقطت بيد القشتاليين سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨، غير أن ابن خلدون كثيرا ما يخطىء في تثبيت الزمن.

(٢) المقري: نفح الطيب، ج٥، ص: ٢٦٧.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٦٤.

(٤) عبد الواحد المراكشي: المعجب، صك ٤٠١، ٤١٧، ٤١٨، ٤٣٦، ٤٣٧-٤٣٧.

واشتهرت مدن المغرب في هذا الوقت بالتقدم العلمي وبخاصة مدينة فاس، حيث اجتمع فيها علم القيروان، حاضرة افريقية، عندما عاثت فيها غزوات الاعراب، -فهرب علماؤها الى المدينة الاولى، وعلم قرطبة عاصمة الأندلس، حينما اضطرب الأمر بعد بني أمية، رحل من كان فيها من العلماء والفضلاء فرارا من الفتنة إلى فاس. ومن الفقهاء الذين استوطنوها مدة الموحدين، الفقيه أبو الحسن بن عطية خطيب المسجد فيها سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م، إلى أن توفي سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م، وأتى بعده أحد أشياخ المغرب المعروفين ورعا وفضلا وجهادا وايثارا؛ يشكر بن موسى الجوراني وأبو الحسن على المراكشي وغيرهم[١].

وتطور الفكر المغربي على يد مرشد ثورة الموحدين، وأصبح فكرا مستقلا ينزع الى التجديد ونبذ التقليد، وهكذا نرى لأول مرة في التاريخ خروج هذا الفكر من التبعية المذهبية، كما المحنا سابقاً، وهذا وحده يعد أعظم حدث فكري وقع في عهد هذه الدولة؛ إذ اجتمع إلى بني عبد المؤمن نفر من العلماء والكتاب والشعراء ما لم يجتمع لأي من ملوك المغرب قبلهم، كالقاضي عياض اليحصبي السبتي مثلا[٢]، وعبد الرحمن بن أحمد بن أصبغ الخثعمي السهيلي من علماء العربية واللغات والسير والقراءات، وهو من أهل مالقة، ومات في مراكش سنة ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م[٣].

- **قرطبة:**

من المدن القلائل التي وصلت الى مصاف الحواضر العظمى في العالم في العصر الوسيط، وهي من المدن الاسلامية الكبرى، اذ كان لها تأثير ايجابي في التاريخ السياسي والحضاري الاسلامي والغربي، سواء في شرق البلاد أم في غربها. إليها يفد الطلاب الاوروبيون من الجنسين كليهما، ينهلون من معاهدها العلمية، ومنها تخرج رسل الثقافة إلى العالم.[٤]

بقيت حاضرة الأندلس أزيد من ثلاثة قرون، تمسك بتلابيب السياسة في اسبانية الاسلامية والنصرانية على السواء.[٥] تماماً كما تحكمت فيما يبدو بمصائر السياسة والعلم

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٧٢-٧٣.
(٢) الضبي: بغية الملتمس، ص: ٤٣٧.
(٣) ابن قنفذ: الوفيات، ص: ٢٨٠-٢٨١.
(٤) المقري: نفح الطيب، ج١، ص:٣٦٨-٣٧٨.
(٥) ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص:٣٢٤-٣٢٥؛

للدول والامارات التي استحدثت بالمغرب، وتحديدا الدولة الفاطمية وإمارة الأدارسة[1].
وكانت مهجعاً للحياة الرفيعة؛ اذ أمها الشعراء والفلاسفة، وهي موطن للادباء، ومنار للعلماء، ومركز للفنون، أما تألقها فقد غاب بزوال بني مروان عن مسرح الأحداث، فتحولت في عصر الفتنة الاولى (الطوائف) إلى مدينة تاريخية يقصدها السواح والمتنزهون، يستقرؤون آثارها الأموية، ويجوسون بين اطلالها، يبكون رسومها الدارسة.[2]

ومما أصابها من النكبات، منذ أن طحنتها الفتنة، أن فقدت القيادة السياسية والإدارية، وتخلت عنها مكرهة وإن ظلت تحتفظ بنفوذها الأدبي والروحي، منها تنطلق احيانا الجيوش المغربية إلى الجهاد، باعتبارها الحاضرة الاولى لدولة الاسلام، وتزدان باحتوائها على أعظم المساجد الجامعة في بلاد الغرب الاسلامي- إلى اشبيلية بني عباد التي قطعت شوطا في الحياة الارستقراطية اللاهية، كما أصبحت قاعدة الأندلس المفضلة لديهم. ورغم ذلك ظلت قرطبة تفتخر بعلمائها رمز تقدمها، ورقي حضارتها.[3]

ولو شئنا ان نفيها حقها في هذا المجال لما تمكنا في هذه الدراسة أن نأتي الاعلى نزر يسير من ملامح عظمتها وشموخها، وتستدعي منا أن نفرد لها بحثا كاملا، لا يتسع له مثل هذا المقام.

نشأ بها وأمها العلماء من كل فن؛ من الشعراء: أبو جعفر أحمد بن قادم القرطبي، وأبو جعفر أحمد بن رفاعي القرطبي، وهو من شعراء المائة السابعة، ومحمد بن عيسى بن قزمان، امام الزجالين، وقد سبقت الاشارة اليه في بحث الشعراء بما لا مجال لاعادته هنا. وأبو الحسين الوقشي، ابن الوزير ابي جعفر الوقشي، وصهر ابن جبير الرحّالة المشهور، وعبد الغافر بن رجلون المرواني من نسل سليمان ابن عبدالملك، كان حاضرا مع الخليفة يعقوب المنصور في غزوة الأرك سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٥م، وهو من الشعراء.[4]

المراكشي: المعجب، ص:٥١٤، ٥٢٠.

(١) المراكشي: المعجب، ص:١٨، ٩٢، ٩٣ وما بعدها.

(٢) المقري: نفح الطيب، ج٢، ص:٤١٠-٤٢٣.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص:١١٩؛
ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:١٨٩، ٢٠٨، ٢١١، ٢٢٩؛ راشيل أري: تاريخ اسبانيا الاسلامية، ص:٣٣.

(٤) ابن سعيد: المغرب، ج١، ص:١٤١-١٤٢.

ومن العلماء: أبو الوليد اسماعيل بن محمد الشقندي، برع في العلوم القديمة والحديثة في زمانه، ثم أخذ يتدرج في المراتب حتى أصبح من جلساء الأمير يعقوب المنصور بن يوسف بن عبدالمؤمن، حيث توفي باشبيلية سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م، وله قصيدة في مدح الخليفة الأخير، اثر توجهه لحرب النصارى في وقيعة الأرك استهلها بقوله:[١]

انك نهضت فان السعد منتهضُ ترمي السعودُ سهاما والعدا غرض

لك البسيطة تطويها وتنشرها فليس في كل ما قد رمت معترض

كما انشد الوزير بن جامع قصيدة منها:

استوقف الركب قد لاحت لك الدار واسأل بربع تناءت عنه أقمار

لا خفف الله عني بُعد بينِهمُ فاني سرت والأحباب ما ساروا

ألا رعى الله ظبيا في قبابِهمُ منه لهم في ظلام الليل أنوار

غدا انيسابهم لا شيء يذعَرُه لكنه عن جنابي الدهر نفّارُ

فأجابه الوزير:يا أبا الوليد: هذا الظبي نفارك فمن توّاقُك، فخجل.

ومن القضاة: أبوجعفر أحمد بن مضا من سكان قرطبة، اشتغل لعهد الخليفة ابي يعقوب وصدرا من خلافة ابي يوسف المنصور.[٢]

أما خطيب الأندلسي وعالمها، خطيب جامع قرطبة، الذي انتهى اليه علم الآداب بها، هو أبو جعفر احمد بن يحيى الحميري الوزغي، استاذ عبدالواحد المراكشي صاحب كتاب المعجب، تتلمذ على يديه بقرطبة، واشتهر بعلم الحديث والقرآن والشعر، ولم يبقَ في تلك البلاد قبله او بعده من هو اعلى رواية منه في كل ما يروي، مع تفقهه بسائر العلوم، ومما ساعده على ذلك طول عمره، مع قوة الملكة لديه، توفي في سنة ٦١٠هـ/ ١٢١٣م، عن عمر يقارب ستة وتسعين عاما.[٣]

---

(١) المصدر نفسه، ص:٢١٨-٢١٩.

(٢) المراكشي: المعجب، ص:٣٦٠.

(٣) المراكشي: المعجب، ص:٤٣٠-٤٣١؛

ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج١ ص:٢٢٠.

- **اشــبيلية:**

مدينة واقعة إلى الغرب من قرطبة، على نهر الوادي الكبير، الصالح للملاحه حتى المدينة الأخيرة مرورا باشبيلية[1]، إذ ذاع صيتها وتـأثل مجدها حـاضرة لبـني عبـاد أولاً، وأضحت مركز الفن والأدب على عهد المعتمد، الملك الأديب الذي ملأ بشعره الآفـاق، فاشتهرت به اشـبيلية، وازدان بـه الأدب والشـعر علـى الأخـص في مـدة، ذلـك الأمـير الجموح الذي دوخ الممالك بسيفه، وعبقها بشعره، حتى عدّ مـن أطـول الملـوك نفسـا في الشعر مدى التاريخ العربي كله.[2]

فقدت تلك الحاضرة بريقها المركزي بقيام الدولة المرابطية، وزوال ملوك الطوائف، وفي الوقت نفسه شهدت قرطبة عاصمة الاسلام الاولى صعـودا ملحوظـا، حـين اتخذهـا اللمتونيون عاصمة لدولتهم بالأندلس، وتمحورت بلد ابـن عبـاد علـى نفسـها تغـرق في اللهو وفي الغناء فترة من الزمن عاشتها بين الناي والعود مدة ملوك المرابطين، كما خطط لها أن تكون، وقد حاكت اختها المدينة الحجازية مدة بني مروان، وهي التي تصدت بعنف للجيوش المغربية التي وحدت الأندلس، وضمتها للمغرب.[3]

ثم عاودها النشاط مرة أخرى، أيام بـني عبدالمؤمـن بعـد دخولهـم الأندلـس سـنة ٥٤١هـ/ ١١٤٧، اذ اتخذوهـا عاصمـة للقطـر، يقيـم فيـها ولي العـهد، ومنــها تنطلــق الجيوش.[4] وكان وفدها من أبرز وفود شبه الجزيرة لمبايعة عبدالمؤمن في مراكـش بزعامـة القـاضي بـن العربـي عـالم اشـبيلية آنــذاك، ومــن ابنائــها الذيــن ولــدوا بــها ســنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م؛ وقد سبقت الاشارة اليه في بحث الفقهاء بما لا مجال لاعادته ثانية.

وكان مرافقوه في الوفد المذكور من الرؤساء اللامعين، لابل قادة الفكـر الأندلسـي قاطبه. وهو من أول الوفود التي وصلت حاضرة المغرب سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٨م.[5]

---

(١) ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص:٥٩١؛ المراكشي:المعجب، ص:٥٢٢.
(٢) المراكشي: المعجب، ص:١٨٢، ٢٤٠.
(٣) المصدر نفسه، ص:٢٥٧ وما بعدها.
(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢١١، ٢٢٩.
(٥) منهم: ابن صاحب الصلاة المؤرخ، والباجي، وأبو الحسن الزهري الطبيب، وابن القاضي شـريح، وابن الجد، وأبو الحسن ابـن صـاحب الصـلاة، وأبـو بكـر بـن السـجرة، والهوزنـي، وعبدالعزيـز الصدفي، وابن السيد، وابن الزاهر، وغيرهم من اقطاب العلم والادب والزعامة؛
مجهول الحلل الموشية، ص: ١٤٧؛
ابن الأبار: الحلة السيراء، ص:٢٠٤؛ ابن ابي زرع: الأنيس المطرب، ص:١٩٠.

ومن هذه المدينة يصدر الأمر إلى باقي المقاطعات، وفيها استقر حكمهم، فزينوها بالمنشآت الخالدة الباقية إلى يومنا هذا؛ من قصور، وحمامات وصوامع، وقنوات، وبساتين، وأبراج، ومتنزهات الى غير ذلك من المآثر المؤمنية.[1]

اشتهرت بالعلماء والكتاب والادباء والشعراء، منهم: أبو العباس، احمد بن حنون الاشبيلي الذي اتهم بالثورة على الدولة، زمن المنصور بن يوسف بن عبدالمؤمن، وهو من فحول الشعراء والموشحات والكاتب، أبو محمد عبدالله بن عمر الاشبيلي، الملقب بالمهيرس الذي كان مدير دولة يحيى بن الناصر(رئيس ديوان)، ومستشاره الخاص، ولقي حتفه معه في الصدام مع المأمون بن المنصور، في احدى معارك مراكش التي دارت بين العم وابن اخيه للاستيلاء على الحكم، والأديب البليغ، أبو بكر محمد بن احمد بن البناء الاشبيلي، له قصائد في رثاء ابي عبدالله بن ابي حفص ابن عبد المؤمن والي اشبيلية، والنحوي اللغوي، أبو بكر محمد بن الحسين الزبيدي الاشبيلي، امام في النحو واللغة، سكن مراكش مستشارا للخليفة المستنصر، عاوده الحنين إلى بلده، استأذن الخليفة فلم يأذن له[2]، والأديب الشاعر: الهيثم بن أحمد بن ابي غالب بن الهيثم، اشهر حفاظ اشبيلية واقدرهم على قول الشعر في مختلف اوجهه في آن احد، مرتجلاً ودون تلعثم، او انتظار؛ فهو تارة يملي على شخص شعرا، وعلى ثان موشحة، وعلى ثالث زجلا في جلسة واحدة ومن الذاكرة، وهو من كتاب الخليفة المأمون بن عبدالمؤمن.[3]

ومن الاطباء، الطبيب الوشاح، أبو الحجاج يوسف بن عتبة، كان طبيبا، اديبا مطبوعا، مات في مستشفى القاهرة سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م[4]، وأبو بكر محمد بن احمد بن الصابوني الاشبيلي، وهو يعد شاعر اشبيلية الذي يشار إليه بالبنان، ظهر أمره زمن الخليفة المأمون بن المنصور، لكنه رحل قاصدا سلطان افريقية، ابا زكريا بن ابي حفص، مؤسس الدولة الحفصية في تونس، لعله يرى فيه تجدد قوة الموحدين الذاهبة، فالتقاه في مدينة مليانه؛ مدينة في آخر افريقية، قائمة على بقايا آثار رومانية دارسة، ومدحه بقصيدة استهلها:

الله جارك في حِلّ ومرتَحَلِ ... يا معليا ملّة الاسلام في المِلَلِ

---

(١) المراكشي: المعجب، ص:٥٢٣.

(٢) ابن سعيد: المغرب، ج١، ص:٢٤٠، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٦٣.

(٣) المصدر نفسه، ص:٢٦٣؛ المقري: نفح الطيب، ج٤. ص:٣٥٢.

(٤) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج١، ص:٢٦٣.

ثم رحل الى مصر، فم يجد بها التقدير والاحترام، وازمع الرحيل عنها، لكن المنيـة عاجلته، ومات بالاسكندرية، ودفن فيها سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م، ومن شعره قولـه، وقـد بعث إلى محبوب بمرآة:

بعثــت بمــرآة اليــك بديعـــةٍ	فــأطلِع بسـامي افقـها قمـرَ السـعد
لتنظـر فيـها حسـن وجـهك منصفـا	وتعذِرَني في مـا اقاسـي مـن الوجْـد
مثالك فيـــها منــك أقـرب ملمسـاً	واكـثر احسانا وأبقـى علـى العـهد[1]

أما الشاعر الحدث الألمعي، اليهودي الأصل: هو أبو اسـحاق ابراهيـم بـن سـهل الاسرائيلي، كان اعجوبة زمانه، ذكاء، وحفظا، يحفظ كل ما يسمعه لأول مرة، ولقد شك باسلامه كل معاصريه، ومن جاء بعدهم، تظاهر باعتنـاق الاسـلام، وكـان شـاعرا جيـد النظم رقيقه، من شعراء البلاط الخليفي، وحينما كان يسأل عن اسـلامه، يجيـب بلطـف، وأدب جم، احكم بالظاهر، توفي سنة ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م، وقيل فيه غير ذلك، والشاعر أبو جعفر، احـمد بـن ابـي محمد، كان ظـهـوره في مـدة الخليفة المـنصـور بــن يوسـف بـن عبدالمؤمن وغيرهـم كثير، نضرب صفحا عنـهم، لأن هـذه الدراسـة لا تسـتوعب علمـاء صنف واحد من صنوف العلم، فكيف لو كشفنا عن الجميع[2].

◆ **مرسـية:**

عاصمة ولاية تدمير، بناها الأمير عبدالرحمن بن الحكم الأموي، تقع علـى الضفـة اليسرى لنهر وادي تدمير شرق الاندلس، كانت مستقراً ومنطلقاً للثائر محمد بن مردنيش، واصبحت عاصمته المفضله.[3] لها الصداره في انتـاج الفواكـه، وانـواع الثمـر، واصنـاف الشجر، فضلا عن الصناعـات المعدنيـة، والنسيجية، وصناعـة السـجاد، والفضـة علـى الخصوص، واشتهرت بكثرة جوامعها، وحماماتها، وأسواقها، يدور عليها، وعلى احيائـها سور حصين يرد عنها غـارات الاعـداء، كمـا تحيـط بـها الحصـون والقـلاع، والقواعـد، وأقاليم لا نظير لها، بأنواع المشمومات والمأكولات، اوتتزود مرسيه بالماء من النهر المجـاور

---

(١) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج١، ص:٢٦٨.

(٢) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ج١، ص:٢٦٣، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ومن الشـعراء الموهوبـين والفحول في الوقت نفسه: احمد بـن شكيل مـن أهـل شـريش، مـن الذيـن مدحـوا منصـور بـني عبدالمؤمن، وتوفي سنة ٦٠٥هـ/ ١٢٠٨م.

(٣) ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص:١٠٧.

عبر نفقين في داخل الجبل، لجر المياه إلى أنحاء المدينة.[1] علاوة على موقعها الجغرافي الممتاز فقد تميزت بمركزها العلمي الفريد، اذ أفرزت كثيرا من العلماء لمختلف الفنون والتخصصات، منهم: أبو غالب تمام بن غالب اللغوي المرسي المعروف بابن البناء، أو "التياني"، الذي صنف كتبا كثيرة، أهمها كتابه في اللغه "الموعب"[2].

واشتهر فيها من الساسة العلماء: أبو جعفر محمد بن عبدالله ابن أبي جعفر الخشني الفقيه الذي تولى تدبير مرسيه، اثر الفتنة، أواخر دولة المرابطين سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م، ولم يكن طموحا للامارة، ويقول: "ليست تصلح لي، ولست لها بأهل، ولكنني أريد ان امسك الناس عن بعض حتى يجيء من يكون لها أهلاً".[3]

كما برز فيها من العلماء، عزيز بن عبدالملك بن محمد بن خطاب "أبو بكر"، اهتم بالعلوم العقلية، علاوة على مشاركته في النظم والنثر، وتولى ولاية مرسيه عاملا للمتوكل ابن هود سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م[4]، فشجع العلم، واستقدم اقطاب العلماء، وفحول الشعراء، وبخاصة الشاعر الذائع الصيت، أبو بكر محمد بن احمد بن الصابوني الاشبيلي، الذي ساد في بلده، لما أحرزه من التعفف والأدب والبلاغة والشعر، له ولع خاص في اقتناء نفائس الكتب ونسخها، ومن أروع شعره من قصيدة في رثاء أبي عبدالله بن أبي حفص بن عبدالمؤمن[5]

كأنك من جنس الكواكب كنت لم	**تفارق طُلوعا حَالَها وتَوَارِيا**
تحلّيت من شرق يروق تلألؤاً	**فلما انْتحيْتَ الغرب اصبحت هاويا**

---

(١) الحميري: الروض المعطار، ص:٥٣٩-٥٤٠، تح، احسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، لا.ت.

(٢) المصدر نفسه والصفحات نفسها.

(٣) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص:١٢٨، حاشية رقم ٣؛ ص:٢٢٨.

(٤) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب،ج٢، ص:٢٥٢-٢٥٣؛ القدح المعلى، ص: ١٤٦-١٤٧؛ ويذكر أنه قتل في السنة نفسها التي تولى فيها حكم مرسية، لظلمه وجبروته.

(٥) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص:٣٠٨؛
ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج١، ص:٢٥٤؛
ويذكر ان الممدوح ابا عبدالله بن ابي حفص، كان واليا على بلنسية، وقد عزل عنها وهي في شرق الأندلس، وولي اشبيلية، وهي في غربها.

♦ المريـــة:[1]

مدينة حديثة لا تتعدى عمق تاريخ الناصر الأموي، إذ رأى أن البناء دليل العظمة والسطوة والسلطان، وهو الذي تتناسب سياسته وطبيعته مع العمـران.[2] فبنى ثغـراً في جنوب شرق الاندلس، هو ميناء المرية سنة ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م، لتكون محطة على طرق تجارة دولته شرقا وغربا، ليصبح هذا الثغر محرسا بحريا يرقب الشواطئ الجنوبيـة، ليدفـع عنـها غارات القرصنة البحرية الاجنبية.[3]

تطورت هذه المدينة، لتحتل قاعدة الجنوب البحري، وهشمت غيرها، لتجعلـها في زاوية النسيان والاضمحلال.[4] لتصل هـي إلى اهـم موانـئ الأندلـس في القـرن الرابـع الهجري، على الاطلاق؛ بها قاعدة الاسطول، ودور للصناعة لاصلاح السفن، وانشائها، ومرفأ للحط والاقلاع.[5]

أضحت المرية، لاهميتها الاقتصادية والسياسية، والبحرية (الاستراتيجية)، عرضـه لطمع الاقارب، وغارات الأباعد، ضمها الموحـدون إلى امبراطوريتـهم في أول عـهدهم، رغم ضعفهم.[6]

ثم بعد عام تقريبا دخلت في تبعية ملك قشتالة، على كره منها، فـترة مـن الوقـت سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م، لما ثار أهل المدينة ضد الحكم الموحـدي الـذي لم يتغلغـل بعـد في الأندلس، وسقط القائد ابن مخلوف صريعا في ساحة الشرف، متشبثا بولاء المدينة الثـائرة وثمة خبراً آخر أسوقه لمصرع ابن مخلوف؛ لما أشيع أن الموحدين بطنجة قاموا بقتل قاضي

---

(١) مدينة على البحر الأبيض المتوسط، بنيت على بقايا مدينة قديمة، لكن العرب وسـعوها وجعلوهـا مرسى تجارياً وسموها المرية، بمعنى المرآة الصغيرة. كانت أيام ملوك الطوائف عاصمة بـني تجيـت، وقد ازدهرت في أيامهم، حتى أصبحت مركزاً ثقافياً مـهماً، واسـترجعها الاسـبان سـنة ١٤٨٩م. وتقع في شرق مالقة، حيث تبعد عنها ٢٢٢ كليو متر، وكانت تعتبر أيام العرب مـن أعمـال كـورة بجانة؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٧ هامش ١؛ ياقوت: المعجم، ح٥، ص:١١٩؛ الحمـيري: الروض المعطار، ص:١٨٣، ٥٣٨.

(٢) ابن خاقان: مطمح الانفس ومسرح التأنس، تح، محمد علي شوابكه، دار عمار، مؤسسة الرسـالة، بيروت، ٤٠٣، ١٩٨٣.

(٣) المراكشي: المعجب، ص:٣١٩؛ ابن عذاري: البيان، ج٢، ص:٢٣١.

(٤) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص:١٩٠-١٩٣.

(٥) ابن خلدون: العبر، ج١، ص:٢٥٣.

(٦) الادرسي: نزهة المشتاق،، ص:١٩٨؛ ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص:١٩٨.

الدينة، فخاف أهل سبتة أن يقتل قاضيهم أبو الفضل عياض، فاغتالوا الوالي يوسف بن مخلوف وكان ساعتئذ في المرية.(١)

ويظهر ان المرية قامت بالثورة، طالما بدأت قوة الموحدين الفتية تهتز تحت ضربات ثورة مضادة، بقيادة محمد بن هود الماسي، التي انتهت بالفشل بالسرعة التي قامت بها.(٢)

استعادت الدولة الموحدية عافيتها مرة أخرى، لترنو ببصرها إلى المرية، مركز الانطلاق البحري الذي لا غنى لها عنه، منها ينطلق من يود السفر الى مصر والشام، وغيرها من بلاد المشرق، واليها انتهى المهدي ابن تومرت في رحلته الاندلسية، ليمتطي متن بحرها ليواصل رحلته إلى الشام.(٣) ثم منها انتقل ابن غانية الى جزيرة ميورقة على أثر الفتنة الثانية.(٤)

واسترجعها الموحدون من النصارى صلحا، بعد سبعة أشهر من الحصار المنهك سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م، بفضل جهود الوزير ابن عطية.(٥) اذ كان الاحتلال قد اخذ من جهدها وابداعها مأخذا، واحتفر في نفوس اهلها خنادق وحفرا ليس من السهولة ان تمحوها الأيام، فلم تستطع ان تستعيد ازدهارها القديم، رغم عودة العافية اليها في السنوات الأولى من القرن السابع الهجري؛ وكانت تبادلها البضائع سفن اسبانية النصرانية، والايطالية، وغيرها من البلدان على حد قول توريس بالباس.(٦)

وعلى الرغم من ظروف المرية، السابقة، فقد نبغ من ادبائها أبو بكر يزيد بن صقلاب صاحب اعمال المرية، كان واسع الأدب، ممتع الحديث له في الشعر سوق، ومن بضاعته الشعرية.(٧)

وطَفْلَة الاطراف خُمْصانة في قامة السيف وشكل الغلام

---

(١) المراكشي: المعجب، ص:٣٠٨؛ ابن سعيد: المغرب، ص:١٩٨، ١٩٩؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص٣١١؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص٢٠-٢١؛ وكانت المرية تابعة إدارياً الى سبتة.

(٢) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:١١١؛ ابن ابي زرع: الأنيس المطرب، ص:١٩٠.

(٣) مجهول: الحلل، ص:١٠٤؛ المقري: النفح، ج٤، ص:٢٠٩.

(٤) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص:٢٣٠.

(٥) الناصري: الاستقصاء، ح٢، ص:١٢٢؛ المقري: النفح، ج٦، ص:٢٥٤، حيث اقنع ابن عطية النصارى بالنزول على الأمان والاستسلام، مع حفظ حياتهم بالمقابل، اي مبادلة الأرض بسلامة ارواحهم واموالهم وذراريهم.

(٦) Torres Balbas, P, 445.، المقري: النفح، ج٦، ص:٢٥٤.

(٧) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ح٢، ص:٢٠٦-٢٠٧.

مكحولة العينين حوريـة من اللواتي قُصرَت في الخيام

تكـاد أن تعقـد مـن لينـها وفـترة العِطـف وهـز القَـوام

يحلـف مـن أبصرهـا أنـها قُـدّت لهـا مـن خـيزران عظـام

قـد جمّـع الله بـها فتنـةً حـلاوة اللفـظ وسحـرَ الكـلام

تفـتر عـن ذي أشُـرِ بـارد اشـهى مـن الخمـر بمـاء الغمـام

نعمـت فيـها ليلتـي كُلّـها بأرشَـقِ الخلـقَ وأحلـى الأنـام

ومنها الشاعر الوشاح ابو الحكم بن هرودس، وأبو الحسن ابن علي بن المريني، والزجال احمد بن الحاج المعروف بمدغليس، المار ذكرهم سابقا.[1]

ثم من الكتاب النابهين الذين خدموا في ظل الموحدين، اثناء ولاية السيد عثمان بن عبدالمؤمن، ابو محمد عبدالغني بن ظاهر، اذ كانت مقدرته على الكتابة، وتطويعه للكلام المنمق، وتحليه بسرعة البديهة، سبب حتفه، حينما بعث برسالة سرية، وقعت في يدي ابي سعيد، كان قد بعثها إلى أخيه السيد أبي حفص بن عبدالمؤمن والي اشبيلية، إذ جاد فيها، وبرّز، متجاوزا حدود غرناطة، وواليها ابا سعيد عثمان، وكان ذلك مما احقده عليه قال فيها : "وما على غير يدك الكريمة، يكون هذا المكان سراحي، ولا أرجو من غير التفاتك ان يراش جناحي، فاجعلني ببال من اعتنائك، فإني لم أوجه وجهي الى غير رجائك وتمثل شعرا فقال:[2]

فلـو زارنـي مـن نحـو افقـك بـارق لـهزّ جنـاحي طـائراً نحـوك الـودُّ

وقال:

تَبَسّـم شـيبي فـي عـذارى منكِّبـا فقلت له يـا ليـت طرفـيَ قـد عمِـي

فقـال عجيـب بُغـض مـن لاح طالعـاً كصبـحٍ ولـم يُظْـهرْ خـلافَ التبسـم

ولـم يـدرِ أن الليـل والويـل طيّـةُ وهـل هـو الامثـل رقـمٍ بـأرقمِ

تـراني أهـواه وقـد صـار مـن بـه أهيـمُ إذا مـا مـرّ بـي لـم يسـمِ

---

(١) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص:ج٢، ص:٢١٣-٥١٥.

(٢) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص:ج٢، ص:٢٢٥-٢٢٦.

أما علوم الفقه والتفسير والحديث والأحكام، والنحو واللغة والأدب، فقد بلغ علماء المرية فيها الغاية، اذ نبغ الكثيرون منهم: أبو عليّ الحسن بن محمد الانصاري المعروف بابن الرهبيل، وهو من كبار المحدثين المتوفي عام ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م، والفقيه عبدالحق بن غالب ابن عطية المحاربي المتوفي عام ٥٤٦هـ/ ١١٥١م، وقد جمع علوم الفقه واللغة والأدب، ثم أبو امية ابراهيم بن منبه بن عمر بن احمد الغافقي، والمحدث ابو علي منصور بن خميس اللخمي المري العالم، ومنصور ابن لب بن عيسى الانصاري،[(١)] والحافظ عبد الرحمن بن محمد ابن الصقر الانصاري الخزرجي المتوفي عام ٥٩٩هـ/ ١١٦٣م.[(٢)] والمحدث ابن حبيش والخضر بن عبدالرحمن[(٣)]، ومنهم الحافظ النابه عبدالله بن علي بن عبدالله الرشاطي، اصله من أريوله، وسكن المرية، ونشأ بها، وطلب العلم في معاهدها حتى عد من أهلها، ثم استشهد عند دخول النصارى اليها في جمادي الاولى سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م[(٤)]، وكان من المقربين الى الدولة علي بن عبدالله الجذامي البرجي، والمحدث علي بن ابراهيم المعروف باللوان،[(٥)] والفقيه ابو عيسى محمد بن محمد بن ابي السداد؛ فهو فقيه مالكي، تولى القضاء بمرسية، ونائبا قضائياً عاما فيها، وكانت وفاته ببلده عام ٦٤٠هـ/ ١٢٥٢م.[(٦)]

والمريه ذلك البلد المشهور الذكر بموقعها البحري الذي أبانها به عن سائر المدن، شرقية أم غربيه، اسلامية ام نصرانية، حيث كان ساحلها انظف السواحل واشرحها واملحها منظراً، وفيها الحصى الملون النادر الذي يستعمله الملوك والسلاطين والأثرياء مكان الرخام في دواوينهم، وواديها أفرج الأودية وأكثرها متنزهات.[(٧)]

فضلاً عن جمال نهرها وعذوبة مياهه، اذ كانت هذه مصدر الهام شعرائها، وصفاء ذهنية علمائها، اذ تركت بصماتها أثرا في اعتدال مزاج اهلها، وجمال منظرهم، وحسن اخلاقهم ولين طباعهم، مع براعتهم النادرة لصناعة الوشي والديباج والخز على اختلاف انواعه.[(٨)]

---

(١) المقري: النفح، ج٣، ص: ٢٦، ٢٨٠، ٢٦١، ٣٨٥، ٣٩٨.
(٢) جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الاندلسي، ص:٢٨١.
(٣) ابن بشكوال: اصلة، ق١، ص:١٨١.
(٤) المصدر نفسه، ص:٢٩٧؛ وللرشاطي عدة كتب منها: 'اقتباس الانوار والتماس الازهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار'.
(٥) المصدر نفسه، ق٢، ص:٤٢٦، رقم ٩١٦ ق٢، ح٧، ص:٤٢٧، رقم:٩١٨.
(٦) ابن منقذ: الوفيات، ص:٣١٧.
(٧) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص:١٩٣-١٩٤.
(٨) المقري: نفح الطيب، ج٤، ص:٢٠٩-٢١٠.

خاتمـــة

جعلت دولة الموحدين من الجهاد مثل سابقتها دولة المرابطين، هدفا رئيسا حشدت له كل الجهود، ووضعته شعارا لها، ومن اجل ذلك وفي سبيل تحقيق هذا الهدف، اتخذ ابن تومرت من رحلاته المشـرقية، واتصالـه بالعلمـاء نـهجا مغـايراً لمـن سـبقه مـن الدعـاة؛ فقدتلقب بالمهدي، وأطلق على اتباعه الموحدين، ورفض التقليد والتبعيـة، ونحـا منحـى الاجتهاد (المذهب الظاهري).[1] فكبان شخصية طريفة وثرية، سواء في مقوماتـه الذاتيـة، أو في انتاجه العلمي، أو في تجربته التي خاضها في الاصـلاح الشـامل عقيـدة ومنـهجاً في الفكر الشرعي، وسياسة واجتماعاً.

فقد شمر عن ساعد الجد، اذ حـرك اتباعـه جهـة مراكـش أولاً- حـاضرة اعدائـه التقليديين- إلى أن ظهر على مسرح الاحداث صديقه وخليفته عبدالمؤمن بن علي الـذي لم يقف طموحه عند بسط سلطانه على المغرب الاقصي، بل تعداه، ليضم المغرب الكبـير كله، وعدوه الاندلس، تحقيقا لحلمه وحلم اسـتاذه في تكويـن امبراطوريـة كـبرى، تضـم عدوتي المغرب والاندلس، ومن بين الاسباب التي اسرعت في قيام دولة الموحدين بامتداد نفوذهـم، أولاً، ضعـف دولتي بني باديس 'الزيرية والحمادية' بفعل الصدام الذي كان بينهما من جهة، وصراعهما مع العرب رسل الدولة الفاطميـة مـن جهـة ثانيـة، وثانيـاً، وقـوع افريقية فريسة في يد النورمان، واخيرا تشظي المجتمـع الاندلسـي ووقوعـه فريسـة سـهلة يلوكها نصارى اسبانية.

هكذا لم يتردد عبدالمؤمن في تلبية نداء الواجب لتخليـص افريقيـة والاندلـس مـن اطماع الفرنجة وغطرستهم في القطرين كليهما.

وبعد ان فرغ من نورمان صقليـة في افريقيـة سـنة ٥٥٥هــ/ ١١٦٠م، لم يتـوانَ في عبور المجاز إلى الاندلس، والاجتماع بالسادة الامراء، والقادة والشـيوخ، وبأعيـان البـلاد وفقهائها، لرسم الخطط الحربية لحمياتها وانقاذها مما يحيط بها من دسائس ومؤامرات، ولما انهى عبدالمؤمن استعداداته لخوض معركـة فاصلـة في تلـك البـلاد علـى غـرار الزلاقـة، عاجلته المنية، وترك مهمة تنفيذها إلى خلفائه من بعده.

---

(١) يقول المذهب الظاهري: المجتهد المخطئ خير من المقلد المصيب؛ ابن حزم الظاري: الفصل في الملل والاهواء والنحل، ج٤، ص:١٤٥-١٦١، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ١٤٠٣/١٩٨٣.

ولقد تبين من خلال هذه الدراسة ان انتعاش الاقتصاد زمن الموحدين، لم يتعدّ في باديء الامر منهج ابن تومرت؛ كالزكاة والاعشار واخماس الغنائم المحققة من توسعات الحرب. وتبادل المنتجات الزراعية والصناعية، بين الشمال والجنوب، ومن القوافل التجارية التي كانت تتردد طوال الوقت بين الاندلس والمغرب من جهة، وبلاد غانة في الجنوب، وبين المغرب والشرق العربي عبر الاسكندرية من جهة ثانية. وقد تطور الاقتصاد المغربي مدة بني عبد المؤمن حيث مسحوا الأراضي التي يسيطرون عليها من حدود اسبانيا الى جنوب المغرب، ومن المحيط الاطلسي غربا الى حدود مصر شرقاً، ووضعوا عليها اخراج الذي امد خزينة الدولة بفائض كبير من الاموال، ونتيجة لهذا التطور سكت العملة من الذهب والفضة، وان اول نقد تداوله الموحدون في الاسواق التجارية هو الدرهم المربع الذي احدثه المهدي، وكان يقوى هذا النقد بازدهار الاقتصاد، وينخفض بتراجعه. ونتيجة حتمية لنمو الاقتصاد انتعشت الحياة الاجتماعية والعمرانية زمن الموحدين؛ اذ كانت ايامهم خيراً وبركة، وعاش الشعب المغربي في كنفهم حياة آمنة بسيطة في بداياتها بعيدة عن اللهو البذخ والاغراق في متع الحياة.

غير ان هذه الحياة تغيرت بسبب الرفاه المعيشي الذي ساد بلاد المغرب، ونتيجة للحرية الفكرية والاجتماعية التي عمت مجتمعهم. فقد عاشت فئات من المجتمع منفلتة من كل قيد اخلاقي او عرف اجتماعي بين المروج والمغنيات، تعيش للطرب والغواية، دونما خفر ام حياء، او احساس بخوف او شعور برقيب الى نهاية الدولة.

ورغم كل ما قيل عن الموحدين فقد وصلوا الى مستوى رفيع من المنعة العسكرية والسياسية، وابدعوا في النواحي العمرانية والانشائية وكان اثرهم على جيرانهم انقلابا في الحياة الاجتماعية الاسبانية؛ اذ كان تأثير الاسلام على الفرد الاسباني يتجلى في ظهور الفرق الدينية العسكرية، ومعاملة الاسرى، وتطرق هذا التأثير الى الاطعمة والألبسة والتزين بالحياء والنظافة والآداب العامة؛ من عبارات التحية والمجاملة واحترام الوالدين.

وأوضح البحث الدور السياسي والثقافي الذي قام به الموحدون على عهد خلفائهم، وبخاصة الثلاثة الأوائل، واستعادتهم هيبة الاسلام في الأندلس، بعد أن توافق ملوك الاسبان على اقتسام أراضي المسلمين فيما بينهم، واستعد كل من جهته -منفردين ومجتمعين- للاستيلاء عليها وفقا للمخطط الموضوع.

لذا فقد استطعت ان اصور جهادهم تصويرا واقعيا، وأن أزيل ولو إلى حين، الآثار السيئة التي رسخت في الاذهان، حول الاسس المدخوله الواهنة "المهدوية والعصمة"، حين

اثمرت دعوته في المجـال السياسـي دولـة قويـة، واسـهمت في اثـراء الثقافـة الاسـلامية، وعطلت الزحف الصليبي، بما انتهجته من طريق الجهاد لعدة قرون، وعلى الرغم من هذه الانتصارات المظفرة، والنهضة الفكرية الاسلامية الـتي وصلـت منتـهاها، لم يسـتطع مـن خلفهم الى يومنا هذا، أن يحاكي او يصل إلى مسـتوى ذلـك الابـداع الحضـاري الشـامل المتميز، لكنها سرعان ما دبت عوامل الضعف الداخلـي فيـها- فـآلت بـها إلى السـقوط، وتبين بوضوح اخفاق النهج التومرتي و"الايديويولوجية" الموحدية التي بدأت تتهاوى على ايدي امرائها، وتتمثل في التراجعات العسكرية الحادة امام النصارى، انهيارا رأسياً ودفعة واحدة زمن الناصر الذي كان يبدو لجميع المحللين أنه خير من يخلف أباه المنصور. فكانت هزيمة العقاب نتيجة للطيش والتهور والغرور، واهمال الشورى الـتي قـام عليـها الحكـم الموحدي، وبدأ يعود المغرب القهقري، واسـتمر إلى مـا بعـد الموحديـن، واصبحـت معـه الاندلس في زاوية جنوب شبه الجزيرة "مملكة غرناطة"، تعالج سكرات الموت في حشرجات متتالية، لم تجد من يقدم لها العون، إلى أن طويت هذه الصفحة المشرقة من تاريخ المسلمين في اسبانية، الذي نيف على ثمانية قرون وكان لهـم منـها ضـوء سـاطع لا تـزال اسـبانية تستضيء به إلي يومنا هذا.

ولعل من اسباب ذلك، أن ابن تومرت لم يضع اسسا متينة يقوم عليها الحكم مـن بعده، وتكون عاصمة من التناحر على السلطة الذي كثيرا مـا يـؤول بـالدول الى الفنـاء، وسرعان ما لفظ المجتمع المغربي المهدوية، وما يتصل بها من آراء، رغم المحـاولات الجـادة التي قامت للتأصيل في الفكر الشرعي، وتنشيط الاعتناء بالقرآن والحديث دراسة وحفظا، ولكن تأصل المنهج الفروعي (مذهب مـالك) بـالمغرب، واسـتحكامه، وتشـبث المغاربـة بكتب الفروع المروية عن شيوخ المالكية، كان عامل مقاومة شديداً للنهج الاصولي الـذي بشر به ابن تومرت، وقد ترسخ في بعض النفوس، أن التنازل عن أقوال المشايخ، انما هـو تنازل عن المذهب المالكي المتعمق الجذور في اهل المغرب. وان ما انتهجـه بعـض حكـام الموحدين، وبخاصة المنصور، من منهج العنف، وفرض الرأي بـالقوة -تـهديداً وتحريقـا- جعلا منهج التأصيل الذي دعا اليه المهدي محـدود الأثـر قليـل الانتشـار، والـذي بسـببه تعرض الشعب المغربي للوعيد، وفقدانه كتبا الفوها، وكان لها عندهم المقـام الاول، كمـا جعلهم يـزدادون تمسـكا بمنـهجم، واعتـبروا الحفـاظ علـى ذلـك مـن ضـروب الجـهاد، والتضحية التي تقربهم الى الله زلفى.

وقد أثبتت احداث التاريخ، أن الآراء التي يسلك اصحابها في اثباتها واشاعتها مسلك الاضطهاد والفرض بالقوة، ينتج عنها دوما عكس ما أريد لها، فتؤول الى الانقراض والتلاشي.

لذا فالموحدون، على ما يبدو، لم يسلكوا في سبيل انجاح هذا المنهج ما يلزم من التمهيد والتدرج، رغم سماح عبدالمؤمن للفقهاء بالرد على المالكية، وأصحاب الآراء الاخرى بالاسلوب العلمي، ومقارعة الحجة بالحجة في بعض الاحيان، ويلوح ان استنباط الأحكام من الاصول درجة عالية من التفقه تستلزم اعدادا تربويا معمقا طويل النفس، قد يستغرق عدة أجيال كي يؤتى كله، كما يتطلب فرز القوى الخلاقة المتصفة بالحجة والوضوح حتى تصبح قدوة للناس، لتحدث حركة التغيير شيئا فشيئاً، لتتحقق النتيجة المرجوة.

وأن ما كان من محاولات علمية قام بها المنصور، وبعض العلماء الآخرين، لم تكن على قدر من الكفاية في الاقناع بالمنهج التومرتي، وابرازه بالحجة، فآل أمره إلى نتيجة لا يحسد عليها.

ويتضح أن بني عبدالمؤمن، دعوا إلى منهجهم بقرار سياسي تدعمه قوة السلطة، لم تواكبه حركة علمية كافية ومتطورة، ومن المعروف أن التغيير في المجال الفكري، لا يحدث إلا بالحركة العلمية المستمرة، أما القرار السياسي فلا يكون الا منشطا أو مساعدا فحسب.

ومن الجدير أن نلاحظ، أن المهدي نفسه شرع في التغيير الى المنهج الاصولي بحركة علمية، تمثلت فيما كتبه من مؤلفات في شرح التأصيل والاستدلال عليه،وأن ما قام به من محاولة في الاصلاح الشامل بالمغرب، كانت تجربة ثرية وعميقة الى حدما، اصلها صاحبها على فكر علمي، ظهرت فيه الغزارة في المادة، والمتانة في الاستدلال، ثم انطلق في الدعوة لهذا الفكر على اساسه، فكان التوفيق إلى جانبه في كثير من الاحيان، ولم يسلم في أحيان أخرى من الهفوات –اذ أن هذه الحركة لم تتطور بعده في اتجاه البحث العلمي لاثراء مذهبه، بل جنحت كما رأينا إلى القرار السياسي– فكثيرا ما كان يقع فيها من جابهوا واقع الناس، وتصدوا لتغييره، إن الواقع محك صعب يكاد لا يدركه اولئك الذين يكتفون بالتنظر العلمي المنعزل، حيث للواقع منحى غير منحى الذهن ووقعه وطعمه غير التصور النظري ولا تدرك الأمور حقاً حق إدراكها إلا إذا ذاقتها وجربتها، وان اكثر ما يقع من الانحراف أو الفشل، في الحركات الاصلاحية، وبخاصة الثورية منها، راجع إلى سوء التقدير للمنطق الواقعي.

المصادر والمراجع

- المصادر باللغة العربية

ابن الأبار: أبو عبد الله محمد بن عبد الله أبي بكر القضاعي. (ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م).

- التكملة، طبعة دوزي.
- الحلة السيراء، ج١، ج٢، طبعة دوزي، تح حسين مؤنس، مصر، ١٩٦٣م/١٣٨٣هـ.

ابن الأثير: علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م).

- العلماء، نشر دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٧م/١٣٨٧هـ.
- الكامل في التاريخ، تسعة اجزاء، راجعه وعلق عليه نخبة من العلماء، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧م/ ١٣٨٧هـ.

ابن ابي اصيبة: موفق الدين أبو العباس احمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي المعروف بابن أبي اصيبعة، (ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩م).

- عيون الأنباء في طبقات الاطباء، نشره الدكتور، نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م/١٣٨٥هـ.

ابن الأزرق: أبو عبدالله بن الأزرق (ت ٨٩٦هـ/١٤٩٠م)

- بدائع السلك في طبائع الملك، تح وتعليق، د. علي سامي النشار، منشورات وزارة الاعلام العراقية، ١٩٧٧م/١٣٩٧هـ.

الأنصاري: أبو محمد عبدالله جمال الدين بن هشام (ت ٧٦١هـ/١٣٥٩م).

-شرح قطر الندى وبل الصدى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

ابن بسّام: أبو الحسن علي الشننشرني (ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م).

-الذخير في محاسن اهل الجزيرة، تح، احسان عباس، دار الثقافة، بيروت- لبنان- ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبدالملك (ت ٥٧٨هـ/١١٨٢م).

-كتاب الصلة، جزآن، المكتبة الاندلسية. الدار المصرية للتأليف والنشر والترجمة، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

ابن بطوطة: أبو عبد الله محمد الطنجي اللواتي (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)

-تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، الجزء الاول والثاني تح، د.علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

البكري: ابو عبدالله بن عبدالعزيز المرسي (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م).

- المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، باريس، ١٣٢٩هـ/١٩١١م، نشر، دي سلان، وهو مأخوذ من كتاب المسالك والممالك، الجزائر، ١٣٢٩هـ/١٩١١م.

البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م).

- انساب الاشراف، مخطوط وصور، دار الكتب المصرية، ١١٠٣هـ/١٦٩١م، محقق منه، ج١، ٢، الجامعة الاردنية.
- فتوح البلدان، القاهرة، ١٣١٨هـ/١٩٠٠م.

ابن بلقين: الأمير عبد الله آخر أمراء بني زيري بغرناطة.

- التبيان، نشر وتحقيق، ليفي بروفنسال، لا.ت.

البيدق: أبو عبدالله بن عبدالعزيز (ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م).

- اخبار المهدي بن تومرت، نشر، ليفي بروفنسال، باريس، ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م.

التيجاني: أبو محمد عبدالله بن محمد بن أحمد (ت ٧١٧هـ/١٣١٧م).

- رحلة التيجاني، نشر، حسن حسني عبدالوهاب، تونس، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

ابن جبير: ابو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني، الأندلس، البلنسي، (ت٦١٤هـ/١٢١٧م).

- (الرحلة)، تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الاسفار، القاهرة، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.

الجزنائي: أبو الحسن علي (ت القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي).

- زهرة الآس في بناء مدينة فاس، نشر، الفريدبل، الجزائر، ١٣٤١هـ/١٩٢٢م.

حاجي خليفة: مصطفى (ت١٠٦٧هـ/١٦٥٧م).

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ط، لوزان، ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م.

ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد القرطبي (ت٤٥٦هـ/١٠٦٠م).

- طوق الحمامة، ط، مصر، ١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل، اربعة أجزاء، القاهرة، ١٣١٧هـ/١٨٩٩م، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- رسالة نقط العروس، فصل من مجلة كلية الآداب، بالقاهرة.

ابن حوقل: أبو القاسم محمد بن علي، (ت٣٨٠هـ/٩٩٠م).

- صورة الارض، بيروت، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.

الحميدي: ابو عبدالله ممحمد بن أبي نصر فتوح بن عبدالله الأزدي، (ت٤٨٨هـ/١٠٩٥م).

- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والنشر والترجمة، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

- جذوة المقتبس، تح، محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة، ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م.

الحميري: ابو عبدالله بن عبدالمنعم، (ت٩٠٠هـ/١٤٩٥م).

- الروض المعطار في خبر الاقطار، تح، د. احسان عباس، مكتبة لبنان. بيروت، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

ابن حيان: حيان بن خلف، (ت٤٢٢هـ/١٠٣١م).

- المقتبس في تاريخ رجال الأندلس، تح، محمود علي مكي، بيروت، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

ابن خاقان: الفتح بن محمد بن عبدالله القيسي (ت ٥٣٥هـ/١١٤٠م).

- قلائد العقيان، فاس، ١٣٥٠هـ/١٩٣١م.

ابن خرداذبة: ابو القاسم عبيدالله بن عبدالله، لا.ت .

- المسالك والممالك، ط، دوزي، ليدن، ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م.

الخشني: محمد بن الحارث بن أسد (ت٦٦١هـ/١٢٦٣م).

- تاريخ قضاة قرطبة، نشر مع نشرجمة اسبانية، الربيرا، مدريد، ١٣٣٣هـ/١٩١٤م.

- قضاة قرطبة، تح، ابراهيم الابياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢.

ابن الخطيب: الوزير محمد لسان الدين (ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م).

- الاحاطة في أخبار غرناطه، القاهرة، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م.

- اعمال الاعلام نشر بروفنسال، الرباط، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

- أعمال الأعلام، بيروت، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م.

- رقم الحلل، تونس، ١٣٣٥هـ/١٩١٦م.

- رقم الحلل، المدينة المنورة ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٦م.

- كناسة الدكان بعد انتقال السكان، تح، د. محمد كمال شبانه، راجعه، د. حسن محمود، القاهرة، ١٣٨٦هـ، ١٩٦٦م.

- نفاضة الجراب في غلالة الاغتراب، تح، مختار العبادي، القاهرة، لا.ت.

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/١٤٠٦م).

- العبر وديوان المبتدأ والخبر، ثمانية اجزاء، ط، دي سلان، الجزائر، ١٢٩٩هـ/١٩٩١م بيروت، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.

- ج١ (المقدمة)، ط٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

ابن خلكان: شمس الدين احمد بن ابراهيم، (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م).

- وفيات الاعيان وأنباء ابناء الزمان، تسعة اجزاء، القاهرة، ١٣٦٨هـ/١٩٤٨م.
- وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، سبعة اجزاء دار صادر بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

ابن دحية: عمر بن الحسن بن علي بن محمد الجميل البلنسي الأندلسي (ت٦٣٣هـ/١٢٣٥م).

- المطرب من أشعار اهل المغرب، القاهرة، ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م.

ابن ابي دينار: محمد بن أبي القاسم القيرواني، (ت ١١١٠/١٦٩٨م).

- المؤنس في ذكر افريقية وتونس، تونس، ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م.

الزبيدي: محمد مرتضى، لا.ت.

- تاج العروس، عشرة مجلدات، مكتبة الحياة، بيروت، لا.ت.

ابن الزبير: أحمد بن ابراهيم (ت٧٥٨هـ/١٣٥٨م).

- صلة الصلة، نشر ليفي بروفنسال، الجزائر، ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م.

ابن ابي زرع: أبو الحسن علي بن عبدالله الفاسي، (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م).

- الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٣٩٣/١٩٧٣م.

الزركشي: محمد بن ابراهيم (ت القرن الحاديث عشر الهجري/ السادس عشر الميلادي).

- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تونس، ١٢٩٩هـ/١٨٨١م.

الزركلي: خير الدين، لا.ت.

- الاعلام، أحد عشر جزءاً، ط٣، بيروت، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

السراج: محمد بن محمد الأندلسي الوزير (ت ١١٤٩هـ/١٧٣٧م).

- الحلل السندسية في الأخبار التونسية، ج١، ق٤، تح، محمد الحبيب الهيلة، لا. ت.

ابن سعيد: علي بن محمد عبد الملك بن سعيد المغربي الغرناطي الأندلسي، (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م).

- الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تح، ابراهيم الأبياري، ط٣، دار المعارف بمصر-١١١٩، كورنيش النيل، القاهرة، لا، ت.
- رايات المبرزين وغايات المميزين، تح، الدكتور، النعمان عبد المتعال التاجي، الكتاب الثامن والعشرون، القاهرة، ١٣٩٣/١٩٧٣.

–المغرب في حلي المغرب، جزآن، تح، شوقي ضيف، ط٢، القاهرة، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، ١٣٧٣هـ/١٩٥٣.
–القدح المعلى في التاريخ المحلي، تح، ابراهيم الأبياري، ط٢، بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
السيوطي: الامام جلال الدين السيوطي) ت ٩١١هـ/١٥٥٠م)
–تاريخ الخلفاء، تح، محمد محي الدين عبد الحميد، لانشر، لا.ت.
ابن شاكر: محمد بن شاكر الكتبي الدمشقي، (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م)،
–عيون التواريخ، تح، نبيلة عبد المنعم داود،مطبعة أسعد، بغداد، ١٤١١/١٩٩١م.
–فوات الوفيات ، تح، احسان عباس، القاهرة، ١٤٠٣هـ/١٨٨٣م.
أبو شامة: شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الشافعي، (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٧م).
–كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج ١+٢، دار الجيل، بيروت، لا. ت.
–كتاب القسم اللثاني، تح، محمد حلمي، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.
الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، (ت ٥٤٨هـ/١١٥٤م)
– الملل والنحل، ثلاثة أجزاء، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
ابن أبي صاحب الصلاة: عبد الملك محمد بن أحمد بن محمد بن ابراهيم، الباجي المكنى أبا مروان، (ت ٥٧٨هـ/١١٨٢م).
–المن بالامامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، السفر الثاني، تح، عبد الهادي التازي، منشورات وزارة الثقافة والفنون العراقية، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
الضبي: أحمد يحيى بن أحمد بن عميرة. (ت ٥٩٩هـ/١٢٠٣م).
–بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير لطبري، (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م).
–تاريخ الرسل والملوك، تح، محمود أو الفضل ابراهيم. لا. ت.
ابن عبد الحكم: عبد الرحمن بن عبدالله بن عبد الحكم، (ت ٢٥٧هـ/٨٧١).
–فتوح افريقية والأندلس، تح عبدالله أنيس الطباع، بيروت، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

ابن عبد ربه: شهاب الدين أحمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير ابن سالم القرطبي الأندلسي، (ت ٣٢٨هـ/٩٤٠م).

- العقد الفريد، تح، محمد سعيد العريان، مج ٣+٥، دار الفكر، بيروت، ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م.

ابن عذاري: محمد المراكشي، (ت ٦٩٥هـ/١٢٩٥م).

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح، ليفي بروفنشال، نشر احسان عباس، بيروت، ط١، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
- البيان المغرب في اختصار ملوك الأندلس والمغرب، ق٣ من تاريخ الموحدين، نشر أمبروس هويس مراندة، دار كريماديس للطباعة، تطوان، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.

أبو بكر بن العربي: محمد بن عبداللة بن محمد بم عبدالله بن أحمد العربي المعافري (ت ٥٤٣هـ/١١٤٩م).

- العواصم من القواصم، تح، محب الدين بن الخطيب، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

ابن عقيل: بهاء الدين عبد الله، (ت ٧٦٩هـ/١٣٦٨م).

- شرح ابن عقيل، ج١+٢، دار الفكر، ط١٦، بيروت، لا. ت.

ابن العماد الحمبلي: أبو الفلاح عبد الحي (ت ١٠٨٩/١٦٧٨).

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة، ١٣٥٠هـ/١٩٣١م.

ابن غازي: أبو عبداللة محمد بن أحمد، (ت ٩١٩هـ/١٥١٤م).

- الروض الهنون في أخبار مكناسة الزيتون، تح، عبد الوهاب منصور، ط، المطبعة الملكية، الرباط، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

ابن غالب: محمد بن أيوب الاندلسي، لا. ت

- فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، نشر، د. لطفي عبد البديع في مجلة المخطوطات العربية، مجلد الاول، ج٢، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.

الغبريني: أحمد بن أحمد بن عبداللة، (ت ٧١٤هـ/١٣١٥م).

- عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة، تح، عادل نويهض، دار الآفاق، بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

الغزالي: أبو حامد (ت ٥٠٥هـ/١١١١م).

- احياء علوم الدين، نشر جولد تسيهر، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

أبو الفداء: إسماعيل بن علي عماد الدين، (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م).

- المختصر في أخبار البشر، أربعة أجزاء، القاهرة، ١٣٥١هـ/١٩٣٢م.

ابن الفرضي: عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي الحافظ، (ت ٤٠٣هـ/١٠١٣م).

- تاريخ علماء الأندلس، جزآن، نشر، كوديرا، مدريد، ١٣٠٩هـ/١٨٩١م.

فيروز أبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب، لا. ت

- القاموس المحيط، أربعة أجزاء، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، لا. ت، وطباعة، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.

ابن القاضي: أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي، (ت ٩٦٠هـ/ ١٥٥٣م).

- جذوة الاقتباس في من حل من الأعلام في مدينة فاس؛ فاس، ١٠٣٩هـ/ ١٦٢٩م، نشر دار المنصور؛ الرباط، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

القرطبي: يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر النّمري القرطبي، (ت ٤٦٣هـ/١٠٧١م)

- الكافي في فقه أهل المدينة المالكي، تح، الموريتاني، نشر، مكتبة الرياض الحديثة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

ابن القطان: علي بن محمد بن يحي بن ابراهيم الكامي الحميري الفاسي، (ت ٥٢٨هـ/١١٣٤م).

- نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تح ونشر، محمود علي مكي، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.

القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي، (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)

- صبح الأعشى في صناعة الانشا، تح، احسان عباس، بيروت، لا. ت.

ابن قنفذ القسنطيني: أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب، (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٧م).

- كتاب الوفيات، تح، عادل نويهض، منشورات، دار الآفاق الجديدة، ط٤، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

ابن القوطية: عمر بن عبد العزيز بن ابراهيم بن عيسى بن مزاحم، (ت ٣٦٧هـ/٩٧٨م).

- تاريخ افتتاح الأندلس، تح، عبدالله أنيس الطباع، بيروت، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

ابن كثير الدمشقي: الحافظ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل، (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م).

- البداية والنهاية في التاريخ، ج١٢، مصر، ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م.

ابن الكردبوس: عبد الملك (ت السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي).

- كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تح، أحمد مختار العبادي، مدريد، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

المراكشي: محي الدين عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي، (ت ٦٦٩هـ/١٢٧١م)

- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ط، روزي، ليدن، ١٢٩٩هـ/١٨٨١م؛ القاهرة، ١٣٦٩هـ/١٩٤٩م.

مسكين: محمد منلامسكين، لا. ت.
- الكنز، ج٢، ط، بولاق، ١٢٨٧هـ/١٩٧٠م.
المقدسي: شمس الدين أبو عبيدالله، (ت ٣٨٧هـ/٩٩٧م).
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، القاهرة، ١٣١٨هـ/١٩٠٠م.
المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م).
- السلوك في معرفة دول الملوك، نشر، محمد مصطفى زيادة القاهرة، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م،
- المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار، ثلاثة أجزاء، دار التحرير، ط، بولاق، القاهرة، ١٢٧٠هـ/١٨٣٥م.
- اغاثة الامة بكشف الغمة، نشر، محمد مصطفى زيادة، دار الجماهير، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م.
المقّري: أحمد بن محمد التلمساني، (ت ١٠٤١هـ/١٦٣٢م
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح، يوسف الشيخ حمد البقاعي، ط١، دار الفكر بيروت، ١٤٠٦/١٩٨٦. ١٢٧٩هـ/١٨٦٢م.
المكناسي: محمد بن عثمان، (لا. ت).
- الاكسير في فكاك الأسير، تح، محمد الفاسي، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، الرباط، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.
المناوي: محمد عبد الرؤوف تاج المعارفين بن علي المناوي، (ت ١٠٣١هـ/١٦٢٢م).
- منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
مؤلف مجهول: (؟)
- الاستبصار في عجائب الأقطار، نشر سعد زغلول عبد الحميد، القاهرة، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.
مؤلف مجهول: (القرن الثامن الهجري)
- الحلل الموشية، نشر، علوش، الرباط، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.
- الحلل الموشية، تح، سهيل زكار، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
مؤلف مجهول: (؟)
- ذكر بلاد الأندلس، مخطوطة الخزانة العامة، الرباط، رقم، ٥٨، لا. ت.
مؤلف مجهول: (؟)
- مفاخر البربر، تح، ليفي بروفنسال، الرباط، ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م

مؤلف مجهول: (؟)

- أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر امرائها والحروب الواقعة بينهم، تح، لا فونتي الكوانترا، ط في مدينة مجريط، بمطبعة، ربد نير، ١٢٨٥هـ/١٨٦٧م.
- أخبار مجموعة في فتح الأندلس، وذكر امرائها- رحمهم الله- والحروب الواقعة بها بينهم، تح، ابراهيم الأبياري، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

الناصري: الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، (ت ١٣١٥هـ/١٨٩٧م).

- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح، ولدي لمؤلف جعفر الناصري، ومحمد الناصري ج١+٢، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م.

النباهي: أبو الحسن على بن عبدالله بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي المالقي النباهي، (ت ٧٩٨هـ/١٣٩٦).

- كتاب المرقبة العليا في من يستحق القضاء والفتيا (تاريخ قضاة الأندلس)، منشورات، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، لا. ت.

الهرغي: ابراهيم بن موسى بن أحمد، (ت ٣١٤هـ/١٣١٤م).

- كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، نشر، ليفي بروفنسال، باريس، ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م.

الونشريسي: أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد التلمساني (ت ٩١٤هـ/١٥٠٨م).

- أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه من النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر، نشر وتح، حسين مؤنس، مج٥؛ مجلة مدريد للدراسات الاسلامية،١٣٧٧هـ١٩٥٧م.

ياقوت: شهاب الدين الرومي، (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م).

- معجم البلدان، القاهرة، ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م، بيروت، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.

اليعقوبي: أحمد يعقوب بن جعفر، (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م).

- البلدان، نشر، دي خوية، ليدن، ١٣٠٩هـ/١٨٩١؛ القاهرة ١٣٣٠هـ/١٩١١م.

- المراجع باللغة العربية

أحمد: مصطفى أبو حنيف.

- أثر العرب في تاريخ المغرب، ط١، مطبعة دار النشر المغربية الدار البيضاء، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- القبائل العربية المغرب في عصري الموحدين والمرينيين، رسالة ماجستير، الاسكندرية، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

ارسلان، شكيب

- خلاصة تاريخ الأندلس، مكتبة الحياة، لبنان، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

أمين، أحمد

- ظهر الاسلام، ج٣، ط٢، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٣٨٢هـ/١٩٦٤م.

بدر، أحمد

- الأندلس وحضارتها، ج١، لا. ت.

بنعبد الله، عبد العزيز

- مظاهر الحضارة العربية، الدار البيضاء، ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م.

بشتاوي، عادل سعيد

- الاندلسيون المواركة، دار أسامة، ط١، القاهرة، ط٢، دمشق، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

بيضون، ابراهيم

- الدولة العربية في اسبانية، دار النهضة، بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

التوانتي، عبد الكريم.

- مأساة انهيار الوجود العربي بالأندلس، نشر وتوزيع مكتبة الدار البيضاء، لا. ت.

الجمل، شوقي عطا الله.

- المغرب العربي الكبير، ط١، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

جنون، عبدالله

- الينبوع المغربي، تطوان، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.

جودة، علي محمد.

- تاريخ الأندلس، مطابع الكتاب العربي، مصر، ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م.

حتاملة، محمد عبده.

- محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة، ط، عمان ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
- التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين، ط، عمان، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- التهجر القسري لمسلمي الأندلس، ط، عمان، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

حتي: فيليب.

- تاريخ العرب في الأندلس، مطول، ج٣، ط٢، بيروت، ١٣٦٩هـ/١٩٢٩م.

الحجي: عبد الرحمن علي.

- التاريخ الاسلامي، نشر جامعة بغداد، ط١، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦.
- التاريخ الأندلسي، نشر جامعة بغداد، ط١، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

حسن، ابراهيم

- تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ثلاثة أجزاء، ط٧، النهضة العربية، القاهرة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

حسين، حمدي عبد المنعم.

- تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٤٠٦/١٩٨٦.

حمودة، علي محمد.

- تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتماعي، ط١، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.

حوق، أسعد.

- محنة العرب في الأندلس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لا.

حميدة، عبد الرحمن

- أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر، ط١، دمشق، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

خالص، صلاح

- اشبيلية في القرن الخامس الهجري، دار الثقافة، بيروت، لا. ت.

خليل، عماد الدين

- دراسة في السيرة، مؤسسة الرسالة، دار النفائس، ط٩، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

ديوز، محمد علي

- المغرب الكبير، القاهرة، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣.

أبو رميلة، هشام.

- علاقات الموحدين الخارجية، دار الفرقان، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

الريسوني، محمد المنتصر

- الشعر النسوي في الأندلس، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

زنيبر، محمد

- تاريخ العصر الوسيط، نشر وطبع دار النشر المغربية، الدار البيضاء، لا. ت.

زيدان، عبد الكريم.

- المدخل لدراسة الشريعة الاسلامية، مكتبة القدس، مؤسسة الرسالة، ط٩، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

سالم، عبد العزيز

- تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٩م.
- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار المعارف، بيروت، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.
- تاريخ مدينة المرية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٣٨٩/١٩٦٩م.
- تاريخ المغرب الكبير، العصر الاسلامي، القاهرة، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.
- المساجد والقصور سلسلة اقرأ، رقم ١٩٠، القاهرة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

سائح، حسن

- الحضارة المغربية عبر التاريخ، الدار البيضاء، ط١، ١٣٤٥/١٩٧٥م.

السعيد، محمد مجيد السعيد.

- الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، منشورات وزارة الثقافة والاعلام العراقية، بغداد، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠.

السامرائي، خليل ابراهيم صالح.

- الثغر الأعلى الأندلسي، مطبعة أسعد، جامعة بغداد، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

شلبي، أحمد

- تاريخ التربية الاسلامية، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، ١٣٧٤هـ/١٩٥٤.
- التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية، خمسة أجزاء، النهضة المصرية، القاهرة ١٣٩١/١٩٧٠.
- كيف تكتب بحثا أو رسالة، مكتة النهضة المصرية، القاهرة، لا. ت.

الشعراوي، أحمد ابراهيم

- الامويون أمراء الأندلس الأول، القاهرة، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

- هشام الرضا، القاهرة، لا. ت.

طلفاح، خيرالله.

- صلاح الدين الأيوبي والحروب الصليبية، ج١، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٤٠٣/١٩٨٣م.

عاشور، سعيد عبد الفتاح.

- اوروبا العصور الوسطى، التاريخ السياسي، ج١، ط٤، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.
- محاضرات في التاريخ العباسي والأندلسي، كريدية اخوان، بيروت، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

عامر، أحمد

- الدولة الصنهاجية، الدار التونسية، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

العبادي، أحمد مختار

- سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية، مج٥، مدريد، ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م.
- الصقالبة في اسبانية، مدريد، ٣٧٧هـ/١٩٥٧م.
- صور لحياة الحرب في المغرب والأندلس، مجلة البيئة، الرباط، ١٣٧٢-١٣٨٣هـ/١٩٦٢-١٩٦٣م.
- في تاريخ المغرب والأندلس، مجلة الاسكندرية، لا. ت.

العبادي، عبد الحميد.

- المجمل في تاريخ الأندلس، القاهرة، ١٣٨٢هـ/١٩٨٥م.

عبد البديع، أحمد لطفي.

- الاسلام في اسبانية، المكتبة التاريخية، ط١، القاهرة، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

عبد العواد، حسن علي حسن.

- الحياة الادارية والاقتصادية والاجتماعية في المغرب الاقصى في القرنين الخامس والسادس الهجريين، القاهرة، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

العزاوي، عباس.

- تاريخ النقود العراقية، نشر وزارة المعارف، بغداد، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

عباس، احسان.

- تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، دار الثقافة، بيروت، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.

عنان، محمد عبدالله.

- دولة الاسلام في الأندلس من الفتح الى نهاية غرناطة، ط٢، القاهرة، ١٣٧٥/١٩٥٥م.
- عصر المرابطين والموحدين في المغرب، ج١+٢، القاهرة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.
- عهد الفتنة الكبرى حتى نهاية عبد الرحمن الناصر، ط١، القاهرة، ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م.
- مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام، ط٤، القاهرة، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.
- نهاية الأندلس، ط٢، القاهرة، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

عتيق، عبد العزيز.

- الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

علي، محمد كرد.

- غابر الأندلس وحاضرها، المكتبة الأهلية، لا. ت.

الغناي، مراجع عقيلة.

- سقوط دولة الموحدين، منشورات جامعة بنغازي، ليبيا، ط١، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

الفاسي، محمد بن أحمد.

- المورد المنى (مخطوطات بالخزانة العامة بالرباط).

الكاتب، سيف الدين.

- أعلام من المغرب والأندلس، مؤسسة عز الدين، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

لقبال، موسى.

- المغرب الاسلامي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ق٣، الجزائر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

ماجد، عبد المنعم.

- الاطلسي التاريخي، دار الفكر العربي، بيروت، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.

محمد، يوسف نجم.

- كتاب الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة، مجلة الابحاث، ج١، السنة ٤١، آذار، ١٣٨١هـ/١٩٦١م.

محمود، حسن.

- قيام دولة المرابطين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م.

مصطفى، عدنان صالح.

- في الشعر الأندلسي، دار الثقافة، الدوحة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

مكي، محمد علي.

- مدريد العربية، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، لا. ت.

ملين، محمد رشيد.

- عصر المنصور الموحدي، مطبعة الشمال الافريقي، ومطبعة مجريط، لا. ت.

ملا، أحمد علي.

- أثر العلماء المسلمين في الحضارة الاوروبية، دار الفكر، الجزائر، لا. ت.

مؤنس، حسين.

- فتح العرب للمغرب، نشر مكتبة الآداب، القاهرة، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.
- فجر الأندلس، نشر الشركة العربية للطباعة والنشر. القاهرة، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.

نجاة باشا،

- التجارة في المغرب الاسلامي من القرن الرابع الهجري- القرن الثامن الهجري، تونس، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

نجار، عبد المجيد.

- المهدي بن تومرت، دار الغرب الاسلامي، ط١، القاهرة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

النقشبندي، ناصر السيد محمود.

- الدينار الاموي والعباسي، ج١، مطبعة الرابطة، بغداد، ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م.
- الدرهم الاسلامي، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

هيكل، أحمد.

- فتح العرب للمغرب، نشر مكتبة الآداب، القاهرة، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.

اليوسف، عبد العزيز.

- العصور الوسطى الاوروبية، بيروت، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

الموسوعات:

ثابت، محمد

- دائرة المعارف الإسلامية، لجنة الترجمة، القاهرة، ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م، ١٣٦٣هـ/١٩٤٣م.

علام، محمد مهدي.

- دائرة المعارف الإسلامية، خمسة عشر جزءاً.

عزبال، محمد شفيق.

- الموسوعة العربية الميسرة، دار النهضة، بيروت، لبنان، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.

وجدي، محمد فريد

- دائرة معارف القرن العشرين، دار المعرفة، ط٣، بيروت، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

المراجع المترجمة

أشباخ، يوسف (القرن التاسع عشر الميلادي).

- تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، نشر، عنان، ج١+٢، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٣٥٩هـ/١٩٤٠، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

اوليري، ديلاسي.

- تاريخ الحضارة الاسلامية، تر، حمزة طاهر، دار المعارف، ط٢، القاهرة، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

بالباس، ليوبولدتوريس.

- الفن المرابطي والموحدي، تر، سيدي غازي، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

بالنثيا، أنخل جنثالث.

- تاريخ الفكر الأندلسي، تر، حسين مؤنس، ط١، النهضة المصرية القاهرة، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.

بروفنسال، ليفي.

- الاسلام في المغرب والأندلس، تر، عبد العزيز سالم، القاهرة، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

- الشرق الاسلامي والحضارة الأندلسية، معهد الجنرال فرانكو للابحاث العربية الاسبانية، تطوان، ١٣٧١هـ/١٩٥١م.

بروكلمان، كارل.

- تاريخ الشعوب الاسلامية، تر، نبيه فارس، دار العلم للملايين، ط٤، بيروت، ١٣٨٥، ١٩٦٥م.

تراند، ج.

- تراث الاسلام، جزءان، تر، حسن زكي، لجنة الجامعيين للنشر، القاهرة، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

جب، سير هاملتون.

- علم التاريخ، تر، دائرة المعارف الاسلامية، ط١، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

جوليان، شارل اندريه.

- تاريخ افريقية الشمالية، ثلاثة أجزاء، تر، محمد فرالي، ط٢، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م. الدار التونسية للنشر، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

جيروم وجان وطارو:

- أزهار البساتين في أخبار المغرب والأندلس على عهد المرابطين والموحدين، تر، محمد الفاسي، ط، الرباط، ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م.

درزي، رينهارت درزي (١٣٨٢/١٨٨٤).

- تاريخ مسلمي اسبانية، ج١، تر، حسن حبشي وآخرون، القاهرة، ١٩٦٣م/١٣٨٣هـ

دومنيك وجانين سارديل.

- الحضارة الاسلامية في عضرها الذهبي، ج١، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٨٠م/١٤٠٠هـ.

ديردي، ادوارد.

- تاريخ الحضارات، تر، يوسف داغر، فريدم داغر، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٦٩م/١٣٨٩هـ.

ديمالد.

- الفنون الاسلامية، لم أتبين المترجم لتآكل الصفحات الاولى من الكتاب.

ديماند، (م. ي).

- الفنون الاسلامية، تر، أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم احمد فكري، القاهرة، ١٩٥٨/١٣٧٨هـ.

ديلاسي، اوليزي.

- الفكر العربي والكتابة في التاريخ، تر، تمام حسان، راجعه محمد مصطفى حلمي، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦١/١٣٨١هـ.

روم، لاندو.

- الاسلام والعرب، تر، منير بعلبكي، دار العلم للملايين، ط١، بيروت، ١٩٦٢/١٣٨٢هـ.

رينان، ارنست.

- ابن رشد والرشدية، تر، عادل زعيتر، باريس، ١٨٨١/١٢٩٩هـ.

سيديو، العلامة ل. أ. سيديو.

- تاريخ العرب، تر، عادل زعينشر، ط٣، القاهرة، ١٩٥٦/١٣٧٦هـ

شاخت ويوزورث.

- تشراث الاسلام، ثلاثة أجزاء، تر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٨/١٣٩٨هـ.

عروي، د. عبدالله.

- تاريخ المغرب، محاولة تركيب، تر، ذوقان قرقوط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٧/١٣٩٧هـ.

فشر، هـ. أ. ل.

- تاريخ اوروبة في العصور الوسطى، تر، الباز العربي، القاهرة، ١٩٦٦/١٣٨٦.

لوبون غستاف.

- حضارة العرب، تر، عادل زعيتر، دار احياء الكتب المصرية، ط٢، القاهرة، ١٩٥٦/١٣٧٦هـ.

لودر، دروثي لودر.

- اسبانية شعبها وأرضها، تر، طارق فوده، القاهرة، ١٩٦٥/١٣٨٥هـ.

لومبار، موريس.

- الاسلام في فجر عظمته، تر، حسين العودات، مراجعة علي الخش، لا، ت.

لويس، ارشيبالد.

- القوى البحرية والتجارية، تر، أحمد محمد عيسى، تقديم محمد شفيق غربال، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٥٠/١٣٧٠هـ.

مورينو، مانويل جومث.

- الفن الاسلامي في اسبانية، تر، احمد لطفي، الدار العربية، لا. ت.

ميتز، آدم.

- الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، تر، محمد عبد الهادي أبو ريده، دار الكتاب العربي، ط٤، بيروت، ١٩٦٧/١٣٨٧هـ.

ميراند: أمير سيواوتي.

- التاريخ السياسي للدولة الموحدية، تر، الاستاذ محمد بن تاويت وابراهيم الكتاني، تطوان، ١٩٦١/١٣٨١هـ.

نوغالس، سلفادور غومس.

- الفلسفة الاسلامية، وتأثيرها الحاسم في فكر الغرب اثناء العصور الوسطى، تر، عثمان الكعاك، الدار التونسية للنشر، ١٩٧٧/١٣٩٧هـ.

ويدغري، البان ويدغري.

- التاريخ وكيف يفسرونه، تر، عبد العزيز جاويد، القاهرة، ١٩٧٢/١٣٩٢هـ.

المراجع باللغة الانجليزية والاسبانية

1. Altamira, R:

- A history of Spain from the Beginings to the present day Translated by munaLee. Copyright, 1949/1369, by D. van Nostrand company canad, Ltd.

2. Barbour. N:

- Asurvey of north west africa (The maghrib) Oxford University Press, London, 1959/1379هـ

3. Barker. E and Clerk G:

- TheEuropean inheritance, 3 volumes Oxford, 1954/1374هـ.

4. Barnard. L and Hodges, T.B:

- Reading in European History, New-york, 1958/1378هـ.

5. Bell, A:

- Less Benou Ghanya Patis, 1903/1321.

6. Brockelmann, Carl:

- History of Islamic people, Translated by Joel carmichael and moshe parlmann Routledge and Regan Poul, London & Henley.

7. Bury: JB:

- The cambridge Medieval, History 8 Vol, cambridge, 1967/1387, 1936/1355.

8. Conde J-A: History of the Dominion of the Arab in Spain, Vol, I. London, 1899, 1317.

9. Cheijne: ANwar

- Moslem Spain, Jbs.
- History and Culture, the University of Minnesota Press Minneq, polis, 1973/1392هـ.

10. Dozy and stokes, E,

- Spainish Islam, London, 1913/1332هـ.
- History of the moslems in spain.

11. Hoyt Robart.

- Europe in the Middle Ages, London, 1957/1377هـ.

12. Hulme: M. E.

- The middle ages, Newyork, Hery Haltanel, company, 1936/1355هـ.

13. Ibars, Ap:

- Valencia arabe, valencia, 1901/1319هـ.

14. Juan Vernet: La Cultura, hispanoarabe, en Oriento, Yoccidont, de Editorial Aril, Barcelona, 1978/1398.

15.Lewis: Barnard.

- Islamic history, London, 1978/1398.

16. Livermore: Harald.

- A history of Spain, London, 1960/1380.

17. Meakin. B:

- The morrish empire, London, Newyork.

18. Norman: Daniel.

- The Arabs and medieval Europe, London and, Newyork, Libririe du liban.

19. O'callaghan, F, J:

- A history of medieval Spain, copyright, 1975/1395, Cornall University, Ithaca, Newyork.

20. **Rachel Arie: Historia DE Espana, Espana Musulmana [siglos VIII-XV] Espana Barcelona, 1982/1402.**

21. **Scott, SP:**
   - A history of the moorish empire in Europe, vol, 1, II. Philladelphia, London, 1904/1322هـ.

22. **Sephen son, G:**
   - Medieval History [Europe from the second to the sixteenth century]. Harper and brothers, Publishers, Newyork and London.

23. **Smith: Rhea marsh, Spain and Modern history, Michigan, 1965/1385.**

24. **Thompson, W. J:**
   - The middle ages, 300-1500, vol,II, III, Printed in the united states of America by the plimpon Press.

25. **Trend: JBrande,**
   - The Civilization of Spain, London, 1967/1387.

26. **W, Lanax: Derak.**
   - The Reconquest of Spain, London and Newyork.

فهرس الاعلام

(أ)	ابن عطيه
أبو بكربن عمر	ابن يزد عسنيت
اسحاق بن علي	ابو بكر بن الجبر
احمد بن محمد	ابن الجياني
ابن القاسم	اسحاق بن علي
اشهب	ابو الحسن
اصبغ	ابو الغمر
ابو عبدالله بن الفراء	ابو بكر بن العربي
ابن المنذر	ابن وهيب
ابن وزير	ابن الريق
ابن اضحى	ابو جعفر الهنتاني
ابن هود	ابن ملحان
ابو عبدالله الحضرمي	ابن طاهر
ابو بكر الشاشي	ابن همشك
ابن مخلوف	ابن سوار
ابن واجاج	ابن تيجيت
ابن حمدين	اخيل
ابن تاشفين	ابن ابي جعفر
ابن خلكان	ابن دهري
احمد بن قسي	ابن عبيد
ابن خلدون	ابن صاحب الصلاة
ابو بكر بن تنجيت	ابو عثمان بن عيسى
ابن جبير	ابن مقدام
ابن ابي زرع	ابو الحجاج بن مردنيش
ابو بكر بن مازوا	ابن القاسم
ابراهيم بن علي الكومي	ابو حفص بن عبد المؤمن
ابو حفص	ابن الرميمي
ابو بكر بن علي	ابو عبدالله بن ميمون
ابو اسحاق	احمد الصقلي

ابن الابار	ابن بشكوال
اسكندر	اسماء العامريه
ابن طفيل	ابن حبوس
ادريس	ابن المنخل
ابن المعلم	ابن باجه
ابن جلداسن	ابن هرودس
اسماعيل	ابن حبيش
ابو العباس	ابن مضا
ابو اسحاق	ابو علي الاشيري
ابراهيم بن الفخار	ابن محشوّه
أنوسان	ابو جعفر الحميري
ابن قادس	احمد بن سيد
ابن جامع	ابن قزمان
ابن نصر	احمد بن طلحة
ابو زكريا	ابن حزمون
احمد الحوفي	ابن زهر
ابو بكر الحذاء	ابو بكر الزهري
ابن واجاج	ابو حامد الغرناطي
ابن باسّه	احمد بن حسان
ابو بكر الطرطوشي	(ب)
ابن دحيه	بيدق
ابن الجد	بشير
ابو بكر الغافقي	براز بن محمد
ابو دبوس	بطروجي
ابن سعيد	البيوج
ابو علي بن يبقى	بيدرو
ابن رشد	البياسي
ابو الحسن بن الربرتير	بلاسكودي
احمد الصقلي	البابيريث
ابو الليث الصفور	بنيامين
احمد البطروجي	

(ت)	(س)
تاشفين	سير
(ج)	سدراي
جومز	سيف الدرله
جرانده،	سوسي
جيرالدو	سليمان بن محمد
(ح)	سعيد بن عيسى
الحسين بن حسون	سانشو
حفص	سويرو
الحسن	سانت
الحافظ	السعيد الموحدي
حباب	ساحر
حفصه	سر الحسن
حمدة	سلمان الاندلسي
(خ)	سليمان الموحدي
خيار بن الجياني	(ش)
الخشني	الشرقي
خايمي	شانجة
(د)	شمس الضحى
دياجو	الشلبية
دون رودريجو	(ص)
(ر)	صلاح الدين
ريمونديز	الصديق بن العربي
ربرتير	صفيه
ريمند	(ط)
روان	طرطوشي
ريحان	(ظ)
رشيد	الظافر
(ز)	
زيان	

(ع)	عمر المرتضى
عبدالله بن ياسين	علي بن الغازي
علي بن يوسف	عبد المؤمن بن علي
عزيز بن الناصر	عبدالسلام الكومي
عمر بن يحيي	عنبر
عمر بن ازناج	عمر الشلوبين
عبدالله فلويات	عبدالرحمن القالمي
عبد العزيز	عياش القرطبي
عيسى بن تومرت	عيسى الجزولي
عبد الرحمن بن زجو	عبدالله الجياني
عبد الواحد الشرقي	عيسى العبدري
علي بن عيسى	علي الانصاري
عمر بن صالح	علي الجياني
عيسى بن ميمون	عبدالله بن محمد
عياض	عبد الواحد المراكشي
علي بن ميمون	(غ)
عثمان ابو سعيد	الغمر
عبدالله بن مردنيش	غانم
عبدالله بن سليمان	(ف)
مروان بن عبدالله	الفونسو
عبد الله بن سعد	فندة
عبر الرحمن بن عياض	الفارروردريكيت
عبدالله بن شراحيل	فرديناند
عبد الله بن أبي حفص	فرنانده
عبدالله بن عبد المؤمن	فرناند
علي بن عبد المؤمن	(ق)
عبد الرحمن بن أبي مروان	قمر
عبد الله بن جامع	قمط
عمر بن سحنون	(ك)
علي بن غانية	كوسيران
عبد الله بن اسحاق	كافور

(ل)

لوشي

اللورقي

(م)

المنتصر الحفصي

مالك

محمد الماسي

محمد المخزومي

محمد المعلم

محمد بن الحاج

محمد بن الفخار

محمد بن المنذر

محمد بن تانكالا

محمد بن تومرت

محمد بن تيفوت

محمد بن حواء

محمد بن سعد

محمد بن عبد المؤمن

محمد بن علي

محمد بن عيسى

محمد بن مروان

محمد بن ميمون

مرتضا

موسى المارتلي

موسى بن سعيد

موسى بن ميمون

ميمون بن بدر

مينوس

(ن)

الناصري

نونه

الناصر

نزهون

(ي)

يحيى الفهري

يحيى بن اسحاق

يحيى بن الصحراوي

يحيى بن الناصر

يحيى بن تاشفين

يحيى بن تاكسفت

يحيى بن عبدالمؤمن

يحيى بن علي

يحيى بن عمر

يحيى بن غانية

يحيى بن هبيرة

يحيى بن يغمور.

يصلاتن

يعقوب القديس

يعقوب المنصور

يعيش المهندس

يوسف البطروجي

يوسف بن الناصر

يوسف بن تاشفين

يوسف بن تيجيت

يوسف بن سليمان

يوسف بن عبد المؤمن

يوسف بن مخلوف

يسف بن مردنيش

يوسف بن وانودين


يبتان

فهرس البلدان والمدن (الأماكن)

(ح)	سجلماسة	طلبيرة
حصن	السبيكة	طرّش
حلال	سبطاط	(ع)
حدارّة	السام	العراق
الحمة	سنغال	العدوه
الحجاز	سردانية	عفرا
جامع حسان	(ش)	عنابه
حلب	شلب	عكا
(خ)	شرق	(غ)
خودار	الشام	غرناطة
خوارزم	شريش	الغرب
(د)	شنتمرية	غماره
درن	شنترين	(ف)
دانية	شراجب	فاس
درعة	شذونة	فتوح
دمشق	شرانية	فندوق
(ر)	شقر	فرنسا
رباطات	شلمنقة	فرال
رباط	شلبترّة	مدينة الفتح
رنده	شاطبة	فراكسينت
ربض	(ص)	(ق)
رباح	صقلية	قرطبة
روما العظمى	(ط)	قشتالة
(ز)	طرابلس	قرمونة
زوايا	طنجة	قصر
(س)	طريف	قلعة
سرقسطة	طلياطة	قادس
سبتة	طبيرة	قلمرية
سلا	طرطوشة	قرقشونة
سوس	طرّكونه	قيروان
سيرات	طليطلة	قونقة

القنطرة	مرج الرقاد	(ي)
قسطنطينية	مرسية	يابرة
قيجاطة	مرسيليا	
قطالونية	مزمّة	
قفصة	مساجد	
القاهرة	مصر	
قونية	معمورة	
قرطاجنة	مكة	
قدس	مكناسة	
(ك)	ملالة	
كتندة	ملستير	
كرّس	موصل	
(ل)	ميرتلة	
لبلبة	ميورقة	
ليون	(ن)	
لورقة	ندورمة	
لاردة	نفيس	
لوشة	نا ار	
(م)	ناضوش	
المدينة	نول	
المرية	(هـ)	
المشرق	هزرجة	
المغرب	هيلانة	
المهدية	هسكورة	
حصن المعدن	هنجاريا	
ماردة	(و)	
مالقة	ونشريس	
مجريط	وهران	
مدرسة	وجدة	
مديونة	وادي	
مراكش	وبذة	

المحتويات


الموحدون في الأندلس
المغرب والأندلس ما بين سنتي
(٥٤١/٦٦٧هـ - ١١٤٦/١٢٦٨م)
داود عمر سلامة عبيدات
دار الكتاب الثقافي
Bibliotheca Alexandrina
0518777
دار الكتاب الثقافي
للنشر والتوزيع والدعاية والإعلان
الأردن - اربد - شارع الجامعة
تلفاكس ٠٠٩٦٢٢٧٢٥٠٣٤٧
٠٠٩٦٢٢٧٢٦١٦١٦
دار الوفاء
دار المتنبي